

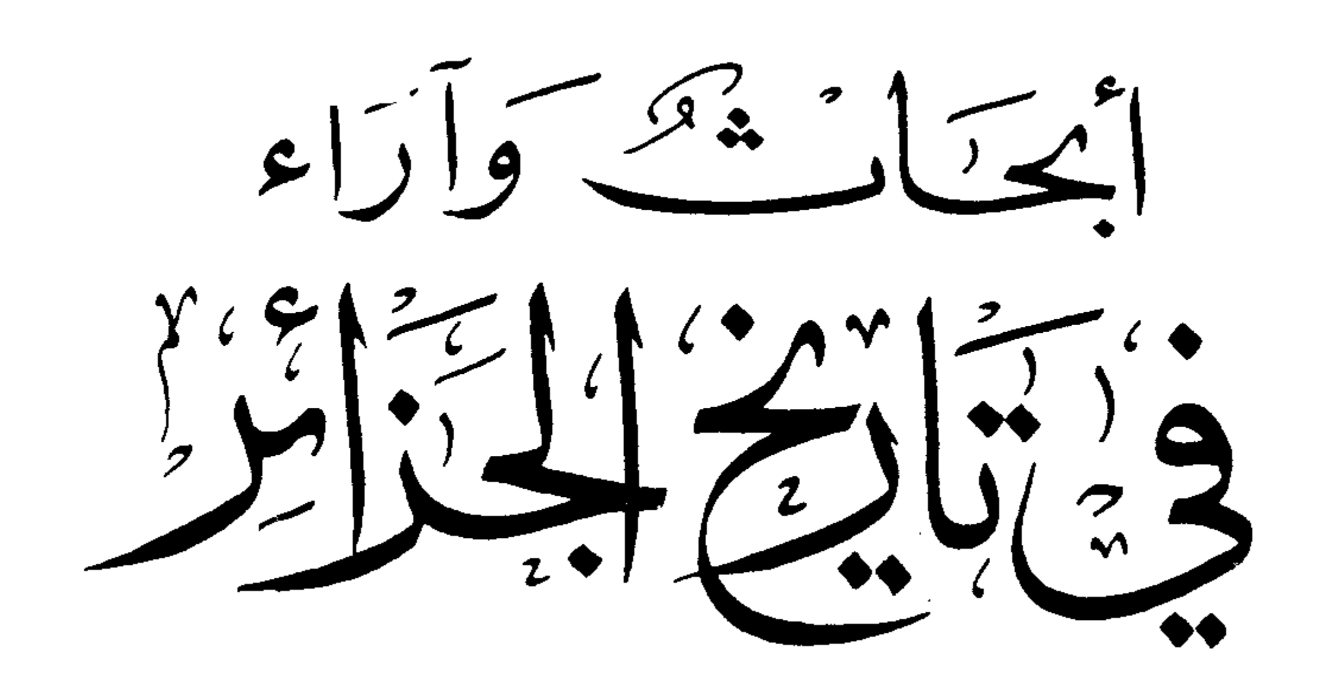
الدكتور أبو القاسم سعد الله

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الأول

دار البصائر
الجزائر

الدكتور أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر



الجزء الأول



دار البصائر
الجزائر

طبعة خاصة

دار البصـائـر

2007

ردمك : 1 - 30 - 887 - 9961 - 978

الايداع القانوني : 2007 - 3315

دار البصــــائــــر

للنشر والتوزيــــع

50 شارع طرابلس – حسين داي - الجزائــــر

الهاتف/فاكس : 27/25 – 36 – 77- 021

أبحاث وآراء
في تاريخ الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

عندما صدر الجزء الأول من موسوعة (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) منذ أكثر من عشر سنوات ، لم أكن أتوقع أن العمر سيمتد بي إلى أن يصدر الجزء الثالث ، وربما الرابع ـ ان شاء الله ـ . كنت أقوم بأبحاثي ثم ألقيها أو أنشرها ، ثم أجمعها في كتاب لكي ينتفع بها من لم يسمعها ملقاة أو يقرأها في جريدة أو مجلة . ولذلك يصدر الآن الجزء الأول في طبعته الثالثة ، والجزء الثاني في طبعته الثانية ، والجزء الثالث في طبعته الأولى . وقد سبق طبع الأول والثاني في الجزائر ، أما الثالث فيطبع في المشرق لأول مرة . واني سعيد الآن بطبع الأجزاء الثلاثة ونشرها في الساحة العربية التي طالما حرمت من الانتاج الجزائري ، تاريخاً وأدباً وفناً .

سيلاحظ القارىء العربي أن اهتمامنا بقضايا التاريخ قد لا يكون هو نفس اهتمامات المثقفين في المشرق . ويرجع ذلك إلى أن تاريخ الجزائر قد تعرض الى تشويه فظيع على أيدي كتاب (المدرسة الاستعمارية) في غياب (مدرسة وطنية) موازية . وحين حصلنا على استقلالنا كان علينا أن نصفي تاريخنا من روح الاستعمار وأن نلجأ في ذلك الى العلم والمنهجية واللغات الأخرى ، لأن مؤرخي الاستعمار قد استعملوا كل ذلك ضدنا .

كما سيلاحظ القارىء العربي أن هناك اهتماماً في هذه الموسوعة

بالتراث العربي الاسلامي للجزائر . ذلك أن من سيئات العهد الاستعماري هو اهمال الرصيد الثقافي الذي أسهم فيه كل الجزائريين عبر العصور . وهو الرصيد الذي يشهد على تواصل الرسالة الحضارية للأمة العربية ـ الاسلامية . وان بعث هذا الرصيد اليوم يدخل في نظرنا ضمن تأصيل مستقبل الجزائر الذي تذهب بعض المذاهب الى أنه مستقبل يقوم على التعددية اللغوية والثقافية ، ومن ثمة نفي الأصالة العربية والاسلامية للجزائر كلها .

وما دام لكل جزء من الموسوعة مقدمة خاصة به ، فلأكتف هنا بدعوة المؤرخين العرب ، ولا سيما طلاب التاريخ في المعاهد والجامعات ، الى الاهتمام بتاريخ الأمة العربية ـ الإسلامية في شموليته ، وإلى اعادة النظر في المعطيات التاريخية التي يقدمها الآخرون عنا ، وإلى التسلح بالمناهج العلمية لمواجهة تحديات المرحلة . وإذا كان من حسن حظ القارىء العربي في المشرق أنه لا يقرأ عادة الا ما كتبه علماء بلاده ، فانه من سوء حظ القارىء المغاربي عموماً ، والجزائري خصوصاً ، أنه قلما يقرأ التاريخ بأقلام علماء بلاده ، فمدرسة التاريخ المكتوب بالعربية في الجُزائر ، مثلاً ، ما تزال في طور التكوين . ولكن هذا ليس دعوة مني لغلق الأبواب على ما كتبه الآخرون عنا ، ولا احتكار التاريخ من قبل فرد أو فئة ، ولكنها فقط دعوة إلى أن يتحصن القارىء العربي ـ في المشرق وفي الجزائر على السواء ـ بشخصيته الحضارية ثم ينطلق في ميدان المعرفة الرحب ، دون عقدة .

ولا يسعني الا أن أهدي هذه الطبعة بالذات التي تضم لأول مرة أجزاء الموسوعة الثلاثة في طبعة واحدة ، الى كل الباحثين العاملين على ترسيخ تقاليد التواصل الحضاري بين المغرب العربي والمشرق ، والى الناشرين الذين يساعدونهم على أداء هذه الرسالة المقدسة . وفق الله الجميع .

أبو القاسم سعد الله

الجزائر في 19 فبراير 1990

مقدمـــة الطبعـة الأولى

هناك مواقف وتفاسير كثيرة في تاريخ المغرب العربي تحتاج الى تصحيح واعادة نظر . فمن الشائع عندنا مثلا أن البربر قد قاوموا « العـرب » مقاومة شديدة أيام الفتح الاسلامي . وقد روج لهذه الفكرة الجهلة من المؤرخين الأولين وتناقلتها الرواة بدون تساؤل أو تمحيص . وعندما جاءنا الاستعمار الأروبي الحديث (حديث بالنسبة للاستعمار الأروبي القديم أو الروماني والبيزنطي والوندالي) وجد في تلك الرواية مادة خصبة فراح مؤرخوه يضخمونها ويزيدون عليها وينسجون من حولها الأساطير ، مستهدفين احداث الشقاق بين أبناء البلـد الـواحد لكي يستريحوا هم ويطول بهم المقام .

وقد آن الأوان لتصحيح هذا الخطأ الشائع ودحض الروايات المغرضة . ذلك أن الصراع لم يكن بين « بربر » و « عرب » ولكن بين البيزنطيين والمسلمين . وقد ابتدأ الصدام بين الطرفين لا في شمال افريقية ولكن في الشام ثم امتد الى مصر فليبيا فبقية افريقية الشمالية . وكان ذلك الصدام صداما « دوليا » بكل ما في هذا التعبير من معنى بمفهومنا الحديث . فالدولة البيزنطية ، التي كانت تستعمر شمال افريقية أيضا كانت تمثل القوة القديمة التي بدأها الضعف بينما الدولة الاسلامية الفتية كانت تمثل القوة الجديدة المنافسة . وكان لابد من تصفية الحساب بين القوتين لأن البحر الأبيض والمنطقة الجغرافية الممتدة من الشام الى جبل طارق لا تتسع لهما معا . فالحروب التي جرت على الساحة المذكورة لم تكن

بين الفاتحين المسلمين وأهل تلك البلاد ولكنها كانت بين الفاتحين المسلمين والقوة البيزنطية المتسلطة على تلك البلاد والتي كانت تخشى ضياع نفوذها الاقتصادي (الاستعمار) والمدني (المسيحي) اذا انتصر المسلمون .

حقا ان سكان الشام الأصليين وسكان مصر وسكان شمال افريقية قد أبدوا مقاومة لطلائع الفتح الاسلامي ولكن مقاومتهم كانت بالتبعية لارادة بيزنطة وليست مقاومة ذاتية . ولو كان الامر يتعلق بمقاومة ذاتية (أو دفاعية وطنية) لكان على هؤلاء السكان أن يحاربوا قبل كل شيء بيزنطة نفسها باعتبارها الدولة المستعمرة المتسلطة عليهم لا أن يحاربوا الى جانبها. ثم انهم ما داموا قد حاربوا الى جانبها فلا يمكن أن تسمى حربهم حربا وطنية أو تحريرية. ويذكرني موقف سكان بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية من القوتين الاسلامية والبيزنطية بموقف أهالي مصر من الصراع الذي كان بين الانكليز وفرنسا النابوليونية ، اذ لا يمكن أن يقال ان المصريين عندئذ كانوا يحاربون الفرنسيين باسم الوطنية والتحرير ، ذلك أنهم في الواقع قد وجدوا أنفسهم في صراع دولي لا ناقة لهم فيه ولا جمل. ونفس الشيء يقال على موقف أهالي شمال افريقية أثناء الحربين العالميتين عندما حاربوا الى جانب فرنسا ضد ألمانيا . فهل يمكن أن يقال مثلا أن الجزائريين قد حاربوا عندئذ باسم الوطنية أو التحرير ضد ألمانيا ؟ لا أظن أن أحدا يقول بذلك ، اذ من المعروف للجميع أن فرنسا قد أجبرتهم على الدخول معها في حرب ضد أعدائها تماما كما حارب بعض أجداد الجزائريين الفاتحين المسلمين بالأمس تبعا لبيزنطة .

ومن جهة أخرى تؤكد الروايات والأبحاث الجديدة أن البربر ليسوا جنسا أو أمة خاصة وان العبارة في حد ذاتها لا تعني شرفا يعتزون به ولا حضارة ينتمون اليها بل تعني الضعة والمرتبة الدنيا بالقياس الى الرومان الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ممتازين . فعبارة (البربر) على هذا النحو لا تعني سكان شمال افريقية فحسب بل تعني كل الشعوب ذات الدرجة

الثانية فى الحضارة ، انها تعني الوحشية فى التصرف والسلوك والعجمة فىاللسان والمنطق.وقد تخلص منها الاروبيون الذين وصفوا بها فأصبحوا « ألمانا » و « فرنسيين » و « سويديين » ونحو ذلك ، وتخلص منهـا انشرقيون فأصبحوا « فرسا » و « هنودا » و « ومصريين » ونحو ذلك ، ولكنها لصقت بأهالي شمال افريقية حتى كأنها ظلت علما عليهم . لماذا ؟ هل لأن كل الشعوب المذكورة قد اسست حضارة خاصة بها ما عدا أهل شمال افريقيه ؟

وان المرء ليستغرب عندما يقارن بين ما اعتاد الباحثون أن يصفوا به « الانسان العربي » « والانسان الأمازيغي » فالأوصاف هنا وهناك تكاد تنطبق . فكلاهما حسب الروايات محب للحرية الى حد كبير ، وكلاهما ديموقراطي فى أحكامه ، وكلاهما يكره السلطة والتسلط ، وكلاهما أناني الى حد المبالغة . فاذا ما أضيفت هذه الأوصاف الى ما يوجد فى لهجات الأمازيغ من ألفاظ عربية كثيرة (قبل الاسلام وبعده) واذا ما أضيف كل ذلك الى كثير من الأوصاف والسمات الخلقية والخلقية ، ألا يكون كل ذلك مدعاة الى التأكيد من جديد على النظرية القائلة بأن الأمازيغ هم عرب متقدمون فى نزوحهم الى شمال افريقية وان موجة الفتح الاسلامي العربي كانت فرصة التقى بها أبناء العمومة على أرض افريقية بعد أن كانوا قد التقوا على أرض الشام على بعض الروايات او على أرض اليمن عـلى بعض الروايات الأخرى ؟

ولعل ما يؤكد هذا سرعة اعتناق الأمازيغ للاسلام وتبنيهم لغة القرآن الكريم ، ذلك ان الاسلام قد حرر الأمازيغ مـن الاستعمار البيزنطي وأعطاهم لأول مرة فى تاريخهم الطويل حكم أنفسهم بأنفسهم.فمنذدخول الاسلام أصبحوا « أحرارا » لفظا ومعنى . فالامارات الاسلامية التي ظهرت عندئذ كانت امارات محلية يرأسها أمراء من أهل البلاد . وقد أصبحوا يديرون شؤون أنفسهم بأنفسهم فى السياسة والاقتصاد داخل

الحضارة العربية التي ترمز اليها اللغة ويباركها القرآن . ومعنى هذا أن الاسلام قد منح الاستقلال والحرية لشعب هذه المنطقة ، ومن ثمة تسقط حجة من يدعى ان العرب قد « استعمروا » شمال افريقية اذ لا يكاد يوجد من الحكام الذين تعاقبوا على امارات الجزائر والمغرب وتونس من يمكن أن نجزم بأنه « عربي » بالمعنى الذي يقصدونه . كما تسقط حجة من يزعم ان « الاسلام » قد غزا أهل هذه البلاد لأننا رأينا أن هؤلاء لم يتمتعوا بنعمة الحرية والاستقلال والاسهام الحضاري الا فى ظل الاسلام فلا الرومانيون ولا الونداليون ولا البيزنطيون قد سمحوا لأهل البلاد بتطوير حضارتهم وشخصيتهم السياسية أو بظهور كيانهم الدولي .

ومن الأخطاء الشائعة أيضا ما يتناقله الناقلون عن بني هلال . فهم يروون الأخبار بل الأساطير عن همجيتهم ووحشيتهم . فمن قائل انهم كالجراد الذي أكل الأخضر واليابس . ومن قائل انهم كالبرابر الشمالية الذين خربوا العمران وشوهوا الحضارة . لماذا ؟ لأنهم عرب أو أعراب ؛ ولأنهم جاءوا من الشرق لا من الغرب، ولأنهم اختلطوا بالسكان وتزاوجوا معهم ونشروا بينهم اللغة العربية والعادات الشرقية . وقد قال عنهم ابن خلدون كلاما ما يزال محل نظر ولكن الذين يهمهم الأمر من الباحثين على الدس للعرب ومن الشعوبيين والمستعمرين تبنوا هذه الرواية وراحوا يروجون لها ويبثونها فى كتبهم ومؤتمراتهم كأنها وحي منزل . والواقع أن مساهمة بني هلال فى تاريخ المغرب العربي ، بقطع النظر عن وجهها السياسي ، كانت خيرا وبركة على المنطقة . فقد أفادتها ودعمت فيها الوجود العربي بالمفهوم الحضاري . ولم يكن وجود بني هلال وجودا سياسيا ولا عسكريا لأننا نعرف أنهم قد اختلطوا بالسكان فى يسر وسهولة . واذا كانت هناك حروب فهي حروب انتقامية ذات هدف محدود ، وهو هنا السلطة الرافضة لحكم الفاطميين وليس سكان البلاد ولا حضارتهم

وعمرانهم ، ولم يكن هدفهم تأسيس دولة على حساب شعب البلاد التي حلوا بهـــا .

وان الدعوى القائلة بأن بني هلال قد قوضوا أركان العمران فى شمال افريقية غير صحيحة تاريخيا . ذلك أن الحضارة الاسلامية كانت تتهاوى فى كل مكان وتظهر عليها علامات الشيخوخة . فوجود بني هلال كان ظاهرة من ظواهر التدهور الحضاري خلال العصور الوسطى . وقـــد سبقتهم فى فعل ذلك عوامل كثيرة خارجية وداخلية ، سياسية واقتصادية، فلماذا يتحملون وحدهم ذنب ما حدث ؟

ويتتابع التدهور الحضاري فى العالم الاسلامي عبر القرون حتى نصل الى فاتح القرن السادس عشر فاذا بالجزائر (والمغرب العربي) فريسة للطمع الاسباني والبرتغالي والايطالي ــ وفريسة أيضا للتنافـــس الداخلي . واذا بعامل جديد يتدخل فى الموضوع وهو الوجود العثماني على المسرح. فقد غزا آل عثمان القسطنطينية وفتحوها وافتكوا بذلك آخر معقـــل لبيزنطة طالما هدد الدولة الاسلامية منذ نشأتها . وجرفت موجة فتوحات آل عثمان بعد ذلك بلاد الشام ومصر ، ونقلوا مركز الخلافة الاسلامية الى اسطانبول وأنجدوا الجزائريين ضد الاسبان ، وضموا فى طريقهم تونس وليبيا . وأصبحت كل هذه الأقطار التي كانت تخضع لامارات محلية متطاحنة ، تدين بالولاء للخلافة الاسلامية والسلطان العثماني .

ولكن عندما يدرس المؤرخون اليوم ما حدث عندئذ يقفون متسائلين : هل جاء العثمانيون الى الجزائر غازين أو منقذين ؟ وهل كان وجودهم خيرا وبركة على البلاد وأهلها أو كان شرا ونقمة عليها ؟ وهل كانت الجزائر فى عهدهم مستقلة أو تابعة ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التي ما زالت لم تنته ولا نتوقع انها ستنتهي ذات يوم . وقد ساعد على تعميـــق هـــذه التساؤلات وتشعبها ما أثاره الفرنسيون من مقارنات بين أنواع الاستعمار

التي تعاقبت على الجزائر . فهذه فى نظرهم لم تكن فى يوم من الأيـام «أمة» أو حتى «شعبا» يمارس حريته ويتحكم فى مصيره وانما هي أرض مفتوحة تتعاقب عليها الدول الغالبة ابتداء من الفنيقيين والرومان الى الترك والفرنسيين .

ونتيجة لهذا الخلط غير التاريخي ، ظهر تيار حديث فى الجزائر يريد أن يثبت صفة « الامة الجزائرية » منذ العهد الروماني مستدلين على ذلك بمحاولات ماسينيسا ويوغرطة بناء كيان أهلي.وما درى هؤلاء الجزائريون انه لا يضيرهم أن لا يكونوا أمة قبل ألفي سنة ولا حتى بعدها لأن فكرة الأمة نفسها حديثة العهد تعود فقط الى حوالي قرن من الزمان ، ولأن الفرنسيين أنفسهم الذين انكروا عليهم حق تكوين أمة لم يكونوا هم كذلك الا بعد قيام الثورة الفرنسية . وهكذا أصبح المؤرخون الجزائريون اليوم اما أن يزوروا التاريخ ليثبتوا أنهم كانوا أمة قبل الأمم جميعا واما أن يكونوا متواضعين ، لكن صادقين ، فيتحدثون عن وجود شعب جزائري تكون منذ الفتح الاسلامي وانتمى الى الأمة الاسلامية يوم أن كانت هذه الأمة لها رابطة ووحدة حضارية ، وهم اليوم ينتمون الى الأمة العربية ذات العراقة والمجد وهي الأمة التي ساهموا من قبل فى صنع ماضيها وهم يساهمون اليوم فى صنع مصيرها .

وتتعدد القضايا التاريخية منذ الاستقلال . فهناك قضية تثار حول مدى اعتمادنا على ما كتبه المؤرخون الأجانب عنا . وهناك أخرى حول كتابة تاريخ الثورة الجزائرية . وهناك ثالثة عن أهمية المصادر وموقفنا منها ، ورابعة عن قيمة التراث الوطني ، وخامسة عن مواقف الرجال والزعماء كيف يمجدون اذا عملوا وكيف يجرمون اذا انحرفوا . وهكذا .

والواقع أن هذه المقالات فيها الشيء الكثير مما قد أشرت اليه منذ البداية ، ولكنها لا تجيب على كل النقط بطريقة منظمة . فهي تركز خاصة

على العصور الحديثة وتتناول مسائل تكاد تكون مطروقة بكثرة اليوم، ولكنها ما تزال معلقة . وهي لا تدعى انها تقدم الجواب الكافي الشافي على ما طرح ويطرح من أفكار حول المشاكل التاريخية . ولكنها تسلط الأضواء على جوانب من هذه المشاكل . وقد كنت كتبت هذه المقالات فى فترات متباعدة يعود بعضها الى بداية الستينات ويعود آخرها الى الشهور القريبة . وسيلاحظ القاريء أن بعضها عبارة عن أبحاث طويلة وان بعضها عبارة عن اجابات سريعة لبعض السائلين أو تعاليق قصيرة على بعض المواقف . كما انه سيلاحظ انها تضم آراء مترجمة أيضا . وفيها الأبحاث الشخصية المضنية وفيها التعاريف بالكتب،وفيها مايتناول قضايا مجردة وما يتناول القضايا من خلال أشخاص لهم دور في تاريخ البلاد. وقد أشفقت على هذه الأبحاث والمقالات أن تظل متفرقة رغم شدة الحاجة اليها أحيانا فجمعتها على هذا النحو وقدمتها للمطبعة عسى أن يعود اليها الباحثون فى تاريخ الجزائر والدارسون لتاريخ المغرب العربي عامة . ولعلني قد وفقت فى ذلك .

الجزائر ، ماي 1976

أبو القاسم سعد الله

معهد العلوم الاجتماعية ـــ جامعة الجزائر

منهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر

يذكر السيد بيربروجر ، أول رئيس (للجمعية التاريخية الجزائرية)، أن الفرنسيين قد شرعوا فى ادخال نظمهم العلمية والأدبية والفنية الى الجزائر منذ 1830 ، وتروي الصحيفة الرسمية (المرشد الجزائري Moniteur algérien التي أسسها الفرنسيون سنة 1832 ، انه قد وجدت آنئذ مدرسة للطب ، وجمعية خيرية تقوم بنشاطها فى (جامع السيدة) ، كما شرع فى انشاء مكتبة عمومية ، ومن بين هذه النظم العلمية أيضا الدراسات التاريخية . ففي سنة 1831 أذن بيرتزين ، قـائد الجيش الفرنسي ، للسيد شيافى الذي كان عالما أثريا ، بالتنقيب عن الآثار في المنازل والحدائق العامة (1) .

وفى دراستنا لمنهج الفرنسيين فى كتابة تاريـخ الجـزائر سنقصر حديثنا على الفترة الواقعة بين 1830 — 1954 مع بعض الاشارات للعهد العثماني (1500 — 1830) كلما اقتضى الأمر ذلك .

مجالات البحث عند الفرنسيين :

ورغم جهل الفرنسيين أول الأمر بواقع الجزائر وتاريخها ، ورغم انشغالهم بعمليات الحملة والاحتلال وافتقارهم فى البداية الى الذوق الثقافي ، فانهم اتجهوا فى البحث ثلاثة مجالات فى نفس الوقت :

---

1 — بيربروجر فى مقدمة المجلة الافريقية (1856–1857) ، ص 4 .

1 ــ نشر الآثار القديمة عن الجزائر .

2 ــ انشاء اللجان « العلمية » ومنح الرخص للأفراد للقيام بعمليات البحث والجمع والتعريف بالآثار التاريخية فى البلاد .

3 ــ تكوين الجمعيات المختصة ، والصحف والدوريات التي تحفظ المكتشفات التاريخية وتعتني وتعرف بها المهتمين .

وفى نطاق المجال الأول نشروا منذ 1830 كتب الرحلات والانطباعات التي كتبها الأروبيون عن الجزائر خلال العهد العثماني ، مثل شيلروشو وباناتني ورونودو وهايدو وفاتنوردي بارادي ، كما نشروا غزوات عروج وخير الدين مترجمة عن النسخة العربية واهتموا (بالزهــرة النيرة) وبالوثائق العربية لحملة شارل الخامس على الجزائر . وعادوا الى كتب المؤرخين والرحالة العرب وشرعوا أيضا فى نشرها ، جزئيا أو كليا كابن خلدون ، والبكري والعياشي وحسن الوزان (ليون الأفريقي) ، وغيرهم . ومن جهة أخرى نشروا مراسلات دايات الجزائر مع حكام فرنسا ، ومذكرات وتقارير القناصل والجواسيس الفرنسيين أمثال دوبوا ــ تانفيل ، وبوتان وكيرسي . واهتموا بأرشيف الغرفة التجارية بمرسيليا وبتقارير الشركات الفرنسية التي توالت على ما كان يسمى (بحصن فرنسا) . وبالاضافة الى ذلك أبدوا عناية بالوثائق العثمانية التي وجدوها فى الجزائر والتي ضاع كثير منها ساعة الفوضى التي سادت دخولهم الجزائر (2) .

وبخصوص المجال الثاني (انشاء اللجان العلمية) ، نجد أن اللجنة الأفريقية (3) ، التي زارت الجزائر سنة 1833 بقصد التحقيق فى مصير الجزائر ، تنهي أعمالها بتقارير ومحاضر غنية عن الجزائر فى مختلف المجالات ، ولا سيما الاقتصادية والاجتماعية ، وفى سنة 1837 أنشأت

2 ــ وليام مارسي فى كتاب « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ، باريس ، 1931 ، ص 136 .

3 ــ انظر عنها كتابي « تاريخ الجزائر الحديث ــ بداية الاحتلال » ، القاهــرة ، 1970 (معهد البحوث والدراسات العربية) .

وزارة الحربية لجنة باسم (اكتشاف الجزائر العلمي) . وقد قامت بنشر دراسات هامة فى عدة أجزاء عن الآثار والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة والتاريخ وعلم السلالات . وكذلك قام العديد من الأفراد ببحثون وينشرون أعمالهم فى التاريخ المحلي ، عن اللهجات ، والطرق والنظم ، وطبائع السكان ، والزوايا ، والحياة القبلية والمدن الخ . وقد ظهرت من ذلك مجموعة من الدراسات والانطباعات التي كتبها عسكريون سنتحدث عن دورهم بعد قليل (4) .

أما المجال الثالث (الجمعيات والصحف) فقد ظهر هو الآخر منذ بداية الاحتلال . فمنذ 26 جوان 1830 ولدت الصحافة بالجزائر فى سيدي فرج . ولعلها لم تكن صحافة بالمعنى الدقيق للكلمة ، لأن أول جريدة حقيقية أسسها الفرنسيون فى الجزائر هي « المرشد الجزائري » وكانت تهتم بالاضافة الى القرارات والاعلانات الرسمية ، بالتاريخ المحلي وأخبار المسلمين وحركات الأهالي ، وكان على رأسها السيد بيربروجر الذي كان له دور فى ادخال كثير من عوامل الحضارة الأوروبية الى الجزائر . ثم صدرت جريدة (الأخبار) سنة 1839 ، وكانت هي الأخرى تهتم بالأبحاث التاريخية الى جانب كونها جريدة سياسية اخبارية . وقد اهتمت أيضا (المبشر) التي ظهرت سنة 1847 بالأخبار المحلية وان كانت قليلة ،ولا سيما فى عهدها الأول .

غير أن تأسيس (جمعية قسنطينة للآثار) (5) سنة 1852 قد أدى الى ظهور الدوريات المتخصصة فى الدراسات التاريخية والأثرية . فقد

---

4 ـ ستيفان غزال فى كتاب « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ، ص 7 ـ 8 .

5 ـ يعود الفضل فى تأسيسها الى الضابط كرولي ، والضابط بروسلار ، وشيربونو ، أستاذ العربية .

كانت هذه الجمعية تصدر منذ عامها الأول (تقويما Annuaire تحول فيما بعد الى (مجموعة Recueil) من الدراسات والملاحظات المتعلقة بتاريخ المنطقة . وبوحي من الحاكم العام راندون ظهرت فى مدينة الجزائر سنة 1856 (الجمعية التاريخية الجزائرية) (6) التي أصدرت المجلة الأفريقية (R.A.) وهي المجلة التي أصبحت بعد مائة سنة ونيف مرجعا لا غنى عنه للباحثين فى تاريخ الجزائر فى مختلف عصوره ، ولم تحن سنة 1878 حتى ظهرت فى وهران أيضا (جمعية وهران الأثرية) . وقد أصدرت بدورها (نشرة Bulletin) تضم أبحاث أعضائها ومراسليها عن تاريخ المنطقة . وكل هذه الدوريات استمرت طويلا وأثرت البحث التاريخي فى الجزائر وظهر على صفحاتها جم من العلماء الذين كرسوا أوقاتهم لجمع المعلومات عن التاريخ المحلي .

والى جانب هذه الدوريات والجمعيات ظهرت مكتبة ومتحف الجزائر فقد ظهرت أول نواة (مكتبة مدينة الجزائر) سنة 1835 ولم تبدأ فى العمل فعلا الا خلال سنة 1838 . وبوحي من بريسون المتصرف المدني ، أضيف الى المكتبة (متحف أثري) . وأصبحت المكتبة والمتحف منطلقا للباحثين فى تاريخ الجزائر يجدون فيهما المخطوطات العربية والمطبوعات والآثار التي هي عدة المؤرخ ، والملاحظ أن أول مقر للمكتبة والمتحف هو (دار الحاج عمر) ، صهر الداي حسن باشا وكانت هذه الدار على الطراز الأندلسي الجزائري الجميل . وكانت تتكون من طابقين خصص الطابق الثاني للمكتبة ، وكان يضم أربع قاعات ثلاث منها للكتب والرابعة للمطالعة . والقاعة الأخيرة مقسمة الى جناحين واحد للمطالعين الأوروبيين والثاني للمطالعين الجزائريين .

---

6 — اول مكتب لها كان يتكون من بيربروجر (رئيسا) وعضوية دي سلان ، ودونوفو (كلاهما عسكري) وبريسني (كاتب عام) أستاذ اللغة العربية .

والملاحظ أن الجناح الأول كان يحتوي على الكتب المتعلقة بالجزائر والتي كانت مطلوبة أكثر من غيرها .

أما المتحف فكان فى الطابق الأول من الدار وكان يضم أيضا أربع قاعات ، خصصت ثلاث منها لعرض وحفظ التحف والأشياء الثمينة والخطوط والآلات والآثار والأسلحة والحيوانات الخ .. أما القاعة الرابعة منه فقد خصصت لدرس اللغة العربية الذي كان يقوم به السيد بريسني . وبالاضافة الى مكتبة ومتحف مدينة الجزائر توسعت المكتبات العسكرية التي كانت تتبع الحاميات فى المدن التي وقع احتلالها ، كما تكونت متاحف أخرى مثل متحف شرشال الذي تكون فى الشهور الأولى للاحتلال والذي تخصص تقريبا فى حفظ الآثار الرومانية التي أولاها الفرنسيون اهتماما خاصا (7) .

دوافع البحث فى تاريخ الجزائر :

انطلق الفرنسيون فى كتابتهم تاريخ الجزائر من عدة معطيات أهمها: كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة ، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا ، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم . وهذه المعطيات ، متفرقة ومجتمعة ، هي التي قررت نوعا من (الحتمية التاريخية) عندهم ، وهي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين . ولعل تلك المعطيات هي التي ما زالت تتحكم فى الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم .

وكانت هناك دوافع كثيرة دفعت الفرنسيين الى الاهتمام بالتاريخ الجزائري . فهناك أولا الرغبة فى التعرف على شعب وقع فى قبضة

7 — بيربروجر فى مقدمة « المجلة الافريقية » (1856 — 1857) ، ص 4 — 6 ، أنظر كذلك « لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية » (مجلد 1846—1849) ص 196—197 « مترجمو الجيش الافريقي » وكذلك هنري ماسي « الدراسات العربية فى الجزائر » (1830 — 1930) فاصلة من« المجلة الافريقية » 356 — 357 (1933) ، ص 1 — 3 .

الحضارة الأوروبية . وكانت هذه الحضارة تحمل معها الى الجزائر كل أدوات الغزو الفكري . فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة، وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الاسلام وتاريخه ، وبالتراجمة الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الأوروبية أو من الذين جاءوا من الشام ومصر بعد أن ارتبطوا بالحضارة الأوروبية عقب حملة نابليون (8) .

وهناك ثانيا دافع السيطرة والاحتلال ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها . ومن أجل ذلك استعان الفرنسيون أيضا بالكتاب الجزائريين ونذكر على سبيل المثال ما كتبه العنتري وابن المبارك عن تاريخ قسنطينة بوحي من بواسوني ، وما كتبه محمد بن على التلمساني عن علماء وهران وتلمسان بوحي من عامل وهران الفرنسي . وما ترجمه ونشره ابن أبي شنب والحفناوي وغيرهما بتحريض من الحاكم العام جونار وجملة من الباحثين الفرنسيين .

وهناك ثالثا دافع الفضول العلمي . فقد احتلت الجزائر فى وقت كان فيه العقل الأروبي (الديكارتي) جامحا يتطفل على ميادين المعرفة ويجوب آفاق الحياة يكتشف أسرارها ويذوق لذاتها ويحاول السيطرة على المجهول والمخيف منها . بينما العقل الشرقي (الجزائري) كان ما يزال راكدا قابعا . ومع سيادة العقل الأروبي ظهرت فكرة التمايز والتفاضل بين الشعوب فأصبح هناك علماء يؤمنون بأفضلية الشعوب الأوروبية على الشعوب غير الأروبية ، وينادون بضرورة « تمدين » هذه الأخيرة بواسطة الأولى ، وهم يطالبون بذلك لا على أنه تمنيات وأمل ولكن على أنه (رسالة حضارية) لا بد من القيام بها والعمل

---

8 — مثل جورج غروي وجوني فرعون . أنظر شارل فيرو « مترجمو الجيش الافريقي » وكذلك هنري ماسي « الدراسات العربية فى الجزائر » (1830 — 1930) فاصلة من « المجلة الافريقية » 356 — 357 (1933 ص 1—3)

من أجلها . وسنرى أن كتاب التاريخ الجزائري من الفرنسيين كانو من دعاة هذا المذهب .

وهناك أخيرا دافع الدين فقد احتلت الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين أوروبا المسيحية دام ثلاثة قرون . والأوروبيون يطلقون على ذلك عهد القرصنة (9) ، وهو فى الواقع كان الفصل الثاني من عهد الحروب الصليبية . ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر أولا لمعرفة أسرار العهد المشار اليه ، وثانيا لتحطيم المعنويات التي قد تحدث تغييرا جذريا بعد نجاح الاحتلال . وسنرى أنهم اهتموا بالدراسات الاسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين ذوي النفوذ الروحي ، تمشيا مع هذا الاتجاه . كما شاركت الكنيسة ، بواسطة رجال التبشير ووسائلها المعنوية والمادية فى تبني هذا الاتجاه (10) .

ويمكن أن نقسم فترات البحث فى تاريخ الجزائر الى عهدين كبيرين هما : عهد المؤرخين العسكريين وعهد المؤرخين المختصين أو الجامعيين . وسندرس فيما يلي أهم ما تميز به كل عهد من الاهتمامات، وأشهر رجال كل عهد .

عهد المؤرخين العسكريين 1830 – 1880 :

يطلق المؤرخ ستيفان غزال على هذا العهد اسم (المدرسة الجزائرية القديمة) (11) فى كتابة التاريخ . ذلك أن الذين تولوا كتابة تاريخ

9 – يقول الفريد بيل ان حكومة الاتراك فى الجزائر كانت حكومة قراصنة ، جعلت القرصنة البحرية نظاما لها . وكان أعضاؤها أتراكا أو مرتدين مسيحيين . وكان اسلامهم « خفيفا » . انظر « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ص 194 .

10 – منذ السنوات الاولى للاحتلال كانت صحيفة (المرشد الجزائري) تتحدث عن تأثير الكنيسة على الجزائريين . وسنة 1841 كون (دوبوش) رئيس كنيسة الجزائر جمعية باسم (جمعية سان أوغسطين) .

11 – انظر « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ص 7 – 8 .

الجزائر ، الاقتصادي والسياسي والاداري خلال هذا العهد هم كتاب عسكريون بالمهنة أو تراجمة عسكريون وقد ظلت الادارة الفرنسية فى الجزائر عسكرية من 1830 الى 1871 (باستثناء سنتي 1858 — 1860) . وان هناك مناطق من الجزائر ظلت عسكرية الى قيام الثورة. ولذلك فانه يمكن أن يقال بأن الحكم الفرنسي فى الجزائر كان حكما عسكريا بالنسبة للجزائريين حتى عندما كان حكما مدنيا بالنسبة للأروبيين المقيمين بالجزائر . ذلك أن الادارة الفرنسية قد اعتمدت فى (الشؤون الأهلية) على ضباط كانوا يتكونون تكوينا خاصا ثم تسند اليهم وظيفة محلية محددة كان يطلق عليها اسم (المكتب العربي) . وشيئا فشيئا أصبحت (المكاتب العربية) هي فى الواقع الحكومة المحلية التي تباشر تسيير شؤون الجزائريين . وقد اختلفت ادارة شؤون الأروبيين من عهد الى عهد . ولكنها بالنسبة للجزائريين ظلت تعتمد على (المكاتب العربية) حتى 1871 . وعندما تحولت الادارة العليا الى ادارة مدنية فى عهد الجمهورية الثالثة أصبح الجزائريون خاضعين لاجراءات لا تختلف عن مزيج من الادارة العسكرية والبوليسية .

ومن هنا لا نستغرب أن يتولى العسكريون وهم الذين كانوا على صلة مباشرة بالجزائريين كتابة تاريخ محكوميهم . فخلال العشر سنوات الأولى من الاحتلال ظهر كتاب عسكريون أمثال كاريت ، وبيليسي وهانوتو ، وديلامار ، وغيرهم . وقد شارك هؤلاء فى « اللجنة العلمية » التي أشرنا اليها (1837) والتي كونتها وزارة الحربية لاكتشاف الجزائر ومعرفة أحوال أهلها الماضين . وهكذا كتب كاريت عن القبائل الجزائرية وعن العلاقات الاقتصادية بينها ، وكتب بيليسي دي رينو كتابه (أخبار الجزائر) الذي أرخ فيه للثماني عشرة سنة الأولى من الاحتلال . كما كتب هانوتو عن لهجات ونظم الجزائريين ، وجمع

دي سلان الذي ترجم تاريخ ابن خلدون وجغرافية البكري وغيرهما ، واختص الضابط بروسلار بالخط العربي . وقام فورنيل بكتابة تاريخ شمال أفريقية فى العصور الوسطى أما لاكروا فقد نشر دراسات عن الاستعمار والادارة الرومانية فى أفريقية . ومن كتاب هذا العهد أيضا بيربروجر الذي ملأ (المجلة الأفريقية) بمقالاته عن أخبار الجزائر سواء التي جمعها مباشرة أو التي ترجمها عن كتاب مسلمين مثلما فعل مع رحلة العياشي .

واذا كان هؤلاء قد التفوا حول (اللجنة العلمية) فان هناك جماعة أخرى من الباحثين العسكريين قد التفوا حول مشروع (لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية فى الجزائر) وقد ظهر من هذا المشروع الضخم سبعة عشر مجلدا ، بين سنوات 1843 — 1864 . وفيه دراسات احصائية وغوص فى حياة السكان . ورغم قدم العهد فان هذه المجلدات ما تزال مرجعا للباحثين . ومن كتاب هذا العهد شارل فيرو ، والاسكندر بيلامار ، وارنو ، وولسن ايسترهازي ، وروبان ، وترملي ولويس رين ، وغيرهم . وبالاضافه الى مشروع (اللوحة) تجمع هؤلاء حول (جمعية قسنطينة للآثار) و (الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتيهما . وقد أمدوا هذه المنشآت بالدراسات والمذكرات عن القبائل وزعمائها والطرق والآثار والتواريخ المحلية ، واللهجات والنظم والشخصيات السياسية التي لعبت دورا فى تاريخ الجزائر كالأمير عبد القادر ، والحاج أحمد وبومعزة ، وبوبغلة ، والحوادث الهامة كالمعارك والثورات ، ودور بعض العائلات والطرق الصوفية ، ولا نكاد نجد تاريخا لحروب الأمير ، ونزاع الحاج أحمد مع خصومه فى الزيبان وحوادث جرجرة ، وثورات أولاد سيدي الشيخ وثورة

1871 ونحوها الا بالعودة الى كتابات بيلامار ، وزيروكا ، وروبان ، ورين ، وتروملي ، دوماس ، دونوفو ، واضرابهم (12) .

وقد اعتمد هؤلاء فى كتاباتهم على المصادر الأهلية فى غالب الأحيان. وهذه المصادر على نوعين مكتوبة وشفوية . ومن المصادر المكتوبة وثائق العائلات الكبيرة ، وعقود الملكية ، ومذكرات رجال العلم الجزائريين . أما المصادر الشفوية التي اعتمدوا عليها أكثر من الأولى ، فقد جعلتهم يسجلون قصصا وآحداثا من مختلف المشارب والأنواع (13) ، وقد ساعدت الادارة هؤلاء الباحثين بجمع ما تفرق من الوثائق العربية والتركية التي وجدها الفرنسيون ساعة دخولهم الجزائر ، وفى هذه الوثائق معاهدات ، ودفاتر حساب ، وسجلات عسكرية ، وعقود وأوراق ادارية ، فقد أنشئت (ادارة الدومين) ووضعت تلك الوثائق فى قسمها العربي الذي أسندت ادارته الى السيد ديفو وظل ديفو 25 سنة كمحافظ للأرشيف العربي ، ونشر خلال ذلك وثائق هامة عن تاريخ الجزائر الديني ، والعسكري ، والبحري (14) . ورغم أن أعمال هؤلاء الباحثين العسكريين كانت تعتمد الجمع ، ولا سيما من المصادر الشفوية والمشاهدات الشخصية، فانها قد تركت للمؤرخين اللاحقين أرضية يبدأون منها ومنافذ يطلون منها على أحوال الجزائريين الذين لم يكونوا يعرفون عنهم الا القليل .

12 ـ بالاضافة الى أنهم عسكريون فانهم أصلا لم يكونوا مهتمين بالدراسات الجزائرية ، غير أن وحدة الهدف ووحدة العمل ، وكذلك الزمالة ، جعلتهم يتكاتفون وينتجون . أنظر غبريال اسكير ، « الجمعية التاريخية الجزائرية » فى « المجلة الافريقية » (1856 ـ 1956) ، ص 198 .

13 ـ وليام مارسي « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ، ص 166 . ينتقد الكاتب المصادر الاهلية بأنها تفتقر الى الضبط التاريخي ، فهي حسب رأيه تصف أحداثا مضى عليها من 50 الى 250 سنة .

14 ـ نفس المصدر ، ص 163 . يقول الكاتب ان ديفو لم يكن فوق النقد وان بعض الوثائق التي كان شرف عليها وجدت تباع أثناء حياته .

عهد المؤرخين الاختصاصيين 1880 ـ 1954 :

بتأسيس جامعة الجزائر يبدأ عهد جديد من كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين . ففي سنة 1880 صدر قانون بانشاء (المدارس العليا) فى الجزائر ، وهي التي أصبحت بعد حوالي ثلاثين سنة (1909) جامعة الجزائر ، وكانت المدارس العليا تضم مدرسة الآداب ، ومدرسة الطب ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة العلوم ، وقد تكاتفت جهود أساتذة الجامعة مع جهود رؤساء الجمعيات التاريخية والأثرية التي سبق ذكرها ، وكتاب الدوريات العلمية ، وأساتذة التاريخ فى الثانويات ونتج عن هذا التكاتف اهتمام خاص بتاريخ الجزائر ، ولكن ميلاد المدارس العليا تصادف مع موجة الاستعمار العنيفة التي بلغت ذروتها بالنسبة للجزائر فى الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال ، وتعكس الدراسات التي ظهرت خلال هذا العهد مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار ، أو مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصلحة وطنه ويضحي فى سبيل ذلك بقيم البحث وأخلاق العلم ، ذلك أن كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتأريخ له . وتعمل فى النهاية على انجاحه واستمراره (15) .

وتصادف ميلاد جامعة الجزائر ايضا مع احتلال فرنسا لتونس واهتمامها بقضية المغرب الأقصى ، وبذلك اتسعت رقعة البحث لدي مؤرخي هذا العهد وأصبحوا يتناولون فى كثير من الأحيان تاريخ شمال أفريقية بصفة عامة ، ويربطون بين مصالح فرنسا فى الأقطار

15 ـ بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال (1930) انعقد فى الجزائر المؤتمر الوطني الثاني للعلوم التاريخية . وكان ذلك بتأييد من الحكومة العامة بالجزائر . وقد ترأسه السيد كوفيل رئيس اللجنة الفرنسية للعلوم التأريخية . وكان المؤتمر الوطني الاول قد انعقد فى باريس سنة 1927 . وفى حطبة الافتتاح التي حضرها الحاكم العام السيد بورد ، قال كوفيل ان انعقاد المؤتمر بالجزائر لا يعني فقط الاحتفال بحادث عسكري مجيد (يعني نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر) ولكنه يعني أيضا الاعتراف بما قامت به فرنسا فى الجزائر منذ مائة سنة انظر « المؤتمر الوطني الثاني للعلوم التاريخية » (الجزائر 1932) ، ص 8 .

الثلاثة ، ويضاف الى ذلك منطقة الصحراء التي دخلت اهتمامات الأبحاث الفرنسية خلال هذا العهد أيضا ، ولا غرابة أن تجد بعض التراجمة والباحثين الذين (تدربوا) فى الجزائر قد أصبحوا عاملين فى تونس والمغرب أيضا ، ولا غرابة أيضا أن تتكون سنة 1935 (اتحادية الجمعيات العلمية لشمال أفريقية) وقد أصبحت تجتمع كل سنة فى احدى مدن المغرب العربي لتنسق جهودها وتتذاكر فى خططها وتتبادل الخبرات والمعلومات وتلقى خلال ذلك الأبحاث والدراسات . وخلال هذا العهد ولد أيضا (معهد الدراسات الشرقية بالجزائر) 1933 الذي أخذ على عاتقه الاهتمام بالحياة العربية الاسلامية لماضي الجزائر بالذات وقد تولى كبر أموره السيد جورج مارسي ثم هنري بيريس المعروف بتعصبه ضد الجزائريين . كما ولد سنة 1940 (معهد الأبحاث الصحراوية) .

بدأ اذن العهد الجديد من اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر خاصة وماضي شمال أفريقية عامة (بعد احتلال تونس والاستعداد للمغرب) عندما فتحت مدرسة الآداب العليا (كلية الآداب فيما بعد) مجال التدريس والبحث فى تاريخ المغرب العربي وافريقية ، ولما كانت الأبحاث تهدف الى خدمة الادارة الاستعمارية سواء فى الجزائر أو فى غيرها من أجزاء أفريقية ، فان تسهيلات وتشجيعات مادية ومعنوية قد توفرت للأساتذة سواء أثناء وجودهم على كرسي التدريس أو أثناء تنقلاتهم بحثا عن المعارف والمصادر ، وتذكر المصادر أن هؤلاء الأساتذة قد تنقلوا كثيرا وبعيدا وركبوا فى سبيل هدفهم الأحصنة والبغال وحتى الجمال (16) . ومن الأساتذة الجامعيين الذين برزوا خلال هذا العهد انسيد ماسكري ، الذي لم يختص بموضوع بعينه وريني باسي الذي اختص بالدراسات اللغوية واللهجات المحلية ، ودوتي الذي كرس

16 ـ انظر غزال (تاريخ ومؤرخو الجزائر) ، 9 .

جهوده للأبحاث الاجتماعية ،وجورج ايفير الذي اهتم بتاريخ الاحتلال ، وستيفان غزال الذي تخصص فى تاريخ شمال أفريقية القديم،ومارسيل ايسريت الذي اهتم بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية للأهالي خلال العهد الفرنسي ، ويا كونو الذي تناول قضايا الاستعمار والمكاتب العربية ، ويضاف الى هؤلاء عدد من المهتمين بتاريخ شمال أفريقية فى فرنسا نفسها أمثال شارل أندري جوليان (تاريخ شمال أفريقية) ومانصو (التاريخ الأدبي لأفريقية المسيحية) ، وكانيا(الجيش الروماني الأفريقي) وديل (أفريقية البيزنطية) .

وخلال هذا العهد أنشئت عدة مصالح ساعدت هؤلاء المؤرخين الاختصاصيين على أداء مهمتهم ففي سنة 1880 تأسست (مصلحة الآثار التاريخية) بالجزائر ، وهي التي قامت ببعث مدينتي جميلة وتيمقاد الرومانيتين ، وفى باريس تأسست سنة 1883 (لجنة أفريقية الشمالية) التي كانت مهمتها بعث الوثائق والخطوط والنقوش الأثرية . وفى عهد جونار تأسست سنة 1910 لجنة بالجزائر عهد اليها بنشر مراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسي فى الجزائر وعلاقات الأهالي معهم ، وضمن هذا المشروع صدرت مراسلات كلوزيل وروفيقو وفوارول وديرلون وآثار بوتان كما صدر كتاب (الجزائر فى عهد الأمير عبد القادر) لايسريت ، وفى عهد جونار أيضا أعطيت الاشارة لتشجيع الدراسات الاسلامية فقام محمد بن أبي شنب بنشر رحلتي ابن عمار والورتلاني ، وتحقيق كتب قديمة كعنوان الدراية للغبريني ، والبستان لابن مريم ، وبغية الرواد ليحي بن خلدون ، وقام الحفناوي بوضع قاموس تراجمه (تعريف الخلف برجال السلف) وتولى لوسياني (الذي كان مسؤول الشؤون الأهلية فى نفس الفترة) التعريف بآثار رجال الدين المسلمين كالسنوسي وعبد الرحمن الاخضري .

وعندما حان الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال تجند هؤلاء المؤرخون فى اللجان التي كونتها (الحكومة العامة) عندئذ لوضع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار فى الجزائر وعن جهود فرنسا الحضارية فيها ، مع نظرة نقدية شاملة لما تحقق فى ميدان الكتابة التاريخية حتى ذلك العهد . وقد خرجت من هذا الجهد مجموعة من الأبحاث أصبحت تعرف (بمجموعة المائة سنة) وهي تشمل ميادين التاريخ ، والآثار والجغرافية ، والفنون . وغيرها ، وهذا اللقاء بين المؤرخين الفرنسيين فى جامعة الجزائر وبين الحكومة العامة يبرهن من جديد على مدى تواطؤ هؤلاء المؤرخين مع الادارة الاستعمارية وخدمتهم لأغراضها .

وبحلول سنة 1956 احتفلت (الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتها (المجلة الافريقية) بمرور مائة سنة أيضا على ميلادها . وقد قدم عدد من المؤرخين الجامعيين والباحثين دراسات هامة عن تقدم الكتابة التاريخية خلال سنوات 1930 ــ 1956 . ونذكر من بين هذه الدراسات عن الفترة التي نكتب عنها مقالة ياكونو التي تناول فيها تقييم ما كتب منذ الاحتلال ، وجزءا من مقالة روجي لوتورنو عن (العصور الوسطى والعهود الحديثة) ، وهما بحثان غنيان بالآراء والملاحظات والمراجع ، وفى نفس الوقت يبرهنان على مدى ما وصلت اليه الكتابة التاريخية الفرنسية عن الجزائر ، ومن جهة أخرى نلاحظ أن البحثين كتبا فى بداية أحداث الثورة الجزائرية ولذلك لا نستغرب أن ينتهي لوتورنو الى القول بأن « البحث التاريخي عن الجزائر المسلمة ما يزال بعيدا عن الانتهاء (17) » وأن ينتهي زميله ياكونو الى القول بأنه لا توجد دراسة شاملة عن سياسة فرنسا الاسلامية فى الجزائر ولا عن التحول الذي أصاب الأهالي بتأثير الاستعمار (18) . والواقع أن المؤرخين الفرنسيين

17 ـ لوتورنو ، المجلة الافريقية) 1856 ـ 1956) ، ص 143 .
18 ـ ياكونو ـ نفس المصدر ، ص 183 .

فى الجزائر قد درسوا تاريخ الحملة والاحتلال والاستعمار ، ولكنهم لم يدرسوا تطور المجتمع الجزائري ولا سياسة بلادهم نحو الجزائريين .

مواقف المؤرخين الفرنسيين من قضايا التاريخ الجزائري :

رغم بحث الفرنسيين عن المصادر الأهلية فانهم كثيرا ما شككوا فى قيمتها واتهموها بالتجريدية والمبالغة ، بل نادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها ، فقد ادعى وليام مارسي أنه يجب الاعتماد فى كتابة تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني على المصادر الأوروبية ووثائق الأرشيف الرسمية والتجارية (19) ، وهو فى هذا يقتدي برأي دي سلان الذي شك فى صحة أخبار العرب عن المغرب (20) . ووافقه فى هذا الادعاء استيفان غزال حيث قال عن العهد الاسلامي (من الفتح العربي الى 1500) أن الباحث فيه يدخل فى « ظلام دامس » لعدم وجود الوثائق الصحيحة والمعاصرة ، وقال أن الباحث لا يجد سوى بعض الحوادث المتأخرة وغير المنقودة وبعض التسجيلات للأحداث لكنها تسجيلات مرتبطة بالنظم العسكرية وغير نزيهة ، ولم يستثن غزال من هذا الحكم سوى ابن خلدون ، لذلك نادى أيضا بالاعتماد على رحلات الأوروبيين وأرشيف الدول الأوروبية ، وقد وقف نفس الموقف من المصادر الأهلية خلال العهد العثماني ، فقال ان المؤلفين العرب لم يكتبوا عن السادة (يعني الأتراك) وعلاقاتهم بالأوروبيين والسلطان ، لذلك رأى أيضا الاعتماد ، لدراسة هذا العهد ، على الأرشيفات الأوروبية ، والأرشيف التركي ، والرحلات الأوروبية (21) ، والواقع أن الذي سبق الى هذا الرأى هو دي غرامون الذي رفض فى كتابه عن تاريخ الجزائر العثمانية الاعتماد على المصادر الأهلية لعدم الثقة فيها .

---

19 — وليام مارسي ، « تاريخ ومؤرخو الجزائر » ، ص 161 .
20 — نفس المصدر ، ص 174 .
21 — غزال ، نفس المصدر ، ص 6 — 7 .

ومع هذا الموقف المجحف من المصادر الأهلية ، فان الفرنسيين قد عملوا كما لاحظنا سابقا على ترجمة الآثار العربية عن الجزائر فى شتى العصور ، ولا يكاد يوجد مخطوط رحلة أو وثيقة أو مجموعة رسائل أو سجلات حكومية الا ترجموها كاملة أو مجزأة ، ويطول بنا الحديث لو استعرضنا هنا كل الأعمال التي قاموا بها فى هذا الصدد ، ويكفي أن نحيل القارىء الى الدراسة القصيرة ، لكنها مفيدة ، التى قام بها السيد هنري ماسي بعنوان (الدراسات العربية فى الجزائر من 1830 — 1930) وهي الدراسة التي أخرجها بمناسبة الاحتفال المئوي بالاحتلال، وكذلك الدراسة التي قام بها السيد كور بعنوان (ملاحظات عن كراسي اللغة العربية) فى الجزائر . ونود أن نلاحظ أن الفرنسيين لم يكتفوا بما قام به مترجموهم فى نشر الدراسات الاسلامية العربية عن الجزائر ، بل استعملوا ، كما أسلفنا ، بعض المثقفين الجزائريين لنفس الغرض أيضا . ومن هؤلاء محمد بن أبي شنب ، والعنتري ، والحاج صادق ، وصوالح ، واسماعيل حامد ، ويكفي أن نذكر فى هذا الصدد ترجمات الفرنسيين للكتب التالية : (تاريخ باشوات الجزائر) لابن المفتي ، و (الزهرة النيرة) للتلمساني ، و (غزوات عروج وخير الدين) لمجهول و (الحلل السندسية) و (عجائب الأسفار) لأبي رأس النـاصري ، و (بهجة الناظر) للمشرفى ، و (رحلة الباى محمد الكبير) لابن هطال ، و (رحلة الورتلاني) ، و (رحلة ابن عمار) ، و (كشف الرموز) لابن حمادوش ، و (تاريخ قسنطينة) لابن المبارك ، و (مذكرات) حمدان خوجة ، و (مذكرات بوضربة) و (مذكرات) سي عزيز بن الشيخ الحداد ، و (مذكرات) الحاج أحمد باى قسنطينة ، و (تاريخ بني زيان) للتنسي ، و(تاريخ العدواني) ، و(الفارسية) لابن قنفذ وغيرها . بالاضافة الى العديد من الوثائق والرسائل والشعر الملحون ، وكتب الفقه والنحو والأصول .

واذا كان هؤلاء المؤرخون قد اهتموا بالطرق الصوفية ورجالها وبكتب الفقه والأصول كمصادر للتفكير الأهلي ، فانهم وقفوا موقفا مشبوها من الاسلام ، ذلك أننا لا نجدهم يعترضون على استيلاء الادارة الاستعمارية على ضم الأوقاف الى الدولة (الدومين) ولا على تحويل المساجد الى كنائس ، ولا على تهديم بعضها ، حتى باسم الآثار والحرص على (الوجه الافريقي) للجزائر ، وقد أكثروا فى كتاباتهم من استعمال عبارات «الاسلام الجزائري» و «الاسلام الجزائري الجديد» وهم يعنون بذلك الاسلام كما يمارسه الجزائريون الذين يتهمونهم بأنهم لم يعتنقوه عن وعي ولم يمارسوه عن عقيدة ، وانما هو عندهم نوع من التقاليد الموروثة والفولكلور الذي يظهر فى المناسبات ، ويتجلى هذا الموقف من نعت الفتح العربي (بالغزو العربي) ، ومن التركيز على أحداث تاريخية خاصة كحادثة الكاهنة مع حسان بن النعمان ، وحادثة كسيلة وعقبة بن نافع . وعندما تحدثوا عن هجرة بني هلال تحدثوا عنها « كغارة ذئاب » ، حسب تعبير ستيفان غزال ، على المغرب قصد فرض لغتهم ودينهم على السكان ، وقد تأسف هذا الكاتب على أن الرومان قد أخطأوا عندما لم يحولوا السكان فى شمال أفريقيا الى « مسيحيين لاتينيين » (22) .

ويعزو هؤلاء المؤرخون شدة مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي لا الى الروح الوطنية والنفور من حكم الأجنبي وانما لضيق الأفق والتعصب الديني (23) ، أما ايميل قوتي فقد أطلق اسم « القرون الغامضة » على عهد الامارات الاسلامية فى الجزائر والمغرب من الفتح العربي الى مجيء العثمانيين ، ويتصل بهذه النقطة اعتناؤهم « بقديسي الاسلام » فى الجزائر فقد نشر دوتي كتابا بعنوان (الاسلام الجزائري)

---

22 ــ نفس المصدر ، ص 5 .

23 ــ الفريد بيل ، نفس المصدر ، ص 196 .

ونشر تروملي كتابا بعنوان (قديسو الاسلام الجزائري) واهتم دونوفو ولويس رين وكوبلاني (بالمرابطين والاخوان) ودرس أغسطين بـيرك (المرابطين والعلماء) ، وأخرج مارسيل بودان دراســة عن أحمد بن يوسف المليانى ، وهلم جرا .

والكتابات التي كتبها الفرنسيون عن الامير عبد القادر تتبرأ ، ولكنها لا تخرج فى أغلبها عن الحط من دوره الوطني ، وجعله شخصا متعصبا دينيا فى البداية وصديقا لفرنسا فى النهاية ، وهذا الموقف يلخصه بصراحة كتاب بول أزان المسمى (الأمير عبد القادر من التعصب الاسلامي الى القومية الفرنسية) ذلك ان اسناد دور المدافع الوطني للأمير يبطل عمل فرنسا فى الجزائر ، والغريب أن مؤرخا مختصا مثل جورج ايفير الذي تناول الأمير وعصره فى عدة مناسبات يقول عن الأمير انه لم يكن بطل جنسية عربية فى الجزائر لأنها لم توجد . ولم يكن سياسيا مجددا يهدف الى ادخال الحضارة الأوروبية على مواطنيه الذين كانوا (نصف برابر) ولكنه كان مرابطا طمــوحا أراد أن يحــل نفســه محــل الأتراك . واســتغــل لتحقيــق ذلــك الهــدف غفــلة الفــرنسيــين ونسبــه الشريف وشجاعته الشخصية ، ويضيف ايفير أن الامير قلد الاتراك فى ادارتهم لأنها كانت للأهالي . فملأ خزائنه بالمال مثلهم (الأتراك) واعتمد على حكم القوة ، وقد أخذت فرنسا هذا النظام أيضا وطبقته على الأهالي ولكنها جعلته (أكثر انسانية) وينهى ايفير حكمه على الامير بقوله انه لم يأخذ من الحضارة الأوروبية الوسائل المادية التي تجعله يتخلص بسهولة من أعدائه المسلمين والمسيحيين على السواء (24) ولــم يكــن بــول أزان ، وأنــدري جــوليــان (25) أقــل قسوة فى الحكم على الأمير من ايفير . ونفس الموقف فى الواقع يقفــه

24 — جورج ايفير ، نفس المصدر ، ص 290 .
25 — انظر مقال « الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائري » ص 59 من هذا الكتاب .

الكتابات التاريخية الموضوعية قليلة وسطحية ، وكثير منها عبارة عن نقل عما سبقها (29) . غير أن ستيفان غزال الذي كان يكتب فى نفس السنة تمنى أنّ يرى علماء يكتبون تاريخا عن الاسلام فى شمال افريقيا ، وتاريخا عن المنشآت الاسبانية والبرتغالية فى شمال افريقيا أيضا . وتاريخا كاملا عن الاحتلال الفرنسي ، وتاريخا عن الاستعمار الفرنسي فى الجزائر (30) . هذه اذن هي تمنيات المؤرخ الفرنسي بعد مائة سنة من الاحتلال . الذي يلاحظ على هذه التمنيات ان صاحبها لم يقترح كتابة تاريخ أي جانب من جوانب المجتمع الجزائري (سياسيا ، اقتصاديا ، ثقافيا) . ولكن الذين واصلوا الرسالة بعد 1930 لم يخرجوا عن هذا الاطار الذي تمناه لهم ستيفان غزال .

بعض الاستنتاجات :

ومما سبق يتضح أن الفرنسيين قد كتبوا الكثير عن الجزائر وتناولوا تقريبا كل فرع من فروع المعرفة الخاصة بها . كما أنهم أدخلوا تكنيكا جديدا فى البحث ، واستعملوا طريقة النقد الحديثة للمصادر ، وتوصلوا الى جمع آثار ومخطوطات ووثائق كثيرة عن الجزائر وحفظوها فى المتاحف والمكتبات والارشيفات وأنشأوا الجمعيات العلمية ، وعقدوا اللقاءات والمؤتمرات التي يكشفون خلالها عن اكتشافاتهم ويتبادلون الخبرات والمعلومات ويوثقون الصلات فيما بينهم . وبالاضافة الى ذلك أسسوا الصحف والدوريات التي كانت تنشر ما توصلوا اليه من نتائج وما جمعوه من مواد . وكانت الادارة العامة للجزائر تمدهم بالمال وتوفر لهم امكانيات الانتقال والاتصال والاطلاع ، وتساهم فى تجمعاتهم وفى جمعياتهم وفى طبع انتاجهم . كما كانت الجامعات والمعاهد الفرنسية فى فرنسا تساهم هي الاخرى بامكانياتها البشرية والعلمية والمعنوية فى دفع عجلة البحث

29 — جورج ايفير « التاريخ ومؤرخو الجزائر » . ص 267 .
30 — غزال ، نفس المصدر ، ص 16 .

الذي يقوم به الفرنسيون بالجزائر . وكانت الحكومة الفرنسية أيضا تغطي نشاطهم وتفتح أمامهم مجالات العمل وتشجع على عمل اللجان وتحيي مغامرات الافراد من أجل البحث لأنها فى الواقع هي المستفيدة فى نهاية المطـاف .

ولكن هؤلاء الكتاب والباحثين لم يكونوا مؤرخين بالمعنى الاختصاصي الدقيق للكلمة . كان معظمهم من الهواة ومن كتـاب الثقافـة العامـة والانطباعات والمذكرات ، والتقارير الرسمية . وقد رأينا انهم فى الفترة الأولى كانوا ضباطا عسكريين يجمعون بحماس شديد كل ما تقع عليه أيديهم من مصادر مكتوبة أو شفوية ، ومن آثار قديمة وحديثة . وهدفهم من ذلك الوصول الى فهم السكان الذين يحكمونهم وليس هدفا علميا . وكانوا يحصلون على تلك المصادر بالاغراء تارة وبالقوة تارة أخـرى وبالضغط مرة ثالثة . وتذكر الكتابات أن بيربروجر كان يتبع الجيش حيثما توجه ، وعندما تحتل مدينة يأخذ هو المخطوطات العربية من الزوايـا والجوامع والمكتبات الخاصة ويعود بها الى العاصمة (31) . كما تذكر المصادر أن الجزائريين كانوا يضطرون الى بيع مخطوطاتهم وآثارهم وتحفهم أثناء شهر رمضان الذي تكثر فيه المطالب الاقتصادية (32) .

وكان بعض الباحثين الفرنسيين قد حصل على جواز مرور من الحاكم العام ليجمع المعلومات والكتب من مكتبات الزوايا فى الصحراء . وكان الأهالي يخافون فيقدمون ما عندهم عندما تطلب منهم سلطات المكاتب العربية ذلك . ولعل بعضهم كان يفعل ذلك تملقا وتقربا أيضا ، وهكذا توفرت للباحثين الفرنسيين العسكريين مصادر أهلية استفادوا منها كثيرا فى حكمهم للشعب الجزائري .

---

31 – انظر « المجلة الافريقية » (1856 – 1956) ، ص 195 وما بعدها .
32 – انظر « لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية فى الجزائر » ، سنوات 1846 – 1849 ، ص 196 .

ونفس الظاهرة تنطلق على كتاب العهد الثاني . فاذا استثنينا بعض المؤرخين الاختصاصيين الذين تميزت كتاباتهم بالتحليل والنقد والمقارنة . فان معظم الذين يطلق عليهم (مؤرخو الجزائر) لم يكونوا في الواقع مؤرخين وان كانوا باحثين بالمعنى الواسع للكلمة . خذ مثلا ايميل قوتيي الذي كتب (القرون الغامضة) والذي كتب تاريخ الاستعمار الفرنسي حتى سنة 1930 . انه لم يكن مؤرخا بالمعنى الدقيق . بل كان كاتبا عاما في قضايا الاستعمار والمستعمرات . وكان أساس اهتمامه الجغرافية وطبقات الارض ونحو ذلك . وخذ مثلا آخر جوزيف ديبارمي الذي كتب الكثير عن عادات وتقاليد الشعب الجزائري ، أنه لم يكن مؤرخا هكذا أيضا وانما اهتم أثناء تدريسه بالبليدة ، بالنواحي الفولكلورية الجزائرية ، فركز على هذا الجانب وجمع منه مواد كثيرة في العقائد الشعبية والخرافات ونحوها . وقد كان هدف هؤلاء ، كما كان هدف أولئك ، هو مساعدة الادارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر لكي تسيطر على مقاليد الجزائريين وبالطبع الدعاية للثقافة والوجود الفرنسي بين الجزائريين من جهة وبين الأجانب من جهة أخرى .

ويمكننا تلخيص النواحي الايجابية في أعمال المؤرخين الفرنسيين بالجزائر في النقاط التالية :

1 ـ جمعهم المصادر والآثار وحفظها في المكتبات والمتاحف والسهر عليها والاستفادة منها .

2 ـ نشر كثير من الآثار العربية الاسلامية في لغتهم ، وأحيانا في نصها الأصلي ، وبذلك ساعدوا على بقائها ومكنوا الباحثين منها .

3 ـ استخدام التقنية الحديثة في البحث كتصنيف المواد حسب الاختصاص ، وتنظيم الفهارس ، والكاتالوق ، والتنظيم الأبجدي ، ومصطلح الفترات الزمنية والتصوير ، وما الى ذلك .

4 ــ استعمال وسائل البحث وتشجيع الباحثين ، وشيوع التضامن العلمي بينهم وتبادل الخبرات عن طريق نشر الدوريات والكتب وعقد الملتقيات والمؤتمرات ، وتبادل الزيارات ، وتوفير المادة الضرورية جمع المعلومات ونشرها بأقرب الطرق .

5 ــ وأخيرا نقد المصادر والوقوف منها موقف الشك والتحفظ وهذه النقطة وان كانت ايجابية اذا نظرنا اليها كظاهرة من ظواهر البحث الحديث الا أنهم طبقوها خصوصا على المصادر العربية ــ الاسلامية. فأصبحت وكأنها ظاهرة غير علمية فى هدفها رغم ان أساسها علمي واضح .

أما النواحي السلبية عندهم فيمكن حصرها أيضا فى النقاط التالية :

1 ــ اهمالهم للشعب الجزائري فى تناولهم لتاريخ الجزائر . لقد كتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية من العالم تداولت عليها الدول والشعوب من الفنيقيين حتى الفرنسيين . وليس هناك فى نظرهم « شعب » أو « أمة » أو « كيان » أو « مجتمع متماسك » وانما هناك قبائل متنافرةمتنابزة تخوض حروبا مستمرة . ولا تخضعها الا القوى كالرومان والأتراك والفرنسيين . هذه هي « فلسفة » الفرنسيين فى كتابتهم تاريخ الجزائر وهم لم يطبقوا هذه « النظرية » على عهدهم الذي يبدأ من سنة 1830 ، ولكن على جميع عهود تاريخ الجزائر تبريرا لوجودهم .

2 ــ مجاراة المؤرخين ، عسكريين واختصاصيين ، للسلطة ، ولا سيما الادارةالاستعمارية ووزارةالحربية التي كانت مسؤولة عن الجزائر، وخضوعهم لالحاح وضغط المعمرين ، ونستطيع القول ان هؤلاء المؤرخين كانوا « أصوات » السلطة العسكرية فى الفترة من 1830 الى 1871 و « أسواط » الادارة خلال الفترة المدنية الممتدة من 1871 ــ 1954 . وهذه (التبعية) للسلطة قد أعمتهم عن الحقيقة

وجعلت أعمالهم التاريخية تفقد روح البحث المجرد ، وأصبحت تتميز « بالطابع الرسمي » الضيق .

3 ــ وهذه الظاهرة جعلتهم يركزون فى كتاباتهم على التاريخ الاقتصادي والاداري والعسكري جريا وراء الاستعمار والادارة (عسكرية ومدنية) وتحركات الجيش وقواده . فاذا ما تناولوا قضية دينية أو قبلية أو نحو ذلك فانما ذلك من أجل محاولة السيطرة على أصحابها كما فعل دونوفو بالنسبة للطرق الصوفية مثلا . وبذلك أهمل تاريخ الجزائريين السياسي والثقافى والاجتماعي .

4 ــ اهتم الفرنسيون بالعهد 1830 ــ 1954 وكتبوا عن رجاله وسياستهم وتغير الحكومات الفرنسية واثر ذلك على الجزائر . وعن الهجرات الاروبية الخ . ويأتي فى المرتبة الثانية من اهتمامهم تاريخ الرومان فى الجزائر وتاريخ المسيحية فيها . وأخيرا تاريخ البيزنطيين فيها أيضا ، أما تاريخ العرب والمسلمين ، تاريخ العهد الذي تحرر فيه السكان من القيود الأجنبية وأصبحوا فيه أحرارا يؤسسون اماراتهم ويديرون شؤونهم بأنفسهم فقد ظل عندهم « عهدا غامضا » ، حسب تعبير قوتي . وكذلك فعلوا مع العهد العثماني فى الجزائر . وهو العهد الذي قويت فيه شوكة الجزائر وتوحدت فيه جغرافيا وسياسيا وتمركزت ادارتها .

هذه ، اذن بعض نقاط القوة وبعض نقاط الضعف التي تميزت بها الكتابات الفرنسية عن تاريخ الجزائر خلال الفترة من 1830 الى 1954 . واني أعترف بأن هذه دراسة تفتقر الى مزيد من التعميق ، لأنها فى الواقع أقرب الى المدخل منها الى الدراسة الكثيفة المركزة .

ملحـق (1)

اللجان والجمعيات التي اهتمت بتاريخ الجزائر

1 ــ لجنة التحقيق المعروفة باسم (اللجنة الافريقية) سنة 1833 .

2 ــ لجنة اكتشاف الجزائر العلمي (أصدرت 17 مجلدا) سنة 1838 .

3 ــ جمعية قسنطينة الاثرية (لها مجلة) سنة 1852 .

4 ــ المفتشية العامة للاثار التاريخية والمتاحف الاثرية سنة 1854 .

5 ــ الجمعية التاريخية الجزائرية (لها مجلة) سنة 1856 .

6 ــ أكاديمية هيبون (عنابة) (لها مجلة) سنة 1863 .

7 ــ جمعية وهران الاثرية (لها مجلة) سنة 1878 .

8 ــ مصلحة الآثار التاريخية بالجزائر سنة 1880 .

9 ــ المدارس العليا (منها مدرسة الآداب العليا) سنة 1880 .

10 ــ الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر وشمال افريقيا (لها مجلة) سنة 1896 .

11 ــ جامعة الجزائر (منها كلية الاداب) سنة 1909 .

12 ــ لجنة جونار لنشرالوثائق التاريخية (نشرت مراسلات ووثائق) سنة 1910 .

13 ــ لجنة التحضير للاحتفال المئوي بالاحتلال (نشرت المجموعة المئوية) سنة 1925 .

14 ــ معهد الدراسات الشرقية بالجزائر (له مجلة) سنة 1933 .

15 ــ اتحادية الجمعيات العلمية فى شمال افريقية (نشرت أبحاثها السنوية) سنة 1935 .

16 ــ معهد الابحاث الصحراوية بالجزائر (له مجلة) سنة 1940 .

17 ــ جمعية أصدقاء تلمسان القديمة .

18 ــ جمعية تبسة لما قبل التاريخ والاثار .

19 ــ الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف .

ملحـــق (2)

الجمعيات العضوة في « اتحادية الجمعيات العلمية بشمال افريقية » عام تاسيسها سنة 1935 بالجزائر .

عن الجزائر :

- أكاديميـــة هيبون (عنابة)
- مركز دراسات الاستعمار المقارن .
- معهد الدراسات الشرقية .
- جمعية قسنطينة الاثرية .
- الفرع الجزائري للجمعية الفرنسية الفزيائية .
- الجمعية الاثرية والسياحية لتفاست (سوق اهراس) .
- جمعية جغرافية مدينة الجزائر .
- جمعية التاريخ الطبيعي لمدينة الجزائر .
- الجمعية التاريخية الجزائرية .
- الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف .
- جمعية أصدقاء تلمسان القديمة .
- جمعية وهران للجغرافية والآثار .

عن تونس :

- معهد قرطـاج .
- جمعية سوسة الاثريــة .

عن المغـرب :

- مركز الدراسات القضائية المغربية .
- لجنة دراسات المياه الجوفية .
- جمعية الدراسات الاقتصادية والاحصائية .
- جمعية المغرب الجغرافية .
- جمعية التاريخ الطبيعي بالمغرب .

ملحــق (3)

الاسماء الاجنبية الواردة فى البحث

ملاحظة : تسهيلا للباحثين الذين يريدون الاهتداء بهدا البحث ، أضع هنا قائمة بالاسماء لاجنبية بالحروف اللاتينية حسب الترتيب الابجدي ، ولم أشأ أن أثقل البحث بذكر الاسماء بالحرفين العربي واللاتيني فى ثناياه .

ARNAUD	أرنــو
AZAN, P.	أزان
BASSET, R.	باسى
BERTHEZENE	بيرتزين (قائد عام الجيش)
BERQUE, A.	بيرك
BELLEMARE	بيلمار
BERBRUGGER	بيربرجر
BRESNIER	بريسنيي
BRESSON	بريسون
BROSSELARD	بروسلار
BODIN	بودان
BOISSONNET	بواسوني
BOUTIN	بوتــان
CAGNAT	كانـــا
CARETTE	كاريت
CHARLES, V.	شـــارل 5
CLAUZEL	كلوزيل (قائد عام الجيش وحاكم عام)
COPPOLANI	كوبلاني
COUR, A.	كــور

DAUMAS	دوماس
D'ERLON	ديرلون (حاكم عام)
DELAMARE	ديلامار
DE NEVEU	دونوفو
DE SLANE	دي سلان
DIEHL	ديـــل
DESPARMET, J.	ديبارمي
DEVOULX	دوفـــو
DUBOIS-THANVILLE	ديبوا ــ تانفيل
EMERIT, M.	ايميريت
FERAUD, CH.	فـــيرو
FOURNEL	فورنيـــل
GAUTIER, E.F.	قوتـــي
GRAMMONT (DE)	غرامـــون
GSELL	غـــزال
HANOTEAU	هانوتو
HAEDO	هايدو
JONNART	جونار (حاكم عام)
JULIEN CH. A.	جوليان
LACROIX, N.	لاكروا
LETOURNOU	لوتورنو
LUCIANI	لوسياني
MARÇAIS, G.	مارسي ، جورج
MARCAIS, W.	مارسي ويليام
MARSQUARY	ماسكاري
MASSET, H.	ماسي
MONCEAUX	مونصو
KERCY	كيرسي
PANNANTI	باناني
PELLISSIER (DE REYNAUD)	بيليسي

PERES, H.	بيريس
RANDON	راندون (حاكم عام)
RENAUDOT	رونودو
RINN, L.	ريـن
ROBIN	روبـان
ROVIGO	روفيقو
SCIAVI	شيافي
SEROKA	سيروكـا
SHALER	شيلـر
SHAW	شـو
TRUMELET	ترملـي
VENTURE DE PARADIS	فانتور دي بارادي
VOIROL	فوارول (حاكم عام)
W. ESTERHAZY	ويلسن - ايسترهازي
YACONO, X.	ياكونو
YVER, G.	ايفـير

* نشر هذا البحث في مجلة (الأصالة) ، العددان 14 ، 15 سنة 1973 .

عن تدوين تاريخ الثورة وتنظيرها

أحب فى البداية أن أبرز أهمية هذه الأسئلة . فالنقط الثلاث التي ذكرتموها وهي تدوين تاريخ الثورة ، وقضية تنظير الثورة ، والفصل بين قدرة المثقف وتجربة المناضل ، اعتبرها فى صميم المشاكل الفكرية التي تعيشها ثورتنا بشجاعة ، كما أحب أن أنبه الى أن اجابتي لن تكون سوى محاولة لمعالجة هذه النقاط ، ولا تطمح أبدا أن تكون قد وضعت الحل النهائي أمام كل نقطة .

أ ــ ضرورة تدوين تاريخ الثورة

يمكن القول وبلا مبالغة بأن الثورة الجزائرية هي أعظم ثورة قام بها انسان العالم الثالث ، وهي فى نفس الوقت من أعظم ثورات العصر الحديث ، ولكن هذا القول سيظل مجرد ادعاء اذا لم تدعمه الوثائق والوقائع . ومن هنا تبرز أهمية تدوين تاريخ الثورة . حقا أن بعض الأجانب قد استغل الفراغ فى هذا الميدان وراح ينشر ما يزعم أنه تاريخ الثورة الجزائرية ، ولكن نظرة بسيطة الى هذا الانتاج تفند هذا الزعم . وقد أتيح لي أن أطلع حديثا على بعض هذا الانتاج

1 ــ جواب المؤلف على أسئلة طرحتها عليه مجلة (الجيش) بمناسبة الذكرى العاشرة لاستقلال الجزائر ، وقد نشرت المجلة الجواب فى عدد نوفمبر 1972 ، ثم ترجم ونشر فى نسخة اللغة الفرنسية من المجلة ، عدد جوان 1973 .

فوجدته الى الهراء أقرب منه الى التاريخ ، والى الدعاية المضادة أقرب منه الى الحقيقة .

ولكن السؤال هو عن دور الجزائريين فى تدوين تاريخ ثورتهم . وهنا أود أن أبدى بعض الملاحظات أولها ، أن الجزائريين عامة قليلو الكتابه اذا قيسوا بالشعوب الأخرى . وهذه ملاحظة أبداها ابن خلدون عند حديثه عن أهل المغرب العربي بالمقارنة الى أهل المشرق . ثانيها روح الحذر والحساسية التي تميز الجزائري ، فهو عادة يريد أن يتأكد مما يقول أو يكتب ، وكما هو قليل الكلام كذلك هو قليل الكتابة حذر فى أحكامه شديد الحساسية نحو الآخرين . ثالثها حداثة الثورة نفسها ، فبالرغم من أنه قد مضى عليها ثمانية عشر عاما فان هذه الفترة لا تعتبر فى نظر التاريخ سوى ثانية فى ساعة الزمن الأبدية . رابعها ما تمتاز به حياتنا الحاضرة من مجاملات فى مختلف المجالات ، ولا سيما فى مجال الفكر . ألا ترى ركود الحركة الأدبية ؟ ألا ترى ركود الحركة الفنية ؟ ألا ترى خمول التفكير السياسي ؟ كل ذلك فى نظري نتيجة لروح المجاملة والمراعاة والحذر التي تطبع علاقتنا ببعضنا . وليس العزوف عن تدوين التاريخ ، وتاريخ الثورة بالذات ، سوى جزء من هذه الظاهرة . أليس تدوين تاريخ الثورة يعني الحكم على أناس وأحزاب ومنظمات ومواقف ؟ .

والواقع أنه يجب التفريق بين عدة أنواع من الكتابة التاريخية . ومن الممكن حصر هذه الأنواع فى ثلاثة : الكتابة الرسمية ، والكتابة الشعبية ، والكتابة العلمية .

1 ـ الكتابة الرسمية :

ونعني بها قيام الدولة نفسها بالعناية بتراث الثورة ونشره وتفسيره تفسيرا يحمل فلسفتها (الدولة) ويظهر مواقفها الايديولوجية واتجاهها

نحو المستقبل على ضوء فلسفة الثورة نفسها . وقد فعلت ذلك روسيا مع ثورتها فقامت أجهزة الدولة ، كل فى ميدانه ، بتأليف الكتب ووضع دوائر المعارف وتاريخ الثورة بالمفهوم الذي تراه هي . وأصبح الناس يقرأون تاريخ الثورة الروسية من هذه المصادر ، ولكن على أنه يحمل وجهة النظر الرسمية . والمهم هو أن الدولة لم تترك الفراغ الذي يدخل منه الأجانب ، أو حتى أبناؤها المنحرفون ، لاستغلاله ، وتشويه مبادىء الثورة من خلاله .

2 ـ الكتابة الشعبية :

ونعني بها قيام الكتاب عامة ، أي غير الاختصاصيين ، أمثال علماء السياسة ، والصحافيين ، والأدباء ، وكتاب الوقائع الراغبين ، بكتابة تاريخ الثورة الجزائرية والاشادة بسوابقها ، واظهار أصالتها وسمو أهدافها ، وبذلك تغزر المادة ويقرأ الناس تاريخ الثورة بأقلام أبنائها ، وينسد الفراغ فى وجه الأجانب والموتورين ضد الثورة الحاقدين من نجاحها . وقد أنتجت الثورة الفرنسية أعدادا ضخمة من الكتاب الذين ينتمون الى هذا الصنف من كتاب الرومانتيكية والليبرالية الذين لم يكونوا أبدا مؤرخين بالمعنى العلمي الاختصاصي للكلمة ، ولكنهم مع ذلك أنتجوا مئات الكتب والروايات والوثائق التي خلدت الثورة وكشفت عن حقيقتها من وجهة نظر شعبية عامة ، ومثل ذلك يقال فى كتابات أنصار الثورة الروسية .. من أعضاء الأحزاب الشيوعية فى العالم (حركة الكومنتيرن) .

3 ـ الكتابة العامية :

ونعني بها البحث الاختصاصي المجرد القائم على دراسة الوثائق والحكم من خلالها على سير الأحداث التاريخية . وهذا النوع ما زال فى نظري لم يحن وقته بعد . وذلك لعدم توفر المادة التاريخية اللازمة للحكم فالوثائق ما زالت مخزنة أو بعيدة المنال على المؤرخ .

والأشخاص الذين مثلوا الثورة وعاشوها مازالوا أحياء يرزقون . وكل واحد منهم يعتقد أنه يملك مفتاح التاريخ وأن ما فعله هو عين الصواب ، ومثل ذلك يقال فى الأحزاب والتجمعات . بالاضافة الى أن المؤرخ نفسه سيكون متأثرا بالأحداث التي عاشها ، لأنه يفتقر الى البعد الزمني الكافي الذي يجعله يحكم بتجرد وببرودة هادفا الى الوصول الى الحقيقة العلمية .

غير أنه يمكن ، أمام الفراغ الحالي ، القيام بحركتين فى هذا الميدان: الأولى جمع مادة تاريخ الثورة من مختلف المصادر (الشفوية ، والمكتوبة) وتصنيفها وتهيئتها للاستغلال من جانب الباحثين ، والثانية الشروع فيما يمكن أن نسميه بوضع « تاريخ شعبي » للثورة الجزائرية يحمل الى القارىء الحقائق الكبرى للثورة لكن فى قالب عاطفي أو سياسي وليس فى قالب علمي جاف .

ب ـ قضية تنظير الثورة

تنظير ثورة ما ، بمعنى وضع نظرية فلسفية لها ، عملية عفوية تنبع من تطورات اجتماعية واقتصادية معينة . ولا يمكن أن تتفق جماعة أو فرد مع نفسه على وضع أسس نظرية لثورة من الثورات . ذلك أن الثورة فى الواقع هي تقمص وبلورة لفكرة أو لمجموعة من الأفكار كانت فى وقت من الأوقات ضائعة أو مضطهدة ، فتأتي الثورة وتتبناها وتبعث فيها الحياة وتعطيها قوة الحركة ، وحتى قوة الاعتداء والتسلط. وهذا ما حدث بالنسبة للمذاهب الكبرى التي أصبحت ممثلة فى ثورة من الثورات . وعلى سبيل المثال نذكر أن الثورة الفرنسية كانت نقطة تجسيع الأفكار البرجوازية والطبقات الوسطى منذ بدأت فى الظهور

أثناء النهضة الأروبية . كما أن الثورة الروسية (أو الصينية أيضا) كانت تتويجا وتطبيقا لمجموعة من الأفكار والمواقف التاريخية التي تعكس ، فى نظر أصحابها ، آمال الجماهير الكادحة من عهد الرومان الى القرن العشرين ، والتي فلسفها الاشتراكيون خلال القرن التاسع عشر ملتفين حول زعيمهم ماركس . ان زرع الفكرة عمل فردى وليس جماعيا . وتظل الفكرة الصالحة حية خامدة فى تربتها الى أن تجد من يتعهدها فتنمو وتزدهر وتظهر فى شكل مذهب اه قوة المقاومة وآحيانا فى شكل ثورة دموية .

وليس من الضروري أن تسبق النظريات الثورة . فقد يحدث أن يقوم شعب من الشعوب بثورة ليس لها فلسفة واضحة وبعد أن تهدأ الثورة يشرع فى فلسفة مواقفه واعطائها تفسيرات تصبح على مر الزمن نظريات عميقة تستوحي منها الأجيال اللاحقة مواقفها وسلوكها . وقد حدث هذا للثورة الأمريكية . فهذه الثورة لم تكن فى البداية قائمة على أسس نظرية بارزة لا دينية ولا دنيوية ، ولكن أصحابها قد حاولوا ، ولا سيما بعد أن ظهرت آمريكا كدولة كبرى ، أن يضعوا لها نظريات وأن يقرنوها بالديمقراطية والحرية الفردية وغيرها لكي تستطيع الوقوف فى وجه تيار الشيوعية والاشتراكية المقابل . ونحسب أن الثورة الصينية تحاول من خلال ثورتها الثقافية وغيرها صيننة نفسها ، أي وضع نظريات صينية (ماوية مثلا) محضة .

ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ بأن المعاصرة قد تحجب الوجه النظري لثورة من الثورات ، فالأسس النظرية للثورة الفرنسية مثلا لم يضعها المعاصرون لها ، ولكن وضعتها الأجيال اللاحقة . كما تجدر الملاحظة الى أن أية ثورة كبرى ، يجب ، لكي لا تنطوي على نفسها وتذبل ، أن تخرج من اقليميتها ووطنيتها الضيقة ، فالثورة هي قبل كل شيء فكرة ، والفكرة يجب أن تنتشر وتعم اذا كان أصحابها يؤمنون

بأنها صالحة أكثر من غيرها لتقدم الانسان . والفكرة الصالحة لا تعترف بالحدود الجغرافية ، فاذا لم تجتز هي الحدود غزتها فكرة أخرى فى عقر دارها .

وقد عبرت الثورة الجزائرية حتى الآن عن آمال الانسان المضطهد فى كل مكان . ووضعت لنفسها مبادىء مستوحاة من التاريخ الجزائري ومن نضال الانسان ، تقوم على التحرير عن طريق القوة والعقيدة معا ، والقيادة المشتركة . والتحول الاجتماعي المادي دون التضحية بالعوامل الروحية ، وتحقيق العدالة الاجتماعية دون الدخول فى متاهات الصراع الطبقي . ولكن هذه (المبادىء) ما زالت محلية خاصة بنا . ولم تصبح بعد (نظريات) يستلهمها ويقتدي بها غيرنا . وأعتقد أن نجاح الثورة هو الكفيل بتحويل الخاص الى عام والمبادىء الى نظريات . وعلى الثورة أن تقنع الكتاب وأرباب الفكر بأهمية مبادئها وفعاليتها وانسانيتها أيضا ، ذلك أنهم هم الذين يصنعونها فى قوالب نظرية خالدة سواء فى ديوان شعر حالم ، أو فى كتاب فلسفي جاف ، أو فى رسالة سياسية ثائرة . وهذا يقودنا حتما الى السؤال الثالث . وهو دور المثقف .

ت ـ قدرة المثقف وتجربة المناضل

تختلف الثورة الجزائرية عن بعض الثورات الأخرى فى أنها ثورة جماهيرية . فقادة الثورة الفرنسية كانوا من البرجوازية الساخطة على الاقطاع ، وقادة الثورة الروسية كانوا « نخبة » مثقفة مفكرة هالها انغماس الارستقراطية الروسية والبرجوازية الأوروبية فى العفونات الاجتماعية والفساد السياسي . أما قادة الثورة الجزائرية فقد كانوا فى معظمهم من عناصر الفلاحين والعمال الذين أصبحوا وطنيين ثائرين على الظلم والاضطهاد تحت النظام الاستعماري ، والمثقفون القليلون الذين

صعدوا الى مركز القيادة فى الثورة قد انضموا اليها انضماما بعد أن رأوا اتجاه التيار الثوري . بعضهم عن اقتناع لكن بعد تردد . وبعضهم عن خوف . وقليل هم أولئك المثقفون الذين عاشوا الثورة ومارسوها نظريا أو فى ميدان القتال . وقد نتج عن هذا التوازن بين العمل والفكر بالنسبة للثورة الجزائرية أو بين النظرية والتطبيق . أو بعبارة أخرى أن العمل أثناء الثورة كان يقود الفكر وليس العكس .

هذا زمن الثورة نفسها . أما الآن فأعتقد أن هناك جيلا صاعدا من المثقفين قادرا على تمثل التجربة الثورية للمناضل والتعبير عنها عمليا ونظريا معا . وليس من الضروري أن يكون المثقف قد عاش الحدث جسميا لكي يتمثله ويصوغه . ولو كان الأمر كذلك لما استطاع أن يكتب تاريخ فترة من الفترات الا الذين عاشوها وتفاعلوا معها ، مع أن الأمر ليس كذلك . فالتاريخ الحق هو الذي تكتبه الأجيال اللاحقة وليس ذلك الذي يكتبه بعض المعاصرين المتأثرين بالعلاقات الشخصية والايديولوجية والحزبية .

على أن هناك عملية مزدوجة يجب أن تكون متكاملة ، وهي أن يجمع المثقف من أفواه المناضلين المجربين تجاربهم وأن يصوغها صياغة نابضة بالحياة كأنها تجاربه الذاتية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى على الثورة أن لا تعزل المثقفين وتجعلهم يعيشون على هامشها . فالعملية أولا وقبل كل شيء هي عملية اقتناع بالثورة وولاء لها ، وهذا لا يكون عن طريق العزل أو القهر . ان تبني المثقف للثورة هو الذي سيجعله قادرا على ملء الفراغ الذي يعاني منه تاريخ الثورة ، على الأقل الشعبي منه ، كما يجعله قادرا على هضم المبادىء الأساسية للثورة وصياغتها فى قوالب نظرية قد تكون أساسا لانطلاقة فكرية جديدة للثورة . واذا كان للفصل بين قدرة المثقف وحرارة تجربة المناضل مبررات أثناء الثورة ، فلم يعد له اليوم فى نظري مبرر . ففي مقدور الشاعر الثوري أن يعيش

تجارب المناضلين بالأمس واليوم ، وفى مقدور القصاص الثوري أيضا أن يختلط بالجماهير وأن يعرف عن كثب نبض حياتها ماضيا وحاضرا ، وكذلك فى مقدور الفنان ونحوه من المثقفين المبدعين .

لكن يلاحظ أنه بالرغم من الحديث الكثير عن الثورة الثقافية فى بلادنا ، فان التركيز واقع اليوم على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية أما الجوانب الفكرية والثقافية فتكاد تكون مهملة . لذلك لا نستغرب أن يقع الخلل بين تجارب الجماهير وبين تعبير المثقفين ، وأن نشكو من كثرة العمل وقلة الفكر ، وأن يظل تاريخ الثورة بدون تدوين ، بل أن تظل الثورة نفسها بدون نظريات فلسفية . ولا يكفي فى هذا المجال انشاء الوزارات ، وخلق المراكز ، بل يجب تهيئة الجو وايجاد الامكانيات ووضع برنامج عمل .

فى التجربــة التاريخيــة

حضرة الكاتب العام لوزارة التربية :

زملائي الأساتذة :

سيداتي سادتي :

كأني بالأصدقاء المشرفين على هذا اللقاء قد اختاروا هذه العشية بالذات ، عشية الخامس من جويلية ، التي تجمع بين ترحــة الاحتلال وفرحة الاستقلال ، لتكون هي المناسبة التي يحتفــون فيها بكتــاب « الحركة الوطنية الجزائرية » الذي يتخذ ، فى الواقع ، نقطة انطلاقه من هذا اليوم التاريخي .

واذا جاز لي أن أربط الماضي بالحاضر فيجب علي أن أعترف بأن الكتاب المحتفى به مدين لشهداء 1830 وشهداء 1954 . فأولئك أمدوه بالمادة وهؤلاء أمدوه بالحيوية . ذلك أنه اذا كانت التجربة الانسانية فى أوسع معانيها هي حقل المؤرخ فان النضال من أجل الحرية هو أخصب حقل لهذه التجربة . ورغم أن الكتاب لم يتناول الحاضر هكذا ، فان مؤلفه كان يشعر أن عليه واجبا نحو الثورة التي كانت عندئذ فى قمتها ،

1 ـ نشرت فى (المجاهد الثقافى) عدد 9 ، 1969 ، وقد ألقيت هذه الكلمة أثر حفلة تكريم أقامها لي نخبة من الاصدقاء بتاريخ الرابع من يوليو سنة 1969 بمناسبة صدور كتابي (الحركة الوطنية الجزائرية) ، وقد تحدث خلالها زملائي الدكتور عبد الله ركيبي ، والدكتور أبو العيد دودو ، والاستاذ محمد الميلي ، بالاضافة الى الاستاذ عبد الرحمن شريط بصفته أمينا عاما لوزارة التربية عندئذ ، فلهم جميعا أكرر شكري وامتناني .

لا فى الدعاية الحاضرة لها ، لكن فى البحث عن أصولها والتعرف على آثارها فى الماضي . ولكيلا تختلط العاطفة الذاتية بالحقيقة التاريخية وقف الكتاب عند سنة 1930 .

ومثل ملايين الجزائريين فى عهد الاحتلال لم أدرس تاريخ الجزائر فى المدرسة . فلم أتأثر مسبقا بنظريات أو فلسفة معينة نحو هذا التاريخ .

ثم جاءت الثورة فأذكت فى النفوس الرغبة فى التعرف على الماضي ، على أساس أن أية ثورة عظيمة لا يمكن أن تقوم بدون أبعاد تاريخية . وظلت نفس الفكرة تنعكس على انتاجي الأدبي ، الى أن لـوحت بي الأقدار فى بلاد بعيدة عن الجزائر وعن مراكز الثقافة العربية الاسلامية التي كان المرء يحس بالانتماء اليها والدفء فيها . فازداد عندي الشعور بالغربة والحنين الى الوطن ، ونمت لدي المعارف التاريخية بالدراسة والمخالطة واتقان لغات أجنبية ، والتعرف على أحوال الأمم الأخرى . وارتبط كل ذلك بما كان يجري عندئذ فى الجزائر .

ولكن ظاهرة الجهل بتاريخ الجزائر بقيت . فأساتذتي كانوا يدرسون لي تاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ أروبا ونهضتها وثوراتها العلمية ، والسياسية ، والقومية والاقتصادية ، بل كان يخيـل الي أنهم كانـوا يدرسون لي كل بلد ما عدا الجزائر . وكنت أتساءل مع نفسي : لماذا ذلك ؟ أليس للجزائر تاريخ يستحق الذكر ؟ هل أنساب أنا أيضا مع التيار فأكتب رسالة عن موضوع جاهز مكرر ؟ وبعد تجربة قاسية على النفس قررت أن أختار موضوع رسالتي عن تاريخ « الحركة الوطنية الجزائرية » رغم بعد الدار وقلة المراجع وجدة البحث فى الموضوع .

طالما تحدث المؤرخون عن الموضوعية . وطالبوا بأن يكون المؤرخ متجردا فى أحكامه ، بعيدا عن الأهواء والتأثيرات الخارجية ، باحثـا عن الحقيقة حيثما وجدها ، مصدرا أحكامه مهما كانت قاسيـة ضـد

الذين يكتب عنهم أو ينتسي اليهم مستخرجا حججه من النصوص والوثائق والآثار . مستخدما فى ذلك ولذلك كل ما لديه من شروط ووسائل العلم والنقد الداخلي والخارجي . هذا هو مبدأ علم التاريخ كما تطور من هيرودوت الى توينبي مارا بابن خلدون : اعادة بناء واحياء الماضي كما كان لا كما يريده الفرد أن يكون .

ولكن كيف تطبق هذه الطريقة على الجزائر ؟ ان المؤرخ هنا فى حيرة فاذا استثنينا بعض المحاولات العابرة فانه يمكن القول بأن الجزائر بلاد بلا مؤرخين . والذين تناولوا تاريخها كانوا فى الغالب غير مرتبطين بها تاريخيا ، بل كانوا أعداء لها سياسيا أو ثقافيا . ومن سوء حظ الجزائر الماضية أن أبناءها لم يسجلوا احداثها الا قليلا ولم يهتموا بدراسة تاريخها . ومن هنا جاءت مشكلة الوثائق وندرة المراجع عن هذه البلاد . ولذلك أيضا كان على الباحث فى تاريخ الجزائر أن يعود ، ولا سيما فى فترة القرون الأربعة السابقة الى ما كتبه الأجانب من ملاحظات ورحلات ورسائل ومذكرات ، رغم ما فيها أحيانا من نقص واجحاف .

أصدقائي الأعزاء . .

ليس من هدفي أن أحاضركم عن تجربتي مع التاريخ أو عن تطور الدراسات التاريخية فى الجزائر . ان العمل الصحيح هو الذي تثبته الأيام . والتجربة الصادقة هي التي تستهدف الحقيقة مهما كانت الظروف . ولقد تفضلتم بالتكريم فأفضتم ، فوجب علي الشكر الخالص والاعتراف بالجميل . واني أعتبر هذه اللفتة منكم تنويها بكل الجهود المخلصة التي تهدف الى الكشف عن ماضي هذه البلاد ، وتقديرا منكم للبحث العلمي النزيه الذي هو ضالة كل مثقف شريف .

واسمحوا لي أن أختم كلمتي عن كتابي تاريخ « الحركة الوطنية الجزائرية » بما قدم به المؤرخ الألماني ليوبولد رانكي كتابه « تاريخ

الأمم اللاتينية والألمانية » حين قال : انه « يظهر لي (يعني كتابه) أكثر كمالا قبل طبعه منه الآن بعد طبعه . ومع ذلك فاني معتمد على القراء الذين سيغضون النظر عن نقائصه أكثر من اعتمادي على امكانية فضائله .. انني أعرف الى أي مدى عجزت دون تحقيق هدفي . ولكن على المرء أن يسعى وأن يناضل ، وليس عليه أن يحقق هدفه . ويجب أن لا يصطدم أحد بذلك ، لأن أهم شيء هو دائما الموضوع الذي نتناوله .. وهو الانسانية كما هي ، ممثلة في حياة الأفراد والأجيال والأمم ، وفي بعض الأحيان ممثلة في قدرة الله التي هي فوق الجميع . » (ص 55 ، 57 — 58) .

والسلام عليكم ..

بعد ظهر يوم 4 جويلية 1969 .

الحركة الوطنية الجزائرية : 1900 ـ 1930

هناك سببان جعلاني أختار هذا الموضوع كرسالة دكتوراه * ، الأول هو احتكار الفرنسيين ، منذ أكثر من قرن ، لكتابة وتفسير تاريخ الجزائر ، والثاني هو عدم وجود أية دراسة جادة للحركة الوطنية الجزائرية حتى الآن .

وقد اخترت بالذات هذه الفترة (1900 — 1930) لأنها من ناحية كانت دائما مهملة من طرف من أرخوا للجزائر ، ولأنها من ناحية أخرى قد مثلت مرحلة جديدة فى تاريخ الحركة الوطنية . لقد بدأت بحملة من أجل اليقظة والمحافظة على الخصائص الذاتية للجزائر وانتهت بظهور الاتجاه الانفصالي الذي رفض كل مساومة مع الفرنسيين .

وقد اتبعت فى كتابة هذه الأطروحة قاعدة ثابتة . فكل فصل يبدأ عادة بمدخل عن السياسة الفرنسية خلال المرحلة المدروسة ، ويتلو ذلك بحث مفصل عن رد الفعل الوطني لهذه السياسة ، ثم خلاصة . وعلى هذا الأساس درست الأطروحة الحركة الوطنية من خلال مظاهرها الثقافية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والعسكرية المختلفة . كما أنها قد احتوت على تراجم شخصية مختصرة للأفراد الذين أثروا فى هذه الحركة .

---

* خلاصة أطروحة دكتوراه نشرت فى « ديسيرتيشن أبستراكتز » م 27 ، عدد 3 ، 1966 ، ثم ترجمت ونشرت فى « المجاهد » الجزائرية ، عدد 300 (19 فيفري 1967) ، وفى (مجلة تاريخ وحضارة المغرب) عدد 4 ، يناير 1968 .

وبالاضافة الى علاقة الجزائر بفرنسا ، فان الأطروحة قد درست علاقة الحركة الوطنية بعدة ايديولوجيات وقوى معاصرة ، من ذلك علاقتها بحركة الجامعة الاسلامية ، والشيوعية ، والديمقراطية ، والقومية العربية ، والقوات المركزية (ألمانيا والامبراطورية العثمانية خلال الحرب الأولى) .

ونظرا الى انعدام البحث التاريخي فى الفترة المشار اليها ، فقد عولت فى دراستي ، فى معظم الأحيان ، على مصادر أولية (خام) كتبها ملاحظون معاصرون للحركة الوطنية . ولكي أملأ الفراغ ، ترجمت عدة وثائق هامة عن الحركة الوطنية من العربية والفرنسية الى الانكليزية . وقد وضعت هذه الوثائق فى شكل ملحقات للأطروحة . كما دونت معجما بالكلمات العربية الواردة فى الأطروحة ، وعلاوة على ذلك فان الأطروحة قد اشتملت على بعض الاحصائيات الهامة الخاصة بالحركة الوطنية .

وبعد اختبار جميع الوثائق الموجودة ، انتهت الأطروحة الى النتائج التالية :

1 ــ خلال الفترة المدروسة (1900 ــ 1930) كانت الجزائر فى غليان دائم ظهر فى التمردات العسكرية والاضطرابات السياسية ، والنشاطات الثقافية .

2 ــ ان الاحتلال الفرنسي لم يخلق الوطنية الجزائرية ولكنه أيقظها وقواها فقط .

3 ــ لقد قامت هذه الوطنية برد فعل عنيف ضد الاحتلال الأجنبي . ورغم أن الاجراءات المضادة التي اتخذها الاحتلال ضدها قد أضعفتها حقبة ، فانها قد ظهرت مرة أخرى فى آخر القرن الماضي مستعملة تكنيكا جديدا وضغطا قويا ضد الاحتلال .

4 — لقد كان الحاق الجزائر بفرنسا سنة 1834 . واصدار قانون مجلس الشيوخ (ساناتو كونسيلت) سنة 1865 ، وقانون الأهالي (كود دي لانديجينا) سنة 1881 ، وانشاء محاكم الاضطهاد (تريبينو ريبريسيف) سنة 1902 . والتجنيد الاجباري سنة 1912 — لقد كان ذلك كله خرقا للاتفاق المبرم سنة 1830 بين الجزائر وفرنسا . كما كان خرقا لجميع المبادىء الديمقراطية .

5 — من الممكن أن يقال بأن أصول حركة الجامعة الاسلامية والقومية العربية تعود الى الحركة الوطنية الجزائرية .

6 — ان الحكم الفرنسي فى الجزائر كان فذا ، متناقضا ، اضطهاديا ، سلبيا .

7 — لم يكن المعمرون الفرنسيون (الكولون) هم وحدهم المسؤولين على فشل السياسة الفرنسية فى الجزائر . ان الفرنسيين الآخرين يتحملون مسؤولية ذلك الفشل أيضا .

8 — كانت مساعدة القوات والايدولوجيات الأجنبية للحركة الوطنية الجزائرية ضئيلة وغير حاسمة .

9 — ان طلب الجزائريين للمساواة مع الفرنسيين لم يكن ضد الوطنية . لقد كان مجرد وسيلة لحماية حركتهم من القوانين الاستثنائية. فاذا أخذنا فى الاعتبار الشكل الفذ للحكم الفرنسي فى الجزائر ، نجد أن ذلك الطلب كان خطوة منطقية ، فى تطور الحركة الوطنية .

10 — ان مقاومة الجزائريين للاندماج بمحافظتهم على قوانينهم الشخصية يجب تفسيرها على أنها ، فى حد ذاتها ، موقف وطني ايجابي .

11 ــ لم يكن وجود الثقافة الفرنسية فى الجزائر مصدر انعاش وترقية للثقافة الوطنية ، بالعكس ، لقد تسبب ذلك فى اضطهادها .

12 ــ ان غياب أية قوة تتنافس مع فرنسا على الجزائر ، والاعتقاد بأن الأخيرة كانت مقاطعة فرنسية ، قد ساعدا على عزلة الحركة الوطنية .

ولكن المؤلف لا يدعى بأنه قد طور موضوعه نهائيا . ان هذا الموضوع ما يزال فى حاجة أكيدة الى أبحاث اضافية . واذا كانت هناك أية مساهمة قامت بها الأطروحة ، فهي القاؤها بعض الضوء على فترة كانت الي الآن غامضة ، وعلى بلاد ظلت طيلة أكثر من قرن فى عزلة مفروضة .

الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائري *

لا شك أن مؤلف كتاب « تاريخ الجزائر المعاصرة » (1) الأستاذ شارل أندري جوليان معروف لدي عدد كبير من المثقفين الجزائريين والعرب . فهو من بين المؤرخين الذين حاولوا أن ينصفوا الجزائريين فى كفاحهم ضد الاستعمار الفرنسي . وهو معروف بالاتجاه الاشتراكي والاطلاع الواسع والصراحة فى الرأى والاهتمام بقضايا شمال افريقية (2) . والظاهر أن « تاريخ الجزائر المعاصرة » هو أول عمل لجوليان بعد استقلال الجزائر . وقد استقبل الجزائريون هذا الكتاب استقبالا يليق بسمعة المؤلف وضخامة العمل . فأعلنت عنه الصحافة الوطنية (3) . وراجعه بعض الكتاب الجزائريين (4) . ومن المؤكد أن بعض الأساتذة قد أوصوا به الى طلابهم .

1 ـ تاريخ الجزائر والاسلام :

كل جزائري وكل مؤرخ منصف يعتقد أن دخول الاسلام الى الجزائر كان عامل وحدة خالدة . فقد منح الاسلام للجزائريين العقيدة التي وحدت سلوكهم واتجاههم ، واللغة التي وحدت تفكيرهم

---

* بحث نشرته مجلة « المعرفة » الجزائرية ، عدد 19 (ماي ـ جوان ، 1965 ، السنة الثانية ص 10ـ23 .

1 ـ نشر صحافة فرنسا الجامعية (باريس ، 1964) 632 صفحة ، الجزء الاول 1827 ـ 1871 .

2 ـ من أهم كتبه فى هذا الموضوع « افريقية الشمالية الزاحفة » (باريس ، جوليارد ، 1952) 416 صفحة .

3 ـ انظر مجلة « ريفولوسيون أفريكان » (19 ديسمبر 1964) رقم 99 .

4 ـ المصدر السابق (26 ديسمبر 1964) رقم 100 .

شعورهم ، والايمان الذي وحد حركتهم وانفعالهم . كما غرس فيهم مبادىء الحرية والتضحية والايثار . وبالتالي فقد أعطى الاسلام للجزائريين حضارة كاملة تقوم على العربية كوسيلة تفكير وتعبير ، وعلى الدين كطريقة حياة وسلوك . ولم يتقبل الجزائريون هذه الحضارة فقط ، بل ساهموا مساهمة فعالة فى تقويتها وتسكينها . ولذلك فان كل من يؤرخ للجزائريين دون أن يشير الى دورهم العملاق فى التشييد والدفاع عن الحضارة العربية ــ الاسلامية فانه يغمطهم حقهم .

ولكن المؤرخين الاستعماريين قد حاولوا أن ينالوا من رسالة الاسلام فى الجزائر . فقد وصفوا حامليه بالعدوان . واتهموا معتنقيه بالتعصب . وحاولوا خلق العنصرية والطائفية لذبذبة الأفكار وضعضعة الوحدة . وجوليان ، كما سترى ، لم يسلم من الانحراف فى هذا التيار .

خلال فترة الاحتلال الفرنسي اعتاد المؤرخون الاستعماريون أن يكتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية وليس عن الجزائريين كسكان لهذه المنطقة . ومن الواضح أن هنالك فرقا كبيرا بين التناولين . فالذين يؤرخون للجزائر كمنطقة جغرافية يتناولونها على أنها جزء من العالم تداولت عليه الأمم وتعاقبت عليه الحضارات ، وهي لذلك ، فى نظرهم ، بلاد مفتوحة لكل من يريد التوسع والاستعمار . ومن أجل ذلك اعتادوا أن يؤرخوا للفنيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين والأتراك والفرنسيين فى الجزائر دون اهتمام بالجزائريين أنفسهم كقوة فعالة تؤثر وتتأثر .

وقد اتبع جوليان هذا الطريق ، فمما لا ريب فيه أن هناك طريقتين لدراسة تاريخ الجزائر فى عهد الاستعمار الفرنسي (1830 ــ 1962) . الأولى هي تناوله على أنه جزء من تاريخ فرنسا نفسها . والثانية هي

تناوله على أنه جزء من تاريخ الجزائريين • وقد سار جوليان فى كتابه « تاريخ الجزائر المعاصرة » على الطريقة الأولى • فهو لم يؤرخ للجزائريين وانما للقوة الاستعمارية التى احتلت الجزائر • وما دام جوليان قد كرس كل كتابه تقريبا لدراسة الشخصيات والنظم والقوانين الفرنسية فى الجزائر فقد كان الأولى به أن يسمى كتابه « تاريخ فرنسا فى الجزائر » بدل « تاريخ الجزائر المعاصرة » •

2 ـ الحكم الوطني أو التركي :

تمشيا مع الطريقة الاستعمارية يطلق جوليان على النفوذ الروحي للخلافة الاسلامية فى الجزائر « الاستعمار التركي » • فهو يقول « ان النظام الاستعماري الذي طبقه الأتراك بكل حزم لم يسمح للجزائر أن تتقدم نحو الوحدة » (ص 19) ومن المعروف أن بيت آل عثمان كان يطلق على عائلة وليس على جنسية • وجوليان نفسه يعرف أن عائلة الهابسبورغ النمساوية ، والبوربون الفرنسية ، والرومانوف الروسية ، والهوهانزولين البروسية كانت ، قبل عصر القوميات ، ترمز لوحدة عائلية أو دينية لا لوحدة قومية أو سياسية بالمفهوم الحديث •

ويجب أن يكون واضحا ان هذا لا يعني تبرير استلام آل عثمان مقاليد الخلافة الاسلامية • ولكن الهدف من اثارة هذه النقطة هو [illegible] الى أن بيت آل عثمان كان ، على الاقل فى نظر أغلب المسلمين [illegible] لوحدة العالم الاسلامي قبل ظهور القوميات • ولذلك فانه [illegible] أو المغالطة أن يوصف النفوذ الروحي للخلافة الاسلامية [illegible] « استعمار تركي » ومن اليقين أن جوليان يدرك ان هذا [illegible] تاريخي لأنه يعطي عصرا ما (مثلا عصر التحالف العـ[illegible] عصر آخر (مثلا عصر التحالف القومي والسياسي [illegible]

ومن الثابت تاريخيا ان الجزائريين انفسهم هم الذين طلبوا التحالف مع الخلافة الاسلامية فى أوائل القرن السادس عشر . وكان ذلك الطلب يستهدف التعاون مع الخلافه لطرد الغزاة الاسبان والبرتغال الذين احتلوا شطرا من سواحل الجزائر وهددوا جميع افريقية الشمالية بالاحتلال . وهكذا ، فان نزول الاسطول العثماني مياه الجزائر ، بناء على رغبة الجزائريين أنفسهم ، لم يكن « للاستعمار » كما يزعم جوليان ولكن لانجاد جزء من العالم الاسلامي كان مهددا بالخطر .

وبفضل التحالف الارادي بين الجزائريين والخلافة الاسلامية توحدت الجزائر جغرافيا وسياسيا وعسكريا بعد ان كانت موحدة روحيا وفكريا تحت عدة عائلات محلية . وقد ادى الشعور بالخطر والحروب ضد العدو المشترك الى ظهور « الضمير الوطني » الجزائري الذي اكتسب صلابة على مر السنين ، والذي عبر عن وجوده فى شكل مقاومة دائمة وعنيفة للاستعمار الفرنسي منذ اللحظة الأولى . غير ان جوليان . كما سترى ، ينكروجود « ضمير وطني » جزائري قبل الاحتلال الفرنسي .

ان تحالف الجزائريين مع الخلافة قد انتهى تدريجيا وتلقائيا . ذلك أن الخلافة ، بعد ظهور المسألة الشرقية ، قد وجدت نفسها فى حالة خطر دائم ولا سيما من روسيا وبريطانيا والنمسا . ولم يعد فى استطاعة الخلافة أن تساعد الجزائر ماديا منذ أوائل القرن الثامن عشر . وبالاضافة الى ذلك فان الجزائر نفسها لم تعد فى حاجة الى هذا التحالف . ذلك انها قد أخذت شيئا فشيئا تبني أسطولها وتحصن سواحلها وتنظم اقتصادها وتثبت كيانها السياسي وعلاقاتها الدبلوماسية . ورغم ذلك فان الجزائر قد ابقت على علاقتها الروحية بالخلافة والفكرية بالوطن العربي .

والنظرية التي بنى عليها المؤرخون الاستعماريون محاربة الوطنية الجزائرية كانت تقوم على الادعاء بأن الجزائر بلد مخلوق للاستعمار . وجوليان قد قبل هذه النظرية خصوصا فى كتابه « تاريخ افريقية

الشماليه . » وقد كان هناك سببان واضحان لهذه النظرية الأول هو انها كانت تحاول « تبرير » الاستعمار الفرنسي فى الجزائر . ألم يكن سوى حلقة فى سلسلة الاستعمارات التي سبقته ومن بينها « الاحتلال العربي » و « الاستعمار التركي » ؟ والثاني هو انها كانت تحاول فصل الجزائريين عن حضارتهم العربية ـ الاسلامية . وأصحاب هذه النظرية لا يطعنون فى هذه الحضارة مباشرة لأنهم متيقنون بأن الجزائريين لن يتسامحوا معهم ، ولكنهم يطعنون فيها بطريقة غير مباشرة وذلك بنعت من جاؤوا بها أو دافعوا عنها بالاعتداء والتوسع الاستعماري .

وهذا بلا شك لا يعني المدافعة عن الأخطاء والمظالم التي وقعت أثناء تحالف الجزائر مع الخلافة الاسلامية . فقد كانت هناك آخطاء ومظالم ارتكبها جهلة وحمقى وانتهازيون ومغامرون.ولكن الذي يجب رفضه تماما هو أن تكون هذه الأخطاء والمظالم قد وقعت باسم القومية ، أي ارتكبها « أتراك » مستعمرون ضد « جزائريين » محتلين . ولاشك أن أصحاب النظرية الاستعمارية يدركون أن سوء الحكم العثماني لم يكن مقصورا فى ذلك الوقت على الجزائريين ، ولكن كان شاملا لجميع آنحاء الخلافة بما فى ذلك « الاتراك » آنفسهم . فاسطانبول فى عهد الجنود الانكشارية والسلاطين الفاسدين لم تكن اكثر حرية وديمقراطية ورخاء من الجزائر فى عهد الباشوات والدايات ، فقضية الاخطاء والمظالم ، حينئذ ، يجب تناولها على أساس انها « ظاهرة سلطة » وليست « ظاهرة قومية » .

ومع ذلك فان جوليان نفسه يعترف بأن « الداي كان لا يحكم بصفة نافذة ومؤكدة سوى قسم صغير من الجزائر . » (ص 5) . وهو يقر بأن « الثورات التي كانت تقع فى الجزائر قد تسببت للادارة التركية فى عدم الاستقرار تحت حكمها الأجنبي ، خصوصا ضد سوء الادارة والتصرف (ص 19) . كما يعترف فى مكان آخر بأن الجزائريين كانوا لا يؤيدونهم (أي الاتراك) الا قليلا (ص 2) . ونحن نفهم من هذا ان

الجزائريين كانوا غير راضين وغير مستقرين فى عهد التحالف مع الخلافة الاسلامية .

فاذا كان ذلك صحيحا ، فانه يبرهن على أنه قد كان بين الجزائريين كره مشترك ضد الأجانب فى بلادهم ، أي أنه قد كان بينهم « ضمير وطني » قبل الاحتلال الفرنسي (قبل عصر القوميات .) كما يبرهن ذلك على أن الجزائريين كانوا سيثورون ضد أولئك الأجانب . طال الزمان أو قصر . لتحقيق حكم وطني . لو لم تتدخل فرنسا فى الموضوع . ولكن جوليان ينكر وجود « ضمير وطني » لدى الجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي . فهو يصر على أن التحالف مع الخلافة الاسلامية « لم يسمح للجزائر أن تتقدم نحو الوحدة » (ص 19) .

3 ـ خصائص الدولة الجزائرية : 1516 ـ 1830 :

يرى جوليان بأن « الدولة الجزائرية لم تكن الا بالاسم » (ص 2) . وقبل مناقشة هذا الرأي يجب توضيح معنى « الجزائرية . » خلال الفترة 1516 ـ 1830 ظهرت الى الوجود دولة جزائرية تقوم على الوحدة الجغرافية والسياسية والاقتصادية للبلاد ، بالاضافة الى الوحدة الفكرية والروحية التي قامت منذ الفتح الاسلامي . كما كانت هذه الدولة مؤيدة من طرف أغلب سكان الجزائر ومعززة بجيش بري وأسطول بحري وذات علم وبرلمان ونقد وعاصمة . وفى نفس الوقت كان للدولة الجزائرية تقاليدها العرفية والديبلوماسية حسب القانون الدولي المعمول به آنذاك .

ولم تكن هذه الدولة تعمل أو تمثل مصلحة « دولة أجنبية » كما يزعم أصحاب النظرية الاستعمارية ، وعلى فرض انها كانت على علاقة مع الخلافة فان هذه العلاقة لم تكن سياسية أو قومية ولكنها كانت روحية فقط . ومع ذلك ، فهل كان يجوز فى عقل مسلم فى ذلك الحين أن يعتبر

الخلافة الاسلامية « دولة أجنبية » بالمعنى الذي يطلقه عليها جوليان في القرن العشرين ؟

ومن الواضح ان هذه الدولة كانت تعمل لمصلحة الجزائريين . فقد أخذت على عاتقها الدفاع عن ترابهم الوطني وممتلكاتهم ونظمهم السياسية. وكانت ، الى جانب ذلك ، تعقد الصفقات والمعاهدات الدولية باسمهم وتسن القوانين والتشريعات بارادتهم . ذلك أن هذه الدولة كانت في الحقيقة موجودة باسمهم . واذن فقد كانت « جزائرية » بكل معنى لهذه الكلمة ، على الأقل في لغة العصر الذي كانت فيه . والمؤرخ المنصف يجب أن يعترف بأن هذه الدولة لم تخل من الفساد والتعفن . ولكن متى كان التعفن والفساد مقصورين على النظام « الاجنبي » وحده ؟ ان العالم يشهد اليوم حكومات تزعم انها « قومية » ، ومع ذلك فهي على غاية من التعفن والفساد والاستبداد والرجعية .

على أن هناك نقطة كان من المفروض أن لا تفوت جوليان وهي ما يعرف في التاريخ بالمشاكل الداخلية أو الخاصة بين الشعوب التي تربطها حضارة واحدة . وكثيرا ما ينزلق المؤرخون على هذه المشاكل لانها لا تخضع لقوانين التاريخ العامة . من هذه المشاكل في أوروبا علاقة فرنسا واسبانيا تحت عائلة البوربون ، وعلاقة النمسا واسبانيا أيضا تحت حكم الهابسبورغ . وعلاقة الدويلات الالمانية مع بعضها أثناء الحركة البروتستانية .

أما في الشرق فتظهر هذه المشاكل الخاصة في علاقة العالم الاسلامي مع بعضه تحت الخلافة الاسلامية العثمانية . فمعظم مناطق الخلافة قد خضعت حينئذ الى حكم محلي أو اقليمي يرتكز في معظم الاحيان في أسرة معينة ، رغم اعتراف هذه العائلات الحاكمة بالنفوذ الروحي للخلافة . وقد امتازت الجزائر بأنها لم تكن محكومة بأسرة معينة بل بنظام برلماني كان يحتوي على بذور صالحة للديمقراطية . فالدايات في

الجزائر كانوا يتولون الحكم بطريقة الانتخاب لا الوراثة ، على عكس مصر تحت أسرة محمد علي ، وتونس تحت الأسرة الحسينية ، وطرابلس (ليبيا) تحت أسرة الكرمنلي . والخطر هو أن بعض المؤرخين الأجانب يدخلون أنوفهم في هذه المشاكل الخاصة لا خدمة للحقيقة ولكن لاغراض سياسيـــة .

من هذا التدخل الخطير محاولة تشجيع القوميات الضيقة وخلق صراع قومي بين أصحاب الحضارة الواحدة . وقد اتبع جوليان رأي المؤرخين الاستعماريين أمثال غوتي وبوسكي وبرنارد الذين يصفون علاقة الجزائر بالثقافة العربية بأنها علاقة المعتدي (العربي) بالمعتدى عليه (الجزائري .) وعلاقتها بالخلافة بأنها علاقة المستعمر الأجنبي (الخليفة) بالمستعمر الوطني (المسلم الجزائري) . والطريقة التي يسير عليها هؤلاء مغرية وخداعة . فهم يستغلون ثورتنا على الاستعمار باسم الوطنية ليوجهوا طاقتنا الثورية ضد بعضنا ، أي نحن أصحاب الحضارة الواحدة ، باسم القومية الاقليمية .

وحين يصر جوليان بأن « النظام الاستعماري » الذي طبقته الخلافة « لم يسمح للجزائر أن تتقدم نحو الوحدة » (ص 19) ، فانه لا يسع الباحث الا أن يسأله ماذا يعني بهذه « الوحدة » الجزائرية . ان جوليان بلاشك يدرك أن الجزائر كانت قد توحدت فكريا وروحيا قبل أن تظهر فرنسا نفسها الى الوجود ، أي منذ القرن الثامن الميلادي . كما يدرك أيضا أن الجزائريين كانوا قد توحدوا سياسيا حين كان الفرنسيون ما يزالون يبحثون عن كيانهم بـــين الأمم ، أي منذ القرن السادس عشر الميلادي . غير انه من الواضح أن جوليان هنا يعني « الوحدة الانفصالية » أي فصل الجزائريين عن الحضارة العربية ـــ الاسلامية . وهذه هي نفسها الفكرة التي طالما روجها المؤرخون الاستعماريون وحاولوا تدعيمها بشتى طاقتنا الثورية ضد بعضنا ، أي نحن أصحاب الحضارة الواحدة باسم

الوسائل . فلكي تكون الجزائر حقا متحدة ومستقلة ، فى نظرهم ، كان عليها أن تعلن الانفصال ، باسم القومية الاقليمية ، عن الحضارة العربية الاسلامية .

4 ــ ظهور الوطنية الجزائرية :

واذا كان منطق جوليان غريبا فيما يتعلق « بجزائرية » الدولة الجزائرية ، فان منطقه يظهر أكثر غرابة حين يتناول فكرة ظهور الوطنية الجزائرية . فهو يقول بأن الثورات التي كانت تقع فى عهد التحالف بين الجزائريين والخلافة كانت تساعد على تقريب الجزائريين من بعضهم « ولكن هذه العاطفة الذاتية لم تتخذ فى وقت من الأوقات شكلا قوميا » (ص 19) . ومن الواضح أن جوليان يتحدث هنا عن الفكرة القومية فى الفترة 1516 ــ 1830 . ولكن المعروف ان القومية بمعناها الحديث لم تظهر الا فى القرن الماضي .

والحقيقة ان « العاطفة الذاتية » التي يتحدث عنها جوليان كانت قد توطدت بين الجزائريين نتيجة للوحدة الفكرية والروحية التي ترعرعت فيهم منذ الفتح العربي ــ الاسلامي فى الجزائر . وعدم اتخاذ هذه العاطفة « شكلا قوميا » أي انفصاليا اقليميا ، كان يرجع الى عاملين أساسيين : الأول أن الجزائريين كانوا ، وما زالوا ، عربا مسلمين . وهم يعرفون انه لا قومية فى الاسلام ولا اقليمية فى العروبة . والثاني ان التجربة العالمية للقومية بمفهومها الحديث برهنت على انها لم تتخذ « الشكل القومي » الا اذا كان هناك خطر خارجي على « العاطفة الذاتية » لشعب من الشعوب . وكون العاطفة الذاتية الجزائرية لم تتحول الى شكل قومي فى عهد تحالف الجزائر مع الخلافة دليلا على أن الجزائريين لم يشعروا بخطر خارجي على ذاتيتهم وعلى مقوماتهم الوطنية .

ومن الانصاف القول بأن جوليان نفسه يعترف بهذه الحقيقة . فهو يقر بأن العاطفة الذاتية لدى الجزائريين قد تحولت « بعد زمن طويل من النضج الى ضمير قومي » (ص 20) . وقد كان ذلك ، بناء على رأيه ، نتيجة للاستعمار الفرنسي الذي كان يشكل فى نظر الجزائريين خطـرا خارجيا على ذاتيتهم . لقد كان أولئك الجزائريون آمنين مطمئنين فى عهد تحالفهم مع الخلافة فلم يشعروا بضرورة تحويل عاطفتهم الذاتية الى قومية انفصالية اقليمية لأنه لم يكن هناك ، فى نظرهم ، خطر خارجي على ذاتيتهم . ولكنهم قد شعروا ، مع الاستعمار الفرنسي ، بخطر خارجي محقق على هذه الذاتية ، ولذلك أظهروها فى « شكل قومي » عنيف ثائر ، أي حركة انفصالية عن فرنسا الاجنبية لا عن الحضارة العربية الاسلامية التي لا تنفصل أبدا عن مفهوم أهل الجزائر .

غير أن جوليان قد انكر وجود « شعب » أو « أمة » جزائرية قبل الاحتلال الفرنسي . وهو فى هذا قد اتبع أيضا منطق المؤرخين الاستعماريين الذين زعموا أن فرنسا لم تجد شعبا أو أمة فى الجزائر وانما وجدت قبائل متناثرة متنافرة ، وانها لم تجد أرضا معمورة مدافعا عنها ولكنها وجدت أرضا سائبة من حق كل أمة أجنبية أن تحتلها اذا كان لها العتاد والسلاح والرجال . فجوليان يقول بأن هذه القبائل الجزائرية أو الاتحادات (الفيدراليات) القبلية لم تكن تعرف « فكرة القطر الواحد التي تشكل قاعدة الأمة . » وهو يزعم بأن فكرة « الضمير المشترك » بين الجزائريين كانت « مفقودة » (ص 20) فى عهد تحالفهم مع الخلافة .

5 ـ معنى الوطنية والقومية :

قبل مناقشة هذه القضية يجب توضيح الفرق بين مفهوم معنيين كثيرا ما يقع فيه الغلط والأشكال ولا سيما فى ترجمته من اللغات الأجنبية . الأول هو مفهوم الوطنية (Patriotism) التي تعني حب الانسان لوطنه

الذي ولد فيه وتربى فيه ، واستعداده للدفاع عنه والموت فى سبيله . مفهوم هذا المعنى كان موجودا ومشتركا بين جميع الجزائريين . وهذا لا يتفق مع رأي جوليان لأنه ينكر وجود فكرة « القطر الواحد » فى الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي .

الثاني هو مفهوم القومية (Nationalism) التي تعني الشعور المشترك بين جماعة معينة تنتمي الى حضارة واحدة ، ولها حدود جغرافية معينة ، وتشترك فى التاريخ والمصير . وبناء على المعنى الأخير ، فان الجزائريين ، بالاضافة الى اشتراكهم فى « الضمير الوطني » ، كانوا ومازالوا ، يؤمنون بالأمة العربية التي يتقاسمون معها التاريخ والثقافة والمصير والحدود الجغرافية (أي الحدود الطبيعية لا المصطنعة) كما أن لدى الجزائريين « شعورا قوميا » يربطهم بتلك الأمة ارتباطا عقائديا راسخا ، ومن المؤكد أن جوليان كان يقصد المفهوم الثاني (القومية) حين أنكر وجود فكرة القطر الواحد وفكرة الضمير الوطني بين الجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي ، ولكنه نسى أن ذلك غير ممكن حضاريا لأن الجزائريين لا يستطيعون أن يتنكروا لذاتهم فيعلنوا الانفصال عن الأمة العربية بدافع « قومي » اقليمي .

ومع ذلك فقد كان للجزائر كل شروط ومقومات الكيان المستقل قبل الاحتلال الفرنسي . فقد كان لها جنسيتها وشخصيتها المتمثلة فى الجيش والعلم والبرلمان والدولة والحدود بناء على المفاهيم الدولية المعمول بها في ذلك الحين . كما كان لها تقاليدها الشعبية من معتقدات وعادات وآداب وأنظمة ، ويقينا أن الجزائري فى عهد التحالف مع الخلافة كان يدافع عن فكرتين لا تنفصلان فى نظره : القومية (فكرة الانتماء الى الأمة العربية) والوطنية (فكرة الانتماء الى الجزائر) . وقد استمر في هذا التقليد الشريف الى ثورة نوفمبر العظيمة .

6 ـ حمدان خوجة :

من أغرب ما يجده القارىء فى كتاب « تاريخ الجزائر المعاصرة » هو شك المؤلف فى أن حمدان خوجة ، أحد رواد الحركة الوطنية الجزائرية والقومية العربية الاسلامية ، قد كتب كتابه المعروف « بالمرآة » وجوليان يستشهد لذلك بعدة أمور : منها أن فرنسيا يدعى دي بوسي (R. De Bussy) قد زعم بأنه أملى الكتاب على خوجة (ص 74) ومنها أنه « لا شيء يدل على أنه (أي المرآة) قد ترجم » من العربية الى الفرنسية (ص 74) ومنها أن (المرآة) قد احتوى على تراكيب قومية واشارات الى كونستانت وغروتيس وتاسيت لم تكن معروفة عند المسلمين فى ذلك الوقت ، ولكنها (أي التراكيب) كانت رائجة عند الأوروبيين الليبراليين الذين كانوا يعيشون حوادث اليونان وبولندا وبلجيكا (ص 74) .

ان غرابة هذا الرأي تظهر من الأمور التالية . فجوليان لم يذكر من هو دي بوسي ولا ما هي علاقته بخوجة ولا المصدر الذي نقل منه رأيه المزعوم من أنه (دي بوسي) قد أملى « المرآة » على خوجة حتى يكون فى استطاعته أن يملى كتابا «كالمرآة» مليئا بالاحصاءات والأسماء والدقائق التي لا يعرفها الا خبير شاهد عيان لتطوارت الجزائر فى ذلك الوقت .

ومن ناحية أخرى فان جوليان نفسه يعترف بأن «المرآة» كان قد ترجم الى الفرنسية بعناية السيد دغيس الطرابلسي ، والمعروف أن خوجة لم يكتب «المرآة» فقط ولكنه كتب أيضا «المذكرات» وعدة رسائل مطولة الى الملك الفرنسي لويس فيليب والى اللجنة الأفريقية التي عينتها الحكومة الفرنسية عام 1833 لتبحث الوضع فى الجزائر . فهل كانت كتابات خوجة الأخرى ، التي كانت شبيهة « بالمرآة » فى روحها ، قد أمليت عليه أيضا من طرف دي بوسي ؟ واذا كان يجوز أن خوجة قد

كتب المذكرات والرسائل المذكورة ، فلماذا لا يجوز له أن يكتب «المرآة» أيضا ؟

أما كون «المرآة» قد احتوى على تراكيب قومية وأسماء بعض المفكرين الاوروبيين الذين لم يكونوا معروفين فى العالم الاسلامي عندئذ ، فليس له أساس تاريخي . فجوليان قد قرأ بلا شك الدراسة التي كتبها جورج افير (G. Yver) عن حمدان خوجة لأنه (أي جوليان) قد وضعها ضمن مراجع كتابه . وقد أثبت افير أن خوجة كان يتحدث الفرنسية وأنه قد قضى أكثر من عشر سنوات خارج الجزائر دارسا متنقلا بين المشرق وبين أوروبا ، بما فى ذلك البلقان وفرنسا . وقد كانت تنقلات خوجة خلال عنفوان الثورات اليونانية والبولندية والبلجيكية . فما الذي كان يمنعه (أي خوجة) من التقاط التراكيب القومية والشعارات الثورية وأسماء بعض المفكرين أمثال تاسيت وغروتيس وكونستانت ؟

ومن جهة أخرى فان ثورة اليونان بالذات كانت ضد الخلافة الاسلامية ، وأن الأسطول الجزائري قد اشترك ضد هذه الثورة ، فهل كان غير متوقع أن يهتم الجزائريون ، بما فيهم حمدان خوجة ، بحوادث اليونان التي كانت تستنزف دماءهم وأموالهم وسلاحهم ، والتي كانت تمس كيان الخلافة الاسلامية فى الصميم ؟ وبالاضافة الى ذلك فان الذي يطالع كتابات خوجة يجد أنه كان يقص تجربته الشخصية ومشاهدته الذاتية بحرارة خاصة مما يدل على أنه لم يكن يستمع الى أحد يملي عليه أفكاره كما يزعم دي بوسي ويروي عنه جوليان .

ولم يكتف جوليان بمحاولة الحط من قيمة أحد مآثر خوجة التاريخية ، ولكنه حاول التشكيك فى وطنيته أيضا . فقد اتهمه ، مع أحمد بوضربة ، بالتعاون مع الجيش الفرنسي فى الجزائر (ص 74) . وليس هنالك نية الآن لعرض حياة ونضال هذين الرجلين اللذين لعبا

دورا رائدا في معارضة الاحتلال الفرنسي . وكل ما نرغب فيه هنا هو ملاحظة أن جوليان لم يكن منصفا في معالجته لهذه القضية .

فالاتفاق الذي وقعه الداي باسم الجزائر ودي بورمونت باسم فرنسا في الخامس من جويلية عام 1830 قد نص على احترام جميع الحريات الفردية والمدنية وحرمة المساجد والنساء والأملاك ، وعلى عدم تدخل الفرنسيين في الشؤون الدينية والثقافية والاقتصادية في الجزائر ، الخ . كما أن البيان الذي وزعه الفرنسيون على الجزائريين قبل ذلك قد وعد بأنهم (الفرنسيين) كانوا قادمين « لتحرير » الجزائر من « الأتراك » أي من حكم الداي الطاغية ، كما وعد بأنهم سيخرجون حالما يحققون هذه المهمة .

وحين قبل خوجة وبوضربة وغيرهما بعض المسؤوليات مع الفرنسيين لم يفعلوا ذلك خدمة لفرنسا ، كما يزعم جوليان ، بل خدمة لشعبهم الذي لم يبق من يمثله سواهم بعد سقوط الحكومة الجزائرية . والحق أن أولئك الجزائريين قد انخدعوا . فقد ظنوا أن الفرنسيين سيحترمون وعودهم ويوفون بالتزاماتهم ، ولكنهم شيئا فشيئا بدأوا يتبينون خطأهم حين ثبت لهم أن الفرنسيين قد جاءوا ليبقوا ، وأنهم لم يحترموا لا بنود الاتفاق ولا نصوص البيان ، وهنا لم يسع خوجة وبوضربة وحمدان آغة وعمر بن مصطفى وغيرهم الا أن أعلنوا معارضتهم المفتوحة للاحتلال . ولذلك كان جزاؤهم ، كما يشهد جوليان نفسه ، النفي والتشريد والمحاكمة ومصادرة الأملاك والسجن .

فلو كان جوليان منصفا لذكر بأن هؤلاء الجزائريين كانوا ضحية الثقة في وعود فرنسا . وقد كان عليه ، بدل أن يرميهم بالتعاون ، أن يتهم هذا العدو بأنه كان خداعا ومنافقا ، وذلك انصافا للتاريخ والحقيقة، ولا شك أن جوليان يعرف انه لو أراد أولئك الجزائريون أن يتعاونوا

حقا وباخلاص مع فرنسا لوجدوا العيش الرغد والحياة السهلة .ولكنهم، وفاء لمبادئهم وشعبهم ، قرروا أن يسلكوا الطريق الصعب ، وأن يناضلوا من أجل تحرير وطنهم مهما كلفهم ذلك من تضحيات .

ومؤلف « تاريخ الجزائر المعاصرة » يدرك يقينا أن خوجة ، الذي يتهمه بالتعاون ، هو نفسه الذي حاكمه الفرنسيون مرتين بسبب آرائه ونضاله فى سبيل القضية الوطنية . كما صادروا أملاكه ثم نفوه من أرض آبائه وأجداده حيث مات فى اسطانبول شهيد الوطنية والعروبة والاسلام . ولم يكتف الاستعمار الفرنسي بذلك بل نفى ابنيه الحسن وعلي من الجزائر أيضا .

7 ـ الأمير عبد القادر :

رغم الصفحات القيمة التي كتبها جوليان عن الأمير عبد القادر فان تناوله لهذه الشخصية الوطنية العربية لم يسلم من الهنات . والحق أن جوليان قد سار فى نفس الخط الذي انتهى به الى التشكيك فى وطنية خوجة وبو ضربة وغيرهما . غير أنه لم يتهم الأمير مباشرة بأنه كان عميلا لفرنسا ولكنه نسب اليه ما ينتهي الى نفس النتيجة . فهو يزعم بأن الأمير قد وعد فرنسا بعدم رفع السلاح ضدها ، وأنه (الأمير) قد خاب أمله فى المغرب العربي حتى أنه حين أعلن الجزائريون الثورة مرة أخرى بقيادة المقراني طلب الأمير منهم أن يلقوا السلاح (209) . والغريب أن جوليان لم يذكر المصدر الذي جاء منه بهذا الرأي الخطير .

على أن كتابا ضخما كالذي بين أيدينا كان يجب أن يحتوي على دراسة أعمق لحياة وأعمال الأمير . فقد أهمل جوليان الحديث عن مساهمة الأمير فى انشاء أول حكومة ديمقراطية جزائرية ، وعن دوره السياسي والدبلوماسي ، مكتفيا بالتركيز على الجانب العسكري من

نضال الأمير . ثم أن جوليان قد ترك الأمير منذ 1847 ، فلم يتتبع حياته داخل سجون فرنسا ولا نشاطه وتأثيره فى الحياة العربية الاسلامية فى الشرق ، فكأن علاقة الأمير بالجزائر قد انتهت بالقائه السلاح . غير أننا نعرف أن الأمير كان مؤلفا وسياسيا ومفكرا ، وكان محل اهتمام الساسة والمفكرين المسلمين والأروبيين الى وفاته عام 1883 ، ولا شك أن الحركة الوطنية الجزائرية قد استفادت من جهاد الأمير العسكري كما غنمت من نشاطه السياسي والفكري فى أوروبا والمشرق .

8 ـ الثقافة ومشاريع نابوليون الثالث :

ان جوليان لم يهمل فقط الحركة الوطنية الجزائرية بل أهمل أيضا كل حديث عن الحياة الثقافية والروحية للجزائريين فى الفترة التى غطاها فى كتابه ، وضرورة الحديث عن هذه الموضوعات تظهر فى أن الكتاب يتناول الجزائر المعاصرة ، وقد اشترك فى مقاومة الاستعمار كل من السلاح والقلم والتنظيمات السياسية والفنون الشعبية والجمعيات السريه الدينية (الطرقية) . ولو أن جوليان لم يهتم فى كتابه بالناحية الاجتماعية على الاطلاق لما توقعنا منه ذلك ، ولكنه قد كتب باسهاب عن الحياة الفنية والثقافية والتعليمية للفرنسيين . كما خصص فى كتابه قسما لنواحي لا تهم الجزائريين فى قليل أو كثير مثل الانتخابات الفرنسية فى الجزائر واستفتاءات نابوليون الثالث ، ومن المعروف أن الجزائريين لم يشاركوا فى هذه الأعمال لا من قريب ولا من بعيد ، وهي بالتالي أعمال تدخل فى تاريخ فرنسا وليس فى تاريخ الجزائر .

وقد وجد نابوليون الثالث كل تمجيد وثناء من جوليان بسبب بعض آرائه تجاه الجزائر . غير أن الحقيقة هي أن نابوليون كان غير مخلص فى مشاريعه المسماة بالليبرالية فى الجزائر . فقد بقى فى الحكم أكثر من عشرين سنة (1848 ـ 1870) ، ومع ذلك لم يحقق شيئا من هذه

المشاريع . حقا لقد أشار في رسائله الى بعض ممثليه بالجزائر بأنه كان يرغب في اقامة « مملكة عربية » في الجزائر أو « جنسية جزائرية » .

غير أن نابوليون لم يكن جادا في اقتراحاته . فمن المعروف أن أسوأ قانون ضد الجزائريين قد صدر في عهده . ذلك هو القانون المعروف باسم ساناتو ــ كونسولت (1865) الخاص بالأحوال المدنية . وقد استمر هذا القانون ، مع بعض التعديلات عام 1919 و 1947 ، الى استقلال الجزائر ، وينص ذلك على أن الجزائريين يعتبرون رعايا فرنسيين ، وليس لهم الحق في الجنسية الفرنسية الا اذا تخلوا عن حالتهم الشخصية كمسلمين .

ومن ناحية أخرى فان نابوليون كان يعرف في عصره بزعيم القوميات لأنه أيد أثناء حكمه القومية الرومانية والايطالية ، وكان الاستفتاء في نظره هو الوسيلة التي تعبر بها الأقليات المضطهدة عن نفسها . وعلى هذا الأساس أجرى استفتاء في نيس وصافوي لهذا الغرض . فاذا كان نابوليون حقا يريد من وراء مشاريعه في الجزائر انشاء « مملكة عربية » أو « جنسية جزائرية » ، فلماذا لم يستعمل الاستفتاء وتقرير المصير لمعرفة ارادة الجزائريين الحقيقية ؟ وبالاضافة الى ذلك . فان نابوليون كان ، كما يشهد جوليان نفسه ، يشجع الكنيسة ويعارض تعليم الدين الاسلامي واللغة العربية في الجزائر (ص 436) ، فكيف يتفق مبدأ « الجنسية الجزائرية » مع اضطهاد الدين واللغة اللذين كانا من المفروض يمثلان حجر الزاوية لهذه الجنسية ؟

9 ـ تعصب او وطنية :

في أكثر من موضع ينسب جوليان الحركات الثورية الجزائرية ضد الاستعمار الى الجهاد الديني لا الى الوطنية . وهذا في الحقيقة تفسير غير تاريخي . فالمبدأ كان قبل وبعد كل شيء مبدأ معتد ومعتدى عليه ، أي

الأجنبي والمواطن . والجزائريون الذين رفعوا السلاح لمقاومة العدوان الأجنبي لم يفعلوا ذلك باسم التعصب الديني (رغم أن معظم قوادهم كانوا من المرابطين) ولكن باسم الشرف الذي أهين والأملاك التي اغتصبت والمساجد التي ديست والثقافة التي انتهكت . وبالتالي فان أولئك الجزائريين كانوا يحاربون باسم الوطنية لأن هذه فى حقيقتها هي الشرف والملكية والدين والثقافة .

ولو فرضنا أن الفرنسيين المعتدين قد اعتنقوا الاسلام ، فهل كان الجزائريون سيكفون عن محاربتهم ؟ بالطبع لا . ذلك أنهم (الفرنسيين) لم يجيئوا مسالمين بل معتدين . ومن هنا كانوا فى نظر الجزائريين أجانب لا مواطنين . والمؤرخ المنصف لا يسعه الا أن يعترف بأن الدين قد لعب دورا هاما فى حياة الحركة الوطنية الجزائرية ، ولكن الذي لا يسعه الاعتراف به هو تفسير هذه الحركة على أنها كانت تعصبا دينيا أو « مرابطية » . ومع ذلك ، فجوليان يقينا يدرك أن الدين كان لا ينفصل عن القومية فى ثورة اليونان ضد الخلافة ، وثورة بولندا ضد روسيا ، وثورة بلجيكا ضد هولاندا ، وثورة ايرلاندا ضد بريطانيا . فهل يجوز تفسير هذه الثورات بأنها كانت باسم التعصب الديني لا باسم القومية ؟ لا نظن أن هناك من يقول بذلك .

10 ـ خاتمة :

فى نهاية كتابه (ص 517) ينصح جوليان الجزائريين ، نقلا عن جاك بيرك ، بأن يتجنبوا كتابة تاريخهم على فكرة « الاستنكار » . ليكن جوليان متأكدا من أن الجزائريين يقدرون نصيحته ، ولكنهم فى نفس الوقت يرفضون فكرة « الاستسلام » . فالتاريخ الذي كتبه آباؤه وأجداده عن الجزائر والذي أكثر هو من النقل عنه فى كتابه ، كان محشوا بالكراهية والعنجهية وحب التسلط والتعالي ضد عرب الجزائر . ولا يمكن للجزائريين فى فترة استعادة حريتهم وحضارتهم أن

يتقبلوا ذلك التاريخ بلا استنكار وأن يمنحوا الثقة الفكرية لوثائق كتبها أمثال بوجو وبيليسي وراندون وغوتي وبوسكي وأضرابهم من الذين لم يكتفوا بمحاربة الجزائريين فى ديارهم بل حاولوا تشويه ارادتهم وتزوير تاريخهم . ولينأكد جوليان من أن « الاستنكار » الجزائري لذلك التراث الاستعماري لن يقوم على الحقد والارتجال ولكن على المنطق والتمحيص .

لم يكن هدف هذه المناقشة هو الحط من قيمة كتاب جوليان . فالمؤلف صديق للجزائريين منذ قبل الاستقلال . وقد بذل فى كتابه جهدا لا يقدره عليه الا الذين عانوا مشقة الدراسة العميقة وتعب البحث على الوثائق والمراجع ومحاولة استخلاص الحقيقة التي هي هدف كل مؤرخ شريف ، والقراء ، بلا شك ، يعرفون أن التأليف الذي لا يستحق المناقشة لا يستحق القراءة أيضا . ومن حسن الحظ أن « تاريخ الجزائر المعاصرة » يستحق كثيرا من المناقشات . وهو محلى بالصور والخرائط النادرة ، ويحتوي على قائمة طويلة ومشروحة بالمراجع الهامة ، وعلى فهارس وملحقات ومعجم بالكلمات المحلية . والكتاب الى جانب ذلك ضخم الحجم أنيق الطباعة مما يبرهن على أن دار (صحافة فرنسا الجامعية) قد بذلت جهدا عظيما فى اخراجه .

ان هدف هذه المناقشة يتلخص فى الجملة التالية : تنبيه القارىء الى أن هذا الكتاب لا يؤرخ للجزائريين ولكن للاحتلال الفرنسي فى الجزائر .

انغيلز واحتلال الجزائر

1 ـ تقديم :

فريدريك انغيلز(1)(1820 ـ 1895) كان صديقا شخصيا ورفيقا فكريا وخليفة لكارل ماركس (1818 ـ 1883) . وقد حررا معا « البيان الشيوعي » المشهور سنة 1848 . وخلال نفس العام كان انغيلز مراسلا فى باريس لصحيفة « ذي نورثرن ستار » الناطقة عندئذ بلسان الطبقة العاملة فى بريطانيا . وفى الثاني والعشرين من جانفي (1848) بعث انغيلز الى جريدته تعليقا على استسلام الأمير عبد القادر وصداه فى الأوساط الفرنسية ، ثم عبر عن رأيه فى الاحتلال الفرنسي للجزائر وعواقبه .

وقد رأينا ترجمة هذا الرأي الى العربية نقلا عن المصدر المذكور ، وذلك لأهميته التاريخية والأيديولوجية . ونود أن ننبه هنا الى نقطتين :

1 ـ أن رأي انغيلز فى أن الفرنسيين سيطلقون سراح الأمير عبد القادر كان متفائلا وسابقا لأوانه .

2 ـ ان هذا الرأي كان قد نشر قبل شهر واحد من ثورة البورجوازية الفرنسية (1848) التي أطاحت بحكم الملك لويس فيليب وأقامت على أنقاضه الجمهورية الثانية . ومن المعروف أن هذه الجمهورية هي التي قررت نهائيا الاحتفاظ بالأمير . كما أعلنت رسميا فى

1 ـ كنت قد ترجمت هذه المقالة عن الانكليزية وأرسلتها من أمريكا الى جريدة « الشعب » لنشرها ، ولكني لا أدري الآن هل نشرتها أم لا .

دستورها ان الجزائر « مقاطعة فرنسية » . وهكذا خيبت الجمهورية الثانية ظن انغيلز بخصوص اطلاق سراح الأمير ، ولكنها حققت رغبته فى تسلط « البورجوازية المتحضرة » على الجزائريين الذين يقول عنهم بأنهم كانوا « لصوصا واقطاعيين ــ . » والى القاريء الآن رأي انغيلز .

2 ـ انغيلز وقضية الأمير عبد القادر :

« **أما الموضوع الذي يشغل** الصحافة الفرنسية هذه الايام فهو القاء القبض على الأمير عبد القادر وموقف الحكومة الفرنسية الذي ينتظر أن تتخذه من مستقبله . وليس هناك شك فى أن هذا الموقف سيكون فى صالح وعد الدوك دومال وهو السماح للأمير بالذهاب الى مصر .

ولكن من الغرابة أن نجد كل صحف المعارضة تقريبا ــ من «ناسيونال» الى «كونستيتوسيونيل» ــ قد نادت بنقض هذا الوعد والاحتفاظ بالأمير . اننا لانشك فىأن هذا الوعد قد منح مشروطا بموافقة الحكومة الفرنسية . فعدم الوفاء به لا يعني مباشرة أن فرنسا ستسيء الى سمعتها ، كما اعتقدت جريدة « سان » الانكليزية ، ولكننا لا نشك أيضا فى أن أية حكومة تتنكر لما وعدت به ، ولا سيما أنكلترا ، سوف تتهم بأكبر خيانة للعهد من نفس الجرائد الفرنسية التي تنادي الآن بنقض العهد .

ومن الواضح أنه ليس فى الامكان اعادة الأمور الى ما كانت عليه عندما سلم الأمير بشرط . ان الموافقة الآن على ذلك الشرط تقتضي كرما من الدرجة الأولى . ولكننا نعلم أن هذه الجرائد « القومية » تصبح عمياء فيما يتعلق بهذه الأمور . فهي مستعدة أن ترتكب نفس الأعمال التي تلوم عنها الآخرين .

والصحيفتان الوحيدتان اللتان كتبتا فى صالح الموافقة على المعاهدة مع الأمير عبد القــادر هما «بريس» و «ريفــورم» فالأولى ، وهي صحيفة ملكية ، قدطالبت بالوفاء بالوعد لأن الحكومة الفرنسية فى نظرها لا يمكن أن تكذب على ابن الملك الفرنسي ، أي ابن فرنسا نفسها . وهكذا أرادت هذه الصحيفة أن تحي لقب الأمراء القديم الذي كان شائعا قبل الثورة الفرنسية . أما الصحيفة الثانية « ريفورم » فقد قالت لا ، ان القضية تبدو أكثر تعقيدا مما تتصور لأن شرف بلادنا قد أصبح فى حرج . لذلك فانه من الأفضل أن نكون أسخياء على أن نكون ضيقي الأفق . فلنوافق اذن على كلمتنا حتى ولو كانت من أمير . وهكذا تكون هذه هي الصحيفة الوحيدة التي اتخذت موقفا حقا ازاء هذا الموضوع .

3 ـ انفيلز والاستعمار الفرنسي :

وعلى أية حال فان من رأينا انه لحسن الحظ ان هذا الزعيم العربي قد قبض عليه . ذلك ان نضال أهل البدو كان بلا جــدوى . ورغم أن الطريقة التعسفية التي اتبعها الجنود الفرنسيون ، مثل بوجو ، فى جربهم جديرة بكل لوم . فان احتلال الجزائر عمل مهم نعتبره فى صالح التقدم الحضاري . ذلك أنه لا يمكن وقف نشاط قراصنة دول افريقية الشمالية الا باحتلال احدى هذه الدول . على أننا نلاحظ أن أنكلترا لم تتدخل فى شؤون هذه الدول طالما احترم أولئك القراصنة سفنها .

وهكذا نجد أن احتلال الجزائر قد أرغم بايات تونس وطرابلس بل حتى سلطان المغرب على الدخول فى طريق الحضارة . فقد ارغموا على أن يجدوا وظائف أخرى لشعوبهم بدل القرصنة ، وعلى أن يبحثوا على وسائل أخرى لملء خزائنهم بدل الجزيات التي كانت تدفعها لهم دول أروبا الصغيرة .

واذا كنا نأسف على أن بدو الصحراء قد فقدوا حريتهم ، فانه يجب أن لا ننسى ان هؤلاء البدو كانوا أمة من اللصوص . ذلك ان وسائل عيشهم كانت فى شن غارات اما على بعضهم بعضا واما على القرى الآهلة المجاورة. وخلال هذه الغارات يأخذون معهم ما وجدوا ، ويقتلون كل الذين قاوموهم ، ثم يبيعون الباقين من المساجين فى سوق الرقيق .

فهذه الأمم من الهمج الأحرار تبدو من بعيد فخورة ، شريفة ، ماجدة، ولكنك لن تكتشف حقيقتها الا عندما تقترب منها . عندئذ ستجدها ، كأكثر الأمم حضارة ، محكومة بالرغبة فى الربح ، مستعملة لذلك أقسى وأغلظ الوسائل . لذلك فان البورجوازي (الفرنسي) الحديث مزودا بالحضارة والصناعة والنظام وبعض الثقافة ، سيكون أفضل لهذا المجتمع الهمجي من السيد (الجزائري) الاقطاعي أو اللص قاطع الطريق . »

مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي : أبو راس الناصر

رأيت أن أسهم فى ندوة الجبرتي ببحث عن مؤرخ جزائري معاصر له ، وهو الشيخ أبو راس الناصر فكلاهما عاش فى النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر الميلادي . وقد مات أبو راس الناصر سنة 1823 عن عمر يناهز التسعين سنة ، بينما مات الجبرتي سنة 1825 وقد تجاوز السبعين سنة . ومن جهة أخرى سمى الجبرتي كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) وأطلق أبو راس الناصر على كتابه اسم (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) . وكتب الجبرتي كتابا آخر هو (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) بينما كتب معاصره أبو راس كتابا بعنوان (أقوال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيس) . وكلا المؤرخين تتلمذ على الشيخ مرتضى الزبيدي وأرخ لوفاته ، والتقى ودرس أبو راس فى مصر على عدد من العلماء كانوا موضوع عناية الجبرتي . ومع ذلك فاننا لا نجد اسم أبي راس فى كتاب الجبرتي . ولا اسم هذا فى كتاب أبي راس .

فهل التقى المؤرخان شخصيا وتعارفا ؟ ذلك ما لا نستطيع تأكيده الآن . ومهما يكن الأمر فان أهمية الرجلين فى بلديهما تفرض علينا معالجة الموضوع هنا ولو بشيء من الاختصار (1) .

(*) قدم هذا البحث الى (ندوة الجبرتي) التي انعقدت بالقاهرة فى ربيع سنة 1974 ونشر فى (مجلة تاريخ وحضارة المغرب) عدد 12 ، سنة 1974 ، كما نشر فى وقائع الندوة بالقاهرة سنة 1976 .

1 ـ وفي كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) جـ 2 يحتل أبو راس الناصر مكانا بارزا .

عاش أبو راس فترة قلقة شبيهة بالفترة التي عاشها معاصره الجبرتي . فقد حضر فتح وهران الثاني واستعادة هذه المدينة من الاحتلال الاسباني . وكان لهذا الحادث أثر كبير فى نفسه فألف فيه كتابه (عجائب الأسفار) .ولم تلبث الجزائر أن شهدت ثورة الطريقة الدرقاوية على الحكم العثماني ، وكانت هذه الحادثة سببا فى أزمة اقتصادية حلت بالبلاد ولا سيما المنطقة التي كان فيها أبو راس . وقد خص هذه الثورة بتأليف سنذكره فيما بعد . وتجول فى المغرب وتونس ، وكان كلاهما غير مستقر سياسيا ، فتأثر بذلك . وقد خص المغرب بعدة تآليف أيضا . وحج مرتين ، وشهد فى المشرق حدثين بارزين ، الأول أنه دخل مصر قبل الحملة الفرنسية فى الحجة الأولى ودخلها بعد هذه الحملة فى الحجة الثانية ، والتقى بعلمائها ورأى آثار الحملة ، ولعله قد تأثر بها ، ولعل كتابه (أقوال التأسيس) مستوحى من هذه التجارب . أما الحادث الثاني فهو الحركة الوهابية التي روى عنها أشياء فى رحلاته وتناظر مع بعض مؤيديها وعرض بهم . والشخصية السياسية التي أخذت بلب أبي راس الناصر هو محمد الكبير ، باي مدينة معسكر ثم مدينة وهران بعد فتحها . فقد أنعم هذا الباي عليه وقدر علمه ، وخصه أبو راس من جهته بالشعر والدعاء والتأليف . وكان ضياع الاندلس جرحا فى قلب أبي راس الى أن استعاد الجزائريون وهران من الاسبان فاعتبر أبو راس ذلك فتحا مبينا ، وتمنى أن تستمر موجة الفتح حتى استعادة الأندلس .

ورغم شكوى أبي راس من تدهور العلم فى عصره ، فان كتاب هذه الفترة يذكرون شواهد كثيرة على تقدم المعارف وعناية السلف بها ، ولا سيما الباي محمد الكبير . فقد شكا أبو راس من ضعف الحياة العلميه على عهده بقوله : « اني فى زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده ، وقلبت دياره ومراسمه ، وعفت أطلاله ومعالمه ، لا سيما فن التاريخ والأدب ، وأخبار الأوائل والنسب ، قد طرحت فى

زوايا الهجران ، ونسجت عليها عناكب النسيان ، وأشرفت شمسها على الأفول ، واستوطن فحولها زوايا الخمول ، يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل . ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل .. (2) » .

غير أن معاصريه يتحدثون عن ازدهار الحياة العلمية على يد الباي محمد الكبير . فهذا الرجل كان يشجع العلماء بعطاياه ويجيزهم بالمال ونحوه . ولم يقتصر ذلك على علماء الجزائر كأبي راس نفسه ، ولكن تجاوزهم الى علماء المغرب والحرمين ومصر وحتى علماء آل عثمان . ومن علماء مصر الذين نالوا احسان الباي محمد الكبير الشيخ مرتضى الزبيدي ومحمد الأمير ، وكلاهما أستاذ لأبي راس كما سنرى .

لذلك لا نستغرب أن يكون الشيخ مرتضى من بين مادحي هذا الباي سنة 1201 هـ (3) . وكان الباي يكرم العلماء والمدرسين والايمة والأدباء والمؤدبين . ومن بين هؤلاء أبو راس الذي يذكر أن الباي قد شمله بعطفه وعينه في وظيف ثابت وأعطاه مالا بلغ سنة 1227 هـ ، اثر عودته من الحجة الثانية ، مائة محبوب (4) . ويذكر أبو راس مدرستين على الأقل للتعليم العالي في عهده احداهما المدرسة القشاشية بمدينة الجزائر ، وثانيهما المدرسة المحمدية في الغرب ، بالاضافة الى المساجد التي لم تكن تخلو منها مدينة ، باستثناء مدينة وهران التي لام أبو راس الأسبان على طمس معالم مساجدها بقوله : « درسها الكفرة وعفوا رسمها » (5) . ومع ذلك كانت اللغة العربية ضعيفة فلم تكن لغة رسمية يحفظها الأمراء والحاشية ، وظلت محصورة في دوائر الدرس والقضاء . لذلك شاع اللحن حتى بين الأدباء والنحاة . وقد اعترف أبو راس بأنه كان يلحن في

---

2 ـ عجائب الاسفار . محطوط المكتبة الوطنية ، الجزائر ، ورقة 2 .

3 ـ ابن سحنون الراشدي : (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) مخطوط باريس ، ورقة 16 ، وفيه رسالة الشيخ مرتضى الى الباي محمد الكبير وهي من النثر المسجوع ، ومعها بعض الابيات .

4 ـ أبو راس (فتح الاله ومنه) مخطوط ، ص 61 .

5 ـ أبو راس (عجائب الاسفار) ، ورقة 78 ـ 79 ، مخطوط .

درسه فى النحو حتى حتج عنه بحد مجلسه (6) . وقال عن الشعر الملحون : « وما فى الشعر الملحون من بأس ، فانه فى هذا العصر لسان الكثير من الناس » (7) .

ولد محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس الناصر فى بيئة فقيرة وظل الفقر يطارده حتى قضى نحبه بعد عمر طويل . فقد ولد حوالي منتصف القرن الثاني عشر للهجرة قرب جبل كرسوط بالغرب الجزائري . ثم توجه به والده الى سهل متيجة قرب عاصمة الجزائر ، وهناك فقد والدته وهو صغير . فعاد والده الى حوز مجاجة واشتغل هناك بقراءة القرآن وتعليم الصبيان وتزوج عدة نساء حتى وافاه الأجل فدفن بمكان يعرف بأم الدروع . وبذلك فقد أبو راس والده وهو طفل . وقد كفله أخوه عبد القادر الذي توجه به الى المغرب حيث حفظ أبو راس القرآن الكريم ويروي عن نفسه انه كان وهو فى حدود العاشرة حافي القدمين عاري الجسم الا من أسمال بالية . وكانت له أخت تدعى حليمة ، روى عنها بعض الأخبار ، أما والدته فتدعى زولة ، وكانت — حسب وصفه لها — كرابعة العدوية من بيت علم وصلاح . ولكن أبا راس لم يلبث أن عاد الى معسكر ، وكان لا يملك شيئا من المال فالتقى هناك بالشيخ عبد القادر المشرفي الذي كانت شهرته العلمية واسعة ، فتتلمذ عليه أبو راس ، وكان يغسل ثيابه وثياب أهله ويكويها . وعندما شعر بشيء من الاستقلال العلمي خرج الى جوار معسكر عند أخيه وتزوج واشتغل بالتدريس وتولى القضاء .

واستمر على هذه الحال حوالي سنتين ، الى أن أحس بضعف معلوماته وتيقن أن البادية تضعف العلم ، فغادرها الى معسكر حيث مكث ستا وثلاثين سنة ، وهو يمارس مهنة التدريس . وقد اشتهر أمره بين الناس

6 — أبو راس (فتح الاله ومنته) ، مخطوط ، ص 61 .
7 — أبو راس (شرح العقيقة) ، مخطوط ، ص 2 .

لا فى الجزائر فحسب ولكن فى أقطار المغرب والمشرق أيضا . وبلغ من شهرته أن اجتمع عليه أحيانا أكثر من 780 طالبا . وهذا ما جعل « أمراء بلادنا » يخصصون له كرسيا يستعين به على الدرس ، لازدحام الناس عليه . وقد رشحه شيخه ، عبد القادر المشرفي ليكون خليفة له فى الدرس . وكفوه حاجاته من القمح والشعير واللحم والزيت والدراهم .

وفى سنة 1204 هـ ذهب للحج لأول مرة ، والتقى فى طريقه بعلماء الجزائر وقسنطينة وتونس ومصر ، والحرمين والشام . وأثناء عودته سنة 1205 هـ سمع وهو فى تونس بالحرب بين المسلمين والأسبان على وهران فأسرع بالعودة والاشتراك فى الجهاد . وبدأ فى أثناء ذلك يؤلف كتابه (عجائب الأسفار) الذي انتهى منه فى السنة الموالية (1206) . وقد تقلد بعدها وظائف الفتيا والقضاء والخطابة ، ولكنه عزل منها لأسباب نجهلها حتى الآن ، سنة 1211 فاشتغل بالتأليف . ثم توجه الى المغرب ووفد على السلطان مولاي سليمان واشتهر أمره بفاس ولقبه علماؤها بالحافظ ، وقد رغبه السلطان فى البقاء هناك ولكنه اعتذر . ولم يكد يطمئن حتى وقعت حروب درقاوة وحل بالجزائر الطاعون ، فعانى أبو راس من الجوع والنكبات ما ظهر على صحته ونفسه فاعتزل الناس وترك الكتب والتأليف . وقال بهذا الصدد : « ولو لم يكن الا سكني حاضرة كبادية ، فناهيك من معذرة بادية ، ولا سيما من اشتد فيها عسره ، ولم يساعفه دهره ، فكيف يرتفع ذهنه الى التصنيف ، أو أمله الى وضع تأليف » . وضاق بالناس حتى قال فيهم : « الناس داء عضال ، لا يتخلص منهم على كل حال ، سهامهم مسمومة ، وخلق أكثرهم مذمومة ، لا ينظرون بعين الانصاف ، ولا يملون من الانتقاد والخلاف ، يسقون من أفواههم العسل ، وفى قلوبهم السم الزعاف » (8) . ولكن أبا راس لم يستطع الابتعاد عن التأليف والتدريس . وتاقت نفسه الى الحج مرة أخرى لعله

8 — أبو راس (شرح العقيقة) ، ص 62 .

يتنفس من الضيق الذي كان فيه ، ويعرف مدى شهرته التي قال أنها قد سبقته فى بلاد المشرق . فحج سنة 1226 هـ ، ولم يعـد الا فى السنـة المواليه . ولاشك أن هذه الحجة كانت قد عادت عليه بفائدة علمية كبيرة بعد عشرين سنة قضاها بعيدا عن الاتصال بعلماء المشرق ، وفيهم علماء مصر وتونس (9) .

وبالاضافة الى الشيخ عبـد القـادر المشرفي درس أبو راس فى الجزائر على مشائخ كثيرين ، كما التقى وتذاكر مع عدد آخر منهم ، ومن هؤلاء محمد الصادق آفغول « شيخ الاسلام الحافظ الزاهد » ، وأحمد بن نافلة ، ومحمد بن جعدون . قاضي مدينة الجزائر ، والقاضي محمد بن عبد الرحمن التلمساني ، والمفتي أحمد بن عمار . وعبد القادر ابن السنوسي بن دحو الملقب بالحافظ ، والقاضي محمد بن مالك ، والحاج علي ابن الأمين مفتي مدينة الجـزائر ، والمفتي محمـد بن الحفاف ، والحاج محمد بن الشاهد « عالم الجزائر وقطب رحاها .. فقيها علامة حافظا بارعا نظارا مفتيا مدرسا محققا .. » ومحمد بن انقفون ، والحاج على الونيسي الشهير بالحفظ والفقه والتدريس ، ومشى مع الشيخ أحمد العباسي الذي كان « واسع العـلم فصيـح القلم .. أرق الناس طبعا » ، ولقي بتونس محمـد بن المحجـوب ، وصالح الكواش ، وابراهيم الرياحي ، وأحمد بيرم ، ومن علماء مصر خاصة ، يذكر الشيخ مرتضى الزبيدي ، وعبد الله الشرقاوي ، ومحمد الأمير ، وقد ذكر عددا آخر من علمـاء المشرق والمغـرب منهـم : عبد الرحمن التادلي ، وعثمان الحنبلي ، وعبد الملك القلعي ، وعصمان الشامي .

---

9 ـ ترجم أبو راس لنفسه فى كتابه (فتح الاله) ، مخطوط ، ترجمة وافية ، ولكنه يصل فيه الى حجته الثانية ، أي قبل وفاته بحوالي عشر سنوات . وكان فى ذلك متأثرا بالسيوطي الذي ترجم لنفسه أيضا فى كتاب سماه (نزول الرحمة فى التحدث بالنعمة) ، وكان مثله يتيما وكثير التآليف .

ومن أجازه من علماء مصر خاصة الشيخ مرتضى الذي وصفه بالحافظ ، وقد جمع أبو راس ما درسه على الشيخ مرتضى، فى كتاب بعنوان « السيف المنتضي فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى » . وأجازه عبد الله الشرقاوي وأطلق عليه اسم « شيخ الاسلام » . كما أجازه الشيخ محمد الأمير الذي قال عنه أبو راس أنه كان « مازونيا نجارا مصريا منشأ ودارا » . وفى الاسكندرية زار أبا العباس المرسي . وتحادث مع أديب الاسكندرية وشاعرها محمد المسيري . ويبدو أن الشيخ مرتضى كانت له مكانة بارزة لدى أبي راس . فقد درس عليه أثناء ذهابه الى الحج ثم درس عليه عند عودته من الحج سنة 1205 هـ ، أي قبل وفاته بخمسة أشهر ، وكتب الى باي السويس فى شأن أبي راس . وروى هذا أنه جرى بينه وبين شيخه مرتضى « حكايات ونوادر ، ومفاكهة ، ومباحث فى علوم الحديث والتاريخ وغير ذلك » . وكان ذلك قبل الاجازة التي تحدثنا عنها (10) .

وكان أبو راس يساجل العلماء ويناظرهم ويجيب على أسئلتهم . وقد ذكر فى ذلك وقائع ومباحث جرت له معهم سواء فى الجزائر أو فى تونس أو فى مصر أو غيرها من البلاد التي زارها . وله كتاب سماه (لب أفياخي فى عدة أشياخي) ذكر فيه شيوخه ومن أجازه منهم والألقاب التي حصل عليها منهم ، والمناظرات التي جرت مع بعضهم ، وقد سار فى نفس تيار العصر فذكر أنه شريف الأصل . ولكن اذا كنا لا نشك فى موهبته كنسابة فاننا نشك فى نسبته الى الشرف . والأسئلة التي وجهت الى أبي راس وأجوبته عليها تدل على أهميته لدى معاصريه من جهة وشهرته وكفاءته الفقهية من جهة أخرى .

---

10 — انظر عجائب الاسفار ، ورقة 108 — 110 . وفتح الاله ، ص 27 ، 43 ، 61 ، — 73 . انظر أيضا فهرس الكتاني ، ج 1 ، ص 104 — 105 .

فقد ذكر أنه سئل بتبسة عن قول الغزالي : ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وسئل بالشام عن أصعب مسألة فى التوحيد ، وبمكة عن أصل كل علم وما سبب تدوينه ، وسئل بمصر عن التكوين ، وبالقدس عن الوحدانية والتوحيد ، وبالمدينة عن العقائد . وبغزة عمن تكلم فيه العلماء من الكفر الى القطبانية . وسئل بتونس عمن انتقل من مذهب الى مذهب آخر ومن انتقل الى الاجتهاد . وبقسنطينة عن قول الحسن بن زياد اني واكل الميتة وأحب الفتنة وأكره الحق وأشهد بعالم أراه . وسئل بمجلس علماء الجزائر فى الجامع الأعظم عن حكم القهوة والدخان ، وسئل بفاس عن قول صح للشارب فى مأدبة عظيمة حضرها العلماء . وبتطوان عن قوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه) ، وبتلمسان عن نطق كلمة (رشد) بكسر الشين أو فتحها .

وقد كانت اجابته تعتمد على العقل والنقل . وروي أنه خلال حجه الثاني (1226 هـ) لقى علماء الوهابية فى الحجاز وتناظر معهم وحكم عليهم حكما قاسيا ، فقال : « ظني أنهم حنابلة المذهب » ، ولكنه بعد أن تناظر معهم قال : « علمت أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة فى الفروع وأما فى العقائد فهم على ما عليه الامام أحمد » (11) .

ومن أخبار أبي راس مع علماء مصر أنه كان بحضرة شيخ الأزهر اثناء حجه الثاني وكان بالمجلس جماعة من العلماء فجرى بينهم ذكر الأندلس وما جرى لأهلها ، فقال شيخ الأزهر الحمد لله الذي عوضنا عنها بالقسطنطينية . فأجاب أبو راس بأنه كذلك يحمد الله ، ولكنه علق على ذلك قائلا : « ان لم تكن ابل فمعز » مشيرا الى أنه مهما كان العوض فلن يغني عن الأندلس شيئا فى نظره (12) .

---

11 — فتح الاله ، ص 94 .

12 — أبو راس ، شرح الحلل السندسية ، مخطوط ، ورقة 77 .

ولأبي راس كتب كثيرة فى التاريخ وغيره بعضها موجود وبعضها مفقود . وقد ذكر بعضهم أن تآليفه تكاد تزيد على عدد أيامه ، وحددها أحد تلاميذه بأنها تزيد على الخمسين كتابا (13) . ويهمنا من هـذه التآليف أعماله التاريخية ، ومن هذه الأعمال كتب فى التراجم وأخرى فى التاريخ العام وثالثة فى الرحلات ، ونحو ذلك . وقد ذكر هو بعضها فى كتابه (فتح الاله) تحت باب « التاريخ » واعترف بأن أحدا لم يفقه فى كثرة التأليف سوى السيوطي . وهذه قائمة بأعماله التاريخية سواء ما ذكره هو أو ما نسب اليه :

1) زهرة الشماريخ فى علم التاريخ .

2) در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة (14) .

3) درء الشقاوة فى حروب درقاوة .

4) الوسائل الى معرفة القبائل .

5) الحلل السندسية فى شأن وهران والجزيرة الأندلسية . . وهو أصلا قصيدة تاريخية (15) .

6) ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون .

7) حلتي ونحلتي فى تعداد رحلتي .

8) فتح الاله ومنته فى التحدث بفضل ربي ونعمته .

9) عجائب الأسفار ولطائف الأخبار (16) .

---

13 ـ الكتاني ، الفهرس ، ج 1 ، ص 105 . نقلا عن ابن السنوسي ، أحد تلاميذ أبي راس . أما أبو حامد المشرفي فقد قال ان تآليفه أوشكت أن تزيد على عدد أيامه ، انظر (ذخيرة الاواخر والاول) ، مخطوط ، ص 8 .

14 ـ هكذا ذكره المؤلف ، لكن ابن سودة فى دليل مؤرخ المغرب ذكره هكذا (الاصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة) ، ص 488 .

15 ـ ترجمها ونشرها الجنرال فور بيغي بعنوان :
Les vêtements de soie fine, Alger, 1903.

16 ـ نشرت بعضه جريدة (المبشر) بالعربية ، مثلا تاريخ أول يناير سنة 1881 وما يليه ، ترجمه ونشره السيد أرنو بعنوان :
Voyages extraordinaires sur l'Afrique. Septentrionale Alger 1885.

10) ذيل القرطاس فى ملوك بني وطاس .

11) الزمردة الوردية فى الملوك السعدية .

12) مروج الذهب فى نبذة من النسب ومن الى الشرف انتمى وذهب .

13) الخبر المعلوم فى كل من اخترع نوعا من أنواع العلوم .

14) الغرض (أو الخبر) المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب ، وهو الشرح الثاني للحلل السندسية .

15) روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان ، وهو الشرح الأول للحلل السندسية .

16) تحفة الاخوان فى ارهاط وقبائل الجان (17) .

17) القصص الفتاتة فى ذكر البربر وزناتة (18) .

18) الزهرة السموية (؟) فى أخبار الملوك العلوية .

19) العز المتين فى ذكر ملوك بني مرين .

20) أقوال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيس (19) .

21) ايضاح الغميس وأنوار البرجيس بشرح عقد الجمان النفيس(20) (عن علماء أغريس) .

ولا شك أن بعض هذه الكتب مطول وبعضها مقصر . وقد وقفنا على بعضها مخطوطا مثل (فتح الاله) الذي رأينا منه نسختين . و (عجائب الأسفار) الذي رأينا منه عدة نسخ ، وكذلك (الحلل السندسية)

---

17 ــ نسب اليه فى (المجلة الافريقية) ، سنة 1925 ، ص 146

18 ــ نسبه اليه ابن سودة فى دليل مؤرخ المغرب ، ص 140 .

19 ــ نسبه اليه نفس المصدر ، ص 490 . عن (أقوال التأسيس انظر ايضا ما كتبه عنه الشيخ المهدي البوعبدلي فى مقدمة تحقيقه لكتاب (دليل الحيران) نشر المكتبة الوطنية بالجزائر ، سنة 1978 ، ص 14ـ

20 ــ نسبه اليه السيد فان L. GUIN فى (المجلة الافريقية) R.A. سنة 1887 ، ص 72 ــ 80 . وذكره المؤلف نفسه فى (فتح الاله) ولكنه عده من كتب التصوف .

وشروحها . كما رأينا بعض كتبه فى الأدب مخطوطا أيضا (كشرح العقيقة) و (اسماع الاصم). وأبو راس كان كثير الاطلاع ويعتبر من أهم المؤلفين فى الجزائر العثمانية . وأن تنوع موضوعات كتبه يدل على تنوع ثقافته وغزارة مادته . ولكنها فى عصر التخصص قد تدل على ثقافة عامة فقط قوامها الفقه والأخبار والتراجم . وأن استعراض مؤلفات أبي راس فى الفنون الأخرى يبرهن على ما تقول فقد كتب فى التفسير والأسانيد والمذاهب والتوحيد والتصوف والنحو والبيان والمنطق واللغة والأدب ، وله قصائد فى أغراض شتى أهمها التاريخ والمدح . وكان أبو راس يمتاز بالحافظة القوية حتى لقبه معاصروه (بالحافظ) وأطلق عليه مجيزوه اسم حافظ المغرب الأوسط (الجزائر) ، وقال عنه تلميذه ابن السنوسي بأنه كان متقنا « لجميع العلوم عارفا بالمذاهب الأربعة لا يسأل عن مسألة الا يجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه » وقال عنه أيضا بأنه كان لا يراجع الدرس سوى مرة واحدة (21) . أما أبو حامد المشرفي فقد شبهه بأسد ابن الفرات فى المذهب المالكي . وقال عنه أنه ألف فى سائر الفنون (22) .

والى جانب الفقه والأخبار يعتبر أبو راس من كبار النسابة . وقد رأينا أنه ألف فى الأنساب بعض الكتب . ورأيت له مادة غزيرة فى أنساب قبائل المغرب العربي ومواطن كل قبيلة وأصلها وفروعها . وقد لاحظ هو فى مقدمة كتابه (عجائب الأسفار) ضعف اهتمام علماء عصره بالنسب فقال : « ان امتياز النسب اندرس فى هذا الزمان ، فلا يكاد يتفق فيه اثنان ، حتى يقع اختلافا كثيرا (كذا) فى الأمة الواحدة لاختلاط الأنساب وتباين الدعاوي » لذلك ركز فى كتابه المذكور على أحوال النسب « على حسب ما اتفق لي من العجم والعرب » (23) .

---

21 – الكتاني ، الفهرس ، ج 1 ، ص 105 ، نقلا عن ابن السنوسي .
22 – المشرفي ، (ذخيرة الاواخر والاول) ص 8 ، مخطوط .
23 – أبو راس ، (عجائب الاسفار) ، مخطوط ، ورقة 3 ، 4 .

وأعتنى أبو راس أيضا بعلم التاريخ عنايته بعلم الأنساب . ولا شك أن الصلة وطيدة بين العلمين . ورغم أننا لم نعثر على كتابه (زهرة الشماريخ فى علم التاريخ) الذي يدل عنوانه على تخصصه بما يسمى اليوم (بالأستوريوغرافيا) ، فان ما ذكره فى مقدمة كتابه (عجائب الأسفار) يبرهن على فهمه لدور التاريخ بين العلوم الأخرى ودور المؤرخ بين الكتاب الآخرين . فقد ذكر هناك ما يلي : « ان البحث من علم التاريخ ممن تقدم شأن الأدباء الأفاضل من أولى بصيرته ، وقد اعتنى به أهل كل طبقة وجهابذة كل ملة من صلحاء السلف وحذاق الخلف فى كل عصر عصابة ، هم أهل الاصابة ، فألفوا وأفادوا وصنفوا وأجادوا » ، واستعرض بعد ذلك أسماء من اهتم أو كتب فى التاريخ من علماء المسلمين كأبي نعيم ، والبلاذري ، والذهبي ، والمسعودي ، وابن الخطيب ، والمقري ، وابن خلدون ، والسيوطي « ممن لا يحصى ويعد ولا يدخل تحت حصر واحد » وذكر أيضا أسماء من ألف فى التاريخ قبل الاسلام مثل داهر الفارسي ، وابن كريون الاسرائيلي ، وهرشيوس الرومي ، وسابق بن سليمان المطماطي البربري (24) . ويبدو أن أبا راس كان مقلدا فى ذكر هذه السلسلة من المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو من أمم أخرى .

ومن كتب أبي راس التي وقفنا عليها والتي تدخل باب التاريخ رحلته المسماة (فتح الاله ومنته) ، وقد سبق أن قلنا أننا رأينا نسختين من هذه الرحلة الهامة ، وقسمها أبو راس الى خمسة أبواب تحدث فى الأول عن ابتداء أمره من طفولة وتعلم وحالة الأسرة وزواجه وحجاته . وتحدث فى الباب الثاني عن شيوخه والعلماء الذين ناظرهم أو التقى بهم أو

24 ـ نفس المصدر ، المقدمة ، ومدح علم التاريخ والاخبار فى مقدمة شرحه للحلل السندسية بقوله انه « زهر الشماريخ .. تحفة المجالس ، المغني عن الانيس والمجالس » وبين خطأ من ادعى بأن على التاريخ علم لا ينفع وجهالة لا تضر ، وكذلك خطأ من قال « كذب النسابون » .

أجازوه ، ابتداء من والده ومرورا بعلماء الجزائر والمغرب وتونس ومصر والحجاز والشام . وخص الباب الثالث برحلته الى المشرق وغيره ، ولعل هذا الباب هو الذي أطلق عليه أحيانا اسم (حلتي ونحلتي فى تعداد رحلتي) مما جعل بعضهم يذكره وكأنه كتاب خاص برحلات أبي راس . وتناول فى الباب الرابع الأسئلة التي وردت اليه أو ألقيت عليه أثناء تنقلاته كما ذكر الأجوبة عليها . أما فى الباب الخامس فقد ذكر فيه تآليفه مرتبة حسب موضوعاتها ومادتها .

وقد جاء فى آخر الكتاب ما يدل على كبر سنه حيث قال أن الساعة أزفت وأن أطيب العمر قد ولى ، ولكن ليس هناك ما يدل على تاريخ تأليفه . ومهما يكن من أمر فان أبا راس قد ألف كتبا أخرى بعد (فتح الاله) مثل (اسماع الأصم) الذي لم يذكره فى تآليفه ، والذي انتهى منه سنة 1234 هـ ، أي حوالي خمس سنوات فقط ، قبل وفاته ، غير أننا نجد أن آخر تاريخ أشار اليه أبو راس فى (فتح الاله) هو سنة 1227 هـ وهي السنة التي عاد فيها من الحج للمرة الثانية . والواقع أن كتاب (فتح الاله) يعد ترجمة شخصية وافية لأبي راس . فمنه نعرف أشياء كثيرة عن نفسه وأحوال عصره وتراجم عدد من العلماء المعاصرين له سواء كانوا أساتذة له أو زملاء ، هو كتاب غني بالأخبار لا عن الجزائر وحسب ولكن عن المغرب العربي والمشرق أيضا . وهو من الكتب الضرورية لفهم شخصية وثقافة أبي راس الناصر . وقد ذكر أنه سار فيه على نهج السيوطي الذي ألف كتابا ترجم فيه لنفسه . كما اقتدى فى رحلاته بالرحالة المغاربة أمثال ابن رشيد وابن مرزوق الخطيب ، والعياشي ، ومحمد بن ناصر الدرعي (25) .

والكتاب الذي اشتهر به أبو راس لدي الباحثين حتى الآن هو (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) . وأصل هذا الكتاب قصيدة تاريخية نظمها

25 ـ ابو راس ، فتح الاله ، ص 61 وما بعدها .

أبو راس بمناسبة فتح وهران الثاني على يد الباي محمد بن عثمان الملقب بالكبير ، وسماها (نفيسة الجمان فى فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان) . وقدمها للباي المذكور فاستحسنها ولكنه طلب منه أن يشرحها شرحا « يظهر لباب تراكيبها الضافية » ويوضح ما جاء فيها من اشارات تاريخية وأخبار فى الانساب ووقائع وأسماء . وقد ذكر أبو راس فى البداية أنه اختار لقصيدته قافية السين لأن معظم الأمراء والأدباء يفضلونها . والغالب أن أبا راس نظم القصيدة سنة 1205 هـ أثناء حروب الجزائر وأسبانيا على وهران . وهو يذكر أنه بينما كان عائدا من حجته الأولى عن طريق البحر ، سمع ، وهو بجزيرة جربة قرب تونس بخبر الجهاد فأسرع بالعودة الى مركز القتال ليشارك فى الجهاد بنفسه . واهتزت عاطفته بما رأى من نصر للمسلمين بعد أن مكث الأسبان فى ثغر وهران قرابة ثلاثة قرون . وعادت له ذكريات ضياع الأندلس ، فتمنى لو أن النصر شمل الجزيرة الأندلسية أيضا . ولكن ما تحقق للمسلمين على يد الباي محمد الكبير جعله يسجل الأحداث التي جرت أمام عينيه فى قصيدة ثم يعود اليها بالشرح ، حتى اكتمل لديه كتاب ضخم فى حوالي 187 ورقة .

ولم تكن هذه هي أول مرة يكتب فيها أبو راس فى التاريخ . فقد كان كثير الحفظ لأخبار السابقين وشديد الولع بتسجيل الحوادث الماضية . وكان ولوعا بالقراءة فى تاريخ الاسلام والأندلس والمغرب . وكان أستاذه عبد القادر المشرفي ممن شهد عودة الاسبان الى وهران بعد أن كان المسلمون قد استعادوها لفترة قصيرة على يد الداي محمد بقطاش والباي مصطفى بوشلاغم . ولا شك أنه روى له ما شاهده كما روى له والده وشيوخ مازونة ومعسكر الذين تتلمذ عليهم . وكلهم قد تأثروا بحوادث القرن الثامن عشر الميلادي والثاني عشر للهجرة . وكان الباي محمد الكبير نفسه قد جمع حوله العلماء والشعراء كما سبق أن

أشرنا . ومن هؤلاء من كان كثير الاهتمام بحوادث العصر كابن سحنون الراشدي الذي سجل فى كتابه (الثغر الجماني) أخبار الثورة الفرنسية ونحوها . ويذكر أبو راس أنه كان قد خاض فى علم التاريخ ولكنه لم يجد الفرصة المواتية فخمدت قريحته وضعفت عزيمته . فهو يقول : « واني قد خضت فى هذا الفن (التاريخ) قديما وضقت به أديما ، ولم أزل فى خدمته مستديما ، حتى كثرت عندي رقاعه ، وامتلأت بقاعه ، وصارت نفسي تحدثني بالتدوين ، والانخراط فىسلك المؤلفين » (26) . ويظهر هذا النص أن أبا راس لم يكن دخيلا على الكتابة التاريخية ، فقد كان جماعا للأخبار والوثائق ، كثير الخوض فى مسائل التاريخ وحـوادثه ورجاله ونصوصه .

وحانت فرصة التدوين التاريخي عند أبي راس عندما حركه صوت الجهاد الذي قال أن الناس كانوا يتحدثون عنه طول الطريق من تونس حتى وهران . وقد أنهى كتابه (عجائب الأسفار) فى سنة واحدة ، لأننا نجد فى نهاية المخطوط أن المؤلف فرغ منه سنة 1206 هـ . والكتاب فى جزأين ، يبدأ الجزء الاول من الورقة الاولى الى ورقة 80 ، ويبدأ الجزء الثاني من ورقة 81 الى نهاية الكتاب وهو ورقة 187 حسب مخطوطة الجزائر (27) . والكتاب غير مقسم الى أجزاء أو أبواب ، أو فصول ولكنه يخضع لتقسيم الأفكار أو الموضوعات التي يعبر عنها كل بيت من أبيات القصيدة ، فكأن كل بيت عنوان لفصل ، وهذه الطريقة قديمة لدى الشراح ، وقد اتبعها أبو راس نفسه فى كتبه الاخرى التي رأيناها مثل (شرح العقيقة) و (اسماع الأصم) ، ولكنه لم يتبعها فى كتابه (فتح الاله) الذي قسمه الى أبواب كما سبق أن ذكرنا . وقد قدم المؤلف لكتابه بمقدمة تحدث فيها عن قيمة علم التاريخ وتاريخ التدوين التاريخي

---

26 – أبو راس ، عجائب الاسفار ، مقدمة مخطوطة باريس .

27 – أما نسخة باريس فتقع فى 194 ورقة .

عند المسلمين وغيرهم ، وعن الدافع الى التأليف وهو عودة وهران الى الجزائريين على يد الباي محمد الكبير ، وعن الغرض من الكتاب وهو تسجيل فتح وهران ومدح من فتحها ، وعن العنوان الذي اختاره للكتاب وهو (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) ثم ذكر أنه قسمه الى جزأين « تكلمنا فى هذا الجزء الأول على انشاء وهران وما تداولها من الدول وما دهاها من الأمور العظام الطوام ، والنوائب العظام ، ومدة الكفر وأهل الاسلام » أما الجزء الثاني فهو « المشتمل على الفتح العظيم ، والفخر الجسيم ، ومدح من فتحها ، الباي سيدي محمد بن عثمان » . وقد انتهى الكتاب بتاريخ فتح وهران ، وهو سنة 1206 هـ .

وطريقة أبي راس فى (العجائب) أنه يورد البيت الذي يحتوي على الفكرة الرئيسية ثم يشرع فى تفسير ألفاظه لغويا وأدبيا . ثم يشرحه تاريخيا . وهو يروي عن كل فكرة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والنوادر واللطائف والأخبار . فكأنه يريد أن يبرهن على مدى حفظه والمامه من كل علم بطرف كما يقول القدماء . ويكثر أبو راس أيضا من الاستطرادات بايراد عناوين لأفكار جانبية مثل (فائدة) و (نادرة) و (لطيفة) و (تنبيه) و (تتمة) و (غريبة) . ونحو ذلك . ويختلف الجزء الأول عن الثاني فى أن الأول يحتوي على معلومات تاريخية أكثر . لأنه حتى فى نقوله عن القدماء ينقل عن المؤرخين كابن خلدون والتنسي وابن خلكان وغيرهم ، أما فى الثاني فيكثر من النقول الأدبية كالنقل عن الجاحظ والمتنبي وأبي فراس الحمداني ، وابن عبد ربه ، ولعله أراد أن يكون فى الجزء الأول مؤرخا بينما أراد أن يكون فى الجزء الثاني مادحا لمحمد الكبير على مواقفه فأسعفته فى الأول الأخبار والذاكرة والنقول ، أما فى الثاني فقد أسعفته الأشعار والعواطف والقلب المعجب .

أهم ما تناوله أبو راس فى الجزء الأول أخبار المغرب العربي وأخبار برقة وفزان ومصر ، وأنساب الأولين وأخبارهم ، وبالأخص قبائل وهران وما جرى للمسلمين فيها أيام حكم النصارى . ويذكر بايات أقليم الغرب الجزائري الذين كافحوا من أجل استرداد وهران مثل ابراهيم باشا وعثمان باي ، ويخص قبيلة مغراوة بحديث طويل فيذكر علماءها وصلحاءها ، كما يذكر علماء وهران ، ويأتي بأخبار الجزائر فى العصور الاسلامية وذكر القبائل التي استوطنتها ويظهر براعته فى حفظ الأنساب. ويطيل الحديث عن تاريخ وهران فى عهد الأمارات الاسلامية وكيف دخلها الأسبان والنزاع بين هؤلاء وبني زيان ملوك تلمسان ، والصراع الاسلامي الأسباني فى الأندلس وشواطىء البحر الأبيض . وقد مدح الأتراك على مواقفهم فى الدفاع عن الاسلام ، ولا سيما خير الدين بربروس ، وتكلم عن دخول الترك للجزائر سنة 915 هـ ، وخصص له ورقات 62—80 ، وتحدث عن عهد محمد عثمان باشا ، والصلح مع أسبانيا وعن غزوات الأجانب ضد الجزائر ووهران .

وتعرض فى الجزء الثاني لتعريف المغرب الأوسط والأقصى ، وجاء بأخبار بلاد السودان القديم والحياة التجارية ، وبعض عادات وتقاليد أهل الطوارق وواحات الصحراء وأصل سكانها ، وينقل فى هذا الموضوع عن أخيه عبد القادر ، وعن المؤرخ البكري وعن المازوني صاحب (النوازل) . ثم يعود للحديث عن تاريختلمسان وأمراء الثعالبة بسهل متيجة الذي عاش فيه . ويستطرد فى الموضوع فيذكر قصة الشيخ المغيلي مع السيوطي ومع يهود توات . ويلم بأخبار رحلته الأولى للحج ويصف الأماكن التي تنقل فيها منذ سمع بالحرب بين الجزائريين والأسبان ، أي من جزيرة جربة . وينتقل الى الحديث عن الأندلس ويذكر مدنها . ثم يفيض فى الحديث عن فاتح وهران الباي محمد بن عثمان وينعته « بأبي الفتوحات المنصور بالله » . وفى الجزأين نقول وأشعار عن الشاعر التونسي السيد علي الغراب السفاقصي فى غير مناسبة .

ان ما نلاحظه هو أن أبا راس يتبع طريقة الشرح المعهودة فى عصره . فهو ينقل من الماضين ما يوافق المعنى ويبرهن بذلك على حفظه ومهارته الأدبية والتاريخية . ويتبع الأسلوب الأدبي فى شرح الألفاظ والمعاني لغويا ونحويا وبيانيا وتاريخيا .

ويبدو أنه اختلط عليه . كما فعل بعض السابقين . التاريخ والأدب ، رغم أنه عرف الأول بما يدل على تمييزه عن الأدب كفن أو علم قائم بذاته ، وهو يستطرد الى درجة الحشو . ويتناول موضوعا ما ثم يعود اليه فى أماكن أخرى . ولعل هذا يعود الى أنه لم يسلك طريقة منظمة من البداية . ومصادره كثيرة منها القديم والمعاصر ، والمكتوب والشفوي، والمنقول ، والشخصي . ولكنه قلما ينقد المصادر أو يقف عندها بالمقارنة، وتغلب عليه العاطفة الدينية فى سرد الأحداث ووصف النزاع الاسلامي — الأسباني . ولا غرابة فى ذلك فقد كان متأثرا بما جرى للمسلمين منذ ضياع الأندلس ومحاولة الغزو الأسباني (المسيحي) لشمال أفريقية . ومن جهة أخرى فانه كان يكتب عن حادثة تجري أمام عينيه . بل كان مشاركا فيها . وهي حادثة أججت العواطف وأثارت الحماس الديني . ورغم شيوع السجع والصناعة اللفظية فى العصر العثماني فان أبا راس لم يلتزم بالسجع الا فى مقدمة الكتاب أو اذا جاء عفوا فى ثناياه . أما سائر الكتاب فمكتوب بنثر بسيط يكاد يقرب من العامية أحيانا .

وللكتاب قيمة بارزة الى جانب ما ذكرنا من الأخبار . فهو يحتوي على معلومات قيمة عن أنساب القبائل ومواقعها فى شمال أفريقية . وهو لذلك ما يزال مرجعا للباحثين . وفيه أيضا وفرة من الأخبار عن أحوال شمال أفريقيه خلال العصر العثماني قلما نجدها فى غيره . بالاضافة الى تأسيس المدن ومد الطرق وتواريخها فى المنطقة المذكورة . والكتاب يكشف عن موقف مؤيد للعثمانيين عامة والترك خاصة فى الجزائر . فصاحبه يشيد بهم ويذكر شجاعتهم ومواقفهم فى سبيل الدين ، رغم أنه لم يكن

منهم . وفى الكتاب معلومات اضافية عن الاندلس (وقد توسع فيها فى كتابه الآخر الحلل السندسية) وهو يكشف عن كره صاحبه للنصارى عامة والأسبان خاصة لاخراجهم المسلمين من الأندلس ومطاردتهم لهم فى المغرب العربي . وفيه أيضا أخبار عن حياة أبي راس الشخصية وأخبار رحلته الأولى (سنة 1204 — 1205 هـ) عن طريق البحر فى سبيل الحج .

ولأبي راس كتب أخرى كثيرة فى التاريخ لا نعرف عنها الا القليل ، بعضها مفقود فى الوقت الراهن ، وبعضها معروف لكن لم تتمكن من الاطلاع عليه . من ذلك (ذيل القرطاس) الذي قيل أنه يقع فى مجلد(28)، و (ايضاح الغميس) الذي تناوله أحد الكتاب الفرنسيين (29) و (در انسحابة) الذي قيل أنه يقع فى حوالي كراستين ويوجد عند بعضهم فى مكناس بالمغرب (30) ، وكذلك (الحلل السندسية) الذي ترجم ونشر كما سبق أن أشرنا (31) . ومهما يكن من أمر فان الكتاب الأخير قد وضع أصلا قصيدة تاريخية ثم قام المؤلف بشرحها شرحا واسعا على الاقل مرتين : الشرح الأول قام به عندما كان فى تطوان وسماه (روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان) . فقد ذهب الى المغرب بعد عزله من وظائفه سنة 1211 هـ (32) ، واستقبله السلطان مولاي سليمان بفاس ، وعرض عليه بعض الوظائف ولكن أبا راس اعتذر بثقله ، فأرسله السلطان الى مرسى تطوان للركوب من هناك الى الجزائر . وقد أحس أبو راس بالأمن والهدوء فكتب ذلك الشرح . لذلك وصف تطوان بأنها بلد « الأمن

28 — ابن سودة ، دليل مؤرخ المغرب ، ص 177 .

29 — L. Guin R.A. (1887) pp. 72-80.

30 — ابن سودة دليل مؤرخ المغرب ، ص 488 .

31 — نفس المصدر ، ص 428 : ويذكر أن الشرح الثاني لقصيدة (الحلل السندسية) وهو المسمى (بالقصد المعرب ..) توجد منه نسخة بمدينة تلمسان .

32 — يذكر نفس المصدر أن أبا راس رحل الى المغرب سنة 1218 (1803) ، ص 390— 391 .

• الايمان » • ولما كان متأثرا بفتح وهران دعا الى السلطان سليمان باستردا
سبتة وبريرا وثغر ابن عكاشة من الاسبان أيضا • أما الشرح الثاني فقد
سماه (الخبر المعرب عن الامر المغرب ، الحال بالاندلس وثغور المغرب)
وقد أضاف اليه « لطائف .. كأنها عقود جمان أو قلائد عقيان » • حسب
تعبيره • ويبلغ شرح الحلل السندسية 98 ورقة •

واذا كان دافع أبي راس فى كتابة (العجائب) هو فتح وهران فان دافعه
فى كتابة (الحلل) هو ما جرى فى الأندلس بين المسلمين والأسبان • وعلى
كل حال فان الذي أوحى له الكتابة فى هذا الموضوع هو انتصار المسلمين
فى وهران • وكان وجوده فى تطوان والسواحل المغربية الشمالية محركا
لذكرى الأندلس فى نفسه وأشجان الماضي الذي يربط أهل المغرب بأهل
الأندلس القدماء • بالاضافة الى أنه وجد ، كما قال ، الأمن والايمان فى
تطوان ، كما وجد احسانا وعطاء من السلطان المغربي مولاي سليمان •
ومن ثمة كانت (الحلل السندسية) تاريخا مفصلا لبلاد الاندلس وذكر
علمائها ومدنها ووقائعها ، مع تعرض بالمناسبة الى قبائل المغرب العربي التي
يتصل نسبها بسكان الأندلس موضوع الكتاب ، وشيء من الحديث أيضا
عن الوجود العثماني فى شمال افريقية واستعادة وهران • ولعل المؤلف
الذي خص وهران (بالعجائب) أراد أن يكمل موضوعه ، وهو العلاقات
الاسلامية ـ الاسبانية فكتب (الحلل) عن الأندلس وثغور المغرب •

والواقع أن هذه الدراسة القصيرة لا يمكن أن تفي بحق ولا بمكانة
أبي راس الناصري بين المؤرخين ، فهو ـ لسعة اطلاعه وكثرة معارفه
وحيوية وقائعه ـ يستحق اهتماما أكثر ودراسة أشمل • ولكن كتبه ما زالت
غير معروفة كلها أو جلها وعصره ما زال غير مدروس • ولذلك فمن الصعب
اعطاء صورة كاملة عنه وعن مساهمته فى الحركة الثقافية عامة والكتابة
التاريخية بوجه خاص • ولكن تسليط الضوء على شخصية معاصرة له كعبد
الرحمن الجبرتي جعلني أحاول أن أقدم ما أمكنني العثور عليه من مؤلفاته

ومساهمته الى الباحثين لعلهم يجدون فى الرجلين بعض أوجه الشبه وبعض أوجه الاختلاف ، ليس فى روح العصر فحسب ولكن فى المنبع والمصب الثقافي أيضا . ولم يكن هدف هذه الدراسة عقد مقارنة بين الرجلين لأن المقارنة لن تكون ناجحة الا اذا توفرت عناصرها وهي العثور على مؤلفات وآثار كل منهما . واذا كان البحث قد كشف عن آثار الجبرتي فما يزال لم يكشف بعد عن آثار أبي راس . ولعل الجزائريين يقتدون بالمصريين فى العناية برجالهم فيقيمون ندوة لأبي راس كما أقام المصريون ندوة للجبرتي . وعندئذ تكثر العناية بالرجلين وتتاح المقارنة بينهما . ولاشك أن كليهما خدم العلم والتاريخ ، ومن ثمة خدم الحضارة العربية الاسلامية فى أوسع معانيها .

الجزائر فى 15 أبريل 1974

* ـ بعد كتابة هذا البحث عثرت على نسخة من كتاب آخر لابي راس وهو (الشقائق النعمانية فى شرح الروضة السلاوانية) وهي قصيدة ابراهيم بن عبد الجبار الفجيجي فى الصيد . واسمه فى هذه المخطوطة هو محمد أبو راس الناصر . ويقع الشرح فى حوالي 150 صفحة .

وثائق جديدة عن ثورة الامير عبد المالك الجزائري بالمغرب

أجريت فى صيف 1968 بدمشق مقابلة مع الأمير حسن بن الأمير عبد المالك الجزائري وطلبت منه أن يحدثني عن ثورة والده فى المغرب (1914 — 1924) ، وعن ذكرياته عنه . وكانت المقابلة فى منزل الأمير حسن الواقع بأحد أحياء دمشق المشهورة بالمغاربة . وكانت القاعة التي جلسنا فيها محلاة بصور أبيه الأمير عبد المالك وصور جده الأمير عبد القادر . فهناك صورة للأول باللباس العسكري العثماني ، وأخرى يظهر فيها لابسا برنسا فى هيئة شبيهة بهيئة والده (الأمير عبد القادر) . وثالثة يظهر فيها ممتطئا صهوة فرس تذكر أيضا بالصورة المعروفة للأمير عبد القادر يحيط به عدد من المغاربة راجلين تماما كما تظهر صورة أبيه وهو محاط بأتباعه الجزائريين .

وقد تحدث الي الأمير حسن بصراحة عن والده ، فكان يتكلم وأنا أكتب طيلة بضع ساعات . وبعد أن انتهى من حديثه وجهت اليه بعض الاسئلة عن موضوعات رأيت انها ما زالت غامضة . فأجابني عنها أيضا بصراحة . كان الأمير يتمتع بذاكرة قوية . ويحتفظ بصور كثيرة عن تاريخ والده وجده ، كما يحتفظ بوثائق هامة تفضل بتسليمها الي فى أصولها .

ويمكننا أن نعيد بناء احداث ثورة الأمير عبد المالك بالمغرب بالاعتماد على هذه المعلومات الجديدة المتمثلة فى المحادثة التي أجريناها مع ابنه ،

* نشر فى المجلة التاريخية المغربية عدد 1 — 1974 .

1 — لكنه استعاد مني الوثائق فأعدتها اليه بعد أن احتفظت بصور منها .

وفي الوثائق والصور التي تفضل بالكشف عنها ، وفي مقال هام ظهر في جريدة (الأحرار) البيروتية ، بالاضافة الى ما استقيناه من معلومات حول هذه الثورة في مناسبات متعددة منذ صدور كتابنا « الحركة الوطنية الجزائرية » (1) الذي خصصنا فيه فصلا عن ثورة الأمير عبد المالك .

والوثائق المشار اليها هي ما يلي مرتبة حسب تواريخها :

الوثيقة رقم 1 : رسالة من الأمير عبد المالك الى أخيه الأمير علي بتاريخ 16 نوفمبر 1914 ، بالعربية .

الوثيقة رقم 2 : رسالة من الأمير عبد المالك الى ابن أخته سيدي مصطفى بتاريخ 4 صفر 1334 هـ (1915 م) ، بالعربية .

الوثيقة رقم 3 : رسالة من ممثلي الدولتين العثمانية والألمانية بمدريد بتاريخ 25 مايو 1916 بالعربية .

الوثيقة رقم 4 : شعر للأمير عبد المالك الى أسرة الأمير عبد القادر بالشام بتاريخ 14 ربيع الثاني 1338 هـ (1919 م) ، بالعربية .

الوثيقة رقم 5 : رسالة الى الأمير عبد المالك من مجهول ، بتاريخ 26 سبتمبر 1920 ، بالفرنسية .

الوثيقة رقم 6 : رسالة من الأمير عبد المالك الى الجنرال موريال ، بتاريخ 7 أكتوبر 1920 ، بالفرنسية .

الوثيقة رقم 7 : رسالة من خليل حقي قائم بأعمال الدولة العثمانية بمدريد الى الأمير عبد المالك ، بتاريخ 10 ديسمبر 1920 . بالفرنسية .

---

1 ــ دار الآداب ، بيروت 1969 ، ص 257 ــ 265 ، لم أحاول في هذه الدراسة أن أوفق بين ما ذكرته في (الحركة الوطنية الجزائرية) وبين ما ورد في الوثائق الحالية عن الأمير عبد المالك .

وقبل استعراضنا لهذه الوثائق نود أن نكشف عن بعض الجوانب الشخصية والعائلية للامير عبد المالك ، معتمدين فى ذلك بالدرجة الاولى على حديث ابنه الامير حسن . فعبد المالك هو الابن الثاني قبل الأخير من أبناء الأمير عبد القادر ، اذ لا يصغره الا أخوه عبد الرزاق . وقد ولد الأمير عبد المالك بدمشق سنة 1285 هـ (1868 م) . وهناك تعلم وتأثر بحركة الجامعة الاسلامية . وكان يحسن الى جانب العربية اللغه التركية والفرنسية . وكان خطيبا وشاعرا أيضا . وكان قد سمع بثورة الشيخ بوعمامة فى الجنوب الجزائري فأخذ بها . وقد غادر دمشق سنة 1903 ، ولا ندري أين توجه بالضبط ، ولكننا نعلم انه عين سنة 1906 قائدا للشرطة الدولية فى طنجة . واجتمع سنة 1912 بأسرته فى طنجة . وكانت هذه الأسرة تتكون من زوجته وبنتين وابنيه الأميرين محي الدين وحسن (2) .

التحق الأمير عبد المالك بالشيخ بوعمامة (3) وحارب معه الفرنسيين . وعندما ألقى بوعمامة السلاح سنة 1904 انضم الامير الى الثائر المغربي بوحماره وحارب معه أيضا فترة . ولكنه اكتشف ان حركة هذين الثائرين كانت فردية فانضم الى السلطان مولاي عبد العزيز الذي عينه قائد جيوشه فى منطقة القصر الكبير . وأثناء حروبه لصالح السلطان عبد العزيز ضد مولاي عبد الحفيظ ، الذي كان يسانده الفرنسيون ، ألقى عليه القبض فى فاس . ثم أطلق سراحه وعين نائبا لوزير الحربية المغربي ثم قائدا للشرطة الدولية فى طنجة .

وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى كان الأمير عبد المالك فى فيشي بفرنسا يتداوى من مرض الربو . كما زار اسبانيا فى نفس العام . وعندما

---

2 ـ انتحر الامير محي الدين بعد خلاف مع والده فى بداية الحركة ، أما حسن فهو الأمير الذي أجرينا معه المقابلة .

3 ـ رغم تأكيد الامير حسن على علاقة والده بثورة بو عمامة فاننا ما نزال غير مطمئنين اليها .

13

تأكد موقف الأمير عبد المالك المعادي للفرنسيين اتصل به سفير ألمانيا فى مدريد ، الكونت دي راتبور ، وطلب منه ارسال مندوب عنه الى مدريد للاتفاق على خطة مشتركة . فأرسل الأمير عبد المالك ابنه محي الدين الى مدريد لذلك الغرض . وقد وقع الاتفاق على فتح جبهة ضد الفرنسيين فى المغرب . ومحتوى هـذه الخطة أن ألمانيا والدولة العثمانية تتعهدان بالمساعدة ، اذا نجحت الخطة ، على اقامة مملكة واحدة تضم المغرب والجزائر .

وفى آخر سنة 1914 ترك الأمير عبد المالك طنجة (4) ، بناء على الاتفاق ، وتوجه الى داخل المغرب لتنظيم قواته وفتح الجبهة المذكورة . وقد توجه أولا الى جبالة حيث ألقي عليه القبض وكاد يقع فى قبضة الفرنسيين لولا تدخل قائد بني منصور العياشي القلال (5) (؟) الذي حماه من الشيخ الريسوني (الذي كان ضده) واتباعه ، وسهل له الخروج من المنطقة الاسبانية .

وفى بني مستارة ألف الأمير عبد المالك أول قوة لمقاومة الفرنسيين فى المغرب الخاضع للادارة الفرنسية . وكان جيشه يتألف عندئذ من فرق نظامية وأخرى شعبية . وكان يعمل فى معسكره ضباط ألمان وأتراك . وكان رئيس البعثة الألمانية لديه هو السيد هيرمان . أما رئيس البعثة العثمانية لديه فان الأمير حسن لم يتذكر اسمه . وكان فى معسكر الأمير عبد المالك أيضا بعض الهاربين من فرقة اللفيف الأجنبي الفرنسية .

كان الأتراك والألمان يعملون معه كمستشارين . وكان الألمان بالذات يقدمون مساعدة لأسرته التي كانت تعيش فى مدينة تطوان . كما كانوا

4 ـ تدل الوثيقة الاولى على أن الأمير قد بدأ حركته فى أول سبتمبر 1914 .

5 ـ لم أستطع أن أقرأ خطي الذي كتبت به هذا الاسم أثناء مقابلتي مع الامير حسن ، ولذلك فأنا غير متأكد من نطق الاسم .

يقدمون اليه الأسلحة والعتاد ، ولكن بكمية غير كافية . وكانوا أحيانا لا يوفون له بوعودهم ، مثل ما حدث عندما دخل الأمير عبد المالك مدينة فاس ، فقد ظل هناك ينتظر المدد من القوات المركزية لكي ينطلق الى جهات أخرى ولكن بدون جدوى .

وعند وقوع الهدنة بين القوات المركزية والحلفاء سنة 1918 بدأ الأمير عبد المالك عهدا جديدا كان أقسى تجربة عليه من العهد الأول . فقد تخلى عنه جميع الأتراك والألمان وانسحب من عنده 500 فارس من بني زناسن ، وذهبوا بأسلحتهم وأموالهم الى مليلية بالمنطقة الاسبانية . وهكذا بقى الأمير عبد المالك وحده فى الميدان فالتجأ الى قبيلة غمارة . وقد التجأ أيضا الى زاوية سيدي علي بن داود حيث بقى مدة مع قوة صغيرة من أتباعه . وخلال ذلك كان يجري سلسلة من المفاوضات مع الفرنسيين لم تؤد الى نتيجة . غير أن الأمور بدأت تأخذ شكلا جديدا سنة 1923 عندما اندلعت حرب الريف بقيادة الامير الخطابي . وكانت هذه الحرب فى البداية ضد الاسبان . وقد أرسل الأمير الخطابي أخاه الى فرنسا يطلب مساعدتها ، غير أن هذه اشترطت عليه ، لكي تقدم له المساعدة ، أن يحارب الأمير عبد المالك ويخرجه .

وبناء على ذلك جاء الأمير الخطابي بقوة كبيرة وحاصر الأمير عبد المالك وطلب منه التسليم . لكن الأخير فضل الحرب على التسليم . وجرت معركة بين الطرفين دامت خمسة عشر يوما انكسر اثرها الخطابي وعاد الى موطنه وبدأ يعد العدة لجولة ثانية أكبر من الأولى . غير أن الأمير عبد المالك لم يكن يملك قوة كبيرة فالتجأ الى المنطقة الاسبانية وطلب مساعدة اسبانيا . وقد جرى اتفاق بين الطرفين تعهدت بمقتضاه اسبانيا بتقديم المساعدة المادية للأمير عبد المالك ، على أن يكون من حق الأمير تجنيد الجنود ليحرر بهم ما يشاء من البلاد ، فاذا احتل أي جزء منها فانه يصبح مستقلا ولا يدخله الأسبان .

وقد حضر الأمير حسن المعركة الأخيرة التي قتل فيها والده . فقد خرجوا على الساعة الرابعة صباحا وبدأ القتال الذي دام حتى العاشرة حين انتهت المعركة . وعلى اثر ذلك مباشرة أصابت طلقات قلب الأمير عبد المالك . وجرى ذلك فى شهر أغسطس سنة 1924 . وقد ادعى الريفيون أن الأسبان هم الذين قتلوه بينما ادعى هؤلاء أن الريفيين هم الذين فعلوا به ذلك . وعلى كل حال فان الأمير عبد المالك قد خرج للحرب تحدوه الرغبة فى تحرير المغرب من الأسبان وثوار الريف معا .

وتؤكد الوثائق الجديدة علاقة الأمير عبد المالك بكل من أخيه الأمير علي وابن أخيه الأمير خالد . فقد كان الأول هو المتحدث باسم حركته فى المشرق وموضع سره هناك ، كما تشهد بذلك الوثيقة رقم 1 . وفى سنة 1916 طلب الأمير عبد المالك من الأمير خالد أن يشرع فى تهيئة الجو فى الجزائر للقيام بحركة مساندة لحركته فى المغرب . وقد أرسل اليه من أجل ذلك الأموال والمناشير . ولكن ظروف الأمير خالد لم تسمح له بهذه المهمة . وتؤكد جريدة (الاحرار) هذه العلاقة بين الأميرين (6) . ومهما يكن الأمر فمما لاشك فيه هو أن الأمير خالد قد استفاد من حركة عمه فى المغرب عندما بدأ هو حركته السياسية فى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى .

حارب الأمير عبد المالك فرنسا اقتداء بوالده الأمير عبد القادر . وكان هدفه تحرير الجزائر . ولكنه لم يبدأ من الجزائر لأن جذور فرنسا فيها كانت قوية . وقد اختار بدلا منها المغرب كمنطلق لأن مجال العمل فيه أوسع حيث توجد سلطتان من جهة وحيث المغرب كان حديث العهد بالاستعمار من جهة أخرى . وكان العدو الأول للأمير عبد المالك هو المارشال ليوتي . وكانت للأمير أهداف دينية ووطنية من تحرير المغرب

---

6 ـ القصاصة التي عندنا من هذه الجريدة تحمل رقم 1930 ، لكن تاريخ الجريدة منزوع .

والجزائر ، شبيهة بالأهداف التي حارب من أجلها الأمير عبد القادر . ورغم ذلك فان الأمير عبد المالك لم يدخل الجزائر قط ، لا قبل الحرب العالمية الأولى ولا بعدها . وأقرب نقطة اقترب فيها من الجزائر هي مدينة وجـــدة .

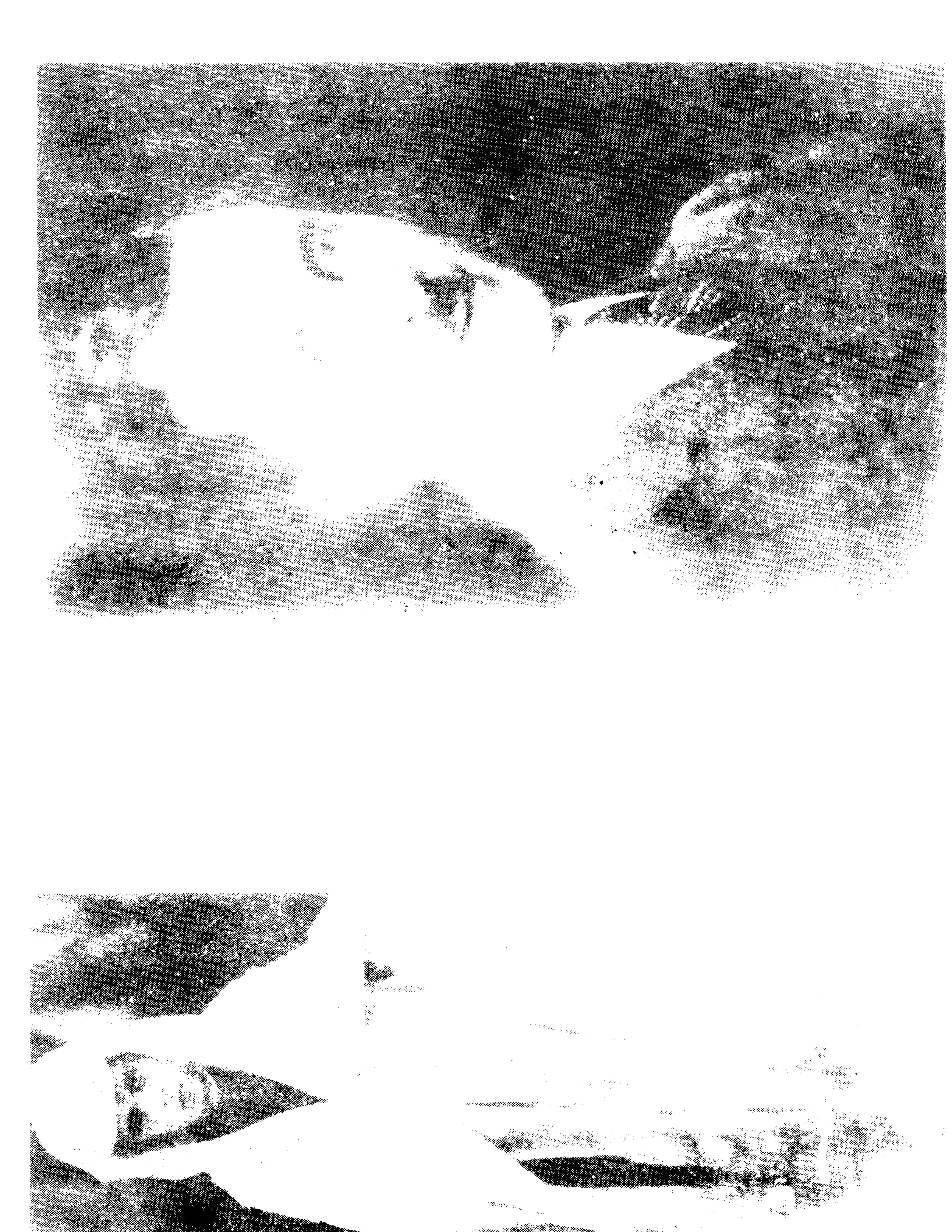
* * *

تكشف الوثائق السبع التي بحوزتنا عن مدى ايمان الأمير عبد المالك بالجامعة الاسلامية وبفكرة الجهاد وتعلقه الشديد بفعائل أجداده . كما تكشف عن ترفعه واعتزازه بنفسه ، سواء فى حروبه أو فى مفاوضاته مع الفرنسيين . ومن جهة أخرى تكشف عن علاقاته بأصدقائه (العثمانيين والألمان) وبأعدائه (الفرنسيين) .

فاذا نظرنا الى هذه الوثائق واحدة واحدة فان الوثيقة الأولى عبارة عن رسالة كان قد وجهها الأمير عبد المالك الى أخيه وممثله الأمير علي فى اسطانبول . والظاهر أنها مترجمة لأن جريدة (الأحرار) قد نشرتها ضمن مقال موقع بامضاء السيد فؤاد ميداني وبجانبه عبارة « تعريب » (7) . بالاضافة الى أن الأسلوب لا يدل على أنها قد نشرت بنصها العربـــي الأصلي . وعلى كل حال فالرسالة اخبارية وهي مؤرخة بـ 14 نوفمبر 1914 ، أي بعد بضعة شهور فقط من بداية الحرب العالمية . وقد عدد فيها انتصاراته على العدو فى المغرب ، وأشار الى أنه أرسل دعاته أيضا الى الجزائر وتونس . وهذا يؤيد صحة ما ذكره الأمير حسن من أن والده قد كاتب ابن أخيه الأمير خالد فى الجزائر ، والرسالة بالاضافة الى ذلك تكشف عن ثقته بنفسه وربطه الجهاد الذي يخوضه بحركة الجامعـــة

---

7 ـ جريدة (الاحرار) عدد 1930 . لكن التاريخ منزوع من القصاصة التي عندي . وفى المقال اخبار اخرى عن حوادث افريقية الشمالية خلال الحرب العالمية الاولى وموقف الدولة العثمانية منها .





الامير عبد المالك بن الامير عبد القادر

الاسلامية . وفى الرسالة أيضا اشارة الى بدء ثورته حين ذكر أنه استولى على بطارية للعدو قبل شهرين من تاريخه .

والوثيقة الثانية عبارة عن رسالة (8) مفصلة أرسلها الأمير عبد المالك سنة 1915 الى ابن أخته السيد مصطفى الذي لا نعرف عنه الآن أكثر من هذا . وهذه الرسالة المكتوبة بخط مغربي وموقعة من قبل الأمير عبد المالك نفسه بخطه المشرقي ، تتلخص فى نقطتين : الأولى وصفه للمعارك التي خاضها هو وأتباعه ضد الفرنسيين وحلفائهم أولاد بكار ، والثانية طلبه النقود من جهة مجهولة أشير اليها باسم « الطبيب » فقط ، ثم انذار هذه الجهة بأن الأمور ستسوء اذا لم ترسل بالمال المطلوب عاجلا . وقد ذيل الأمير عبد المالك هذه الرسالة بكلمة طلب فيها من ابن أخته أن يطلع ابنه الأمير حسن على فحواها مع توجيهات خاصة به . ومن الاسف اننا لم نستطع أن نتعرف على شخصية ولا مهمة الرجلين المشار اليهما فى هذا الذيل وهما حميدة الوزاني والبشير بن السفاح (؟) ، كما لم نعرف هوية بوغابسن .

والوثيقة الثالثة وردت الى الأمير عبد المالك من سفير دولة المانيا بمدريد ونائب الدولة العثمانية بمدريد أيضا ، وهي بتاريخ 25 مايو 1916 (9) . وهي مكتوبة بخط عربي مقبول وأسلوب رديء . ولعل الذي كتبها أحد موظفي السفارتين المذكورتين . وفى أسفل الوثيقة ختم كل دولة بالشمع الأحمر ، ويظهر عليه النسر الألماني تحت عبارة « سفير دولة الألمانية بمدريد » و « دولة الخلافة العلية » تحت عبارة « نائب دولة العثمانية بمدريد » . والوثيقة تؤكد صداقة الدولة العثمانية والألمانية للامير عبد المالك ، وتبعد الشائعات التي شاعت عندئذ من أن انسحاب

---

8 ـ مقاس 27×21 ، 31 سطرا ، بالاضافة الى 15 سطرا مكتوبة على أطراف الرسالة .

9 ـ مقاس 33×5 ، 20 ، 21 سطرا ، وقد نقلتها كما هي دون أن أنبه الى مافيها من أخطاء لكثرتها .

الضباط العثمانيين من صفوفه تعني التخلي عنه وعن المغرب . وتكشف هذه الوثيقة من جهة أخرى عن دور الخلافة العثمانية والمانيا فى تلك الأحداث .

كل الوثائق السابقة كانت خلال الحرب العالمية الاولى . وتأتي **الوثيقة الرابعة** سنة 1919 حين كتب الأمير عبد المالك عشرة أبيات من الشعر بخط يده وبقلم الرصاص وموقعه بقلمه أيضا (10) . وقد وجهها الى آل الامير عبد القادر عامة . والظاهر أنه لام فيها بعض أفراد هذه العائلة الذين ربطوا مصيرهم بفرنسا عدوته وعدوة والده ، ناسين أيادي السلطان عبد المجيد الذي كفل والده مما تسبب فى اطلاق سراحه من سجن الفرنسيين . وقد عاب عليهم الفرقة بعد الوحدة والهوان بعد العزة . ومما يلاحظ أن البيت الاخير مكسور . ولم يفصح الامير عبد المالك عن الدافع الذي دفعه الى قول هذا الشعر . غير أن ابنه الأمير حسن ذكر لي أثناء المقابلة بأن والده قد رد بهذا الشعر على آل الأمير عبد القادر عندما طلبوا منه أن يقبل عرض فرنسا الذي يقضي بتخليه عن ثورته ضدها فى المغرب وتنصيبه ملكا على سوريا بدل الأمير فيصل . غير أننا لم نجد فى الوثائق ما يشير الى هذه القضية .

والوثيقة الخامسة عبارة عن رسالة غامضة وجهها مسؤول ، يبدو أنه فرنسي ، سنة 1920 الى الأمير عبد المالك (11) . وهي مكتوبة بالفرنسية ولا تحمل توقيعا ولا جهة ارسال . وتتحدث عن خطة سفره من المكان الذي كان يوجد فيه ، وهو غير مذكور ، ولكن الظاهر أنه كان قريبا من فاس . وهي تدل على أن هناك مفاوضات كانت تجري بينه وبين الفرنسيين . وكانت نقطة الخلاف فيها حول الطريق الذي يجتازه بعد انتهاء

---

10 ـ مقاس 27×5،20،12 سطرا .

11 ـ مقاس 20×5،15 ، 14 سطرا للصفحة (من صفحتين)

العمليات العسكرية ، هل يتوجه رأسا الى تطوان لرؤية أهله قبل التوجه الى الرباط لزيارة الجنرال ليوتي أو يؤدي الزيارة الى ليوتي قبل التوجه الى عائلته ؟

وكانت **الوثيقة السادسة** (12) التي وجهها الأمير عبد المالك الى الجنرال موريال الفرنسي ، مدير الشؤون الأهلية ومصالح الاستخبارات بالمغرب ، تجيب على ماغمض فى الوثيقة الخامسة . فالرسالة الرسمية التي قيل له انها آتية اليه كانت تحمل شروط الفرنسيين لاستسلامه . وهي الرسالة التي حملها اليه أحد الضباط السامين . وقد وجد الأمير أن هذه الشروط مهينة لشرفه ومقيدة لحريته فرفضها . ولذلك قدم بدلها شروطه الخاصة الموضحة فى الوثيقة ، وهي من ثلاث نقاط ، مضيفا اليها شرطا رابعا ، وهو حصوله على رخصة لمغادرة التراب المغربي من المقيم العام (الجنرال ليوتي) نفسه . وفى هذه الوثيقة كشف الأمير عن أهداف كفاحه خلال خمس سنوات . وقد سخر من التسامح والاريحية الفرنسية . ومن الملاحظ أن هذه الوثيقة المكتوبة بالفرنسية كأنها كانت مسودة لما فيها من شطب وتعديل . ثم أن تحديد مكان الجهة التي يطلبها بعد خروجه من المغرب غير واضحة . فقد وجدت كلمة اسطانبول مشطوبة ومكتوبا فوقها رومة . والملاحظ كذلك أن الوثيقة بدون توقيع . وهي بتاريخ سنة 1920 .

أما **الوثيقة السابعة** والأخيرة فهي من السيد خليل حقي القائم بأعمال سفارة الدولة العثمانية بمدريد الى الأمير عبد المالك (13) . وهي أيضا بتاريخ 1920 . وقد أجاب بها الأمير على رسالة كان هذا قد كتبها اليه بمناسبة تعيينه فى منصب القائم بالأعمال . وتكشف الوثيقة أن الأمير قد التجأ الى سفارة الدولة العثمانية بعد فشل مفاوضاته مع الفرنسيين .

12 ـ مقاس 36×26،28 سطرا للصفحة وهي فى صفحتين وربع .
13 ـ مقاس 34×21،40 سطرا .

لذلك بادر القائم بالأعمال العثماني الى عرض خدماته عليه وفتح مراسلات الامير السابقة مع سلفه . وفى الوثيقة عبارات تطمينية كثيرة ودغدغات دينية واضحة ، ووعود ووصف لحالة الدولة العثمانية الدولية . وهذه الوثيقة مكتوبة أصلا بالفرنسية ، ولكن تتخللها بعض العبارات العربية ذات المحتوى الديني (كالجهاد) والآية الكريمة (ولا تقنطوا من رحمة الله) ، الخ . ولكي أميز بين المترجم والأصل العربي وضعت العبارات العربية أصلا داخل قوسين هكذا ( ) .

* * *

وتنقطع عنا أخبار الأمير عبد المالك ابتداء من سنة 1921 . والمعروف انه ظل فى حالة حرب مع أعدائه حتى صيف سنة 1924 حين قتل كما أسلفنا . ولو عثرنا على وثائق عن هذه الفترة أيضا ، ولا سيما مراسلاته مع الأسبان ومع الأمير عبد الكريم الخطابي ، لاتضحت لنا معالم الطريق الذي سلكه وجوانب شخصيته الخفية . ولكن التاريخ ما زال ، فى نظرنا ، يخبيء لهذه الشخصية أسرارا لن يبوح بها كلها دفعة واحدة . وحسبنا منه الآن هذه الوثائق التي نوردها بنصوصها ، موضوعة أو مترجمة ، مر تبينها تاريخيا . وعسى أن يجد فيها الباحثون بعض ضالتهم عن شخصية الأمير عبد المالك وعن تاريخ المغرب الحديث .

الوثيقة 1 :

رسالة من الامير عبد المالك الى اخيه الامير علي

فى الوقت (14) الذي كان يتخيل فيه أمام ناظري الحروب والفتوحات التي كان يشنها أجدادنا العظام(15)،كنت أحيى الليالي حتى الصباح مفكرا،

14 ـ تاريخ الرسالة 28 ذي الحجة سنة 1333 هـ : 16 تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1914 .
عن جريدة (الاحرار) البيروتية عدد 1930 السنة التاسعة ، لكن التاريخ منزوع من القصاصة .

15 ـ يعني الأمير عبد القادر ، والوثيقة مليئة بالأخطاء التي ليست فى حاجة الى تنبيه .

تلك التصورات والأفكار التي كنت أعتبرها أنها فاتحة آمال ذلك اليوم المقدس الذي نقوم به الى الجهاد .

فالشكر لله أن ذلك النور قد بدأ ينشق عن فجر للأمة الاسلامية وأخذ فى تنوير الظلمات التي كانت تكتنف الأمة .

ان أول فوز أدركناه كان منذ شهرين عندما تمكنا من الاستيلاء على بطارية من العدو على اثر معركة شديدة دارت بيننا وبينه وكتب الله لنا الفوز عليه .

لقد كنت أشعر بعذاب شديد فى ضميري عندما أرى العدو يطأ فى قدميه الملوثة أراضي وطني المحبوب .

وعلى اثر قيام قبائلي ورجالي الفدائيين باعلان الجهاد المقدس ضد العدو ، مستمدين القوة من العزة الالهية وروحانية سيدنا محمد (صلعم)، هاجمنا بنفوس تستحقر الموت مراكز العدو وتمكنا من احتلال (كازبلانكا)، ذلك المركز الحربي الخطير الذي يحرص عليه العدو شديد الحرص حيث استولينا فيه على عشرات الرشاشات المدفعية ومئات البنادق والعتاد الحربية .

انني لا أترك العدو الذي يتراجع الى الوراء يرتاح دقيقة واحدة ، وعلى الاخص فان الفرنسيين الذين فقدوا معنوياتهم بعد هذه المعركة باتو (كذا) يقومون بمقاومة تستحق الذكر .

وقد ارسلنا الرسل والمناشير الى الجزائر وجنوبي تونس لاخبار أهلها بالجهاد المقدس . وبات اليوم المنتظر قريبا جدا . وسنظل ثابتين على خطتنا الى آخر نقطة نريقها من دمائنا . ومن الله التوفيق .

وليعلم أعداء الاسلامية فى العالم ان قلوب الملايين من المسلمين تخفق اليوم بكلمة الجهاد المقدس ، وأن المظالم والاضطهادات التي ارتكبوها ضدنا فى الامكان احتمالها قط .

ونحن نتمنى أن يحذو المسلمون فى سائر العالم حذونا ، ويلبوا داعي الجهاد ليتسنى لهم الحصول على الفوز العظيم .

والمعارك الأخيرة التي نشبت بيننا وبين الافرنسيين أسقطنا منهم 700 قتيل وجريح . ان معنويات المجاهدين قوية جدا ، وعند سنوح الفرص سأنقل اليكم أخبارا جديدة . والله جل جلاله عون للمدافعين عن حقوقهم .

الامضاء : الأمير عبد المالك

الوثيقة رقم 2 :

رسالة من الامير عبد المالك الى ابن أخته سيدي مصطفى

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

ابن أختنا الشريف الأجل النزيه الأفضل سيدي مصطفى رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله . وبعد فلا زائد على ما قدمناه لكم سوى اننا بعد الاسترعاء (؟) التام على قبيلة أولاد بكار الداخلة تحت حكم الفرنسيس لم يرد الله بها خيرا فركبنا اليها صبيحة يوم الثلاثاء متم الشهر الفارط فى وسط محلتنا السعيدة . ولما أشرفنا على أول بلادهم تلقانا أولاد علي بن منصور منهم متضرعين صاغرين وعرقبوا علينا فعفونا عنهم رعيا لضعفائهم وحريمهم وصبيانهم . ودخل بقية قبيلتهم طيش كبير . وقابلونا بالبارود فأطلقنا اليد للمحلة فيهم فلم يكن الا كلمح البصر أو هو أقرب

حتى صارت بلادهم حصيدا كأن لم تغن بالأمس . واستولت جنود الله على سائر أموالهم وماشيتهم وسائر ما يملكون على اختلاف أنواعه وحرقت دورهم على الوفاء والتمام . ورجعنا ولله الحمد سالمين ، والعناية الالهية تحفنا . ولم يصب منا ولا من خيلنا الا فرسين (كذا) أحدهما قتل والآخر جرح .

وفى مغرب الغد وردت علينا الأنباء بنزول العدو بعين بوقلال بين أولاد بكار والبرانيص ومكناسة . فنهضنا فجر يوم الخميس معتصمين بحبل الله الذي لا ينفصم . وغيرنا الطريق الأول فتوجهنا على قبيلة مغراوة ، ولما أشرفنا على وادي أولاد بكار ظهرت لنا المحلة المذكورة وعلى أطرافها جيش العدو يرعد ويبرق فتوكلنا على الله سبحانه واستنصرناه فنصرنا واستوهبنا منه المعونة فأعاننا . واشتد القتال بيننا وبينه . وغدر أولاد على بن منصور المذكورين (كذا) فحمى الوطيس وشمر المجاهدون عن ساعد الجد والاجتهاد واحتلوا قصبة أولاد على بن منصور ، فجعلها العدو أمامه ودفع طالعا اليها فتقهقر المجاهدون عنها . ولما رأينا الأمر كذلك وجهنا مودا كبيرا تحت رئاسة القائد عزوز المركاتي الغياثي لافتتاحها والاستيلاء عليها . ونزلنا بمن معنا من أنصار دين الله على رتبة مقابلة لها . وشمرنا بمن بقى معنا على ساعد الجد لنجد عن المود المذكور من يقابله حتى يصل الى جوار القصبة . فتمم الله العمل وأنجحه . وفى ظرف عشرين دقيقة كان المود المذكور بوسط القصبة فاقتفينا أثره بمن معنا فوصلنا اليها وشب الحريق فيها . واحتوى المسلمون على جميع ما احتوت عليه بسائر أنواعه رغما عن حماية العدو لها بعدده وعدده .

ولما تم الاستيلاء عليها خرجنا منها وحمى الوطيس واشتب القتال . وفى عشية النهار انكسر العدو الى خزاينه . ولم يصب من حزبنا الا رجل

غياثي استشهد . وقتل أربعة أفراس وجرح غياثي آخر . فتعين علينا المبيت بتلك النواحي فبتنا متفرقين شذر مذر بقبيلة مغراوة .

وفى فجر يوم الجمعة نهض العدو قبل اجتماع المحلة وطلع على وادي اولاد بكار وحرق بعض دور قبيلة مغراوة كان افرغها أهلها فى اليوم السابق فتسابقت اليه الرجال من الشعاب والاكام ، واشتب القتال بيننا وبينه . وكان اليوم مهيبا والموت رهيبا . ووهب الله المسلمين الثبات وصبروا صبر أولى العزم الكرام . وتلقو (كذا) قنابله وصواعقه بقلوب ملئها (كذا) الايمان بالملك العلام . وفى آخر النهار وهبوا نصرا باهراه واشتد القتال فلم يكن من العدو الا أن فعل فعلته فى اليوم السابق من الانكسار الشنيع . فحينئذ قوى الايمان فى صدور المسلمين وصاروا يطاردونه مطاردة الكرة بين الصبيان ، الى ان أسـدل الظلام رداءه ووصل العدو الى مقره فافترق الجمع على عشرة من القتلى ونيف سبقت لهم من الله العناية . وجرح رجل واحد مغراوي ، أما جهة الظلمة فتحقق لدينا يوم تاريخه موت القبطان كودير حاكم عسة باب المروج وسبعين عسكريا فرانسويا ، زيادة على قتلى المتنصرة من أولاد بكار ومكناسة. ونرى على الحضيض أربعين فرسا . وقد خلفنا باكام الموقعة عسسا . ورجعنا الى المحلة فى منتصف ليل يوم الجمعة . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

أما العدو فلم يبد حراكا يوم تاريخه من جهتنا ولكن ظل يكابد الأهوال مع قبيلة غياثة التي أنجدتنا من وادي بولجراف (؟) بين قصبة مسرة وتازة . ومن جهة أخرى على بني بويعلي الذين أنجدونا من ناحية سيدي أحمد زروق .

وفى هذه الساعة التي هي العاشرة من الليل ، يوم السبت وردت علينا الأنباء باستعداده للقتال معنا صبيحة الغد . ونحن مصممون على الركوب لملقاته ، والنصر من الله .

وعليه فلا بد أعلم الطبيب بذلك كله . وقل له اننا فى غاية العجب من عدم ارساله الدراهم لنا فى هذا الوقت الحرج . وطالما كتبنا لكم فى شأن ذلك وشرحنا لكم الحال على وجهه . وملخصه أن هذا الأمر أوله الدراهم وآخره الدراهم . ومع ذلك لم تعيرونا التفاتا . وقل له اياكم أن تتركونا غارقين فى هذا البحر الذي أركبتمونا اياه ، بل داوموا لنا مساعدتكم حتى نبلغ الى شاطىء النجاة بحول الله ، والمعتقد فيكم هو النظر لهذا الأمر بعين العناية والاهتمام . فالعجل العجل ! الغوث الغوث! فان فى تأخيركم ذلك الغرض مضرة كبرى ومفسدة عظمى . وما على الرسول الا البلاغ . ومن أنذر فقد أعذر ، والله يوفق الجميع لما فيه رضاه ، والسلام .

فى 4 صفر الخير عام 1334 هـ
عبد المالك بن الأمير عبد القادر

(النص أعلاه مكتوب بخط مغربي ، لكن بتوقيع الأمير عبد المالك ، وقد ذيله الأمير بكلمة مع توقيعه . وهذه الكلمة بخطه خلافا للنص أعلاه ، وهي هذه :)

أطلع ولدنا العزيز الأمير حسن على هذا الكتاب . واني أهديه وكافة الأهل سلامي واحترامي الأبوي ، وأرجو الله أن يكونوا جميعهم بخير وعافية ، ولا شك أنهم يطلبون لنا النصر من الله سبحانه فى كل وقت وعند كل صلاة . والرجاء فى الله جل جلاله أن نتلاقى ونحن واياهم على الحالة التي تتمناها ، والله يحفظكم جميعا .

وليداوم ولدنا على دروسه ، ولا يبقى يرسل لنا شيء (كذا) على يد السيد حميدة الوزاني ، بل اذا أراد أن يرسل شيئا يرسله بواسطة القائد البشير بن السناح (؟) أو من جهة بوغابسن . والسلام على الجميع .

عبد المالك

الوثيقة رقم 3 :

رسالة من ممثلي الدولتين الالمانية والعثمانية بمدريد الى الامير عبد المالك

« الحمد لله وحده

دامت سعادة الارضى ، الشريف البركة الاعز الأحضى ، المجاهد فى سبيل الله سيدي عبد المالك بن الامير عبد المالك (16) محي الدين نصركم الله على عدوكم ، وسلام عليكم لا يعد ولا يحصى .

وبعد قد وصل لعلمنا أن فى المغرب صار الخبر أن خروج الضباط العثمانيون من خدمتهم فى المغرب قد سببه تبريد المعاهدة والصحبة بين الدولتين العثمانية والألمانية ، والآن نعلمكم أن كل ذلك هو أكاذب وان الدولتين المذكورتين يجتهدون الآن كما فعلوا فى الماضي جميع جهدهما لينصروا على أعداء الاسلام ، وكذلك أنهما شددوا معاهدتهما وصحبتهما بعاهد جديد قد فرزوا فيه ما يكون فى المستقبل ، يعني بعد كمال الحرب .

أما سبب خروج الضباط العثمانيون من المغرب هو أمر نفسيا ولم هو شهادة أن خليفة المعظم يسمح فى اعانته لاستقلال المغرب ، ولنظهر لسادتكم أن المخزن العثماني لا زال على فكره فى استقلال المغرب . نعلمكم أن الوزير الحربي العثماني سعادة وحضرة انفر باشا يرسل فى المواجبة الأولى ضباط عثمانيون جدود الذين بصحبة الألمانيون يعونون المسلمين ليحررهم من يد الفرنسيون دمرهم الله .

16 – يعني الامير عبد القادر ، والوثيقة مليئة بأخطاء لا تحتاج الى تنبيه .

والآن جميع الأخبار الذين يصدرون فى صورة سمح المخزن العثماني فى اعانته للمغربيون أوجب الدولة الالمانية أن يتملك المغرب الاقصى يكونون أخبار غير حقيقيين ، ولا يخفى على سيداتكم أن كل ذلك يصدر من أعداء المسلمين ليبردوا نفوس المغربيون الذين يجاهدون لاستقلال وطنهم ولشرف دينهم .

أما نحن فعندنا الأمر من مخزننا أن تتوقفوا جميع الوقوف من المغرب لأن المغربيون ينضربون أيضا (كلمة غير مقروءة) أعداءالاسلام وأعداء الألمانيون . فالمطلوب من سيداتكم أن تعلموا المسلمين بكل ذلك . جزكم الله بخيره . ودمتم فى هناء وسرور وعلى المحبة . والسلام .

مدريد فى 25 مايو عام 1916 .

سفير دولة الألمانية بمدريد — نائب دولة العثمانية بمدريد

(ختم الدولة الألمانية بالشمع الأحمر) — (ختم دولة الخلافة العلية بالشمع الأحمر)

الوثيقة رقم 4 :

بالشـــام

شعر من الامير عبد المالك الى اسرة الامير عبد القادر

عهدي بكم آل الأمير كواكبا ... نشرت أشعتها على الأكوان

علم وحكم والشجاعة والندى ... رفعت منازلكم على كيوان

ومناقب وشمائل ومكارم ... وهبت لكم من غابر الأزمان

والكل يرجوكم لدفع ملمة ... هدمت عماد الدين والأوطان

فصرفتم تلك المكارم كلها في غير ما نفع ولا احسان
ضحيتم أقماركم وشموسكم أسد الحروب وقاهري الاقران
في نفع من أضحى لكم في فعله أعدى عدو من بني الانسان
ونسيتم عبد المجيد وفضله وضمانه ذاك الأسير العاني
لولاه لم يطلق سراح سبيله وبقي لديهم في نوى وهوان
الفرقة هدمت شوامخ مجدكم هذا لعمري غاية الخسران

عن قبيلة غمارة .

لست من أهل هذا الشأن ولكنها نفثة مصدور . والسلام عليكم

14 ربيع ثاني 1338
عبد المالك

الوثيقة رقم 5 :

الى الامير عبد المالك من مجهول

اني مكلف أن أحيطكم علما بأن مطالبك مقبولة ما عدا تعديلا واحدا يبدو ضروريا يتعلق بنقطة خاصة ، وهي خطة سفرك .

ان الشخصية السامية التي تعرفونها والتي جاءت حديثا تلح على أنكم تمرون بفاس والرباط حتى يمكنكم تقديم تحياتكم الى المخزن بدون تأخير . ثم ان كل التسهيلات ستكون متوفرة لديكم لزيارة أسرتكم في تطوان .

وان الموظف الذي طلبتم حضوره كواسطة هو في الطريق . ويجب عليه أن يمر بالرباط لأخذ تعليمات من المخزن . وخلال أيام سيكون في

فاس . وبمجرد وصوله الى هنا سيحمل اليكم الرسالة الحقيقية والرسمية التي تطلبونها .

أبعث اليكم مبعوثنا العادي لكي يطلعكم على الحوادث . وسيخبركم بأن تنتظروا بعض الأيام الأخرى . وأتمنى أن يحل المشكل قريبا برضى الجميع .

16 سبتمبر ، 1920 (بدون امضاء ولا جهة ارسال)

الوثيقة رقم 6 :

من الامير عبد المالك بن الامير عبد القادر محي الدين
الى الجنرال موريال مدير الشؤون الاهلية ومصالح الاستخبارات

الاربعـاء 7 أكتوبـر 1920

اتصلت بالرسالة الرسمية باللغتين العربية والفرنسية التي سلمها الي الضابط كانوت الذي يتولى بالنيابة ملحقة الحياينية فى غياب الضابط المسؤول ، وهي الرسالة التي تحتوي على توضيحات عن الشروط التي بمقتضاها ستقبل السلطات العليا الفرنسية فى المغرب ليس استسلامي ، وهي الكلمة التي أرفض قبولها بكل تقدير ، ولكن اذا شئتم من الناحية اللغوية ، التوقف النهائي للوضع الحالي الموجود بيننا .

ان قراءة هذه الرسالة الرسمية قد أقلقتني لأنني لم أكن أتوقع أبدا أن تصلني مثل هذه الشروط . فالمفاوضات العادية التي بادر بها الضابط دي تيسة جعلتني أتوقع مزيدا من اللطف ، كما جعلتني أعتقد فى مفاوضات ذات لهجة مجردة من كل دافع تحكمي ، زيادة على أن الفشل الذي يكاد يكون خياليا للجهود التي بذلها الضابط المسؤول فى الدائرة وخلفه المؤقت الضابط كانوت قد سبب لي أسفا مريرا .

ان الشرط الذي بمقتضاه سأجبر على تحديد اقامتي فى مدينة تقع فى المنطقة الفرنسية ستحدد لي فيما بعد ، والذي بمقتضاه أيضا سوف لا يسمح لي بتغيير الاقامة بدون اذن خاص ، يمس بشدة من حريتي ، فأنا لا أرضى أن أعيش حياة أسير ولو معنويا .

وبالاضافة الى ذلك ، فان عزمي علىمغادرة التراب المغربي أمر لا رجوع فيـــه .

أما عن دخولي من نقطة ما فى المنطقة الفرنسية فانه أمر يستحيل تحقيقه ماديا ، كما أن حياتي ستكون مهددة بأخطار جسيمة . لذلك فانه من الحكمة والحذر تفاديه .

واما عن تلميحكم الى موضوع هذه الشروط التي هي فى نظركم سهلة المنال ، ما دمتم قد ذكرتم لي بأنها لا تمنح لي الا بدافع التسامح المتناهي ، فانني أعتقد كما يعتقدالجميع ، أن التسامح والاريحية هما بصفة استثنائية من شيم الجنس الفرنسي . وقد أثبتهما التاريخ مرارا .

لكن الذي مس كرامتي بشدة والذي أرفضه ترفعا واشمئزازا هو كلمة « تمرد » التي لعلكم قصدتم بها وصف الدور النبيل والفروسي الذي لعبته ببطولة خلال الخمس (سنوات) الماضية من أجل قضية عزيزة على نفس متحمسة ومصممة ومتلهفة للحرية والعظمة . واذا كان الحظ قد خانني بعقوق فانني لا آسف ولن آسف أبدا على ما فات . ولو كنتم مكاني حضرة الجنرال لن تتصرفوا بغير ما تصرفت . (؟)

لذلك أرجوكم ، حضرة الجنرال ، أن تسجلوا حالا الشروط التي سبق أن قدمت لكم والتي سأعددها لكم مضيفا اليها شرطا سيكون مقبولا بدون صعوبات جديدة ، وهو الحصول على رخصة من السيد المقيم العام

بمغادرة التراب المغربي والاقامة فى اسطانبول (رومة ؟) ، وهذه الشروط هـي :

1) العفو التام عني بغض الطرف عن الماضي

2) اعادة املاكي التي صودرت فى طنجة ، كما سبق لي أن ذكرت لكم .

3) سفري الى الرباط لابد أن يكون عن طريق تطوان ، أي لرؤية عائلتي هناك قبل القيام بزيارتكم .

أرجو منكم أن تحيلوا من جديد ما ذكرته لكم الى السيد الجنرال ليوتي لموافقته وأن تخبروني فى أقرب وقت ممكن بقراره الأخير بواسطة قائد دائرة الحياينية .

وتفضلوا ، حضرة الجنرال ، بقبول تقديري .

(بدون توقيع)

الوثيقة رقم 7 :

رسالة من القائم بالاعمال العثماني فى مدريد الى الامير عبد المالك

مدريد ، 10 ديسمبر 1920 .

(العـاقبـة للمتقـين)

عزيزي المحترم ، الأمير عبد المالك :

لقد غمرتني السعادة بتلقي الرسالة اللطيفة التي تفضل جنابكم بتوجيهها أي بتاريخ السابع الجاري . وقد تأثرت كثيرا بالعبارات الرقيقة التي عبرتم بها نحوي بمناسبة تسميتي قائما بالأعمال بمدريد ، وهي العبارات التي لست أهلا لها مطلقا (أنا ـ عبارة غير مقروءة ـ) . ولكن باعتباري ممثلا متواضعا لصاحب السيادة أمير المؤمنين فاني أضع نفسي فى خدمتكم اذا كنت فعلا أفيد جنابكم .

ان الفرحة التي غمرتني نتيجة تلقي رسالة أخ فى الدين قد دفعتني الى دراسة ملف مراسلاتكم مع سلفي . وقد اقتنعت عند قراءة رسائلكم ، بالعظمة والنبل والتجرد ، هذه الصفات التي جابهتم بها لهيب المعركة خلال سنوات (الجهاد) .

واسمحوا لي أن أهنئكم بدوري من أعماق قلبي على المواقف الشجاعة التي وقفتموها كقائد مسلم وجندي عظيم من جنود الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

واليوم أسجل بارتياح أن فرنسا واطاليا تسعيان الى ابطال « معاهدة سيفر » التي كانتا قد وافقتا عليها وستفعلان ذلك قريبا لصالحنا لأن مصالحهما قد تضررت فى الشرق نتيجة توسع اليونان . وانني واثق من أن الله سيرزقنا أياما طيبة نحن المسلمين (ولا تقنطوا من رحمة الله) .

أما الآن ، يا حضرة الأمير ، فانني فى خدمتكم . فمنذ حلولي بمدريد ، أي منذ أكثر من شهرين ، وأنا أتراسل مباشرة ، برعاية الله (الحفيظ) مع حكومتي ، والى الآن لم تواجهنا عقبات . وسوف لا أتردد فى ابلاغها كل ما يرغب فيه جنابكم مني .

واني اذ أقدم لكم مرة أخرى أقصى عبارات الاعتراف باخلاصكم النبيل الذي برهنتم عليه بخدمة الاسلام ، أغتنم الفرصة لأقبل الأيدي التي قادت الى اعلاء (كلمة الله) .

أخوكم المخلص المتواضع

خليل حقي

ميزات بارزة من حياة الامير عبد القادر

كل من يريد أن يتصدى لدراسة الأمير عبد القادر وفهم شخصيته عليه أن يأخذ فى اعتباره عدة عوامل ومواقف فى حياته ، هي فى الواقع مفاتيح لشخصيته فى أغنى مجالاتها . وهذه العوامل والمواقف هي :

(1)

البيئة : الطبيعية التي ولد فيها الأمير وتربى فيها بيئة غنية ومتنوعة أيضا . فمنطقة القيطنة ، حيث ولد ، الواقعة على وادي الحمام الجميل المحاط بالأشجار الباسقة والجبال الشاهقة الخضراء والأجواء الواسعة والسماء الصافية فى الصيف والخريف والثائرة الغاضبة فى الشتاء والربيع، يضاف الى ذلك قطعان الماشية المنتشرة هنا وهناك ، والشمس المحرقة فى الصيف والذليلة فى الشتاء ، كلها قد تركت طابعها على شخصيته وانعكست على تصرفاته .

وبالاضافة الى ذلك ، فان نسب الأمير وارتباطه بالتاريخ العربي الاسلامي ومكانة أسرته بين بني وطنه ـ قد جعلته فخورا معتزا بأصله وشرفه ، مادحا فى أشعاره ونثره لأمته العربية الاسلامية . وهذه النخوة هي التي دفعته فى الحقيقة الى حمل السلاح والدفاع عن الوطن والأرض والعرض . وكان فى كل أعماله ومواقفه يتمثل بأبطال العرب والاسلام ويستوحي سيرتهم ومثالهم .

(2)

وتتميز حياة الأمير بعدة خصال ، منها : لقد كان منذ شبابه ولوعا بالصيد وركوب الخيل وحب الطبيعة . وهي خصائل عربية صميمة . فكان يحذق ركوب الخيل ويتفنن فيه ، كما شهد بذلك جميع الذين ترجموا حياته . وكان يختار فرسه ويحبه كأعز شيء لديه . والى جانب ذلك كان ولوعا بالقراءة والتأمل ، لذلك اشتهر بجمع الكتب والحرص عليها ومكافأة من يحفظها ، وكان يحترم العلماء ويجلهم ، حتى أنه كان ينقذ حياتهم اذا ثبت عليهم ما يوجب قتلهم . وكانت مكتبته من أغنى المكتبات كثرة وتنوعا . واشتهر كذلك بالولاء التام لوالده ، وهو الولاء الذي كان فى الحقيقة دينيا . فقد أطاعه عندما أمره بالتوجه معه الى الحج ، وعندما أمره بالجهاد ضد العدو وقبل المبايعة ، وعندما أمره بقبول مبايعة المسلمين له بدلا عنه ، ان هذا الولاء الكامل للأب هو ظاهرة دينية كما هو ظاهرة اجتماعية . ذلك أن ابن الأسرة الكريمة لا يعارض والده ، وهو تقليد عربي اسلامي فى نفس الوقت . ومن ميزات الأمير البارزة التدين والورع، الذي بلغ أحيانا حد الصوفية . وهذه لم تظهر فى أخريات أيامه فقط . بل كانت تشيع فى كل تصرفاته حتى عندما كان فى قمة مجده الدنيوي ، أي عندما كان على رأس دولة وطنية . فقد كان حرفيا فى تطبيقه لأوامر الدين ونواهيه ،وكان سنيا محافظا فى أفكاره وتصرفاته .

(3)

ويرتبط بحب الأمير للفروسية حبه للجهاد بمعناه الديني والسياسي ، ان المفهوم الديني للجهاد قد اتضح عند الأمير فى ربطه بين جهاده وجهاد الصحابة والخلفاء فى سبيل الدعوة الاسلامية . وان المرء الدارس الفاحص لسلوك الأمير من هذه الزاوية ليشعر أن الأمير كان حقا (صحابيا) متأخرا أو كما يقال « بقية السلف الصالح . » أما الجهاد بالمفهوم السياسي

فقد اتضح عند الأمير فى صبره على المكاره ، وفى ثباته أمام العدو ، وفى مجالدة الفرنسيين حتى عندما لا يبقى الا هو فى الميدان أو عندما يكبو به جواده . كذلك ظهر هذا النوع من الجهاد فى جمع كلمة القبائل ، والذب عن المحارم ، وانقاذ العديد من الأهالي بعد أن وقعوا فى قبضة العدو .

ولاشك أن الوطنية قد تطورت بسرعة نتيجة تصرفات الأمير . وهذا موقف لابد أن يذكر له . فهو الذي أخرج الوطنية من ميدان النظرية التي نادى بها خوجة مثلا الى ميدان التطبيق ، فالوطنية فى مفهوم الأمير هي القوى المحاربة ضد العدو الأجنبي . وبفضله تد عم التفكير الوطني الجزائري كما تدعم الفكر القومي العربي . فقد بذل الأمير جهوده فى توحيد القبائل المتنافرة وكون منهم دولة حديثة ، ودعا زعماء البلاد المعاصرين له الى الوحدة الوطنية ، فكان هذا هو موقفه من الحاج أحمد باي قسنطينة ، وفرحات بن سعيد شيخ العرب الخ .

(4)

والى جانب ذلك عرف الأمير بالمهارة الدبلوماسية وبالذكاء وسعة الاطلاع على أحوال العصر ، وتثبت المعاهدتان اللتان وقعهما مع فرنسا حقا براعته وحنكته . فهو ، سواء فى معاهدة ديميشال (1834) أو معاهدة التافنة (1837) كان الرجل الذي يدافع عن مباديء واضحة ويهدف الى أبعد من نظرته كما يقولون . كان هدفه بالدرجة الأولى اعتراف العدو به ممثلا للشعب الجزائري فى أحلك الظروف وكان هدفه الثاني منع الفرنسيين من الاستقرار فى الجزائر مهما كان الثمن ، وهو لذلك رفض كل الرفض الاعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر ، وهو الأمر الذي كان الفرنسيون حريصين عليه الى أقصى الحدود . وقد بلغ الأمير أوج قوته وسمعته السياسية بعد معاهدة التافنة التي اعترفت به فى الواقع السيد غير المنازع فى البلاد .

ولكن الأمير كان لا يتوانى عن الحرب اذا ما رآها الحل الوحيد . وهو لذلك فضل الحرب على الاهانة بعد 1839 عندما تحداه الفرنسيون ومشوا فى أرضه دون اذنه وبدأوا يتحايلون على خــرق المعاهدة التي وقعوها معه عندما شعروا انهم قد أصبحوا فى مكان القوى . ولكن الأمير ، حتى فى حروبه ، كان يسير على مباديء واضحة ، فهو شهم صريح كريم عفيف . وقد انتصر على عدوه فى معارك كثيرة . واعترف له أعداؤه بأنه كان السبب فى ترقيتهم الى درجات عليا فى الجيش لأنهم كانوا يحاربون فارسا مغوارا وبطلا شجاعا ، ولولاه لظلوا دون مجــد عسكري .

ولكن أعظم ما يميز الأمير كانسان وكوطني روحه التقدمية وحبــه للنظام . فقد آمن ايمانا عميقا بضرورة تطوير وطنه ، وكان يعرف مدى الهوة التي كانت تفصله عن التقدم الحضاري الذي كان العدو يتمتع به ، وللخروج من ذلك كون الأمير جيشا حديثا سلحه بأحدث الأسلحة ووضع على رأسه مدربين عصريين ، فى الغالب من الأجانب . كما أقام دعائم دولة حديثة عمادها سلم اداري تصاعدي مسؤول قاعدته الشيخ وقمته الخليفة الذي هو مسؤول مباشرة للأمير نفسه ، وساند ذلك النظام الاداري بنظام محكم يوفر التموين والتعليم والقضاء والمواصلات والتسليــح والمخابرات الخ .

ولعل أهم من ذلك كله ما اشتهر به الأمير من اعجابه بالتقدم الانساني وأخذه بأسباب الحضارة الحديثة . ويمكننا أن نقول بسهولة انه كان مجددا متسامحا ، فقد استعان بالأجانب ، والمتعاونين كما نسميهم اليوم ، لتطوير البلاد فى النواحي التي شعر بأن امكانياته لا تمده بما يريد : كاستغلال المعادن ، وضرب السكة ، وصناعة الأسلحة ، والنسيج ،

وتدريب الجيش ، الخ . ورغم شدة تدينه فانه لم يكن متعصبا ، بل كان متسامحا مع من خالفه فى الدين . وقد اشتهر بالمعاملة الانسانية لأسرى الحرب الذين كانوا يقعون فى قبضته ، فكان يرفق بهم ويؤانسهم ، وكثير منهم فروا اليه بعد اطلاق سراحهم .

(6)

واذا كانت تلك هي مواقف الأمير الوطنية والدينية والعسكرية ، فان له مواقف أخرى لا تقل أهمية عن هذه عندما كان فى السجن أو عندما كان فى الشام ، ففي سجون فرنسا ثبت الأمير على مبدئه ولم يتزحزح عن ذلك رغم الحاحات فرنسا عليه لتغيير رأيه واعلان رضاه بالعيش فى فرنسا . ولكنه فى نفس الوقت لم يحقد على أحد ، بل ظل متساميا كريما سمحا نحو أعدائه السابقين ، وظل أيضا وفيا لمباديء دينه وتقاليد أسرته ووطنه ؛ فكان يقوم الليل ويعلم أبناءه على طريقة أبناء وطنه ويكثر من المطالعة . وكان أيضا مثالا لكل من رآه فى سجنه من رجال السياسة والعسكرية والدين والفكر . فجميعهم كانوا يخرجون من عنده مبهورين بشخصيته معجبين بعلمه ، مقدرين لتسامحه وسماحته .

وعندما أطلق الفرنسيون سراحه حظي بما يحظى به الملوك والأمراء من التبجيل والتعظيم . فقد أعدت له الاستعراضات الضخمة والاحتفالات الرائعة والحفلات الموسيقية والدينية ، والعاب الفروسية ونحو ذلك مما أعد تقديرا لشخصه واعترافا بمواقفه التي كان دائما يقول عنها انها كانت فى خدمة دينه ووطنه . وكانسان وفي لم ينس هو هذه المعاملة الطيبة فظل يحفظ لأهلها أبقى الذكريات .

وفى الشام كان الأمير (الذي سبقته سمعته الى المشرق كمجاهد وبطل اسلامي وسجين فى أيدي أعدائه) محل احترام وتقدير من معاصريه . فالتف حوله أهل البلاد وأخذوا عنه كل فى ميدانه . فهذا يأخذ علما ، وهذا

يأخذ حكمة ونصيحة سياسية ، وهذا يأخذ صدقة ، وبذلك أصبح مركز اشعاع ونقطة لقاء للسياسيين والمفكرين والعلماء بالاضافة الى الفقراء والمعوزين . وهذه المكانة للأمير هي التي جعلته يقف ذلك الموقف الانساني الرائع من الخصومة التي نشبت بين الطوائف في الشام . فقد أدى تدخله الشخصي الى حقن الدماء وانقاذ الآف كان هلاكهم محققا .

وهذا التدخل منه قد جعله محل أنظار العالم وجلب له المدح والثناء من ملوك ورؤساء الدول آنذاك ، على اختلاف نزعاتهم ودرجاتهم فالعالم كله ، والعرب منه ، أصبح ينظر اليه على أنه لم يعد بطل الجزائر فقط ولا رافع لواء الجهاد في سبيل الله فقط ، بل رمز القومية العربية والتسامح الاسلامي .

هذه بعض المواقف الشخصية والوطنية والدينية والقومية والانسانية للأمير . وهي مواقف جديرة بأن تجعل منه رجلا غير عادي ، رجلا هو مفخرة لوطنه وقومه ، وهي أيضا المواقف التي يجب على كل دارس أو ممثل لشخصيته أن يعرفها ويعيشها لأنها هي أيضا غير عادية . (1)

الجزائر العاصمة 4 / 1 / 1972

---

1 — كان السيد مدير الاذاعة والتلفزيون الجزائرية قد طلب مني وضع خطوط عريضة لحياة الامير عبد القادر لكي يهتدي بها من يرغب في اخراج مسلسل عنه ، فأرسلت الى السيد المذكور هذا الملخص .

اول اتصال للامير عبد القادر بالبريطانيين والامريكيين 1835 – 1836

1 – مقدمة المترجم :

نشرت (مجلة الغرب الاسلامي والبحر الأبيض) (1) بحثا للأستاذ Raphaël Danziger بعنوان أول اتصال لعبد القادر بالبريطانيين والأمريكيين (1835 – 1836) ونظرا لأهمية الوثائق رأينا ترجمة البحث ليتابع القارىء العربي تطورات الكتابة عن الأمير عبد القادر ولاسيما لدى غير الفرنسيين .

وكان الموضوع الذي اختاره السيد رافائيل دانزيقر لأطروحة الدكتوراه هو (عبد القادر والجزائريون : البناء الداخلي والمقاومة ضد الفرنسيين 1832 – 1839) وقد حصل على درجته العلمية من جامعة برنستون .

وأثناء اعداد البحث عثر السيد دانزيقر على مجموعة من الوثائق المتعلقة باتصالات الأمير عبد القادر المبكرة بالبريطانيين والأمريكيين ، والبحث الذي نقدمه للقراء قائم على هذه الوثائق . والواقع أن السيد دانزيقر ليس أول من اكتشف هذه الوثائق ، (2) ولكنه أول من

1 – R.O.M. : Revue de l'Occident musulman, n° 18, 1974, pp. 45-63.

2 – يشهد المؤلف نفسه على ذلك في هامش 3 من مقاله المترجم ، انظر ايضا عبد الجليل التميمي (بحوث ووثائق عن التاريخ المغربي 1816 – 1871) تونس 1971 ص 213 – 214 – 215 – 216 .

أفردها بالدراسة والتحليل والخروج منها بنتائج هامة سيلاحظها القارىء .

وقد مهد الكاتب لبحثه بخلاصة عامة عن تاريخ العلاقة بين الأمير والفرنسيين وتحدث عن معاهدة ديميشال وظروفها (26 فبراير 1834) وعن حلول تريزل محل ديميشال (7 فبراير 1835) حاكما عاما على أقليم وهران الى سنة 1836 . فأعطى نبذة عن حياة الأمير قبل مبايعته فى 22 نوفمبر 1832 ، وعن استئناف المعارك بين الأمير والفرنسيين (26 جوان 1835) ، وعن استدعاء تريزل من حكومته بعد أن هزمه الامير (12 يوليو من نفس العام) ، وعن تعيين كلوزيل حاكما عاما على الجزائر ليأخذ بالثأر بعد الهزيمة (10 يوليو 1835) وعن دخول كلوزيل والدوق دورليان مدينة معسكر (6 ديسمبر من نفس العام) واحتلالهما لتلمسان (13 يناير 1836) وعن استمرار المعارك بين الطرفين فى اقليمي وهران والتيطري سنتي 1836 و 1837 ، وهي المعارك التي لم تنته الا فى 30 مايو 1837 بتوقيع معاهدة التافنة (الأمير — بوجو) والمعروف أن هذه المعاهدة ظلت تمنع الحرب بين الطرفين الى سنة 1839 ، تاريخ استئناف الحرب .

ونحن لم نترجم هذه الخلاصة لأنها ، كما لاحظنا ، عامة تذكر حقائق تكاد تكون معروفة للجميع . ولعل الكاتب ذكرها ليربط بين الأحداث المذكورة وبين الاتصالات الدبلوماسية التي درسها من خلال الوثائق . ومن جهة أخرى فان الكاتب قد فصل القول فى الأحداث المذكوره فى الخلاصة فى رسالته للدكتوراه (3) . ولذلك لم نر داعيا لترجمتها هنا ، واكتفينا بترجمة المقال ابتداء من معالجة موضوع الاتصالات التي وقعت بين الأمير والانكليز والأمريكان .

3 — ذكر الكاتب ، فى رسالة بعث بها الى المترجم (23 يوليو 1975) أن رسالته للدكتوراه ستنشر منقحة قريبا فى الولايات المتحدة .

ذلك أنه الى وقت قريب كان يعتقد أن صلات الأمير كانت مع الفرنسيين بالمعاهدتين المعروفتين (ديميشال والتافنة) والمفاوضة على الاستسلام (لاموريسيير) أما علاقته مع الانكليز فالمعروف أنها بدأت بعد سنة 1840 وليس قبل هذا التاريخ . ولكن الأستاذ دانزيقر فى هذه الدراسة كشف عن اتصالاته المبكرة مع الانكليز أيضا . كما كشف لأول مرة فيما نعلم عن اتصالاته المبكرة بالأمريكيين أيضا . ولأهمية هذا البحث . والوثائق التي أحتوى عليها . رأينا نقله الى قراء العربية ليطلعوا على دبلوماسية الأمير فى مراحلها الأولى . مضيفين هذه الصفحة الى ترجمتنا لكتاب العقيد شارل هنري تشرشل عن حياة الأمير . (4)

وننبه الى أننا ترجمنا النص والتعاليق أيضا لأهمية المصادر التي يشير اليها المؤلف . كما صورنا من نفس البحث الوثائق العربية الثلاث التي اعتمدها الكاتب وترجمها الى الانكليزية مع التعليق عليها . ولم نر حاجة الى نقل ترجمة المؤلف الى العربية ما دام النص الأصلي موجودا . وقد استخدم الكاتب مصطلحا استخدمناه بدورنا . ولذلك نرى ضرورة التنبيه عليه هنا . وهو هكذا : ف . أ = .F.O (وزارة الخارجية البريطانية) . ر . ج = .R.G (المراسلات القنصلية بواشنطن — مجموعة السجل) .

أما السيد ابن قللة الذي ورد ذكره فى النص كمبعوث خاص للأمير لدى قنصلي بريطانيا وأمريكا بطنجة فليس هناك أخبار واضحة عن شخصيته وصلته بالأمير . غير اننا أثناء البحث فى مادة كتابنا (تاريخ

4 — انظر (حياة الامير عبد القادر) ترجمة أبو القاسم سعد الله ، الدار التونسية للنشر . تونس 1974 .

الجزائر الثقافي) عثرنا على اسمه مكتوبا هكذا (ابن قللة ــ بالقاف المعقوفة) فى أرجوزة ابن حواء المستغانمي المسماة (سبيكة العقيان) . (5)

أ . سعد الله

* * *

2) نص المقـــال :

أولا ــ اتصاله بالبريطانيين :

فى 11 يناير 1836 وصل محمد بن قللة مبعوث الأمير عبد القادر ، الى القنصلية البريطانية فى طنجة حاملا (6) رسالتين كتبهما الأمير عبد القادر فى سبتمبر أو فى أكتوبر 1835 . وكانت الرسالة الأولى موجهة الى القنصل البريطاني العام فى طنجة ، وهو السيد درومان هاي (7) . أما الرسالة الثانية فكانت موجهة الى ملك أنكلترا ، وليام الرابع (8) . فكانت هذه هي أول مرة يتصل فيها الأمير عبد القادر بدولة أوربية غير فرنســـا .

وأثناء الحديث الذي أجراه القنصل مع ابن قللة استطاع أن يتعرف على ظروف ومحتوى العرض الذي تقدم به عبد القادر . فبعد أن كان المبعوث

---

5 ــ مخطوطة (سبيكة العقيان) نسخة منقولة سنة 1911 ، الخزانة العامة ، الرباط ، ك 1233 .

6 ــ كل ما يتعلق بمهمة ابن قللة نحو القنصل البريطاني فى طنجة يوجد فى تقرير القنصل السري البالغ 50 صفحة الذي وجهه الى وزير المستعمرات السيد قلينليق ، 13 يناير 1836 (ف.أ. 40/52) .

7 ــ انظر صورة لاصل النص العربي وترجمته فى الملحق (1) . وقد كان السيد أدوارد ويليام أوديول درومون هاي وكيلا سياسيا وقنصلا عاما فى المغرب من 1829 الى وفاته سنة 1845 .

8 ــ انظر صورة لاصل النص العربي وترجمته فى الملحق (2). أما ويليام الرابع (1765ـ1837) فقد كان ملك انكلترا من 1830 ــ 1837 .

قد جاء بالرسالتين المذكورتين فى سبتمبر أو فى أكتوبر سنة 1835 أوقف فى طريقه ، حسب تقرير القنصل . ولعل ذلك الايقاف كان نتيجة أفكار جديدة طرأت على عبد القادر حول الحكمة من طلب مساندة بريطانية قبل التأكد من أن الفرنسيين كانوا فعلا سيجمعون أمرهم ويسخرون كل تحضيراتهم الطويلة فى حملة ضده . ومن المحتمل انه عندما تأكدت هذه الحملة لديه أمر ابن قللة أن ينتظر أخبار نتيجتها ، فتوجه المبعوث الى تطوان (وهي تقع على أقل من ثلاثين ميلا من طنجة) حيث اتصل برسالة من عبد القادر فى 21ديسمبر 1835 تحتوي على تعليمات جديدة منه . وبعد ذلك بقليل توجه ابن قللة الى القنصلية البريطانية لانجاز مهمته .

وهاتان الرسالتان نفسهما تحتويان على عناصر متعددة جديرة بالاهتمام، ففي رسالته الموجهة الى القنصل البريطاني أطلق عبد القادر على نفسه لقب « السلطان » وهي المرة الوحيدة التي فعل فيها ذلك فى أية رسالة رسمية رأيتها صدرت منه . وعلى أية حال فان هذه ليست هي المرة الأولى التي يستعمل فيها حاكم جزائري هذ االلقب العالي ، وهو اللقب الذي كانت الدول تعترف به لحاكم الدولة العثمانية وحاكم المغرب فقط . ففي رسالة بتاريخ 12 أغسطس 1802 من داي الجزائر الى نابليون أطلق الداي فيها على نفسه اسم مصطفى سلطان الجزائر (ناسيا أنه فى رسالة سابقة الى نابليون أيضا ، استعمل معه لقبه الرسمي الأكثر تواضعا وهو داي وحاكم الجزائر .. باسم .. السلطان — يعني سلطان الدولة العثمانية) . (9)

وهذه هي أول مرة أيضا أعرف فيها ان عبد القادر يقول بأنه حاكم « اقليم وهران والجزائر والجهات التابعة لهما حتى حدود تونس » فى الوقت الذي كانت سلطته ما زالت لم تمتد الى أبعد من اقليم التيطري الواقع فى الوسط . وبينما نجد عبدّ القادر يحاول بدون شك أن يقدم

9 — توجد نصوص هذه الرسائل فى (مراسلات دايات الجزائر مع بلاط فرنسا 1579 — 1833) تحرير بوجين بلانتيه — باريس ، ف. الكاف ، 1889 . ج 2 ص 504 — 507 ، 489 — 491 .

نفسه الى البريطانيين على أنه حاكم كبير جدير بالتفاوض معه ، فان دعواه المبالغ فيها تمثل دليلا على أنه كان يحكم ثلثي البلاد .

وبعد أن عبر عبد القادر عن فشل (معاهدة ديميشال) نتيجة « خديعة » الفرنسيين وصل الى الغرض الأساسي من رسالتيه . ففي مقابل صداقة الانكليز عرض عليهم استعمال احدى المراسي الجزائرية لتجارتهم وتمويل هذه المراسي من مناطق نفوذه داخل البلاد . وقد قال ابن قللة فى حديثه مع القنصل البريطاني انه يملك كل الصلاحيات ليعلن أن عبد القادر « سينخلى عن أي مرسى فى البلاد يقع تحت نفوذه (وقد يقع تحت نفوذه بعد ذلك) .. يستعمل خاصة للتجارة البريطانية اذا رأت حكومة صاحب الجلالة انه من المناسب الدخول معه فى معاهدة . فاذا كانت حكومته غير قادرة فى الوقت الراهن أو كانت لا ترغب الآن فى الدخول فى أية معاهدة فان عبد القادر يأمل أن يقبل الملك ، باسم الانسانية فقط ، استعمال وساطته الملكية بينه (الأمير) وبين ملك الفرنسيين . » وقد عبر المبعوث على أنه مكلف أيضا أن يعلن صراحة عن عدم رغبة عبد القادر « فى اراقة دماء أخرى هدرا » .

ان الغرض من توقيع معاهدة كان حركة مدروسة من جانب عبد القادر ، فرغم علاقة الانكليز الجيدة بصفة عامة مع فرنسا فانهم قد رفضوا الاعتراف بالاحتلال الفرنسي للجزائر . وكان من المتصور أنهم قد يهتمون بتدعيم أقوى خصوم فرنسا فى تلك البلاد . فعرض الامتيازات التجارية بالاضافة الى المزايا الاستراتيجية الواضحة كان خطوة اضافية فى تقديرات عبد القادر . وليس هناك حاجة الى القول بأنه لو حصل عبد القادر على معاهدة مع الانكليز لتعزز موقفه تعززا كبيرا .

أما طلب التوسط البريطاني بين عبد القادر والفرنسيين فى حالة عدم قبول معاهدة معه ، فانه من الواضح أنه قد أضيف اضافة الى تعليمات

عبد القادر لمبعوثه فى 21 ديسمبر 1835 . وهذه هي أول اشارة الى أن عبد القادر قد اتخذ الاجراءات ، بعد سقوط مدينة معسكر . لاعادة العلاقات السلمية مع الفرنسيين . فالتوسط الأجنبي فى نظر عبد القادر له مزية أعظم مما لو أخذ هو زمام المبادرة المباشرة للتوصل الى السلام ، لأن هذا التوسط سيحميه من الحرج عندما يظهر أمام مواطنيه فى موقف الضعف بطلبه السلام من عدوه . وأخيرا فقد فهم عبد القادر ان حركته لن يكتب لها النجاح « الا اذا ظلت فى سرية مطلقة » وخاصة من أعين الفرنسيين . ولذلك دخل ابن قللة الى القنصلية البريطانية فى ثياب فلاح بسيط ، ومن ثمة فالقنصل الفرنسي فى طنجة لم يتوصل أبدا رغم يقظته المعتادة ، الى التعرف على مهمة ابن قللة . (10) .

أما الرد البريطاني على عرض عبد القادر فقد جاء على خطوات . فقد قال القنصل البريطاني فى حديثه مع ابن قللة ، فى 11 يناير 1836 انه (القنصل) لم يكن سوى قناة موصلة وانه لذلك لا يستطيع شخصيا أن يجيب عبد القادر وبدلا من الجواب أعطى القنصل الى ابن قللة « وصلا » (11) الى عبد القادر اعترف له فيه باستلام الرسالتين ووعد بتوجيههما الى الملك . وامتنع القنصل من مخاطبة عبد القادر كسلطان . وقد شرح لوزير المستعمرات قلينليق فكرته فى تسليم الوصل . فهو من جهة لا يريد أن يهين عبد القادر ومن جهة أخرى يريد أن يتأكد من أن الفرنسيين لا يتهمونه بمراسلات ضدهم مع عبد القادر فى حالة وقوع المبعوث فى قبضتهم (12) . وقد أجاب عبد القادر على هذا الوصل برسالة

10 ــ لقد قرأت كل بريد القنصل الفرنسي العام فى طنجة الموجه الى وزير الخارجية فى باريس من 1830 الى 1839 (وثائق الشئون الخارجية ــ باريس ، المراسلات السياسية ــ قسم المغرب ، مجلدات 3 ــ 5) ولم أجد اية اشارة الى العلم بذلك .

11 ــ ضمن درومان هاي نسخة مصدقة وترجمة لهذا الوصل فى بريده السري الى قلينليق بتاريخ طنجة 13 يناير 1836 . (ف.ا. 40/52) .

12 ــ درومان هاي الى قلينليق ، 13 يناير 1836 (ف.ا. 40/52) .

مؤرخة فى 28 مارس 1836 (13) شكر فيها القنصل على توجيه رسالة الى الملك . كما طلب منه فيها أن ينقل اليه جواب الملك .

وفى رسالة بتاريخ 27 فبراير 1836 (14) أخبر قلينليق درومان هاي بأن يجيب عبدالقادر بدلا من أن يوجه اليه هو جوابا رسميا من الحكومة وكانت تعليمات قلينليق بخصوص محتوى جواب درومان هاي تتيجة ترجمة مزيفة جرت فى لندن لرسالة عبد القادر الموجهة الى الملك . ولأسباب لا نعرفها أخذت الحكومة البريطانية علما فقط بهذه الرسالة ، متجاهلة كلا من رسالة عبد القادر الموجهة الى درومان هاي والمترجمة ترجمة صحيحة وبريد هاي نفسه الى لندن . وحسب تعليمات قلينليق فان على القنصل أن يخبر عبد القادر بأن « ظروف مملكة صاحب الجلالة لا تترك مجالا للملك أن يستجيب لطلب عبد القادر » وهو الطلب الذي فهم منه على أنه ذريعة عابثة لوقوع اجتماع بين عبد القادر وملك أنكلترا فى مرسى جزائري بدلا من عرض التجارة فى مثل هذا المرسى كما كان الحال فعلا — كما أعلمه قلينليق بأخبار عبد القادر « بأن الملك لا يعتقد أنه فى امكانه التوسط بينه وبين سلطان المغرب » — وهذا أيضا جواب مزيف تماما لنص رسالة عبد القادر ، وهو عمل قام به أحد المترجمين فى لندن .

وللمرء أن يفكر فى أنه لو ترجمت الرسالة ترجمة أمينة الى الملك لكان من المحتمل أن يرد البريطانيون ردا ايجابيا على نداء عبد القادر للتوسط بينه وبين الفرنسيين ولوضع حد لاراقة الدماء فى الجزائر . (ومن المحتمل أن يكونوا قد كسبوا بعض النفوذ هناك نتيجة الوساطة) ذلك أن هذا النداء كان معقولا وكان من المحتمل أن يتحرك الانكليز فى ذلك الاتجاه بدل أن تتعرض بالضرورة علاقاتهم مع الفرنسيين للخطر . ومن المؤكد أن سير التاريخ الجزائري سيكون مختلفا لو انعقد السلام بين عبد القادر

13 — ضمن درومان هاي ، نسخة مصدقة وترجمة لرسالة الامير عبد القادر مع رسالته السرية الى بالميرستون ، المؤرخة ، طنجة 14 مايو 1836 (ف.أ. 40/52) .

14 — نسخة من هذه الرسالة ، عليها ملاحظة منفصلة توجد فى (ف.أ. 40/52) .

والفرنسيين فى شهر مايو 1836 بدلا من مايو 1837 . وفوق ذلك كله فانه لو تحقق السلام لما كان هناك داع لارسال الجنرال بوجو الى الجزائر فى سنة 1836 وانتصاره على عبد القادر فى يوليو من نفس العام ، وهو الانتصار الذي لولاه لما أصبح بوجو حاكما عاما على الجزائر خـلال الأربعينـات .

ولما رأى درومان هاي تلك اللهجة الباردة التي استعملها قلينليق فى جوابه . تأكد من عدم جدوى أية محاولة فى لندن لصالح القائد الجزائري . فكتب فى 30 مارس 1836 رسالة قصيرة الى عبد القادر (15) أعلمه فيها أن حكومة صاحب الجلالة قد أمرته أن يخبره بأن الملك لا يستطيع أن يستجيب لطلبه ، كما أنه لا يستطيع أن يستعمل مساعيه للوساطـة . وأرسل هاي رسالة مع ابن قللة الذي كان ينتظر الجواب البريطاني (16). وعندما حضر لديه فى 22 أبريل سنة 1836 مبعوث جديد يحمل جواب عبد القادر على وصل الرسالتين السابقتين أرسل معه هاي نسخة أخرى من نفس رسالته المؤرخة فى 30 مارس (17) . ومنذئذ لم يسمع القنصل البريطاني فى المغرب أي شيء آخر من عبد القادر الى سنة 1840 . (18)

وتجدر الملاحظة الى أن الخوف من تعريض العلاقات الانكليزيـة الفرنسية للخطر هو الذي جعل درومان هاي مهتما بالمحافظة على سرية اتصالاته مع عبد القادر ، كما كان عبد القادر نفسه . ففي رسالته الى قلينليق المؤرخة فى 11 يناير 1836 أوضح هاي أن رسالة عبد القادر اليه

15 ـ ضمن درومان هاي نسخة مصدقة وترجمة لهذه الرسالة فى بريده الى قلينليق ، بتاريخ ، طنجة 31 مارس 1836 ، وملاحظا عليها « منفصلة » (ف.أ.ا. 40/52) .

16 ـ درومان هاي الى قلينليق 31 مارس 1836 (ف.أ.ا. 40/52) .

17 ـ توجد نسخة فى (ف.أ.ا. 40/52)

18 ـ لمعرفة بريد عبد القادر الى درومان هاي سنة1840و1841،انظر التميمي (بحوث ووثائق..) ص 173 ـ 202 . (وهذا الفصل يتناول بريد عبد القادر الى الباب العالي أكثر منه الى البريطانيين) .

ترجمها ابنه ، جون درومان هاي ، (19) الذي كان يشغل وظيفة نائب فنصل ، تفاديا لاستعمال طالب مغربي قد يذيع السر . وفى 31 مارس 1836 عبر هاي عن سعادته فى أن أحدا خارج عائلته لم يعرف أي شيء عن اتصالاته مع عبد القادر .

ثانيا ــ اتصاله مع الأمريكيين :

استطاع درومان هاي أن يكتشف أن نفس المبعوث الذي جاءه يوم 22 أبريل 1836 برد عبد القادر على الوصل قد سلم رسالة أخرى مكتوبة فى حوالي مارس 1836 (20) من عبد القادر أيضا الى القنصل الأمريكي فى طنجة ، جيمس ر . ليب (21) . وكان هذا القنصل عندئذ فى جبل طارق لذلك وجهت اليه رسالة عبد القادر الى هناك من طرف نائب القنصل . وقد انتظر المبعوث الجواب حتى أول مايو . ثم رجع بدون جواب لأن المعتمد السري لعبد القادر فى طنجة قد أمر المبعوث بالعودة فورا الى تلمسان . ولم يكن القنصل الامريكي يعرف أي شيء عن مراسلة عبد القادر مع البريطانيين كما أنه لم يكن يعلم أن درومان هاي كان يعرف عن مراسلته هو . فمبعوث عبد القادر لم يخبر أبدا هاي عن الرسالة التي حملها الى القنصل الامريكي . وهي الرسالة التي عرف عنها القنصل الانكليزي بطريق الصدفة (22) . ومن جهة أخرى فان القنصل ليب قد اتخذ خطوات لحماية سرية الاتصال بينه وبين عبد القادر (23) .

19 ــ كان السيرجون درومان هاي (1816 ــ 1893) على التوالي قنصلا عاما ، وقائما بالاعمال ووزيرا بطنجة من 1845 الى 1886 . وقد لعب دورا هاما جدا فى تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر . (انظر ، ل.أ.ى. بروكس ، ناشر مذكرات السيرجون درومان هاي ، لندن ، ج. موري 1896) .

20 ــ انظر نسخة من الاصل العربي وترجمة له فى الملحق رقم «3» .

21 ــ كان جيمس ر. ليب قنصل أمريكا العام فى طنجة من 1832 الى 1838 . وللاطلاع على فترة تولية القنصلية انظر هول (الولايات المتحدة والمغرب ، ص 110 ــ 114) .

22 ــ كل القضية مثبتة فى بريد درومان هاي السريّ الى بالميرستون طنجة ، 14 مايو 1836 (ف . أ 52 ــ 40) .

23 ــ ليب الى وزير الخارجية فورسيث ، جبل طارق ، 30 ابريل 1836 (د ج 78/59 طنجة ، مجلد 5

وقد قدم عبد القادر فى رسالته الى القنصل الامريكي عرضا مشابها لذلك الذي كان قد تقدم به الى البريطانيين ، ولكن مع اختلاف واحد جذري . ففي مقابل المعاهدة عرض عبد القادر على الامريكيين « أن يمتلكوا » مرسى جزائريا (بالاضافة الى تموينه من داخل البلاد) — بينما لم يعرض على البريطانيين سوى التجارة فى أحد المراسي . ويبدو أن هذا الاختلاف له أكثر من دلالة ، ذلك انه من المحتمل أن يكون عبد القادر ، رغم تطلعه الى الدخول فى معاهدة مع بريطانيا العظمى ، يخشى من أن تمركزا بريطانيا دائما على الساحل الجزائري قد ينشأ عنه وجود يزداد توسعا على مر الأيام بنفس الطريقة التي توسعت بها فرنسا نفسها . ولا شك انه كان يعتقد من جهة أخرى أن الولايات المتحدة الواقعة على مسافة بعيدة هي بلاد لا تشكل خطرا . وفى نفس الوقت فلابد أن عبد القادر قد قدر أن معاهدة مع الولايـات المتحدة ، رغم أنها لن تكون هامة مثل معاهدة مع البريطانيين ، ستدعم مع ذلك موقفه أمام الفرنسيين .

ان العرض الذي تقدم به عبد القادر الى الأمريكيين له أهمية أخرى ، وهي أهمية ليست بالتحديد مرتبطة بعلاقات عبد القادر مع الولايات المتحدة . وهنا يكمن الدليل على أن عبد القادر كان مستعدا أن يتخلى عن مرسى جزائري لتملكه دولة مسيحية رغم مبادئه الاسلامية . ان هذا يشكل دليلا قويا على أن عبد القادر كان سيتسامح مع وجود فرنسي دائم فى شكل مستوطنات تشبه الحاميات على طول الساحل الجزائري طالما كانت غير هجومية (مثل ما كانت المغرب متسامحة مع المستوطنات الاسبانية على سواحلها منذ قرون) . ذلك أن كفاحه كان ضد التوسع الفرنسي داخل البلاد وليس ضد الوجود الفرنسي على السواحل .

وقد كشف عبد القادر فى رسالته الى القنصل الامريكي عن اطلاع جيد على أحوال العالم . ففي حديثه الى القنصل عن السبب الذي دفعه لأن يتقدم بعرضه الى الولايات المتحدة أشار عبد القادر الى « معاهدة » والى

« خديعة » الفرنسيين . ان هذه القضية كانت حقا أبعد ما تكون عن نطاق شمال افريقيا وحتى عن البحر الابيض المتوسط . ففي 4 يوليو سنة 1831 وقعت معاهدة (24) وافقت بمقتضاها فرنسا على أن تدفع الى الولايات المتحدة 25 مليون فرنك على ست حصص مقابل نهب السفن الامريكية أثناء الحرب النابليونية . وهذه المعاهدة صادقت عليها فرنسا فى أغسطس سنة 1831 . وكان أول مشروع حصة قدم خلال فبراير سنة 1833 لم يقع الوفاء به ، وفى أبريل 1834 رفض البرلمان الفرنسي التطبيق المالي لمعاهدة 1831 (ومن ثمة كانت « الخديعة » الفرنسية) . وفى بيانه السنوي خلال ديسمبر 1834 أوصى الرئيس جاكسون بالانتقام من الفرنسيين اذا لم يخطوا أي خطوة للدفع . وقد استدعى سفيرا البلدين ، ودار الحديث عن الحرب من الطرفين . وفى أبريل 1835 وافق البرلمان الفرنسي على التخصصات المالية بشرط أن يعتذر جاكسون عن بعض التعابير التي وردت فى بيانه . غير أنه رفض الاعتذار فى بيانه السنوي فى ديسمبر 1835 . وقد وصلت الأزمة قمتها فى بداية سنة1836 ، عندما قطعت العلاقات الدبلوماسية تماما بين البلدين .

ومن سوء حظ عبد القادر أن المسألة قد انتهت وديا فى نفس الوقت الذي كان فيه يكتب رسالته الى الأمريكيين . فبفضل التوسط البريطاني وقع التوصل الى حل . وفى 9 مارس سنة 1836 صدرت الأوامر بدفع أربع حصص من التعويضات الى الولايات المتحدة . وبعد هذا الحل لم يعد لرسالة عبد القادر ، فى نظر الأمريكيين « قيمة أكثر من مجرد كونها شيئا يثير الفضول » . (25)

24 ـ النص فى (المعاهدات والقوانين الدولية للولايات المتحدة الامريكية) ، واشنطون ، مطبعة حكومة الولايات المتحدة ، 1933 ، ، مجلد 3 ، 641 ـ 651 .

25 ـ ليب الى فورسيث ، جبل طارق ، 30 ابريل 1836 (و.ج 78/59 ، طنجة مجلد 5).

ولو أن الأزمة استمرت لكان عرض عبد القادر له أهمية أكبر بالنسبة للأمريكيين . وقد قال القنصل الأمريكي بأن رسالة عبد القادر قد أظهرت « انه لو كان سوء تفاهمنا مع فرنسا قد انتهى الى نزاع لوجدنا أصدقاء لنا في الجزائر . »

وما دام الأمر لم يكن كذلك فان رد القنصل سيكون بالضرورة سلبيا . وكان القنصل يعتزم أن يرد بأنه ما دامت المسألة مع فرنسا قد انتهت بطريقة ودية فان الأمريكيين لا يميلون الى اغتنام فرصة العرض الذي تقدم به عبد القادر أو يشجعون على نزاع ضد فرنسا . (26) وقد أشرنا من قبل الى أن مبعوث عبد القادر قد غادر طنجة قبل وصول الرد الأمريكي اليه .

الخاتمة :

فما حظوظ نجاح عبد القادر في طلبه تأييد البريطانيين أو الامريكيين في نضاله ضد الفرنسيين ؟ انها تبدو للوهلة الاولى حظوظ ضعيفة . ذلك أن مشكله الرئيسي هو انه لم يكن معروفا معرفة واسعة في سنتي 1835 و 1836 خارج الجزائر وفرنسا . ولم يكن معتبرا من أي جهة من الجهات، ما عدا الفرنسيين ، قوة يقرأ لها حساب . وكما لاحظ درومان هاي الى مبعوث عبد القادر « فان صاحب الجلالة لم يعلمني بوجود عبد القادر ». وأكثر من ذلك ، « فان عبد القادر لم يكن صاحب سيادة معترفا بها على أية منطقة » . (27) ومن الطبيعي أن تكون واشنطن أقل معرفة بعبد القادر من لندن . ذلك أن سيطرة الفرنسيين على المدن الساحلية الرئيسية للجزائر قد منعت فعلا عبد القادر من الظهور على الخريطة الدبلوماسية لأوروبا على عكس محمد علي الذي كان قادرا على ذلك ،

26 ــ نفس المصدر .
27 ــ درومان هاي الى قلينليق ، بريد سري . طنجة ، 13 يناير 1836 (ف.أ 40/52) .

بل على عكس حكام فى درجة أقل مثل سلطان المغرب وباي تونس وداي ايالة الجزائر السابقة . ففي الثلاثينات من القرن الماضي لا يمكن لدولة كبيرة أن تعتبر زعيم قبيلة مجهولا (عبد القادر لم يصبح مشهورا حقا الا فى الاربعينات) طرفا جديرا بالدخول معه فى معاهدة .

وبالاضافة الى ذلك هناك سذاجة واضحة فى ادعاء عبد القادر انه يستطيع أن يكسب التأييد البريطاني أو الامريكي باثـارة موضـوع خديعـة الفرنسيين . فليس ذلك هو الوجه الذي كانت الدول تمارس به أعمالها الدبلوماسية . كما أن طلبه أن يرسل له الامريكيون « تقريرا وافيا عن علاقتهم مع فرنسا » لا ينسجم مع ممارسات الدبلوماسية الغربية . ومن الواضح أن عبد القادر ، بينما كان ماهرا فى تصرفه مع القبائل الجزائرية وأيضا مع الجنرالات الفرنسيين فى الجزائر ، كان أقل مهارة فى الطرق الدبلوماسية الغربية من حكام الجزائر الأتراك الذين سبقوه (28) .

وبينما عروض عبد القادر الى البريطانيين والامريكيين غير هامة اذن فى اللعبة الدبلوماسية لأروبا فانها مفيدة فى دراسة عبد القادر نفسه . فهي تظهره زعيما عمليا (براغماتيا) لم يقصر نضاله حتى خلال السنوات الأولى من حكمه ضد الهيمنة الفرنسية على ميدان المعركة ولا عـلى الشؤون السياسية فى الجزائر وفى جيرانها ، ولكنه تمطى الى عالم أبعد من ذلك . وقد لاحظنا من قبل أن محاولته السياسية أخذت هنا بوضوح الاولوية على مبادئه الدينية .

واذا تجاوزنا أهميتها بالنسـبـة للتاريخ الجـزائري ، فان عروض عبد القادر تعتبر مثالا مبكرا لزعيم مقاومة أهلي كان يحاول أن يستعمل التنافس بين الدول الكبرى كسلاح ضد دولة كانت تمد سلطانها على

28 — للاطلاع على المراسلات الدبلوماسية بين دايات الجزائر والبلاط الفرنسي ، انظر بلانتيه (مراسلات دايات الجزائر) .

بلاده • ان هذا التكتيك طالما استعملته الحركات القومية فيما بعد خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ثم اتقنته الحكومات المستقلة التي جاءت بعدها ؛ ولعله لا يخلو من الأهمية أن نلاحظ أن هذا التكتيك قد سبق استعماله منذ مائة وأربعين سنة خلت •

الجزائر ، صيف 1975

الملحق الاول :

رسالة من الامير عبد القادر الى قنصل بريطانيا فى طنجة

الحمد للـــه وحده   صلى اللـــه على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين سلطان النواحي الجزائرية الوهرانية والتلمسانية الى طاعة أفريقية ، مولانا السيد الحاج عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي الدين نصره الله آمين ، الى قنصو الانكليز القاطن بتيطوان ، السلام على من اتبع الحق ورحمة الله . وبعد .

فلا يخفى عليك انا كنا تعاقدنا معجنس الفرنصيص عقدا وثيقا وتعاهدنا فى الصلح والمهادنة على شروط منا ومنهم ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه من تسواقهم . وبقينا على تمام الكلمة نحوا من سنة . ثم ابتدوا التخليط والتلبيس والخدعة ، فخادعونا مرارا بنقض الميثاق ولم تختلف كلمتنامعهم فى شيء الى أن أدى بهم عماهم وطغيانهم لجمع جيوشهم وفق حروبهم وخرجوا لبرنا غير مظهرين الشر ووكيلنا عندهم وقونصهم عندنا وجيوشنا متفرقة . فحيث شرع فى نهب الحب وعلمنا منه قصد الشر خرجنا للقائه بما حضر من جنودنا ، ولقيناه فنصرنا الله عليه وصار به ما بلغك من الخذلان والذل والقتل لما أتى به من الغدر والمخادعة .

ولان (كذا) سمعنا أن جنسكم من بيوت الملوك وأن كلمة ريكم وافية وانه لا غدر فيه ولا خداع بعد العقد والميثاق . فبعثنا لك مكتوبا ترسله له صحبة مكتوبك . ولما يأتيك الجواب تبعثه لنا . ومضمن ما فى المكتوب

أنكم اذا أردتم المزية الظاهرة التي تفوزون بها على كل الجنوس وتمتازون عن غيركم تلاقوننا في أي مرسى تريدونها من مراسي الجزائر الى طاعة مولانا أمير المؤمنين عبد الرحمن نصره الله ، ونلتزم لكم من جانب البر أفضل ما التزمناه قبل للفرنصيص ، وننزلكم في منزلة أعلى من منزلهم لكونهم خادعين وأنتم لم تبلغنا عنكم خدعة . ولا شك أنكم لو أردتم منا هذا يحصل من الالفة والمودة بيننا وبينكم ما يسركم ويقويكم ويرفعكم على سائر الاجناس .

وها هو صاحبنا رجل كيس فاضل ذو سياسة وعقل يصلك بالمكتوبين فاستوص به وجد له في قضاء ما يريده من مصالحنا وتكون لك حرمة كبيرة بسبب معرفتك معنا . وتعزم بالبحث على رد الجواب من عندك ومن عند الري .

في 29 جمادى من 1251 بأمر مولانا أمير المؤمنين نصره الله آمين .

Abd al-Qadir to Drummond Hay,
received 11 January 1836 (F.O. 52/40)

الحمد لله وحده   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

من امير المومنين سلطان النواحي الجزايرية والوهرانية والتلمسانية ،
الى طا عز افريقية :. مولانا السيد الحاج عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي
الدين نصره الله امين الى قونصو الانجليز القاطن بتيطوان السلام
على من اتبع الهدى ورحمة الله وبعد فلا يخفى عليك انا كنا تعاقدنا
مع جنس الفرنصيص عقدا وثيقا وتعاهدنا في الصلح والمهادنة على
شروط منا ومنهم ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه من شروطهم و
بقينا على تمام الكلمة نحو اعوام سنة ثم ابتدوا بالتخليط والتلبيس و
الخديعة فنادينا عونا مرارا بنقض الميثاق ولم تختلف كلمتنا معهم في
شيء الى ان ادى بهم عماهم وطغيانهم لجمع جيوشهم وقويت
حروبهم وخرجوا لبرنا غير مظهرين الشر ووصلنا عندهم وفرنصهم
عندنا وبيوتنا محترقة بحيث شرع في نهب الحب وعلمنا منه
قصد الشر فخرجنا اليه بما حضر من جنودنا فلقيناه فنصرنا الله
عليه وجرى به ما بلغك من الخذلان والذل والقتل لما اتى به
من الغدر والمخادعة والآن سمعنا ان جنسكم من بيوت الملوك
وان كلمة ربكم واحدة وانه لا غدر فيه ولا خداع بعد التعهد والايمان
فبعثنا لك مكتوبا ترسله لصحبة مكتوبك ولما يأتيك
الجواب تبعثه لنا ومضمن ما في المكتوب انكم اذا اردتم
المزية الظاهرة التي تجوزون بها على كل الجنوس وتمتازون
عن غيركم تلاثة في اي مرسى تريد ونحط من مراسي

الجزاير الى طاعة مولانا امير المومنين عبد الرحمن نصره الله.
ونلتزم لكم من جانب البر افضل ما التزمناه قبل بالمرخصين
وننزلكم في منزلنا اعلا من منزلهم لكونكم فادعين و
انتم لم تبلشنا منكم خدعة ولا نشك انكم لو اردتم منا هذا
نحصل من الامن والمودة بيننا وبينكم ما يبشركم و
يفيدكم خير كبير على ساير الاجناس وها هو جاءكم
رجل حبيب فاضل ذو سياسة وعقل يبلغكم بالمكتوبين
فاسمعوه وخذلو في قضاء ما يريده من مصالحنا
وتكون لك حرمة كبيرة بسبب ما تفعله معنا
وتعزم في البحث على رد الجواب من عندك ومن عند
الري في 29 جمادى من 1251 بامر مولانا امير المومنين.
نصره الله امين

صورة من رسالة الامير عبد القادر الى القنصل الانكليزي بطنجة ، درومان هاي
(ملحق 1)

الملحق الثاني :

رسالة من الامير عبد القادر الى ملك انكلترا

الحمد للـه وحده صلى اللـه على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين بالنواحي الوهرانية والجزائرية وما والاها الى طاعة تونس مولانا السيد الحاج عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي الدين نصره الله آمين الى عظيم الجيوش الانجليـزية ريهم الاكبر ورئيس ملوكهم الافخر ، السلام على من اتبع رضى الحق (أو الحي ؟) وبعد :

فانا كنا تعاقدنا مع كبير الفرنصيص على الصلح والمهادنة وتعاهدنا بمواثيق عـلى شروط اشترطناها وقبلوها وأمور اشترطوها فقبلناهـا وحصلت (كذا) أمن الطرق والاسواق بيننا وبينهم حتى صار الواحد منهم يمشي فى طاعتنا باليل (كذا) والنهار ولا يخشى بأسا ، وتآلفنا فى قضاء المصالح منا ومنهم . وبقينا على ذلك مدة من عام . ثم شرعوا فى الخداع والغدر ونقض العهد مرة بعد مرة ، ونحن واقفون عند الكلمة ما قدرنا نجتازها ونخلف عقودنا ، الى أن جمعوا جيوشهم وقوة حربهم وقونصهم عندنا ووكيلنا عندهم وجيوشنا متفرقة فقطع من بلادنا ثلاثة مراحل ولاقيناه بما حضر من الجيش فنصرنا الله عليه . وكان من أمره ما بلغكم.

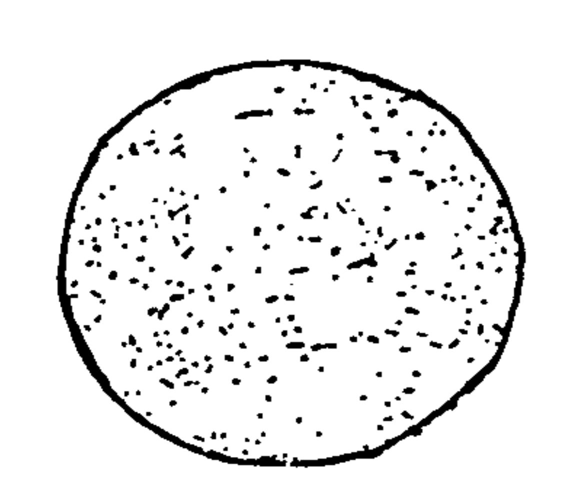
واليوم تحققنا من أخبار الذين خالطوكم انكم أهل ميثاق وكلمة وافية وانكم من بيوت الملوك فان أردتم المصلحة العامة وتكون لكم المودة زيادة على الفرنصيص تتفق على التسوبق فى أي مرسى أردتم من مراسي

الجزائر الى طاعة مولانا أمير المؤمنين عبد الرحمن عزه (كذا) الله ، وانا ملتزمون لك من جانب البر بما تريدونه لأنا لم نسمع عنكم خدعة ، ونرجو (كذا) أن تكون لك مزية فينا ورفعة على سائر الجنوس . وترد الجواب لقونصك وهو يبعثه لنا .

وفي جمادى الاولى من 1251 (كلمات غير مقروءة) نصره الله آمين .

received in Tangier 11 January 1836 (F.O. 52/40)

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله



الحمد لله وحده

[illegible]

صورة من رسالة الامير عبد القادر الى ملك انكلترا ويليام الرابع

(ملحق 2)

(ملحق 3)

رسالة من الامير عبد القادر الى قنصل أمريكا بطنجة

الحمد للـــه وحده صلى اللـــه على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين مولانا السيد الحاج عبد القادر نصره الله الى قنصو المركان بطنجة السلام على اتبع الحق ورحمة الله وبركاته ، وبعد .

فمما نود منكم أن تتفق معكم على أمر رشيد لنا ولكم ، ويكون فضاء المصالح جاريا منا ومنكم . فقد بلغنا انكم أوفى عهدا وأتم كلمة من الخداع الفرنصيص . فنحب أن تعلمنا بحالكم معه وتتعاون عليه . وما ظهر لكم من المراسي من الجزائر الى وهران تقبضوها (كذا) من جهة البحر ونحن نكفيكم من برنا فى كل ما تحتاجونه من شؤونكم . وترد لنا الجواب على عداوتكم معنا أو صداقتكم . فان عداوتنا معه لا تنقطع أبدا حتى يأتيكم الله ببشارة خذلانه على أيدينا .

وفى 16 من المحرم الحرام من 1251 بأمر مولانا أيده الله وأعانه آمين .

Abd al-Qadir to James R. Leib,
received 30 April 1836 (R.G. 59/78, Tangier, vol. 5).

صورة من رسالة الامير عبد القادر الى القنصل الامريكي بطنجة ، جيمس ليب

(ملحق 3)

الجزائر فى القرن الحادي عشر (17 م)
حسب مخطوط (كعبة الطائفين)

تكشف الأبحاث من آن لآخر عن مخطوط يضيف الى معلوماتنا عن الجزائر خلال العهد العثماني . وقد قادني البحث فى مادة كتابي (تاريخ الجزائر الثقافى) الى العثور على مخطوط ضخم بعنوان (كعبة الطائفين، وبهجة العاكفين ، فى الكلام على قصيدة حزب العارفين) فرأيت أن أقدمه الى القراء . والمخطوط موضوع فى قسم التصوف كما يدل عنوانه ولكن قراءتنا له جعلتنا نتأكد من انه يحتوي على أمور كثيرة أخرى غير التصوف ففيه أخبار سياسية واجتماعية وجغرافية وعلمية عن الجزائر ، ولا سيما غربها ، فى القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري . ومؤلفه ذكي مثقف له عين فاحصة وقلم نابه ، فسجل لنا أمورا عن عصره ما أحوجنا الى معرفتها الآن .

ومنطلق الكتاب قصيدة ملحونة ، ولكن الذي يهمنا هو شرح القصيدة ، وهو شرح مكتوب بلغة سليمة وعبارة أنيقة وطريقة غريبة . أما الناظم فهو ، كما جاء فى المخطوط ، الشيخ موسى بن علي بن موسى الملالتي وهو حسني النسب وتلمساني الدار والمنشأ . وكان من شيوخ العلم والورع . وقد وصفه الشارح ، وهو تلميذ له ، بأوصاف تدل على الصلاح بقوله « الشيخ العارف بالله وبرسوله شيخنا وبركتنا وسندنا الخ » (المقدمة) وكان التلميذ يلازم شيخه منذ صباه . فقد روى انه كان يستدعيه ليبيت عنده فى حرم أبي مدين أو فى سيدي

[illegible]

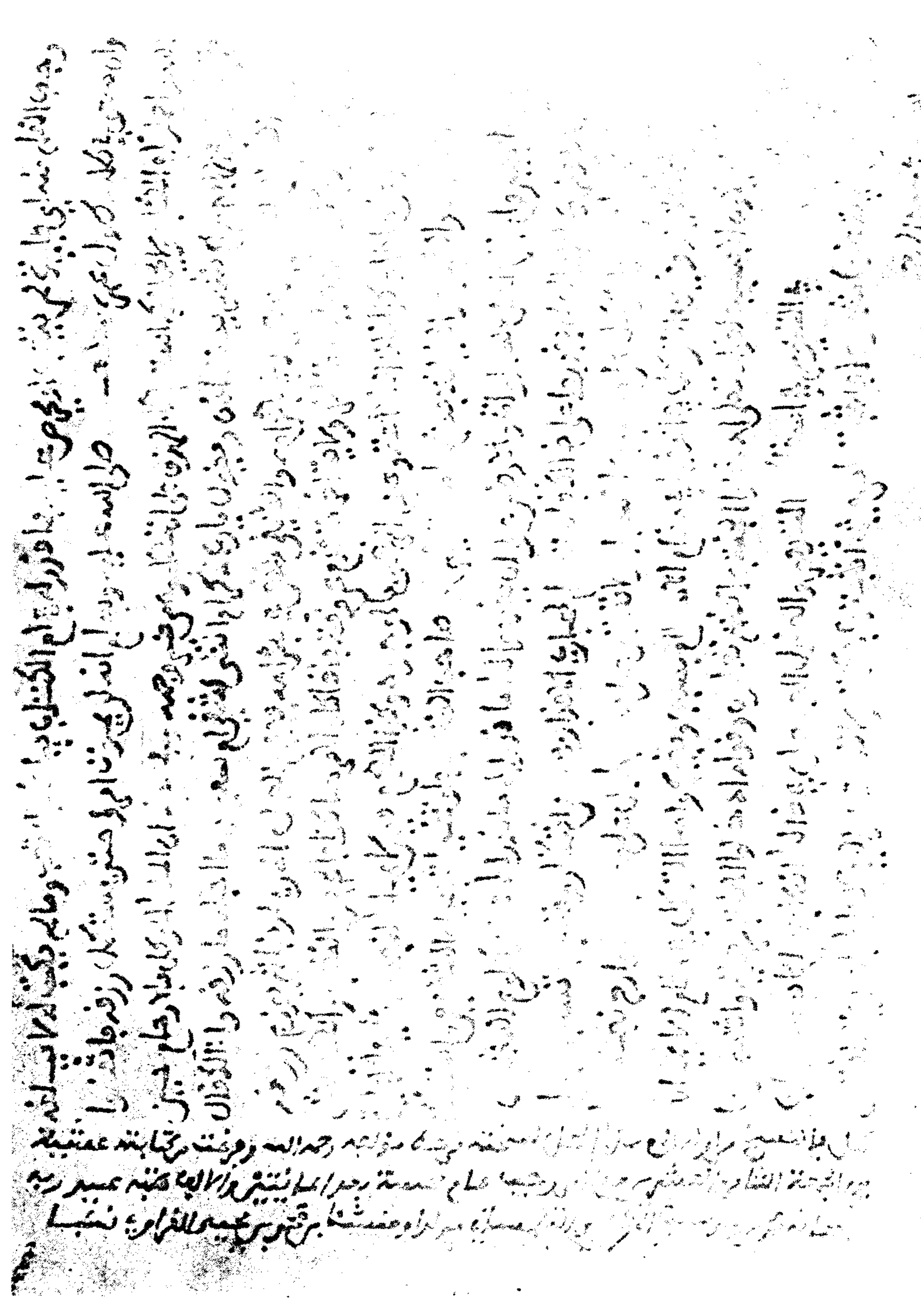
[illegible] الرحيم [illegible]

[illegible]

هذا [illegible]

[illegible] الله [illegible]

[illegible]



الصفحة الأخيرة من مخطوط (كعبة الطائفين)

أبي العلاء أو في سيدي يعقوب ليقرأ معه كتب الصوفية « ثم يسمعنا من بنيات طره حتى يصبح » ولكن الشارح كان عندئذ صغير السن فلم يستطع أن يحتمل طول السهر ، فاشتكى لشيخه من ذلك فاذن له بعدم المجيء ، وقد أخبر الشارح انه ندم على عدم ملازمة شيخه واحتمال السهر معه . (ورقة 37) . وكان الشيخ موسى قد نظم قصيدة في التصوف سماها (قصيدة حزب العارفين) وطلب من تلميذه شرحها وأوصاه حولها وصايا سنعرض لها .

وأما الشارح للقصيدة المذكورة فهو الشيخ محمد ابن سليمان ، وهو اسم مختصر لا يدلنا كثيرا عن أصله وأصل عائلته . غير انه ذكر أثناء شرحه انه سمي « العارف بالله محمد بن سليمان الجزولي » واذا كنا لا نعرف الآن كثيرا عن الشارح وعائلته فانه قد ذكر أخبارا طيبة في كتابه تجعلنا نستكمل الصورة عنه . فقد تحدث عن والده ، كما ذكر عددا من شيوخه بتلمسان وبعض المشاهد والأحداث هناك . فعن والده ، قال انه كان رجلا صالحا رغم انه كان من الأثرياء . وأخبر عنه أنه حج البيت الحرام وجاور به وانه قد أخذ العلم عن بعض الشيوخ (ورقة 134) وكان الشارح ينقل كثيرا عن والده فيما يتعلق بأذواق أهل التصوف وسلوك الطريقة عندهم . فالشارح اذن قد جمع ، من هذه الناحية ، بين صلاح والده وصلاح شيخه (الناظم) .

وتدل الاخبار التي أوردها عن بعض شيوخه والمشاهد التي رواها والأحداث التي وقعت له انه كان من مدينة تلمسان أيضا. فقد عرفنا الاماكن التي كان يسهر فيها مع شيخه بهذه المدينة ، ومن جهة أخرى روى أنه كان ملازما لشيخ آخر من أهل الصلاح وهو الشيخ العبدلي وانه دخل على القائد التركي حين تقاتل الترك مع أهالي تلمسان (ورقة 114) وسنتحدث عن هذه القصة ، وكذلك روى أنه كان مع الشيخ العبدلي في داره حين كان الشيخ ينجد المسلمين من ظلم الاتراك بتلمسان ، وكانت دار الشيخ العبدلي ، كما ذكرها ، تقع بباب الجياد (ورقة 102) .

ومع ذلك فاننا لا نجد الشارح ينتسب الى تلمسان . فلم يضف أمام اسمه عبارة « التلمساني » الموجودة أمام اسم الناظم . وحين ورد اسم مدينة « تلمسان » فى قصيدة الناظم وأراد هو شرح معنى الاسم قال عنها انها بلد الناظم ولم يقل انها بلده هو أيضا . كما انه لم يذكر مسقط رأس والده ولم ينسبه الى تلمسان . فهل كان الشارح من بلد آخر . رغم انه عاش فى تلمسان منذ صباه كما جاء فى كلامه ؟ هذا ما لا نستطيع تأكيده الآن .

وبالاضافة الى ذلك فاننا لا نعرف بالضبط لا متى ولد ومات الناظم ولا متى ولد ومات الشارح . ولكن هناك عدة علامات يمكن الاستدلال منها على عصر الرجلين أو على الأقل عصر المخطوط . ومن هذه العلامات قول الشارح ، فى كلام سنذكره بالتفصيل ، انه كان يكتب شرحه فى آخر القرن الحادي عشر للهجرة . وثانيها معاصرة الشارح للشيخ العبدلي وعدد آخر من العلماء الذين أورد أسماءهم ، وسنذكر بعضهم بعد قليل ، مما يمكن الاستدلال به ، بعد التعرف على عصرهم . على زمن الشارح على الاقل . ونفس الشيء يقال عن الأحداث التي أوردها فى الكتاب كالاشارة الى اقتتال أهالي تلمسان مع الاتراك ودعائه بأن يعيد الله وهران « للاسلام والايمان » (ورقة 110) مما يدل على أنها . عند كتابة الكتاب ، كانت فى يد الاسبان . أي قبل الفتح الأول . ومادامت المخطوطة التي اطلعنا عليها ناقصة فى آخرها كما سنذكر ، فانه لا يمكن معرفة تاريخ التأليف اذا كان المؤلف قد انتهى منه فعلا . ومن الملاحظ أن النسخة التي رأيناها من المخطوطة مضاف اليها ما يدل على انها قد ألفت فى القرن الثاني عشر للهجرة . غير أنه لا يوجد فى نص المخطوط ما يدل على ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن ناسخ المخطوطة هو السيد محمد بن يوسف المناري التلمساني . وقد نسخها من خط المؤلف عام 1205 هـ وهو تاريخ فتح وهران الثاني على يد الباي محمد الكبير . فلعل الناسخ قام بهذا

العمل وقدمه للباي المذكور الذي كان معروفا بتشجيعه للعلماء والنساخ . وقد جاء فى آخر الكتاب قول الناسخ «كمل بالنسخ من أوله الى هذا المحل . نسخته من خط مؤلفه رحمه الله ... » (ورقة 146) وخط الناسخ رقيق جدا وبالحبر الاسود ما عدا بعض العبارات الانتقالية مثل « قلت » و « قال فلان » . وبعض الابيات فانها بحبر ملون اغلبه أحمر وسطور المخطوطة متراصة والحروف صغيرة . لذلك يجد قارئه صعوبة كبيرة فى مطالعته . وهو فى الجملة فى حالة جيدة ويقع ضمن مجموع ، وتبلغ صفحات (كعبة الطائفين) وحده 146 ورقة . وبدايته هكذا : « الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات الى متاع الدنيا .. » ونهايتـــه هكذا « وقال سيدي عبد الرحمن .. » قبل عبارة الناسخ المشار اليها . وبذلك يظهر جليا أن المخطوطة مبتورة الآخر .

وقد كان الكتاب فى حوزة المفتي الحنفي الجزائري المعروف بابن العنابي قبل انتقاله الى المكتبة التي اطلعنا عليه فيها . وعليه عبارات التملك من المفتي المذكور . وثمن شرائه بنقود جزائرية مما يدل على أنه تملك به فى الجزائر . وعليه تاريخ التملك وهو سنة 1234 هـ . كما توجد بعض التعاليق القصيرة على النسخة من المفني المذكور .

* * *

بين المؤلف أهمية كتابه وحالة التأليف فى وقته وعلاقته بالعصر وأهله فقال ، بعد أن نقل كلاما عن الغزالي ، ما نصه : « قلت لو لم يكن فى كتبنا لهذا التقييدعلى كلام هذا الشيخ ، أعني الناظم ، الا هذا الكلام الموصل الى معرفة الواحد الحق ، لكان كافيا لذوي الهمم . فكيف ينبغي لعاقل أن يزهد فى مطالعة الكتب المشحونة بنقل العلوم النافعة بعد أن أتته عفوا صفوا ولم يدر المسكين ما نال مؤلفيها من التعب فى جمع دررها المنثورة من معادنها واستخراج كنوزها المكنونة من خزائنها . وليتهم مع هذا وجدوا زمانا هنيا ، أو مساعدا مرضيا ، أو خلا وفيا ،

بل لم نجد نحن فى هذا الاخير من القرن الحادي عشر الا العقارب واللفاع، والشقاق والنزاع ، وظهور الهمج الرعاع، المؤثرين سبل الشر والابتداع، وما لنا عن دفع ما نزل بنا من قدرة ولا حول ، ولا قوة لنا على التحول عن أهل هذا الحال ولا طول ، ولا يجمل بالعاجز الضعيف المتألم، الا أن يبتهل ويقول اللهم سلم اللهم سلم » . (ورقة 78) .

وقد نقلنا هذه الفقرة على طولها لعدة أسباب ؛ منها أن المؤلف يذكر بالضبط تاريخ التأليف ، وهو كما جاء بالنص أواخر القرن الحادي عشر للهجرة . والثاني الاشارة الى دافع التأليف وهو المتعة بكلام أهل الصوفية مثل الناظم والغزالي وغيرهما . والثالث تعقيب المؤلف على الزاهدين فى المطالعة حتى بعد أن يبذل المؤلفون الجهد فى جمع المعارف من مختلف مصادرها لافادتهم . والرابع شكوى المؤلف بمرارة من أهل عصره الذين لم يجد فيهم الا الهمج والأشرار ولم ير فى عصره الا المنازعات والفوضى. وسيؤكد هذا المعنى فى عدة مناسبات خلال النص .

كان ناظم القصيدة قد جعل قصيدته ثلاثة أقسام ، القسم الاول فى أهل الصلاح ، والقسم الثاني فى أهل الفساد ، والقسم الاخير لا ندري ما عنوانه لكون الكتاب مبتورا كما عرفنا . وقد أوصى الناظم تلميذه بشرح القصيدة وجوز له الحديث عن القسم الاول والاخير من القصيدة ، ولكنه أوصاه بعدم الحديث عن وسطها « لابناء الدنيا » ومن الطبيعي أن نفهم من هذه الوصية أن الناظم قد خص القسم الثاني بأهل الطلاح فى زمانه من حكام ظالمين وعلماء منافقين الى غير ذلك .

ومن الطبيعي كذلك أن يقسم الشارح شرحه حسب أقسام القصيدة . فبدأ بالقسم الاول منها واستغرق فى شرحه مائة وعشر صفحات من مجموع 146 . وعند الانتهاء من ذلك القسم قال « فهذا ما يسر الله علينا من الكتب على هذا الثلث الاول من قصيدة هذا الشيخ الفاضل ويتلوه ... كلامنا عن الثلث الثاني منها » . (ورقة 110) وقد افتتح الشارح هذا

القسم (الثاني) بقوله « لما ان فرغ الشيخ رحمه الله من ذكر السلف الصالح عقبه بذكر الخلف الطالح ترغيبا فى الاقتداء بالمنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (ورقة 111) وقد برر الشارح حديثه عن وسط القصيدة ، رغم نهي شيخه له عن ذلك ، بقوله « ان النهي كان أثناء حياة الناظم ، أما وقد توفاه الله فلم يعد لكتمان ذلك مبرر » . وسنلاحظ أن الشارح ، تبعا للناظم ، قد تحدث عن قضايا معاصرة وعن أشخاص معاصرين ولكن الأمر ما يزال محيرا ، وجدنا بقية هذا الجزء مفقودا ، كما أن القسم الثالث مفقود أيضا . ولو اننا اطلعنا على باقي الكتاب لوجدنا فيه ، كما تتوقع ، أمورا كثيرة تتعلق بأحوال العصر ، ولاسيما السياسية والاجتماعية منها . (1)

* * *

ورغم ذلك فان ما وجدناه منثورا من الاخبار فى شرح القسم الاول من القصيدة وفى الجزء الصغير من القسم التالي منها يعتبر هاما بالنسبة لوقتنا .. فنحن الآن فى حاجة شديدة الى مصادر معاصرة عن العصر العثماني . ولعل هذا الكتاب ، وهو كما سبق فى التصوف ، ينضاف الى كتاب ابن مريم المعروف (بالبستان) فى أوائل القرن الحادي عشر ، وكتاب عبد الكريم الفكون المعروف (بمنشور الهداية) فى أواخر القرن الحادي عشر أيضا ، فيؤلف الثلاثة سلسلة هامة عن أحوال الجزائر الدينية والاجتماعية وحتى السياسية فى فترة هامة من تاريخها .

ففى (كعبة الطائفين) أخبار هامة عن علماء وصلحاء الجزائر . ومنهم محمد بن افغول ، وابراهيم التازي ، وأحمد البوني صاحب شمس المعارف ، ومحمد السنوسي ، ومحمد الهواري ، وبو عبدل المغوفل ، وأبو مدين شعيب ، ومحمد التواتي ، وعبد الرحمن الثعالبي ، وأحمد بن

1 ــ اطلعنا من هذا الكتاب على نسخة القاهرة . وتوجد منه نسخة كاملة فى باريس اطلعنا عليها بسرعة ، وأخرى فى المغرب لم نطلع عليها .

يوسف الملياني ، ومحمد بن علي الخروبي ، وبوعمران الهواري ، والشيخ السجراري ، وغيرهم . كما ينقل عن عدد من علماء الاسلام أمثال الغزالي، وابن الفارض، وعبد القادر الجيلاني (والظاهر أن المؤلف قادري الطريقة).

وكما يحتوي الكتاب على أخبار العلماء والصالحين كذلك يضم طائفة من الاخبار عن بعض المدن الجزائرية وغيرها، وعن بعض المناطق الجغرافية. والمؤلف يصف، كل مدينة بما لديه من معلومات عنها ، ومن هذه المدن شرشال ، ومستغانم ، وتلمسان ، وتونس ، والقسطنطينية ، والقاهرة ، وفاس ، ومدينة الجزائر ، وعنابة ، ووهران . ومن المناطق الجغرافية التي وردت فى الكتاب زواوة والشلف وتوات ونحوها . وهو يذكر معلومات جغرافية وحضارية عن كل مدينة ومنطقة مما يضفي على الكتاب أهمية خاصة . والملاحظ انه لم يخصص لذلك فصلا أو نحوه ولكنه جاء به عرضا لأن الناظم ذكر تلك الاماكن فى قصيدته .

ومما قاله عن تلمسان ، بعد أن ذكر معناها الجامعة بين التل والصحراء، انها « تعمل الشان لمن لا له شان ، ويكفيك منها ماؤها وهواها ، كما قال فيها واصفها ، وهي ذات أنهار وأشجار وفواكه وثمار ، وخصها الله بحب الملوك ، حتى صارت مطمعة للملوك ، وهي غاية للصالحين ، لأنها بلد ذل وخمول، والعلم فيها يفور ويغور، وهي قرية الجدار على ما قيل » (ورقة 15) . ولعل الجمل الاخيرة توضح رأي المؤلف فى تلمسان فى العهد العثماني ، فهي موئل الصالحين ويعني بهم الأولياء الذين كثروا كثرة ملحوظة خلال هذا العهد ، كما أن العلم فى تلمسان كان ينبع من حين لآخر ويجف أحيانا ، وهذا الحكم على تلمسان العثمانية ، من مؤلف (كعبة الطائفين) يذكرنا بحكم مؤلف (منشور الهداية) على مدينة قسنطينة العثمانية أيضا .

وعندما ورد ذكر بلاد زواوة فى القصيدة التي يشرحها قال الشارح عنها انها قرى كثيرة فى جبل شرقي الجزائر . وأهلها علماء فى فروع الدين .

وقال ان علماءها موجودون فيها وفى غيرها (يعني خارج بلاد زواوة) وهو لا يعني مطلق العلماء ولكنه يعني العلماء العارفين بالله وبنبيه معرفة خاصة زائدة على القدر الواجب فى حق كل أحد (ورقة 15) وهذا وصف تصدقه المصادر الاخرى ، لأن علماء زواوة كانوا يقصدون المدن المجاورة كمدينة الجزائر وقسنطينة وبجاية وتونس . وكثير منهم كان يرحل الى المشرق . واكتفى الشارح عن عنابة بقوله ان بلد العناب مدينة على ساحل البحر . ولا شك أن هذا وصف غير كاف لمدينة كبيرة وشهيرة مثل عنابة خلال القرن السابع عشر الميلادي . فقد أعطانا فكرة عن بلاد توات أكثر وضوحا من فكرته عن عنابة . ومما جاء فى وصفه بانها « بلدان طيبة وأهلها مباركون وعنها يضرب المثل اليوم ــ عليك باتوات لاتفات » (ورقة 17) .

وقد أشاد المؤلف كثيرا بمدن فاس والقاهرة والقسطنطينية . ونود أن نذكر رأيه فى الاخيرة لأن رأيه فى الاتراك فى الجزائر يخالف رأيه فى وصف عاصمتهم وسلطانهم فيها . فقد وصفها بقوله ان القسطنطينية « هي دار ملك الترك الاعظم اليوم، وهو الخليفة الاكبر، ملك البرين والبحرين، ومصر والشام والعراقين . خديم الحرمين الشريفين . أصلح الله حاله وحال جيشه ورعيته واقليمها هو بر الترك . ومنه تخرج الامراء والقضاة لجميع عمالاتها المذكورة . ودار ملكها كمصر أو أعظم فى الكبر.وتسميتها بالتركية وتفسيرها (اسلام عريض) . أقامها الله دار اسلام الى يوم القيامة » . (ورقة 17) .

وهذا الوصف يلفت نظرنا من عدة نواح . فالمؤلف لا يذكر فيه شيئا ضد الترك بخلاف ما سيأتي فى الحديث عنهم فى الجزائر . ومن ناحية أخرى عدد مناطق نفوذ السلطان العثماني أو أجزاء الدولة ولكنه لم يذكر الجزائر من بين هذه المناطق أو الاجزاء . فهل هذا دليل آخر على استقلال الجزائر خلال هذه الفترة وعدم تبعيتها المباشرة للسلطان ؟ وماذا يريد

المؤلف من وراء سكوته يا ترى ؟ . ومن ناحية ثالثة ذكر أن الامراء والقضاة تخرج من القسطنطينية الى أجزاء الدولة المذكورة ، ولكنه لم يذكر أي أمير أو قاض خرج منها الى الجزائر ، رغم أن الامر كان كذلك ، على الاقل أثناء العهد العثماني الاول فى الجزائر . ومهما يكن الامر فان موقف المؤلف من هذا الموضوع يسترعي الانتباه .

وبالاضافة الى ما ذكرنا يشتمل الكتاب على معارف عامة حول السكان والاشخاص والقرى والمصطلحات اللغوية ونحو ذلك . فعندما ورد اسم الولي أحمد بن عثمان قال المؤلف عنه انه من صلحاء بني قومي . وعرفهم بانهم مداشر بالصحراء ، بلد الجريد ، وقال أيضا أن ابن الولي المذكور ، وهو ابراهيم بونقاب « من أهل عصرنا » واستطرد بهذه المناسبة ليذكر كيفية نطق القاف فى « بني قومي وأمثالها كفقيق » فقال والقاف فى بني قومي وفقيق ومثلهما تكتب قافا أو جيما أو كافا ويعجم من أسفله . وعندما ورد اسم هوارة ذكر طرفا من أخبارها وبعض صلاحها كالسجراري والهواري وبوعمران . وهكذا يستخرج الدارس من الكتاب معلومات طيبة أخرى غير التصوف الذي هو الموضوع الرئيسي فيه .

* * *

وقد شكا المؤلف من الظلم السياسي فى عدة مناسبات . فبعد التعريض الذي ذكرناه له عن أحوال العصر وأهله ، اغتنم فرصة قول الناظم « يا رب من صاب بطل اشديد من نسل اعلي ثم فاطم » فعلق عليه بقوله : « تمنى رضي الله عنه وجود امام عدل يجتمع عليه المؤمنون ، ويتبعه المجاهدون وتنتظم به كلمة الخلق بالحق ، لأن الاجتماع رحمة والفرقة عذاب » . وواضح وجه التعريض هنا أيضا ، ان لم نقل وجه الصراحة . ذلك ان كلا من الناظم والشارح يتفقان على أنه لا وجود « لامام عدل

يجتمع عليه المؤمنون ويتبعه المجاهدون » فى وقتهما . وهذا موقف سياسي واضح . وقد تمنى كل منهما اجتماع كلمة المسلمين ونهاية ما هم فيه من فرقة وعذاب .

ولعل المؤلف يشير بعذاب الفرقة ما شاهده هو بنفسه . بل عاشه . فقد سجل فى كتابه عدة حوادث عن ظلم الاتراك فى الجزائر ، وخاصة فى تلمسان . وروى أنه كان ذات يوم مع شيخه ، سيدي العبدلي ، فى داره الواقعة بخبارة باب الجياد فشاهد بالدار خلقا كبيرا ، مسلمين وذميين ، هاربين من جور الاتراك « وكان الشيخ العبدلي يطعم ويسقي هؤلاء الفارين اليه ويتشفع ، كل وقت فيهم فيقضي الله الحوائج على يديه » . (ورقة 102) اذن هناك مظالم كان يرتكبها الأتراك بتلمسان تضطر الناس الى الهروب الى الصالحين والشفاعة بهم . والمؤلف شاهد عيان على ذلك ، لأنه يقول « ما رأيته وسمعته من الشيخ البركة سيدي العبدلي » . بل ان المؤلف كان يقرأ بعض التعاويذ « لتدمير الظالم وقطع الجبابرة والفساق » (ورقة 105) ولا شك أن غيره كثير ممن كانوا يلتجئون الى هذه الطريقة ، وهي طبعا سلاح العاجزين عن دفع الظلم بالقوة .

وللمؤلف موقف آخر أكثر صراحة مما سبق . فقد نظم قصيدة سياسية أثناء حروب الاتراك ضد تلمسان . ودخل بها ، رفقة الشيخ العبدلي المذكور ، على القائد التركي بتلمسان . وهو محمد بن سوري ، فى محلته « حين تقاتل الترك مع أهل تلمسان . فوعظه الشيخ . ورأيت من قوة محلة الجزائر وسطوتها ما أوجب ما ذكرناه ، واياه عنيت بفلان ، وكلنا فلان ، لأن كل نفس تدعي ما ادعاه فرعون ، ولكن من وجد سعة أظهر ما أضمرته نفسه حتى فى عياله وخدمه . وأشرت بقولي — ولا تستهدفن — الابيات الى أنك لا تجعل نفسك هدفا للنصال ، ولا تنصبها غرضا لرمي النبال ، باعد البلاء يباعدك البلاء » (ورقة 114) . أما القصيدة فقد بدأها بقوله :

ترقب يوم موتك يا فـــلان   ورافقك (؟) الرحيل من الديار

والنص السابق يكشف عن موقف واضح من المؤلف . فهو يسجل ثورة أهل تلسان على الترك في وقته ، وانتقاد الاتراك منهم ، على يد القائد محمد بن سوري الذي جاء على رأس الحملة التركية من الجزائر . وموقف الشيخ العبدلي ازاء ما حدث ، ودور المؤلف الذي رافق الشيخ المذكور عند دخوله على القائد التركي . ورؤيته لطغيان وجبروت الأتراك ، فتوعد القائد بسغبة الامور عند الله وفي الدنيا أيضا ، ولم يذكره صراحة وانما استعمل التورية والكناية فعبر عنه « بفلان » و « بفرعون » ولعله استعمل عبارة الرحيل من الديار بمعناها الديني ومعناها السياسي . فقد تعني الموت وقد تعني الخروج من الجزائر . ولا شك أن هذا الموقف يكشف أيضا عن أهمية المؤلف في قومه عندئذ . ولو لم يكن كذلك فمن هو حتى يدخل على قائد الحملة يتوعده ويهدده ويرافق الشيخ العبدلي الذي جاء يعظ ويذكر ؟ ولا شك أيضا انه لم يكن هو والشيخ فقط في هذه الحادثة ، بل لعله كان ضمن وفد من علماء البلاد وأعيانها وصلحائها الذين تولوا الوساطة بين السكان الثائرين والاتراك المغيرين . ومهما يكن من أمر فان القصيدة ، فيما يبدو ، طويلة ولكنه اجتزأ منها بأبيات جاء بها في الكتاب ، وهي قصيدة سياسية في ثورة تلمســـان عندئذ . وهي رائية وضعيفة النسج ، ولكنها قوية الروح .

* * *

وكما احتلت الأحداث السياسية في تلمسان مكانا بارزا في الكتاب كذلك احتلت مكانا بارزا بالنسبة لمدينة وهران . فقد كانت هذه المدينة ما تزال تحت حكم الاسبان زمن تأليف الكتاب . وهذا واضح من ترديد المؤلف نفسه قوله كلما ذكرها « أعادها الله للاسلام والايمان » . وقد

ساق قصة تروى عن محمد الهواري وهي انه هو سبب هلاكها أي وقوعها بأيدي الكفار . وهي لا شك قصة خرافية . فهو (الهواري) الذي دعا عليها لأن أهلها تركوا حكم الشريعة وصاروا يحكمون بحكم العامة فآثروا العوائد المضلة ، وان أهلها قد أهانوا الشيخ الهواري وآذوه فى أهله وجيرانه حتى روى أنهم قتلوا ولده « فدعا عليهم وباع بلدهم للكفار بيعا بتا بلا استثناء ولا اقالة الا من اشترى نفسه منه سلمه الله من الكفار . فيؤخذ من هذا جواز الدعاء على الظالم ، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .... ولاكنهم رخصوا (بتشديد الخاء) حتى رخصوا ، واسنهانوا ، فهانوا وأذلوا فذلوا ، والا فالاسلام لا يعادله شيء حتى يباع به » (ورقة 110) .

وهناك أيضا أمور تلفت النظر فى النص السابق ، فالمؤلف يسوق القصة ، رغم انها خرافية ، لأن احتلال الاسبان لوهران جاء نتيجة أمور سياسيه واقتصادية معروفة . ومن ناحية أخرى تدخل المؤلف الذي كان يعاين الظلم والطغيان فاستنتج من القصة « جواز الدعاء على الظالم » محتجا بالآية المذكورة ، والظالم هنا هم الاتراك بدون شك . ووجه المقارنة بين موقف الهواري بالنسبة لوهران وموقف المؤلف بالنسبة لتلمسان واضح . وأخيرا نلاحظ أن المؤلف لم يشأ أن يكتفي بايراد القصة دون التعليق عليها . اذ ليس هناك فى نظره ، شيء يعادل الاسلام حتى يباع به ، فكيف يبيع الهواري أهل وهران ؟ بأي شيء ؟ وكأن المؤلف أراد ان يبرر ما حدث باعادة ذلك الى طبيعة النفس لدى سكان وهران،وليس الى دعاء الهوارى . وذلك هو ماعناه بقوله انهم «رخصوا حتى رخصوا ، واستهانوا ، فهانوا ، وأذلوا فذلوا . » فالتأثير ليس خارجيا عن النفس (كالدعاء) ولكنه من داخلها « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وفى هذا النطاق (الحديث عن وهران) أورد المؤلف فيها قصيدة مؤثرة « للعارف سيدي محمد التواتي » الذي تفرس أمرها وأنذر أهلها قبل أن يحل بهم ما حلها . « وقد بدأ التواتي القصيدة بقوله :

أيا أهل وهران انظروا نظر شفقة ... لبلدتكم من قبل ان تتردت
وقبل مجيء المنشآت ببحرها ... وأي قلوب عندها مستقرت
ولا تكلوها غيركم ولئن يكن ... فما غائب مثل المقيم ببلدة

ومنها قوله

فجودوا بفضل المال فى حفظ كله ... وأهل وجيران وشيخ وصبية
وما يغني عنكم مالكم ان أتاكم ... عدو بنيل أو بسدفة سحرة
وقد عظم الله الديار خروجها ... فحذرتكم ، والله يعلم نيتي
فان لم يكن فى الغرب أكبر غيرة ... وفى الأندلوس (كذا) فجعة أي فجعة

وبعد ان عدد التواتي البلدان التي أخذها النصارى على سواحل المغرب ، قال :

فيا مقلتي فابكي لما نالهم دما ... ويا كبدي احرا (كذا) عليهم تفتت
فهذا نذيري ان تكونوا ذوي حجا ... وهل تقبل الاعذار بعد النذارة
فما البرتقال الآن يطلب غيركم ... ومرساكم ، لا قال منها بسنية
وقد هال أمر البرتقالي وحده ... فكيف وذو الفنشي له فى الحمية
فلا تهملوا أمر الاعادي فانه ... بحال اجتماع واتفاق وشدة
وقد قطعوا قطعا متى ظفروا بكم ... فقد ظفروا طرا بأهل الجزيرة
وكانت بلاد الغرب تحمي ديارهم ... وتنجدهم بالعون فى كل وجهة

ومما جاء فيها أيضا مخاطبا أهل وهران قوله :

وان ضاع مرساكم فان ضياعه ... ضياع بلاد الله شرقا وقبلة
ولا يحم مرساكم ضعاف رجالكم ... ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة

فان لهم بالضرب والطعن خبرة وكم فتكوا بالكفر أكبر فتكة
عليكم بهم فاستعملوا فى وصولهم اليكم ذكا عقل وألطف حيلة
أ اخوانا فى الله ألقوا مسامعا ولا تهملوا مما أبرزته قريحة (كذا)

ومن الواضح أن القصيدة قيلت قبيل احتلال وهران من الأسبان وساعة ان كان أهل الأندلس فى صراع مع الأسبان . ولسنا نريد أن نشرحها ولا أن نبرز ما فيها من أفكار ، فليس ذلك من هدف هذه العجالة الخاصة بتقديم كتاب (كعبة الطائفين) . ولكن لا بد لنا من القول هنا أن المؤلف قد أوردها متأثرا بما فيها من أفكار وكأنه كان يدعو الى ما دعا اليه الشيخ التواتي قبله بقرنين أو يزيد . ومن جهة أخرى نلاحظ أن القصيدة طويلة فنحن لم نورد كل ما أورده المؤلف منها ، كما أن المؤلف لم يأت بها كاملة . فهل كان غرض المؤلف من ذكرها عندئذ معاتبة الأتراك على عدم تحرير وهران من الأسبان ؟ ومن الجدير بالذكر أن هذه القصيدة تذكر الدارسين بفتوى الونشريسي فى قضية الهجرة من البلاد الاسلامية التى استولى عليها الكفار ، كما تذكرهم برسالة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي فى الجهاد الموجهة الى أهل بجاية ، حوالي نفس الوقت .

* * *

ومع ذلك ، فان كتاب (كعبة الطائفين) يظل بالدرجة الأولى كتابا فى التصوف . فصاحبه قد حشاه بأخبار المتصوفين والأولياء والصالحين فى تاريخ الاسلام ، وكان يكثر من النقل عن فلان وعن فلان لتأييد رأيه ، كما أنه كان يعود باستمرار الى القرآن والحديث . وتمشيا مع هذا أورد قصصا وكرامات وأخبارا تعتبر اليوم محل نظر . وقد أشرنا الى أنه كان قد جرب قراءة جدول البسملة « لتدمير الظالم وقطع الجبابرة والفساق . » (ورقة 105) . وجاء أيضا بكرامات

نسبها الى الشيخ أبي مدين تتعلق فى جملتها بحرب النصارى (مثلا ورقة 108) . وقد عرفنا روايته لقصة دعاء الشيخ الهواري على أهل وهران ، رغم أنه علق عليها تعليقا سليما . على أنه ليس من غرضنا التعرض هنا بالتفصيل لجانب التصوف من الكتاب . وكل ما أردناه الآن هو تقديم الكتاب من جهة وبيان ما يحتوي عليه من مسائل تاريخية عن الجزائر فى العهد العثماني من جهة أخرى . ولا شك أننا لو عثرنا على بقية الكتاب ، اذا كان صاحبه قد انتهى منه فعلا ، لاستفدنا منه فوائد أخرى جمة عن ذلك العهد ولأضفنا الى مصادر الجزائر العثمانية مصدرا آخر هاما ، فهل يتحقق ذلك ذات يوم ؟

* نشرنا هذا البحث فى المجلة التاريخية المغربية عدد 7 – 8 (يناير 1977) .

الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني

ترك العهد العثماني فى الجزائر عدة رحلات حجازية كتبها أصحابها بعد أدائهم لفريضة الحج . ولكن مصير هذه الرحلات يختلف . فمنها ما فقد تماما ولا نعرفه الا بالاسم ضمن مؤلفات أصحابه . ومنها ما بقي سليما نعود اليه كلما دعت الحاجة . ومنها قسم آخر بين هذا وذاك حيث أن بعضه مفقود وبعضه موجود . وسنتحدث عن كل قسم من هذه الرحلات . وبالاضافة الى ذلك فان الرحلات الجزائرية الحجازية لم تكن كلها نثرية . حقا ان معظمها كذلك ، ولكن هناك نوع من الرحلات المنظومة أيضا وهي تلك التي اكتفى أصحابها بنظم رحلتهم فى قصيدة مطولة أو نحو ذلك من أشكال الشعر . وسنذكر أيضا نموذجا أو أكثر من هذه الرحلات الشعرية .

ان الجزائريين الذين توجهوا الى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا اليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سواح . وانما توجهوا اليها حجاجا يؤدون الفريضة ويزورون الحرم الآمن ، لذلك كانت قلوبهم الى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم وأشواقهم اليها تنسيهم آلام الطريق ووعثاء السفر . ومن ثم كان هنالك جزائريون قد كتبوا رحلات حجازية خيالية دون أن يرحلوا بأجسامهم فكتبوا قصائد طوالا يمدحون فيها الرسول الأعظم ويصفون وصفا حيا كل شبر من تراب الجزيرة . ولاشك ان هذا النوع لا يدخل ضمن الرحلات التي تقصدها فى هذا المجال ، غير انه نوع يستحق الدراسة فى مناسبة أخرى .

* بحث القى فى الندوة العالمية الاولى لتاريخ الجزيرة العربية التي انعقدت بالرياض (أبريل 1977) ، وقد طبع ضمن وقائع الندوة بالعربية وغيرها .

لقد دخلت الجزائر ، كمعظم أجزاء الوطن العربي ، فى الدولة العثمانية منذ أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر ميلادي) . واستغرق هذا العهد ثلاثة قرون ، أي الى سنة 1246 هـ (1830 م) حين احتل الفرنسيون الجزائر ، ولا نريد ان نتعرض هنا الى المراحل والتطورات السياسية والاقتصادية لهذا العهد (1) . وحسبنا ان نذكر منه نقطتين تتعلقان بموضوعنا . الأولى تقلص الحياة العلميه بما فيها بدائية التعليم ونقص المدارس وقلة التأليف وعدم الاهتمام بالعلماء والمثقفين (2) . ومما يلفت النظر أن الجزائر العثمانية لم تكن تتوفر على مؤسسة للتعليم العالي مما ترتب عليه هجرة الراغبين منهم فى طلب العلم . ولكن كثيرا منهم كانوا يعودون الى وطنهم . ومعظم هؤلاء كان يقصد مصر والحرمين الشريفين . وهناك قائمة طويلة من العلماء الجزائريين الذين هاجروا ولم يعودوا أصلا ، كأحمد المقري صاحب (نفح الطيب) ، وعيسى الثعالبي ويحي الشاوي وبعض هؤلاء العلماء قد عاد ولكن بعد ان أطال الاقامة أو جاور بالحرمين الشريفين ، ومن هؤلاء المفتي أحمد بن عمار ، وحمودة المقايسي ومحمد بن العنابي . ولا يخفى أن هجرة هؤلاء العلماء التي تدخل فيما نسميه اليوم هجــرة العقول ، قد آثرت على مستوى الحياة الثقافية فى الجزائر .

أما النقطة الثانية التي نود أن نتعرض لها لأهيمتها فيما نحن بصدده . فهي انتشار البدع وشيوع حلقات الذكر والاوراد وتعدد الطرق الصوفية وتطرفها فى عقائدها ، وقد كان بعضها يعمل بتشجيع واضح من الحكام العثمانيين (3) . والذي يقرأ كتبا مؤلفة خلال هذا العهد مثل البستان (4) لابن مريم ، و (منشور الهداية) (5) لابن الفكون ، وكعبة الطائفين(6) لابن سليمان ، ورحلة الورتلاني (7) يدرك ما وصــلت اليــه الحالة العقلية فى الجزائر العثمانية . وما دمت سأتعرض بعد قليــل للكتــاب الاخير ، باعتباره رحلة حجازية ، فانني اكتفي هنا بالاشارة اليه فى مجال التصوف والعقائد الخرافية التي احتوى عليها .

ومن الواضح أن تكون صورة الجزيرة العربية فى نظر الجزائريين (سواء كانوا من الصنف الاول ــ العلماء ــ أو من الصنف الثاني ــ المتصوفة ــ أو من الصنفين معا) مرتبطة قبل كل شيء بالدين وشعائره، وبسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وكفاحه وبحياة الصحابة رضوان الله عليهم . أنها صورة روحانية متألقة بالقلب والروح يتخيلها المتخيلون فتسيل عبراتهم شوقا وحرقة ويرسمها الراسمون بالكلمات فاذا هي ، مهما بالغوا ، فوق الوصف والرسم . ان تراب الجزيرة العربية فى نظرهم تراب طاهر مقدس لأن الرسول قد مشى عليه ، وماءها عذب زلال ولو كان ملحا أجاجا لأن الرسول قد شرب منه أو تغسل فيه ، وهواءها نقي منعش ولو كان حارا كلهيب النار ، لأن الرسول قد استنشقه وتنفسه . وكل بئر أو صخرة أو جبل فيها يحمل فى نظرهم ذكرى عطرة وصوتا واعظا ومشهدا حيا لن يموت . ومن الواضح أيضا أن هذه الصور تخص مكة المكرمة والمدينة المنورة وما جاورهما من الاماكن التي اختلف اليها الرسول وجرت فيها معارك الجهاد والنصر للدين الحنيف . ولم يكن العالم أو المتصوف الجزائري يهتم ببقية الجزيرة العربية فى الاطراف والحواشي أو المنازل الاخرى التي لا ترتبط بالاسلام والداعين الاولين اليه. كما أن الصورة المادية للجزيرة العربية قلما تهمه . فما دام يجد قوت يومه فيها فان كل شيء من أجل الصورة الاخرى يهون .

وبالمقارنة مع بعض الاقطار العربية والاسلامية الاخرى كالمغرب ، فان ما وصل الينا من الرحلات الجزائرية الحجازية يعتبر قليلا ، وأغلب ما وصل الينا مكتوب خلال القرن الثاني عشر للهجرة ــ الثامن عشر الميلادي . فلماذا لم يحفظ لنا القرنان السابقان رحلات حجازية أيضا ؟ ذلك ما لا نستطيع الجواب عليه الآن .

والرحلات الأخرى بعضها مكتوب بالشعر وبعضها مكتوب بالنثر . وسنهتم بطبيعة الحال بالقسم الأخير ، غير انه لابد من كلمة قصيرة عن القسم الأول أيضا .

بعض الرحلات المنظومـة :

من ذلك القصيدة الطويلة التي نظمها شاعر الفصيح والملحون سعيد المنداسي والتي تعرف (بالعقيقة) وقد نظمها سنة 1088 هـ (1677 م) وموضوعها هو مدح الرسول ووصف البقاع المقدسة وآثار الحجـاز ومنازله وذكرياته الدينية الغابرة . وقد تولى شرحها والتعليق عليها عدد من المؤلفين فأضافوا اليها معلومات غزيرة وأصبحت شروحهم وتعليقاتهم عليها وكأنها رحلات مستقلة وكلها تتناول تاريخ وجغرافية الجزيرة العربية بطريقة قد يعجز عنها الشعر . ومن هذه الشروح شرح محمد بوراس الناصر الذي سماه (الدرة الانيفة) (8) . وشرح آخر يسمى (الازهار الشقيقة المتضوعة بعرف العقيقة) (9) . وقد طبعت العقيقة وترجمت الى اللغة الفرنسية (10) وتقع فى 303 بيتا ، وتتضمن كثيرا من المحسنات البديعة والتفنن فى أوجه البلاغة رغم انها مكتوبة بالشعر الملحون .

ومن هذا النوع رحلة محمد بن مسائب الشعرية أيضا خلال القرن الثاني عشر للهجرة . وقد سجل فيها مراحل تنقلاته من مدينة تلمسان الى مكة المكرمة . ووصف فيها عواطفه نحو الرسول . كما وصف الاماكن التي مر بها سواء المؤدية الى الحجاز أو داخل الجزيرة العربية نفسهـا وهي أيضا من الشعر الملحون الذي اشتهر به ابن مسائب ، وتناول بـه موضوعات عديدة أخرى ، غير الدين والحج . وقد قام المرحوم محمد بن أبي شنب بنشر النص العربي وترجمته الى الفرنسية لهذه الرحلة (11). وبهذا الصدد نذكر أن هناك شاعرين آخرين من تلمسان اشتهرا أيضا بنظم الرحلات الشعرية بالملحون وهما ابن التريكي والزناقي وكلاهما معاصر لابن مسائب (12) .

ويمكن أن ندخل فى هذا الباب كل القصائد المديحية التي يتوجه بها أصحابها الى الرسول والديار الشريفة حتى ولو لم يزرها أصحابها ، أو

زاروها قبل أو بعد قرض هذا الشعر . وفى هذا الصدد نظم الشيخ عبد الكريم بن الفكون ، الذي زار الحجاز مرارا كأمير لركب الحجاج الجزائريين ، ديوانا كاملا فى المديح النبوي رتبه على حروف المعجم ، وكان ذلك سنة 1031 هـ . وقد تحدث الرحالة المغربي أبو سالم العياشي فى رحلته عن هذا الديوان وعن صاحبه (13) . وجاء فى رحلة ابن عمار الجزائري التي سنتحدث عنها (14) ان الشاعر المفتي ابن علي والعالم أحمد المانجلاني يعتبران طراز وحدهما فى المدائح النبوية ولا يستوي معهما فى ذلك سوى البوصيري . وابن عمار نفسه كان من هذه الطائفة كما تشهد القصائد والموشحات التي أوردها لنفسه فى رحلته (15) .

غير ان هذا النوع لا يدخل فى صميم الرحلات التي نحن بصدد الحديث عنها ، ذلك ان الذي يهمنا هنا بالدرجة الاولى هو الرحلات الحجازية المصطلح عليها والتي ينتقل صاحبها بدنيا لا روحيا أو خياليا من موطنه الى الحجاز وغيره من مناطق الجزيرة العربية ثم يصف لنا الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية فى مزاره أو يكتفي بوصف بعض المظاهر من ذلك . ومن المصطلح عليه أيضا أن تكون هذه الرحلات نثرية ، يتحدث فيها أصحابها عن مشاهداتهم وملاحظاتهم بلغة واقعية أو قريبة من الواقع .

ولا يوجد من هذا النوع الا عدد قليل ، كما أشرنا ، من الرحلات الجزائرية الحجازية ولسوء الحظ انها على قلتها لا تكاد توجد كاملة مخطوطة ، فما بالك بها مطبوعة . وسنعرف انه لا يوجد من الرحلات الجزائرية الكاملة والمطبوعة سوى رحلة الورتلاني . ولكن قبل التعرض لها نذكر الرحلات الاخرى معلقين عليهما بما يناسب أو يساعد المهتمين على الاستفادة منها . وسنحاول ترتيبها زمنيا .

رحلـة البونـي :

وصاحبها هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (نسبة الى بونـة المعروفة اليوم باسم عنابة بالجزائر) ولد بعنابة سنة 1063 وتوفي بهـا أيضا سنة 1139 . وله تآليف عديدة ذكرها فى اجازته (16) . ويعتبر فى الجزائر من أهل الرأي والصلاح بالاضافة الى العلم خلال القرن الثامن عشر الميلادي ولا نريد الآن أن نترجم له لأن ذلك يخرجنا عن نطاقنا ، وكل ما نريده هو رحلته . فمن المعروف أن له رحلة حجازية سماهـا (الروضة الشهية فى الرحلة الحجازية) . وقد ذكر ولده المعروف بأحمد الزروق البوني أنه ذكر فيها شيوخه ونصح هو القارىء بقراءتها بقوله « فعليك به (يعني التأليف) فان فيه طرفا وظرفا » وتعتبر هذه الرحلة مفقودة اليوم (17) . والذي لا شك فيه هو أن البوني قد حج وتجول فى المشرق كما نعرف ذلك من مصادر أخرى . كما أنه لم يكتف فيها بذكر شيوخه المكيين والمدنيين ، بل لا بد أن يكون قد وصف فيهـا الحياة وأنماطها هناك كما شاهدها بنفسه . ولكن يد الضياع قد حرمتنا الآن من معرفة ما احتوت عليه بالضبط .

رحلـة ابن حمادوش :

لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري رحلة تسمى (لسان المقال فى النبأ عن النسب والحسب والآل) ، وهي فى عدة أجزاء . ولكن الموجود منها حتى الآن هو الجزء الثاني ، وهو بدوره مبتور . وكان ابن حمادوش قد أدى فريضة الحج سنة 1125 هـ ثم كرر ذلك ولكن الجزء الذي عثرنا عليه من رحلته لا يعرض لحياة الجزيرة العربية ، بل يعرض الى حياة المغرب الأقصى ، فرحلته من هذه الناحية ليست حجازية ، ولكن ابن حمادوش الذي اشتهر بتسجيل دقائق الامور وصغيراتها فى الجزء الثاني لا نخاله الا أن يكون قد سجل تفاصيل كثيرة عن أوضاع الجزيرة العربية أثناء حجاته ، ولكن أين بقية أجزاء الرحلة ؟ ان ذلك

ما يزال فى عالم الغيب فابن حمادوش الذي ولد سنة 1107 وتوفي كما قيل على أكثر من تسعين سنة لا يسكنه الا أن يكون قد أكمل رحلته (18) .

رحلة ابن عمار :

وهناك رحلة أخرى كتبها مفتي المالكية فى وقته أحمد بن عمار الجزائري ولا نعرف الآن متى ولد ولا متى توفي ابن عمار . ويغلب على الظن أن وفاته كانت فى العقد الأول من القرن الثاني عشر ، ومن الأكيد أن ابن عمار قد حج البيت فى سنة 1166 وأنه قد جاور بمكة مدة طويلة وصلت به الى سنة 1172 . وهذه الاقامة الطويلة فى الجزيرة العربية قد جعلته يتعرف على أمور كثيرة لا يهتدي اليها الحجاج العاديون .

وقد كان ابن عمار شاعرا فحلا وناثرا مجيدا حتى لقد اشتهر بين معاصريه بأنه محي طريقة الفتح ابن خاقان ولسان الدين بن الخطيب(19) وكان مفتيا صاحب رأي واجتهاد فى الدين والاجتماع . وله تآليف أهمها (لواء النصر فى فضلاء العصر) الذي ترجم فيه . كما أخبر بنفسه . لعلماء القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر (20) . ولكن ابن عمار اشتهر برحلته المسماة (نحلة اللبيب فى أخبار الرحلة الى الحبيب) .

قسم ابن عمار رحلته الى ثلاثة أقسام : القسم الأول جعل عنوانه مقدمة ويبدو أنه كان يريد أن يجعل من هذا القسم خزانة أدب يجمع فيها النوادر والأشعار والأخبار المتفرقة عن مولد الرسول والأشواق الى البقاع الطاهرة . لذلك أظهر فى المقدمة محفوظه ومختاراته من الشعر والنثر حتى لقد بلغت المقدمة وحدها حين طبعت 254 صفحة من الحجم المتوسط . وهذا القسم هو الموجود الآن من رحلة ابن عمار . وقد تحدث فيه عن الداعي الى تأليف الرحلة وسبب تسميتها « بنحلة اللبيب »

وبين ضرورة الحج شرعا مستشهدا على ذلك بالآيات والأحاديث ومأثور القول شعرا ونثرا . وعبر فى المقدمة أيضا عن عزمه على الحج أوائل سنة 1166 وعن شوقه الحارق الى الحجاز وعن تأزمه الروحي عند استحضار الذكريات التاريخية . ولكنه بدل أن يستمر فى رحلته ماديا وروحيا نحو الغرض الأساسي وهو أداء الفريضة ووصف المنازل والديار والأصدقاء والأساتذة ، كما فعل الرحالة الآخرون ، عمد ابن عمار الى الاستطراد فملأ المقدمة بأخبار الاحتفال بالمولد النبوي فى الجزائر قديما وحديثا وعادة الأندلسيين فى ذلك أيضا ثم ترجم لعدد من الأدباء والشعراء من أهل بلاده وغيرهم ، وأخيرا جاء بقطع شعرية من مختلف شعراء المشرق والمغرب فى الورد والنرجس والخمر ونحو ذلك . ولكن هذا القسم ينتهي فجأة ، وبذلك لا ندري كيف كان ابن عمار سيعود الى الربط بين هذه المقدمة وموضوعه الأساسي وهو الرحلة الى الحبيب .

ومهما يكن الامر فان القسم الثاني الذي سماه « الغرض المقصود » والقسم الثالث الذي سماه « خاتمة » مفقودان الآن . ولا شك أن القسم الثاني هو أساس الرحلة وهدفها والمؤلف نفسه يذكر بأنه تناول فيه « ما يحدثه السفر الى الاياب وحط الرحال » ومعنى هذا أنه قد خصصه لكل ما حدث له أثناء الرحلة ، وما دام المؤلف قد جعل « المقدمة » فى الحجم الذي ذكرناه فمن المفروض أن يكون (الغرض المقصود) فى حجم أكبر ان لم يكن مضاعفا . ولا شك فى أنه قد جعل هذا القسم فصولا أو أبوابا أو نحو ذلك من أنواع التقسيم التقليدية غير أنه ما دام لم يصل الينا فمن الصعب علينا أن نتحدث عن محتواه وقيمته التاريخية والأدبية . أما القسم الثالث (أو الخاتمة) فقد خصصه للحديث عما (نشأ عن ذلك (يعني السفر) بعد السكون وما انضم اليه) (21) . ويبدو أن ابن عمار قد أطال الحديث فى الخاتمة أيضا على غرار ما فعل مع المقدمة . فهو ولوع بالاستطراد كما لاحظنا .

ويغلب على الظن أن ابن عمار قد انتهى من كتابة رحلته . ذلك أنه قد عاش مدة طويلة (أكثر من ثلاثين سنة) بعد الحجة المذكورة وبعد أن جاور بالحرمين ما يقرب من اثنى عشر سنة وقد أورد معاصره أبو راس الناصري ما يفيد بأن ابن عمار قد انتهى من رحلته ، كما يفيد كلامه عنه أنه قد اشتهر بهذه الرحلة حتى أصبح اسمه لا يذكر الا ملتصقا بها . وقد مر أبو راس بمدينة الجزائر وهو فى طريقه الى الحج سنة 1204 وسجل فى مذكراته أنه قد التقى فيها بعالمها أحمد بن عمار (مؤلف الرحلة) ولا ريب أن أبا راس لا يمكن أن يقول العبارة المذكورة لو لم يكن ابن عمار قد انتهى منها وعرف بها (22) . ومن جهة أخرى ذكر ناشر (المقدمة) الرحلة التي تحدثنا عنها أن الاحتمال قوى فى أن يكون ابن عمار قد أكمل رحلته وأن نسخها (توجد كاملة بالحرمين الشريفين والقاهرة وتونس لأن مؤلفه أقام فى كل منها عدة سنين) (23).

رحلة ابي راس الناصر :

من العلماء الجزائريين الذين أكثروا من الترحال والكتابة أبو راس الناصر وقد كنا تناولنا حياته وبعض آثاره . ولا سيما التاريخية . فى مناسبة أخرى وحسبنا أن نقول الآن أنه من أهل القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الهجريين . وكان أبو راس قد حج مرتين على الأقل ، الأولى سنة 1204 والثانية سنة 1226 . ويهمنا من تآليفه الكثيرة رحلته التي أطلق عليها عدة أسماء منها (عدتي ونحلتي فى تعداد رحلتي) ومنها (فتح الآله ومنته فى التحدث بفضل ربي ونعمته) . ومهما كان اسم هذه الرحلة فان صاحبها قد ضمنها أخبار من لقيه وأخبار شيوخه بالمشرق والمغرب ، ولعله قد ضمنها أيضا حديثا عن مشاهداته ومعايشاته فى الجزيرة العربية . ونحن نقول (لعل) لأننا كنا اطلعنا على هذه الرحلة مخطوطة فى المغرب الاقصى (24) وأخذنا منها ، أثناء زيارة

قصيرة ، ما يتعلق بالجزائر ، ولكننا غير واثقين الآن من محتواهـا المتعلق بالجزيرة العربية وأخبار الحج عامة ، لبعـدها عنـا فى الوقت الراهن .

واقتداء بابن رشيد والخطيب ابن مرزوق والعياشي والدرعي ، رحل أبو راس الناصر الى الحجاز قاصدا الحج ، عازما على أن يكتب مثلهم رحلة يسجل فيها مشاهداته وانطباعاته وأخباره ، ولكن ما وجدناه من رحلته لا ينطبق عليه ما عزم هو على تحقيقه . وهو فى (فتح الاله) كان متأثرا بالسيوطي أكثر من تأثره بالعياشي ، كما صرح هو بذلك عند تبريره تسمية كتابه (25) . ويبدو أن أبا راس كان مهتما بالحديث عن العـلماء الذين كانوا يجادلونه ويجادلهم ويجيزونه ويجيزهم أكثر من اهتمامه بالمعاهد والديار ، والمشاهدات والاخبار ، كما فعل العيـاشي والدرعي أو الورتلاني ، ولذلك لاحظ بعضهم أن رحـلة أبي راس لا تتحدث عن البلدان وانما تتحدث عن الشيوخ الذين درس عليهم أو الذين لقيهم صاحبها ، فهي بناء على رأي هذا الباحث غير مهمة (26).

وهذا الاهتمام يظهر فى تقسيم أبي راس للرحلة ، فقد جعلها خمسة أبواب ، فتحدث فى الباب الاول عن ابتداء أمره ، كما قال ، ويعني به طفولته وشبابه ، وتعلمه وتدربه ، وزواجه وأهله ويعنينا منه هنا حديثه فيه عن حجاته ، وفى الباب الثاني عدد شيوخه سواء فى الجزائر وبلدان المغرب العربي الأخرى أو المشرق ، بما فى ذلك شيوخه فى الحجاز ، وقد خصص الباب الثالث للحديث عن رحلته الى المشرق وغيره ، وتناول الباب الرابع أجوبة على مسائل عرضت عليه أو وردت اليه من مختلف البلدان ، أما الباب الأخير فقد خصصه للحديث عن تآليفه .

وقد سلك أبو راس طريق الحج العادي ، فيما يبدو ، غير أنه قد ذهب بحـرا خـلافا لمواطنه الورتلاني . ومن مصر ركب الى ينبـع

ومنها الى مكة المكرمة فالمدينة المنورة ، ويبدو أن هذا هو طريقه فى كلتا الحجتين .. وقد سجل فى حجته الثانية (1226 — 1227) انه التقى فى مكـــة بالعلماء الوهابيين ، دون أن يذكر واحدا منهم بالاسم وقال انه تناظر معهم وعقب على ذلك بقوله « ظني انهم حنابلة المذهب » ثم أضاف قوله « علمت انهم خارجون عن المذاهب الاربعة فى الفروع وأما العقائد فهم على ما عليه الامام أحمد » . كما انه التقى بعلماء المدينة . وسجل أنه سئل فى مكـــة عن أصل كل علم وسبب تدوينه . وفى المدينة عن العقائد . ولو كانت رحلة أبي راس قريبة منا لعدنا اليها . واستفدنا منها أخباره عن الجزيرة العربية وأهلها وظروفها وعلمائهـــا وحوادثها ولكن قاتل الله البعد . بالاضافة الى ذلك فالرحلة ما تزال مخطوطة ولا نعرف أحدا تناولها بالنشر باستثناء الدراسة التي كتبهـــا حولها الجنرال فور بيقي المشار اليه وهو قد أخذ منها ما يتعلق بحياة أبي راس ولم يدرس محتواها العام (27) .

رحلـــة الورتـــلانـــي :

أخرنا الحديث عن رحلة الورتلاني رغم أن مكانها فى الترتيب الزمني . قبل رحلة أبي راس ، لعدة أسباب . منها انها الوحيدة المطبوعة فى شكلها الكامل ، خلافا لرحلة ابن عمار التي لم يطبع منها سوى مقدمتها كما عرفنا ، ومنها أيضا انها الوحيدة فيما وصل الينا . التي تتحدث باسهاب عن أحوال الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر الميلادي (12 هـ) . ولهذه الاعتبارات وغيرها أردنا أن نقف عندها وقفة أطول مما سبقها .

ولد الحسين بن محمد السعيد الورتلاني (نسبة الى بني ورتلان بالجزائر) فى الجزائر سنة 1125 هـ وتوفي بها أيضا سنة 1193 هـ . وهو من أسرة مرابطين (أهل الطرق) تدعى الشرف . وقد تثقف فى وطنه ثقافة عصره واختلف الى الزوايا الموجودة بمنطقته . وكان يكثر من الزيارات وأخذ طريق القوم . الى أن أصبح هو مرابطا (شيخ

الطريقة الشاذلية) وأصبح الناس ينظرون اليه نظرة احترام واجلال حسب مفاهيم ذلك الوقت ، وقد تزوج عدة مرات وأنجب أولادا ، غير انه كان فقيرا ويعيش عيشة تقشف وزهد . وحج الورتلاني ثلاث مرات على الاقل ، الاولى كانت سنة 1153 هـ والثانية سنة 1166 هـ . والثالثة 1179 هـ . ويبدو انه كان يجمع أخبار الحجاز فى كل مرة ، غير أن الحجة الاخيرة هي التي حملته على كتابة رحلته التي سنتحدث عنها . وفى الحجات الثلاث أيضا كان يتوقف فى مدن وزوايا وطنه ويزور ويأخذ الطريقة والعلم على مشائخها ، وعلمائها . كما فعل نفس الشيء فى تونس ومصر والحجاز ، وقد سجل ذلك فى رحلته .

ولم يكتب الورتلاني رحلته بيده ولكنه أملاها املاءا على تلاميذه ، كما جرت عادة المشائخ عندئذ ولذلك تعددت نسخها وكثر فيها الخطأ ، كما افتقرت الى المنهج القويم ، وامتلأت بالاستطرادات والتكرار .

حقا ان هناك ما يدل على انه كان يكتب مذكرات أثناء الحج لكي يستعملها فى الرحلة بعد عودته ، ولكنه يخبر عن نفسه انه قد أضاع دفتره وهو فى الطريق كما أخبر انه قد أملى جزءا على أحد علماء جزيرة جربة وانه كان يغتنم فرصة استراحة القافلة ويجلس للكتابة ، غير أن الظاهر أن ذلك كان مجرد كتابة مذكرات وملاحظات من وحي المناسبة ، ومهما يكن الامر فانه قد ذكر منذ البداية انه بعد زيارة آثار الرسول الاعظم وأداء مناسك الحج والتعرف على (الرباع والقفار والديار والمناطق والمياه والبساتين والارياف والقرى والمزارع والامصار والعلماء والفضلاء والنجباء والادباء من كل مكان ... أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي ، فانها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الاخبار ...) (28) .

وقد اعتمد الورتلاني فى رحلته على مصادر كثيرة بعضها يتعلق بالجزائر والمغرب العربي عموما (29) وبعضها يتعلق بالمشرق ، ولاسيما الجزيرة

العربية وتهمنا الآن مصادره الثانية وأهمها ، بعد المشاهدة الشخصية ، رحلة العياشي ورحلة الدرعي ، والسمهودي ، والمقريزي ، وابن فرحون ، والبكري والعبدري ، والسيوطي ، وابن رشيد . وكان الورتلاني كثيرا ما يعتمد كليا على هذه المصادر حتى انه كان ينقل منها نقلا حرفيا طويلا تارة منسوبا الى صاحبه وتارة غير منسوب . وأكثر ما يكون ذلك فى وصف جبال الجزيرة العربية ، ووديانها ، وطرقها ، ومدنها ، وآثارها ، وعادات أهلها ، وآبارها ، ومياهها ، ومساجدها ، وأخبارها ، كما سنعرف . وكان جل اعتماده من هذه المصادر على الرحلتين الاوليين .

الورتلاني وامـراء مكـة :

حكم الورتلاني حكما قاسيا على النظام السياسي فى الجزيرة العربية فى وقته ، وقال أن الاوضاع فيها كانت تسير من سيء الى أسوأ حتى أن الحج كاد يسقط فى نظره أمام تلك الاوضاع . فقد أدى فريضة الحج الاولى فى عهد الامير مسعود بن سعيد الذي توفي سنة 1165 هـ (30) . أما حجتاه الثانية والثالثة فقد كانتا فى عهد الامير مساعد بن سعيد ، أخ مسعود المذكور ، الذي توفي سنة 1183 هـ ، ويلاحظ أن الامور قد ساءت كثيرا بين الحجة الاولى والثالثة ، ذلك أن الظلم قد كثر وانتشر الاعتداء ، ولم يعد المرء آمنا على نفسه فى الحجاز . ولم يكن الامر مقصورا على ظلم الناس بعضهم لبعض بل أصبح يصدر عن الولاة أيضا . وبعد أن قارن الورتلاني بين عهد الامير مسعود والامير مساعد قال : (وهذا كله يرشد الى أن الزمان قد زاد فى الظلم والتعدي) مضيفا بأن الحج كاد أن يكون ساقطا من ظلم الولاة وأصحابهم (31) .

ولم يكن هذا التدهور قد أصاب الاوضاع السياسية فحسب بل تجاوزها فى نظر الورتلاني الى الاوضاع الدينية أيضا . فقد ذكر أنه رأى فى خليص مسجدا ينسب الى الرسول (قد تهدم وامتلأ أوساخا وصار اصطبلا للدواب) ، وعلق على ذلك تعليقا قويا مستنتجا بأنه يدل على

ضعف الاهتمام بالدين وعلى همود الوازع الخير لدى الولاة عندئذ ، فقال : (لقد ضعف الدين ، وقلت الرغبة فى الخير حتى يكون بهذه المثابة المكان الذي دخله سيد الاولين والآخرين) (32) • ولم يسعه هو الا أن ينبه أمير الركب المصري الذي وعده باصلاح المسجد •

وروى الورتلاني قصة دخوله على أمير مكة عندئذ فى داره ويسميه (السلطان) مساعد ، ذلك أن اللصوص قد أغاروا على ابل للركب الجزائري فأوفد الحجاج الورتلاني الذي كان من أهل العلم والصلاح كما عرفنا ، وجماعة آخرين ليخاطبوا الامير فى ذلك الامر . وقال الورتلاني ان الامير قد أذن له وحده بالدخول أما زملاؤه فقد ظلوا بالباب ينتظرون عودته • فدخل على الامير وقبل كتفه فقبل الامير كتفه أيضا . وسأله حاجته فأجابه عنها ، وذكره الورتلاني بالحديث الشريف (كلكم راع •••) فأكمل الامير الحديث ، حسب رواية الورتلاني • وقال ان الامير قد سر به لما (علم اني صاحب علم) • واعتذر له ووعده برد الابل المسروقة • ونقل الورتلاني عن الامير قوله : (ما ضيع الأحكام الا الأشراف فان أمرهم قد قوي علي وعلى غيري . أو كلاما هذا معناه) (33) • ويبرهن هذا على أن الامير كان يشكو خروج الامر عن يده ، وان السيطرة على الموقف كانت صعبة • ومهما كان الامر فان الامير قد سأل الورتلاني عن وطنه ونسبه ، وودعه بحرارة وسأله الدعاء له ولذريته •

الامـــن العـــام :

ويكاد يطغى على رحلة الورتلاني موضوع واحد هو الامن العام . ذلك انه كلما تحدث عن قافلة أشار الى اللصوص الذين كانوا يتربصون بها أو أخبار الاعتداءات التي وقعت على القوافل السابقة وهكذا • ولم يكن الحاج ، حسب أخباره آمنا على نفسه فى الطريق فسواء كان رحيله بالليل أو بالنهار فى جماعة أو مفردا فى الخلاء أو وسط العمران فهو معرض للاعتداء أو السرقة ونحو ذلك من أنواع الخوف وعدم

الاطمئنان ، مما أثر على معنويات الحاج وجعل الحج نفسه يكاد يكون ساقطا حسب تعبيره ، كما اشتكى الورتلاني من شيوع الرشوة والفساد بين الشيالين ، كما يسميهم ، وهم الذين كانوا يرشون الحكام الظالمين ويشتكون اليهم . والضحية فى ذلك هو الحاج . وهناك أخبار كثيرة رواها الورتلاني عن هذه الامور نكتفي بايراد بعضها .

ومن ذلك انه روى أن الحجاج فى وقته لم يعودوا ينزلون الى المحصب طبقا للسنة (لكثرة الاذاية والخوف من اللصوص) . وقد زاد الفساد والظلم والتعدي من الأشراف وغيرهم من أصحابهم فلا يكادون يرجعون عن التعدي . وأضاف بأنهم يقتلون الانسان على أتفه شيء وقد قتلوا صاحب صديقه سيدي محمد بن قسوم الريغي على شربه الماء (34) .

وعندما كانوا فى منى قال ان الحجاج تحملوا متاعب كثيرة من أجل أن يتقوا شر اللصوص والاعتداء فقد نزلوا بالقرب من جبل ثبير تقية من اذى السراق حيث يستجير الناس بعضهم ببعض (... ولا يبالون فى ذلك وطء الأقدام أو تقطيع الحبال ، وكثرة الزحام وتعفن الأرجـاء واستنشاق الروائح الكريهة ..) غير انه لاحظ انه هو وأصحابه لم يتحملوا هذه المضار قائلا وكذلك فعلنا فى كل ما مضى من الحجات (35).

وبالقرب من عسفان كانوا يمشون (متقلدين بالحديد نحو الاثنتي عشر بندقية) ورأوا هناك جموعا من العرب أصابهم منها خوف شديد لأنهم لا يغادرون أحدا الا قتلوه وأخذوا ماله ، وذلك معلوم ضرورة (36) . وقد سيطر عليه الخوف عدة مرات ، أحيانا على نفسه وأحيانا على ولده وعياله الذين كانوا معه . فعند خروجهم من المدينة سمع الناس يقولون لهم (ان العرب يضرونكم ويؤذونكم) وقد خاف على نفسه لأنه تخلف عن الركب ، كما أصابه الخوف فى أبيار علي التي قال عنها انهم خرجوا منها (مع الخوف والحرامية يتبعون وراءنا الى أن وصلنا الى الركب)(37). وفى الطريق وصف موضعا آخر لم يحدده ، فقال عنه (تكثر فيه فساق

العرب ومحاربوهم قل أن يخرج الركب سالمين منه) (38) . وفى المدينة أيضا خاف على ولده محمــد الذي تخلف وراءهم من أن يأخــذه اللصوص (39) .

ولكن خوف الورتلاني لم يكن دائما فى محله . فالى جانب الشر الذي كان يصفه هناك الخير الذي كان يظهر من وقت الى آخر . وقد ذكر بعد الخوف الذي أصابهم فى عسفــان ، أن رجلا قد انفصل عن الأعراب وجاء الى الركب وأنذرهم بأن الأعراب يستعدون لشرهم ، فكان هذا رجلا صالحا فى نظر الورتلاني (40) . وهناك حادثة أخرى يظهر فيها الخير أيضا . فقد روي انهم مرة أوشكوا على الهلاك عطشا بالقرب من النبط فاذا بعربي (لقينا بقربة من الماء فأسقى جميعنا) فوجدوه ماء حلوا كالعسل حسب تعبير الورتلاني وظنوا أن الرجل لا يريد الا النقود ، فاذا به لا يتكلم أبدا ولم يطلب دراهم كما هي عادة أهل الحجاز ، بل أخذ قربته وغاب فوقع فى قلوبهم انه رجل من أهل الله (41) .

ولا يمكن أن تتهم الورتلاني بالتحامل . ذلك انه بقدر ما كان قاسيا على أهل الحجاز أحيانا كان قاسيا أيضا على المصريين والتونسيين ، بل حتى على أهل بلاده ، فقد جاء فى الرحلة عن الركب الجزائري فى الحجاز قوله (أهل وطننا فيهم الغلظة والجفاء وسوء الادب ، وعدم اذعانهم للحكم) ، وفى مكان آخر قال عنهم (وأما الركب الجزائري فلا حكم عندهم أصلا ، ولا يتفقون عند الامر والنهي) (42) وكرر هذا المعنى فى عدة مناسبات (43) وبلغ به الأمر ذات مرة انه انفصل عن ركب أهل بلاده غاضبا وانضم الى الركب المصري . لذلك فاننا نعزو ملاحظــات الورتلاني المتعلقة بالأمن والفساد فى الحجاز وغيره الى ضميره الخير الذي كان لا يرضى على رؤية الاعوجاج فى الطبيعة الانسانية . ولاشك أن دافعه فى ذلك حب الخير والصلاح ، فهو كما عرفنا من أهل العلــم وأهل الطريق ، وكان عمره أثناء الحجة أربعا وخمسين سنة .

وصفه المدن والقرى ونحوهـا :

وقد احتل وصف المدن والقرى والآبار ونحو ذلك مكانا بارزا فى رحلة الورتلاني وكانت بعض أخبار هذه الامور منقولة عن مصادر أخرى ، وبعضها من مشاهداته الخاصة . وسنحاول هنا أن نذكر نماذج من القسم الاخير ، ذلك اننا نود أن نعرف رأي الورتلاني الشخصي فى الموضوع . أما نقوله فرغم أنها تعبر عن مواقفه وهواه ، فانها لا تدل على نفس الحرارة التي يحدثها الحكم الشخصي .

فعن (سبع وعرات) قال انها أول بلاد الحجاز بالعمارة (وأن الحجاج قد استبشروا بوصولهم اليها لأنها آخر موضع وصله الرسول . ولأن أخبار المدينة توجد فيها) . ووصفها بأنها (روضة من رياض الله تعالى تصلح للمنقطعة وللغرباء والمساكين) وانها مرسى هام يمثل مفترق الطرق بين المشرق والمغرب وأن فيه أسواقا نافقة وفواكه عديدة ، وأهم من ذلك قال عنها ان فيها (قرى كثيرة ومزارع ونخل وعيون جارية) (44) .

وتحدث أيضا عن كل من بدر ورابغ وقال عن الاولى بأنها (قرية عظيمة طيبة روضة من رياض البلدان) وربط بينها وبين ما وقع فيها من انتصارات تاريخية . مضيفا بأن الرسول كأنه ما يزال فيها وأن العارفين بالله تنفتح أمامهم هناك الأسرار وتهبط الأنوار . أما فى وقته فقد كانت بدر ذات مياه غزيرة تكفي خلقا كثيرا وفيها بساتين ونخل ، كما كانت النيران توقد فيها بكثرة ، وأكد انه سمع فيها أثناء حجاته الثلاث صوت الطبل الذي وقع به النصر للرسول ، وانه لا يسمعه الا من خصه الله بتلك المزية العظمى ، وقد رد الورتلاني على من يرى غير ذلك ، واعتبر هو ذلك الصوت من معجزات الرسول الباقية (45) .

أما عن رابغ التي أحرموا منها ، فقد وصفها بأنها (قرية عظيمة كثيرة المزارع والمقاثي والنخل والمياه وسوقها عظيمة (46) . ووصف الورتلاني أيضا قديدا وعقبة السكر ، وخليصا ، وعسفان ، ووادي فاطمة ، والتنعيم

الخ .. ولا نريد أن نأتي على كل ذلك ، وحسبنا أن نشير الى أن قديدا لا ماء فيها الا ما يجلب اليها من بعيد (47) . وقال عن عقبة السكـــر أن (الانسان يغيب عن حسه) فيها لقربها من مكة . ويكثر الماء فى خليص وفرة عظيمة وقال ان فيها بركة ماء كبيرة يغرق فيها من لا يحسن السباحة ومنها تخرج السواقي للأرض المحروثة (48) ووصف ماء عسفان بأنه عذب ولكنه ساخن (49) . وقال عن وادي فاطمة بأنه (نهاية سير البوادي) كما وصفه بكثرة المياه والبساتين .

ويطول بنا الحديث لو ذكرنا كل ما جاء فى الرحلة من أخبار عن مكة والمدينة ولكننا أشرنا من قبل الى أن الورتلاني قد نقل أغلب أخباره عن تقاليد أهل هذين الموضعين الشريفين من غيره . ولا نرى داعيا لنسبة تلك الاخبار اليه هو ما دام لا يسجل فيها عواطفه وأحكامه الخاصة غير أن هناك أمورا قد وقعت له هو فى كلتيهما ، من ذلك ما ذكره من أنه كان يعلم بعض أهل بلاده مناسك الحج ويطيف بهم فلما رأى أهل مكة ذلك اعترضوا عليه وقالوا له (ألم تعلم ان أهل مكة لا ينتظرون الا هذا الموسم طف لنفسك واترك الناس) ، وبعد المفاوضات اتفقوا على أن يستمر هو على ما كان فيه ويأخذوا هم الأجرة من الحجاج (50) . ولاحظ أيضا انهم عند دخولهم مكة أخذوا الثنية العليا التي دخل منها الرسول . وذكر أن الولاة قد بالغوا فى حفر هذه الثنية وفى تنقيتها حتى صـــارت كأحـــد الأزقـــة (51) .

وفى المدينة ، عدد المشاهد والآثار والآبار وغيرها التي كانت فى نظره جديرة بالزيارة وأضاف انه كان قد زار المدينة ثلاث مرات ، ولكنه لضيق الوقت (لم يستطع أن يؤدي حق الزيارة لكل منها لأن المسافر فى نظره لا يمكنه تنظيم الزيارات وهو على سفر (52) . لذلك عزم على المجاورة فيها ، غير أن زوجه المريضة والحاح الركب عليه بالعودة معهم وقولهم له بأنهم سيبقون أيضا اذا بقي وعرضهم المال عليه اذا كان فى حاجـة

الى مال كل ذلك جعله يغير رأيه ويفارقها رغما عنه (53) . ذلك أن المدينة قد ارتبطت بها نفسه الزاهدة منذ كان فى خليص ، فقد شاهدوا من هناك أنوارا من جهة المدينة فتأكدوا وانه نور الرسول وأنه لا يمكن أن يكون فى نظره برقا لأن البروق تغير مكانها ولأن الليلة كانت صحوا . وهكذا اندفع الرجال فى التلبية والذكر واندفعت النساء فى الزغاريد (54) . وقد أكد هذا المعنى عندما قال انه شاهد أنوار الرسول من المدينة عندما كانوا فى بدر ونفى أيضا أن تكون تلك الانوار بروقا (55) .

الحيــاة العلميــة :

أما الحياة العلمية فقد اهتم بها الورتلاني أيضا ، ولكنه لم يسجــل أخبارها بنفس التفصيل الذي سجل به مثلا تقاليد وعادات أهل مكــة والمدينة ، أو أحوال المدن والقرى والمياه والطرق لتي مروا بها ، والغريب انه كان فى مصر يذكر العلماء الذين أخذ عنهم الطريق أو درس عليهم أو أجازوه أو تناقش معهم فى مسائل علمية كثيرة ، ولكنه بالنسبة الى الجزيرة العربية لم يذكر من ذلك الا القليل بل لا نكاد نجد له شيئا من ذلك . حقا انه نقل عن الدرعي والعياشي عددا من أسماء العلماء وسيرهم وبعض أخبارهم فى كل من مكة والمدينة ، وعندما وصل الى دوره هو أجــاب اجابة اجمالية لا تفيد الباحثين كثيرا . فقد قال بعد أن نقل أخبار العلماء والمفتيين الذين لقيهم الدرعي فى مكــة وأما من فيها (يعني مكــة) فقد لقيت كثيرا من الفضلاء الأجلة والبدور الأهلة (56) . هكذا بدون تحديد . فمن هم هؤلاء ؟ ذلك ما لا تفصح عنه الرحلة .

وقد التقى بأحد علماء البحرين أثناء ذهابه الى عرفات وروى ما دار بينهما فقال ان الرجل كان ضريرا وانه كان من فقهاء المالكية ، ووصفه بالعظمة فى الفقه وانه كان يحفظ أكثر الشراح ، وان مسائل الفقه كلهــا على طرف لسانه . ويبدو أن ما عدا الحجاز فى نظر الورتلاني هو جزيرة العرب ، فقد قال ان الرجل (وهو لم يذكره بالاسم) كان من جزيرة

العرب ، ثم وضح فقال (أي من البحرين) وقد سأله الورتلاني عن أهل البحرين فقال الرجل ان أكثرهم مالكيون (57) . وقد اتفق معه على اللقاء فى المسجد الحرام ، ولكن الورتلاني لم يعد الى الموضوع فى الرحلة ولا ندري ماذا دار بينهما ان كانا قد تلاقيا من جديد .

والظاهر أن الورتلاني كان مهتما بالمذاهب والملل . فهو كرجل مالكي المذهب ، حسني النسب ، حسب دعواه ، طرقي السلوك ، كان لا ينفك يبحث عن الأنساب ورجال الصلاح ، وأصحاب الكرامات والولايات ، وكان ذلك واضحا من حديثه عن هؤلاء فى بلاده وفى مصر وطرابلس والحجاز وغيرها . وكان ينقل الكثير من ذلك عن المصادر التي أشرنا اليها . وعندما مر هو ببدر قال عنها (قد توطنها الأشراف ونزلوا بها من قديم الزمان وفيها أهل السنة ، وكذا الزيدية ، أعني الخوارج الظاهرية ، وهم فى الاعتقاد قدرية) (58) .

أما فى المدينة فقد ربط علاقة ودية وعلمية مع أحد العلماء هناك ، وهو الشيخ السمان القرشي المدني فقد دخل عليه الورتلاني فى داره التي كانت بالبقيع ووجد عنده مجلسا من العلماء فأطعمه طعاما شهيا قال عنه الورتلاني انه لم يذق مثله من قبل . وكان للشيخ السمان « صلاة عظيمة تكاد أن تكون كصلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش » وقد طلب من الورتلاني وضع شرح على الصلاة المذكورة المنسوبة اليه ، فتواضع الورتلاني وقال انه ليس أهلا لشرحها ، ولكنه عندما تأكد من أن الشيخ قد « لاحظه بخاطره » لم يسعه الا القبول . وأخبر الورتلاني انه قام فعلا بهذه المهمة وأدعى انه قد جاء فيه بعلوم شتى وأن الله قد وفقه الى ذلك فهو الذي (فتح .. بعلوم لا تكاد توجد فى عصرنا) عند شرحها (59) . واذا أخذنا بالمثل القائل (الطيور على أشكالها تقع) فاننا لا نستغرب أن يلتقي الورتلاني بالشيخ السمان الذي يبدو وأنه كان من صنفه هو . فقد وصفه الورتلاني بأنه (الصفي الودود التقي ، ذي الاحوال الصادقة

والأنفاس الطيبة ، والأعمال الزكية والمواجد الالهية ، والمعارف الربانيه والعلوم الدينية ، صاحب الأوراد والمريدين (60) .

* * *

ويظهر بوضوح مما سبق أن الرحلات الجزائرية الحجازية ، على قلتها، وضياع بعضها ، تعتبر مصدرا هاما من مصادر تاريخ الجزيرة العربية . فالبحث عن الضائع منها ودرس الموجود وتقييمه واجب علمي فى هـــذه المرحلة من تطور الأمة العربية ونهضة العالم الاسلامي . وليس هذا البحث الذي قمنا به سوى بداية فى هذا الطريق الصعب .

الحـــــواشي

1 ـ انظر تفاصيل ذلك في كتابنا (تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 1970 .

2 ـ نعالج هذه النقطة في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) الذي هو بصدد الاعداد ، كما عالجناه باختصار في دراستنا عن ابن العنابي ، وأبي راس الناصر وابن حمادوش التي سياتي ذكرها .

3 ـ أنظر الدراسة التي كتبها السيد بيير بوايبه في مجلة (الغرب الاسلامي عن (السياسة الدينية للعثمانيين في الجزائر) .

4 ـ طبع الجزائر حوالي 1910 نشر محمد بن أبي شنب .

5 ـ ما زال مخطوطا وتوجد منه نسخة لدى الشيخ المهدي البوعبدلي ، وقد اهدى منها صورة مصورة الى المكتبة الوطنية الجزائرية .

6 ـ تناولناه في دراسة خاصة نشرت في (المجلة التاريخية المغربية) تونس عدد يناير 1977 .

7 ـ طبع الجزائر 1908 ، نشر محمد بن أبي شنب ، وسياتي الحديث عليها .

8 ـ أنظر دراستنا عن أبي راس الناصر في مجلة (تاريخ وحضارة المغرب) عدد 12 ، الجزائر 1974 ، وهو البحث الذي ساهمت به في ندوة عن عبد الرحمن الجبرتي ، القاهرة ، 1974 .

9 ـ وهو شرح أدبي بلاغي كبير رأيت نسخة منه في دار الكتب المصرية ولا يحضرني الآن رقمها .

10 ـ الجزائر ، 1901 قام بترجمتها ونشر نصها العربي والفرنسي الجنرال فور بيقي .

11 ـ النص العربي والفرنسي في المجلة الافريقية سنة 1900 ، 259 ـ 282 بعنوان (رحلة من تلمسان الى مكة) .

12 ـ جاء في كتاب (دليل مؤرخ المغرب) لابن سودة ، ص 482 ان عالما تلمسانيا من القرن 18 قد نظم رحلة حجازية همزية بداها من تازة بالمغرب الاقصى الى الحجاز فالشام ومطلعها :

ازمـــع الســـير ان دهـــت أدواء لشفيـــع الانام فهـــو الـــدواء

وفي المكتبة الوطنية الجزائرية قصيدة طويلة فصيحة تقع في أحد عشر ورقة نظمها الشيخ عبد الرحمن المجاجي ، وهي مفهرسة بعنوان (رحلة الى مكة) ولها أرقام عديدة منها 1264 .

13 ـ رحلة العياشي المعروفة (بماء الموائد) طبع فاس على الحجر .

14 ـ بعنوان (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة الى الحبيب) ، الجزائر ، 1902 .

15 ـ أنظر الدراسة التي كتبها بالفرنسية السيد الحاج صادق بعنوان (المولد النبوي) عند ابن عمار ، طبع المعهد الفرنسي بدمشق حوالى 1957 .

16 ـ له أجازة أجاز بها ابنه أحمد الزروق وأحد علماء قسنطينة ، وقد أطلعنا على نسخة مخطوطة منها فى احدى المكتبات الخاصة بالجزائر وقد ذكر فيها على الاقل عشرين شيخا من شيوخه .

17 ـ أنظر مخطوط رقم 2160 بالمكتبة الوطنية الجزائرية .

18 ـ تناولت حياة ابن حمادوش ورحلته فى دراسة قدمتها الى المؤتمر الاول لتاريخ وحضارة المغرب المنعقد بتونس (ديسمبر 1974) ، وقد نشرت هذه الدراسة (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق) (عدد أبريل 1975) ثم نقلتها عنها مجلة (الاصالة الجزائرية عدد أكتوبر 1976) .

19 ـ أنظر دراسة الحاج صادق المشار اليها ، وكذلك (فهرس الفهارس) ص 83 للكتاني .

20 ـ يقول الكتاني أن ابن عمار قد ترجم فى هذا الكتاب الى حوالي مائتي عالم ، نفس المصدر .

21 ـ ابن عمار ، نحلة اللبيب ، ص 4 .

22 ـ الجنرال فور ـ بيقي ، عن فتح الاله (المجلة الآسيوية) 1899 .

23 ـ النحلة ، ص 254 .

24 ـ كان ذلك فى صيف 1973 .

25 ـ للسيوطي كتاب يحمل عنوانا شبيها بالعنوان الذي اختاره إبو راس ، أنظر دراستنا عن هذا الاخير .

26 ـ الجنرال فور ـ بيقي ، (المجلة الاسيوية) ، 1899 ، ص 316 .

27 ـ أبو راس الناصري (فتح الاله) مخطوط رقم ك 2322 و ك 2263 الخزانة العامة بالرباط ، أنظر أيضا فور ـ بيقي (المجلة الاسيوية) ، 1899 ، ص 392 .

28 ـ رحلة الورتلاني ، المعروفة (بنزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والاخبار) تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب ، طبع الجزائر ، 1908 ، ص 3 .

29 ـ كتب الحاج صادق خلاصة لرحلة الورتلاني بالفرنسية الجزء الخاص بشمال افريقية كما حللها واستنتج منها عدة استنتاجات قد لا نوافقه عليها ولكنها هامة ، وقد نشر هذه الدراسة فى (المجلة الافريقية) بتـــاريخ لا يحضرني الآن وعنوان الدراسة (رحلة عبر شمال افريقية) .

30 ـ أنظر أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ج 2 ، ط 2 .

31 ـ رحلة الورتلاني ، ص 42 ـ 422 .

32 ـ نفس المصدر ، ص 360 ـ 361 .

33 ـ نفس المصدر ، ص 421 .

34 ـ نفس المصدر .

35 ـ نفس المصدر ، ص 399 .

36 – نفس المصدر ، ص 449 – 450 .

37 – نفس المصدر ، ص 531 .

38 – نفس المصدر ، ص 536 .

39 – نفس المصدر ، ص 456 .

40 – نفس المصدر ص 449 – 450 .

41 – نفس المصدر ، ص 542 – 543 .

42 – نفس المصدر ، ص 542 .

43 – نفس المصدر ، ص 542 .

44 – نفس المصدر ، ص 374 .

45 – نفس المصدر ، ص 365 .

46 – نفس المصدر ، ص 378 .

47 – نفس المصدر ، ص 380 .

48 – نفس المصدر .

49 – نفس المصدر ، ص 381 .

50 – نفس المصدر ، ص 387 .

51 – نفس المصدر ، ص 384 .

52 – نفس المصدر ، ص 498 .

53 – نفس المصدر ، ص 530 .

54 – نفس المصدر ، ص 381 – 382 .

55 – نفس المصدر ، ص 376 .

56 – نفس المصدر ، ص 425 .

57 – نفس المصدر ، ص 389 .

58 – نفس المصدر ، ص 376 .

59 – نفس المصدر ، ص 530 .

60 – نفس المصدر .

رسالة عبد الرحمن الثعالبي فى الجهاد

أثناء تصفحي لمخطوط جزائري قديم وجدت رسالة لعبد الرحمن الثعالبي ، دفين مدينة الجزائر الشهير ، موجهة الى أحد تلاميذه فى نواحي بجاية . ولأهمية موضوع الرسالة ولكونها غير معروفة حتى الآن حسب علمنا رأينا أن نقدمها للقراء المهتمين بانتاج القرن الخامس عشر الميلادي المكتوب ضد الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا يهددون سواحل شمال أفريقية بالغزو . وقد كان دافعي لنشر هذه الرسالة ما نكاد نعرفه جميعا من أن عبد الرحمن الثعالبي قد اشتهر كعالم وزاهد وليس كداعية جهاد أو زعيم سياسي . ولكن هذه الرسالة تغير من نظرتنا اليه وهي لذلك فى نظرنا جديرة بالنشر .

والواقع أن شهرة الثعالبي قد غطت الآفاق ودرسه أكثر من واحد ، ولا تكاد تجد كتابا فى التراجم لا يتعرض للثعالبي بالقليل أو الكثير ، فحياته اذن معروفة ، وعصره مدروس الى حد كبير ، وبعض تآليفه متداول بين الناس ، وضريحه حجة للزائرين فى مدينة الجزائر الى اليوم ، فلو ترجمنا له هنا باختصار ظلمناه ولو ترجمنا له بالتفصيل خرجنا عن الموضوع . لذلك نكتفي فى هذا المجال بما يساعد على فهم الرسالة التي نرغب فى تقديمها الى القارىء .

فقد ولد الثعالبي سنة 786 (1384) بمنطقة وادي يسر بالقرب من مدينة الجزائر ، وهو ينتمي الى قبيلة الثعالبة العربية التي كان لها

سلطان وفروع حول ساحل مدينة الجزائر وجبالها . ثم انتقل الى بجاية فتلقى العلم على مشائخها الذين ذكر بعضهم فى ثبته ، ومنهم النقاوسي والمانجلاتي والمشدالي ، وظل فى بجاية حوالي سبع سنوات ، ثم تحول الى تونس فلقى علماءها وأخذ عنهم . وبعد اقامة طويلة هناك توجه الى الحج وأخذ فى طريقه العلم عن علماء مصر وتركيا والحجاز ، وبعد حوالي سنتين فى المشرق عاد الى تونس ومنها الى الجزائر حيث توفي سنة 875 (1471) .

وقد كان عصره عصر اضطراب سياسي واجتماعي . فكانت الجزائر على عهده مقسمة بين بني حفص فى الشرق (قسنطينة ، بجاية ، عنابة) وبني زيان فى الغرب (تلمسان ، وهران ، ومليانه) . وكانت مدينة الجزائر وما جاورها من مناطق الوسط ميدان نزاع بين الدولتين المذكورتين . وكانت الامارات المحلية فى هذه المناطق توالي القوي من السلطتين، ومن بين هذه الامارات امارة الثعالبة بسهل متيجة وما جاوره الى وادي يسر ، حيث ولد الثعالبي . وقد زاد من الاضطرابات المذكورة تهديد الاسبان والبرتغاليين والايطاليين لسواحل شمال أفريقية واستغلالهم لنقاط الضعف فى الدويلات الاسلامية وانقضاضهم عليها . ومن بين النقط التي كانت مهددة فى وقت الثعالبي بجاية ، والجزائر ، ووهران ، وعنابة ، وجيجل وغيرها من المدن الساحلية ، وكانت بجاية خاصة موطن الذكريات للثعالبي لأنه فيها درس وتربى وتوسع أفقه العلمي على يد علماء بارزين . لذلك لا نستغرب أن يحرص على الدفاع عنها والجهاد فى سبيلها بنفس الحماس الذي أظهره فى الدفاع عن مدينة الجزائر وغيرها .

وقد كتب الثعالبي كتبا كثيرة ، معظمها فى الزهد والدين والتفسير والسيرة والتوحيد . وبعض هذه الكتب مطبوع مثل تفسيره المعروف (بالجواهر الحسان) . وتنسب اليه كرامات كثيرة ، ورسائل واجازات

وأدعية وأذكار ومنامات . بعضها مكذوب قطعا وبعضها صحيح . ولكن شهرة الرجل في عصر ساد فيه الجهل والفقر والاضطراب والعجز عن دفع الظلم — كل ذلك جعل الناس ينسبون اليه أحيانا ما لم يقله ، أو قاله ولكنه لم يقصد به ما قصدوا اليه .

واذا كان دور الثعالبي في الزهد والتصوف والاعتناء بأحوال الآخرة قد أصبح معروفا لكل دارس لحياته فان دوره « السياسي » في التحريض على الجهاد ، والوقوف ضد الأعداء المغيرين ، ودعوة الناس للتسلح ضدهم بكل أنواع الأسلحة ، والاستعانة على ذلك بمختلف الوسائل الشرعية ، هذا الدور غير معروف في نظرنا . ولكن الرسالة التي بين أيدينا تبرز هذا الدور . وبعبارة أخرى فان الثعالبي قبل هذه الرسالة كان في نظرنا رجلا سلبيا متفرجا على الأحداث التي كانت تجري في عصره ، أما بعد هذه الرسالة فقد أصبح في نظرنا رجلا ايجابيا داعية خير وجهاد عمليا في أفكاره وتصرفاته ، بالاضافة الى كونه رجل دين وصلاح وزهد وتصوف .

التعريف بالرسالة :

عثرنا على رسالة الثعالبي في الجهاد ضمن مخطوط جزائري يعود تاريخ نسخه الى القرن الثامن عشر الميلادي . وقد وجدنا المخطوط بأحدى المكتبات العامة خارج الجزائر ، فنقلنا منه الرسالة المذكورة بخط اليد . وهي تقع في ورقتين ، ضمن مجموع . (1) واسم الثعالبي فيها مكتوب هكذا : عبد الرحمن بن محمد الثعالبي ، والرسالة موجهة منه الى محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف الذي كان حسب سياق النص — بمكان قريب من بجاية . وكان المكتوب اليه ، على ما يظهر ، تلميذا للثعالبي أو واحدا من أتباعه المقربين لأن الثعالبي قد دعاه في الرسالة « مقام

1 — دار الكتب المصرية ، 15 مجاميع .

الولد » والرسالة فى الحقيقة كتبها الثعالبي ردا على رسالة وصلته من الشخص المذكور الذي استشار الثعالبي فى نقل كتبه الى زواوة (دون أن يقول من أين) فوافقه على ذلك بشرط أن لا تحمل الكتب بعيدا عن المكان المنقولة منه ، معللا ذلك بكون الأعداء يقصدون المدن ، فمن الحرص على الكتب ابعادها عن أماكن الخطر .

ثم اغتنم الثعالبي الفرصه وأضاف الى الرسالة حديثا طويلا عن الجهاد سنعرض اليه . أما اسم الناسخ للرسالة فهو سيدي يخلف ابن محمد الذي نقل ، حسب تعبيره ، من خط الثعالبي نفسه . فقد جاء فى آخر الرسالة ما يلي : « كملت من خط الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي » لكن تاريخ النسخ غير معروف ، كما لا يعرف مكانه ، غير أن الخط مغربي ، جزائري .

خلاصة الرسالـة :

كانت المراسلات تدور بين الشيخ عبد الرحمن الثعالبي ، من مدينة الجزائر ، وبين الشيخ أحمد الكفيف وولده محمد اللذين لا نعرف مكانهما بالضبط ، ولكن يغلب على الظن انهما كانا فى نواحي بجاية . وكان موضوع المراسلات ، فى أغلب الظن ، فى شؤون العصر من جهاد وجمع لكلمة المسلمين ، والمحافظة على الدين ، والمذاكرات العلمية . والرسالة التي بين أيدينا تجمع شيئا من كل ذلك . وهي موجهة من الثعالبي الى « مقام الولد » محمد بن أحمد الكفيف الذي استنصح شيخه فى نقل كتبه (وقد اصبح الخطر داهما) من بلدته (؟) الى جبال زواوة . فنصحه الثعالبي بذلك لأن الأعداء انما يقصدون المدن .

وعبر له الثعالبي أيضا عن فرحته من كون أهل بلد الشيخ الكفيف قد أخذوا يستعدون للجهاد بصنع درق العود الذي لا تنفذ منه السهام والسيوف بدل درق الجلد الذي لا يكاد يمنع نفاذها . وأضاف الثعالبي

بأنه قد جرب ذلك بنفسه . ذلك ان أهل مدينة الجزائر ــ وباديتها ــ قد قاموا هم أيضا يستعدون للجهاد ، بعد أن حرضهم هو عليه ، وصنعوا من أجل ذلك درق العود من الصفصاف ، وعندما أعوزهم الصفصاف صنعوا الدرق من الفرنان . وكان لتحريض الثعالبي أثر كبير على السكان، نساء ورجالا ، حاضرة وبادية ، علماء وعامة . وقد اطمأن الثعالبي نفسا على أهل بلاد الشيخ محمد الكفيف لأن والده الشيخ أحمد الكفيف قد اخبر الثعالبي انهم قرروا اخراج الأطفال والنساء والمال من المدينة ، اذا رأوا غلبة العدو ، وأنهم عازمون على أن لا يبقوا فيها سوى المقاتلين .

غير أن الثعالبي لم يكن مرتاحا من موقف أهل بجاية بالذات ذلك أن الخطر كان يتهددهم من جهة آمسيوين . وكان قد طلب من فقهائهم النهوض للجهاد ، والدعوة اليه فلم يعبأوا بكلامه . لذلك طلب من الشيخ الكفيف أن يكتب هو اليهم وأن ينبههم الى واجب القيام للجهاد واتخاذ الدرق بكثرة ، سواء فى البادية أو الحاضرة . ذلك ان كل عاقل ، حسب رأيه ، يتوقع هجوم الروم على بجاية والسواحل الاسلامية . فقد أصيب الروم فى القسطنطينية وفى غيرها بالهزائم ، وهم يتحمسون لمبدئهم ، متعصبون . وسوف لن يهدأ لهم بال حتى يهجموا على سواحل شمال افريقية . ورغم أن وقت هجومهم غير معروف، فان الدلائل تدل على أنه قد اصبح قريبا جدا . لذلك فان الاستعداد لهم ، فى نظره ، من الحزم ، بدليل ما رآه الثعالبي فى المنام من حث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، له على تحريض المسلمين على الجهاد فلو اطاع أهل بجاية على ما جاء فى هذه الرؤيا لما تخلوا أو تكاسلوا أو تقاعسوا عن الجهاد ، ولاعتمدوا على صنع الدرق الواقي بدل الأسوار العالية ولوفروا كل نوع من أنواع الأسلحة ، بما فى ذلك المكاحل .

اهمية الرسالـة :

تكشف رسالة الثعالبي فى الجهاد على أمور هامـة تستحق الدرس والاعتبار • فقد كشفت عن نظرة عبد الرحمن الثعالبي الدولية واطلاعه الواسع على أحوال العالم عندئذ بالاضافة الى معرفته الدقيقة بأحوال بلاده ، فهو من جهة يتحدث عن الروم فى المشرق (القسطنطينية التي ضاعت من الروم منذ 1453 م — 857 هـ) ويربط بين ما حدث لهم هناك وبين وشوك هجومهم على سواحل المغرب العربي • ولم يكن الأسبان والبرتغاليون الا فرعا آخر من فروع بني الأصفر (الروم) • وهو يتحدث أيضا عن دراية عن طبائعهم وترابطهم وحماسهم الشديد لدينهم وكرههم للمسلمين . وقد استعمل الثعالبي هذه النقاط لاثارة حماس قومه وايقاظ مشاعرهم الدينية والرجولية للدفاع عن دينهم ووطنهم •

والرؤى الصوفية كثيرة لدى العلماء فى ذلك الوقت • وتنسب الى الثعالبي منها رؤى كثيرة . ونحن نجد فى هذه الرسالة اعتماد الثعالبي على منامة أو رؤيا • واذا كنا الآن لا نستطيع أن نتهم الثعالبي باختلاق هذه الرؤيا لغرض نبيل وهو الحث على الجهاد ؛ فان غيره قد استعمل هذه الرؤى لأغراض غير نبيلة او على الأقل لاغراض غير سياسية أو جهادية ؛ فهم يستعملونها لتنويم العامة واستغلال ما عندها من مال ونحوه • أما الثعالبي فقد استعمل رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم لاقناع العوام وأشباههم بوجوب الاستعداد لمقاتلة المعتدين على أوطانهم ؛ وهو رجل تشهد الروايات وسيرته ومؤلفاته على زهده الحقيقي وتجرده من الهوى الشخصي وغيرته على الدين وحرصه على المصلحة العامة • فزهده حينئذ لم يمنعه من الاهتمام بالسياسة وعلمه لم يحل بينه وبين الدعوة الى الجهاد فى سبيل الله • وقليل من العلماء كانوا على شاكلته •

وقد دق الثعالبي ناقوس الخطر فى الوقت المناسب ، ولكن المنصتين له كانوا قلة • فهو لم يكتف بحث العامة وتنبيهها الى الخطر المحدق بها

ولكنه وجه رسائله وخطابه ، المباشر وغير المباشر ، الى الفقهاء (العلماء) أيضا ، ومن هؤلاء فقهاء بجاية التي كان قلب الثعالبي يتحرق خوفا عليها ومن الغريب أن الثعالبي لم يشر الى اسم أي حاكم أو أمير فى تلك الأثناء ، فكأن نضاله كان نضالا « شعبيا » ولم يكن يعتمد لا على قوة أميرية ولا على قوة خارجية ، وانما كان اعتماده على الشعب نفسه ، مستعملا فى ذلك علمه ونصحه وسمعته وحتى الرؤيا النبوية ، لدفع الشعب للجهاد والتحرك السياسي . ومن ثمة نفهم لماذا كان غير راض على فقهاء بجاية لعدم ايجابيتهم فى الوقت الحرج ولأنهم بذلك قد حالوا بينه وبين الشعب الذي وجه اليه خطابه ، على نحو ما فعل مع أهل مدينة الجزائر ونواحيها . وما دام موضوع الثعالبي هو الشعب نفسه ، فانه كان لا يفرق بين أهل الحاضرة والبادية ، فالجميع قد وجه اليهم الخطاب والجميع قد استجابوا له فى نواحي الجزائر ولكنه لم يستطع أن يصل اليهم فى نواحي بجاية . وعدم تعرض الثعالبي لرجال السياسة يدل مرة أخرى على الفراغ السياسي وانعدام القيادة الحكيمة عندئذ فى بلاد الجزائر عامة ، فالناس قد تركوا لانفسهم يدبرون أمرهم ويدافعون عن حريمهم وأموالهم وأوطانهم ، وكأنه لا وجود للسلطان أصلا .

ومن جهة أخرى تكشف هذه الرسالة عن خبرة الثعالبي الدقيقة بشؤون الأسلحة الموجودة فى عصره ، وعن طرق الدفاع الحكيمة . فهو يذكر من أنواع الأسلحة السيوف ، والنشاب ، وأنواع الدرق ، والمكاحل ، بالاضافة الى الأسوار ، كما يذكر أنواع الشجر الصالح للدرق وغير الصالح . ويشير الى زهيد الثمن منها وما يكلف أموالا طائلة ويتحدث فى ذلك عن تجربته وليس عن أمور نظرية أو فرضية . وهو ينصح بما هو موجود بكثرة ونافع فى بلاده وليس بذلك الذي لا يوجد الا فى أماكن بعيدة أو يوجد ولكنه قليل .

ولهذه الأسباب اعتبرنا هذه الرسالة هامة وجديرة بالدرس ، لا لأنها فقط تضيف الجديد عن شخصية الثعالبي ودوره العلمي والسياسي ، ولكن لأنها أيضا تسلط بعض الأضواء على عصره من الوجهة السياسية والاجتماعية فالعلماء والفقهاء كانوا يتنبأون بأمور ستحدث ، وكانوا يعتمدون التصوف والزهد والرؤى النبوية ، وكانوا أحيانا يدعون الولاية ويتصنعون الورع ، ولكنهم كانوا ، ولا سيما عند انعدام السلطة السياسية الوطنية ودهامة الخطر الخارجي ، يصبحون قوة دافعة نحو الصلاح والخير ، ونحو جمع الكلمة ووحدة البلاد ، ونحو التسلح والجهاد . ومن هؤلاء كان الثعالبي . ومن هنا جاءت أهمية رسالته التي نحن بصددها .

نص رسالة الثعالبي في الجهاد

من عبد الرحمن بن محمد الثعالبي ، لطف الله به ، الى مقام الولد الفقيه الخير أبي عبد الله محمد بن أخينا في الله سبحانه سيدي أحمد ابن سيدي يوسف الكفيف ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فقد وفقني الله واياكم لمرضاته ، وأنعم علينا وعليكم بجزيل فضله وعميم خيراته . فقد وقفت على كتابكم وأنتم تستشيروني (كذا) فى نقل كتبكم الى زواوة خوفا من عدو الدين أن ينزل بساحة المسلمين ، فاعلم رحمك الله أن نقلها من الحزم ولكن الى ما قرب منكم من الأماكن لأن العدو ، دمرهم الله ، انما مقصدهم المدن .

وفرحت بحمد الله باشتغالكم بدرق العود فما يوجد أنفع للنشاب ولا لدفع مضرته من درق العود ، فمن كانت بيده درقة عند لقاء العدو يشفي ويستشفي ويبلغ غرضه بحول الله تعالى وقوته . وأما درق الجلد من لمط أو غيره فلا يغتربها لأن السهام تنفدها (كذا) وتتجاوزها الى

ممسكها . هذا مع القرب جربناه مرارا . ودرق العود لا تنفد (كذا) فيها مع القرب فأحرى مع البعد فاختبروا ما ذكرناه لكم يبين لكم الصواب .

ولست أخاف على بلدكم لأن والدكم ، رحمنا الله واياه ، أخبرني انكم ان رأيتم ما لا تطيقون من كثرة العدو تخلون من أجله ولا يبقى فى البلد الا المقاتلة ، ونصر الله تعالى معكم مأمول . ولأن العدو اذا علم أن الذرية والحريم وما عز من المال قد فاته فت ذلك فى عضده ولم يقتحم كل الاقتحام لفوات غرضه .

وأهل بلدنا وما قرب منها بل وما بعد عنهم لما أن حرضتهم على درق العود اجتهدوا فى ذلك حاضرة وبادية ففرحت بحمد الله تعالى بامتثالهم ما أمروا به . وقد قدمت إلى فضلائهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أكد وأكد كثيرا فحرضت الناس جهدي ، ورأيت اثر ذلك فى الناس بحمد الله تعالى فانهم سارعوا وصدقوا وامتثلوا وقد وعدنا النصر ، بحمد الله تعالى ، وقد تكرر علي التحريض نحو سبع مرات وفى بعضها شد روحك يعني فى التحريض ، وفى بعضها وأنتم منصورين ، (هكذا بالياء) . والذي آمركم به ، وفقكم الله تعالى ، ان تكثروا من درق العود كثرة تعمكم وتعم من يصرخكم .

وقد جاءني بعض اخواني من أهل الفضل فقال رأيت كأن فارسا وبيده درقة وهو يقول واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الدرق والرماح . وفى رؤيا عنه ، صلى الله عليه وسلم ، قال من عمل درقة يعني للجهاد فانها تحول بينه وبين النار . لما اخبرتهم بهذه الرؤيا زادهم ذلك رغبة حتى أن جماعة من النساء اشترين الدرق لأجل وعده الصادق صلى الله عليه وسلم .

وأعلم يا أخي أن قلبي متألم من أهل بجاية وخفت عيهم كثيرا من جهة آمسيوين . وقد بعثت الى بعض الفقهاء ، منهم بالتحريض من غير كتب فما رأيت لكلامي عندهم تأثيرا كما أثر هنا ، واذا أراد الله بأمر فلا محيد عنه ، وان هم قبلوا نصحي كانوا ممتثلين لتحريض النبي صلى الله عليه وسلم فان كلامه حق يقظة ومناما ورؤيته حق فان الشيطان لا يتمثل بصورته أي مطلقا .

والذي أحبه منهم أن ينهضوا ويسرعوا فى عمل الدرق من الصفصاف وتكون كاسية ولا يتكلوا على الطوارق ولا على درق اللمط كما اخبرتك فاكتب اليهم بالتحريض فى عمل الدرق ويكثروا كثرة تعمهم وتعم من يصرخهم وأهل بواديهم أعلمهم قديما عراة لا درق معهم الا نادرا . وقد انتهى حال أهل جبالنا الى أن اتخذوا الدرق من الفرنان ، وكذلك أنتم فافعلوا بمن أعوزه درق العود فليصنعه من الفرنان الغليظ طبقين طبقين فان كل عاقل يستشعر قتال بني الاصفر فانهم قد أصيبوا فى القسطنطينة (كذا) وغيرها . وقد علمتم أن أخذها من الأشراط . وان لبني الأصفر حمية فى النصرة لصليبهم .

فاكتب رحمك الله لاخواننا ببجاية وحذرهم ليتيقظوا ويعملوا ما أشرنا اليه من الدرق على الوجه الذي أشرنا اليه فهي أقرب مراما وأقل كلفة من بناء الأصوار (كذا) التي لا يرقها (أو يرفعها) الا المال الكثير فى الزمان الطويل ، ويخاف أن الأمر أعجل . اللهم اني قد بلغت ! اللهم اني قد بلغت ! اللهم اني قد بلغت ! اللهم آشهد ! اللهم أشهد : اللهم أشهد ! واذا وصل اليك هذا الكتاب فأقرأه على جميع أصحابنا ثم ابعث به الى بجاية لمن يعلن به ويشيعه .

ولو أطلعتم على ما أطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشيء من أمور مهماتكم بعد الصلاة الا بآلة الجهاد . والله والله لو لم

يكونوا (كذا) بنوا الأصفر على وجه الارض لخلت أن ينبعوا من تحت الارض لما رأيت من التحريض والتحذير منهم من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن يحب تصديقه ولا يمكنني التصريح به لضعيف الايمان. وقد سئل بعض الأولياء عن مسألة فسكت وقال للسائل أن ايمانك لا يحتمل هذا وبالجملة الحذر الحذر مما حذرتم .

وأما تعيين وقتهم فذالك الى الله ، هو أعلم . نعم قراين الحال وماشوهد من تحريض النبي صلى الله عليه وسلم يؤذن بالقرب . ومما ينبغي أن تكثروا منه المكاحل كثرة تعمكم وتعم من يريد صرختكم .

كملت من خط الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي . وكتب سيدي يخلف ابن محمد أصلحه الله » .

قصيدة سياسية لابن ميمون الجزائري (1)

كثيرا ما تقع بين يدي وثائق نادرة فى موضوعات تاريخية أدبية . وبعد أن أعجب باكتشافها وأتصفح محتواها تنثال علي مشاكل الحياة اليومية فتصبح الوثيقة فى الدرجة الثانية من الاهتمام ، وبمرور الأيام تنام فى مكان ما من أدراج مكتبتي وتظل تنتظر فرصة النشر . وبذلك يحرم الباحثون من الاستفادة منها .

وقد اقتنعت أنني لو ظللت أنتظر الفرصة التي أدرس فيها الوثيقة دراسة علمية دقيقة لطال الأمد بل لاستحال الأمر لكثرة هموم الحياة . لذلك عزمت على نشر ما تيسر لي من وثائق مكتفيا بتعليق بسيط وتقديم قصير ، تاركا فهم العصر ودراسة المؤلف وتحليل النص واصدار الأحكام الى وقت أكثر مناسبة . وحسبي أن أضع بين يدي الباحثين ، وخصوصا طلاب الدراسات العليا فى الجامعات وأساتذة التاريخ والآداب ، وثائق ينطلقون منها ويعتمدون عليها فى أبحاثهم .

وقد رأيت أن أقدم فى هذه المرة ، قصيدة ابن ميمون فى الحاج محمد خوجة ابن الداي عبدي باشا (1724 — 1732) ، فى التهنئة بعودته منتصرا اثر حملة عسكرية قام بها فى الغرب الجزائري ضد بعض الثوار . وقد وجدت هذه القصيدة فى مكتبة الأمير عبد القادر التي وقعت أثناء سقوط الزمالة فى يد الدوق دومال سنة 1843 . وهي مكتوبة بخط مغربي

1 ــ نشرت فى مجلة (الثقافة) عدد 15 ، 1973 .

جزائري جيد ، وكاملة . وقد نسخها أحدهم دون أن يذكر اسمه وقدم لها بعدة سطور قائلا : (ومما قاله شيخنا الخ ..) وهذه العبارة تدل على أن الناسخ قد يكون من تلاميذ ابن ميمون صاحب القصيدة .

ثم يورد الناسخ مقدمة نثرية مسجعة كتبها ابن ميمون نفسه لقصيدته . والمقدمة تدل على براعة ابن ميمون فى الوصف الأدبي الذي اشتهر به هو وطائفة من أدباء الجزائر فى القرن الثامن عشر كابن عمار وابن سحنون . ويشير ابن ميمون فى المقدمة الى أنه نظم القصيدة سنة 1141 هـ ، 1728م وقد كانت الجزائر فى هذا التاريخ موحدة قوية . فوهران استردها الباي مصطفى بوشلاغم على عهد الداي محمد بكداش (1707 — 1710) من الأسبان والعلاقات مع المغرب وتونس كانت تشهد تطورات جديدة تلعب فيها الجزائر دورا رئيسيا . والثورات الداخلية قليلة .

وكان ابن ميمون ، الذي لا نعرف تاريخ ميلاده ومكانه ، معاصرا لهذه الأحداث . فقد عاش حادث استعادة وهران من الأسبان وسجله فى كتابه (التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية (2) .

وحضر كذلك سقوط وهران من جديد فى يد الأسبان فى عهد الداي عبدي باشا . ويذكر أحد معاصريه ، وهو عبد الرزاق بن حمادوش أنه كان متوليا قضاء المواريث زمن الداي ابراهيم باشا (1745 — 1748) وأن ابن حمادوش كان يدرس معه مجموعة من الكتب الأدبية والتاريخية والدينية مثل مسائل ابن حجة فى الأدب ، والقلصادي فى الحساب والفرائض وتاريخ الكردبوس ، وصحيح البخاري ، الخ (3) .

---

2 — هذا الكتاب عبارة عن قطع أدبية فى شكل مقامات (16 مقامة) تروي سيرة الداي محمد بكداش . وفيه أخبار كثيرة عن الحياة الادبيــة فى الجزائر آنذاك . نشرة محمد بن عبد الكريم ، سنة 1972 .

3 — أنظر دراستنا عن « عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته لسان المقال » فى هذا الكتاب .

واذا كنا حتى الآن لا نعرف تاريخ ميلاد ابن ميمون فاننا لا نعرف تاريخ وفاته ولا مكانه أيضا ، ولعل دراسة الأرشيف الجزائري فى العهد العثماني تكشف لنا عن الغامض من حياته وتآليفه .

ورغم انعدام الدراسات الأولى لأدب ابن ميمون فانه يمكننا أن نعتبره على رأس ممثلي المدرسة الأندلسية فى الجزائر ، بعد المقري ، وهي المدرسة التي كان مثالها الفتح ابن خاقان وابن الخطيب وأضرابهما. ويشارك ابن ميمون فى النسج على منوال هذه المدرسة ابن عمار فى (نحلة اللبيب) و (لواء النصر) وابن سحنون فى (عقود المحاسن) و (الثغر الجماني) .

وقد حاول ابن حمادوش أن يرقي اليهم فى هذا اللون فى بعض مقاماته فلم يستطع لأنه كان عالما أكثر منه أديبا . أما ابن علي فقد برز فى هذه المدرسة ، ولكن فى ميدان الشعر . وقد كلفت المدرسة الأندلسية بالسجع ، وتفننت فى المحسنات البديعية ، واعتنت بالألفاظ ذات الدلالات الموسيقية . أما أغراضها فالوصف ، ولا سيما وصف الرياض ومحاسن الطبيعة ، وكذلك الاخوانيات والمدائح والغزل الخ . وفى الوثيقة التي سنوردها بيان لذلك ، سواء فى جزئها النثري أو الشعري .

وللقصيدة قيمة تاريخية أيضا غير خافية . فهي تكشف على عدم الاستقرار السياسي فى الغرب الجزائري خلال عهد عبدي باشا ، مما جعله يوجه حملة بقيادة ابنه ، وكان انتصار محمد خوجة باعثا للشاعر على أن يكرر فى التهنئة فكرة (الهدوء) والاستقرار . ورغم أننا لانعرف الآن ضد من وجهت الحملة ، فان فى القصيدة اسم رئيس الثوار ، وهو المسمى (بوزيد) بالاضافة الى أن القصيدة تصف بالتفصيل العادات الاجتماعية عند وقوع مثل هذا الانتصار . والظاهر أن ابن

ميمون كان (شاعر بلاط) غير رسمي ، فهو بشعره كان يتقرب الى السلطة ، ولكن بلا تذلل ، وينسب اليهم الشرف (الهاشمي) بدون حق ، ولكنه يلصق بهم الجهاد وهو وصف صادق اذا أخذنا فى الاعتبار استرداد وهران ومواجهة الأسبان المستمرة .

ولا شك أن هذه القصيدة تمتاز بقوتها ، وتكشف عن قدرة ابن ميمون الشعرية . فبحرها ونغمتها وجوها النفسي وقافيتهـا واختيار ألفاظها كلها تلائم المناسبة التي قيلت فيها . غير أن الغرض الذي عبرت عنه قد يكون محل خلاف . ذلك أن ابن ميمون قد انتصر للسلطة ضد الثوار ، ولا ندري ان كان يعرف شره هذه السلطة فى جمع المال وشراء الاستقرار بأي ثمن ، أو أنه لم يكن يعرف من ذلك سوى الجهاد والهدوء والطاعة للحكام . وعلى كل حال فان الذي يهمنا الآن ليس غرض القصيدة ولكن اكتشاف الوثيقة وأهميتها الأدبية والتاريخيـة بالنسبة لتراث الجزائر العربي . ونعتقد أنها تدل على أن الشعر فى ظل الحكم العثماني فى الجزائر لم يكن كله شعر مدائح نبوية ، وغـزل متصنع ، ومتون وأراجيز جافة .

السبت 9 جوان 1973

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم

ومما قاله شيخنا العالم العلامة ، البحر الفهامة ، أبو عبد الله سيدي محمد ابن السيد عبد الله بن ميمون ، نجل الشيخ البـركة القطب الرباني سيدي أحمد بن عبد الله (4) فى تهنئة المعظم الاجل ، الزكي الأفضل ، الشاب الأمجد ، الفارس الأنجد ، أبي عبد الله السيد الحاج

4 — عاش 1398–1479 م ، وهو صاحب المنظومة المعروفة بالجزائرية فى العقائد .

محمد خوجه ابن الأمير الهمام ، فخر الأمراء العظام ، مولانا السيد عبدي باشا (5) حين قدومه من المحلة (6) ، نظما ونثرا ، ونصه :

الحمد لله ، وهذه القصيدة قلتها عام ، أحد وأربعين ومائة وألف فى ربيع الأول النبوي الأنور فى السلطان أبى عبد الله السيد الحاج محمد خوجة ابن السلطان السيد عبدي باشا حين خروجه بالمحلة ورجوعه الى الجزائر (7) ، سالما غانما بالمواشي والذخائر ـ شرف باذخ ، ومجد شامخ ، عقد بالنجوم دوائبه (كذا) ، وأوخز فى مفرق النسر ركائبه ، استفتح الأوطان ، وانبلج صبح النصر وبان ، وقفل وألوية النصر عليه خافقة ، وألسنة الشكر والحمد ناطقة ، فاجتمعت الخلائق من كل فج عميق لميعاد لقائه ، وبرزت المخدرات لزينة صعوده فى سماء الفتح وارتقائه ، فلا تسمع الا زعيق المدافع ، مالها من مدافع ، ونقر الطبول فى الجو تجول ، وربات الخدور ، من شموس وبدور ، فلا تسمع الا غانية وغانيا ، ومثالثا ومثانيا ، والخيل كرادس ، والجنة فرادس. ناهيك من مهرجان كبير ، أزرى بعرس (بوران) (8) وأيام (يزد شير) . فكان يوم عيد ، وسرور جديد ، فلله الحمد وله المنة ، سبحانه وتعالى ما أمنه :

بشرى كما انبلج الصباح البادي ... بقدوم مولانا ضحى الميلاد

فى ساعة بركاتها فاضت على ... كل الورى من حاضر أو بادي

بالطالع الميمون فى يوم بدا ... فى مثله وجه الرسول الهادي

أعملت رحلتك السعيدة قاصدا ... فى نظم شمل فى سبيل جهاد

تبغى رضى الرحمن فى صلة السَّرى ... بالسير والتأويب بالإسئاد(9)

5 ـ حكم 1724ـ1732 م ، وفى عهده سقطت وهران من جديد فى يد الأسبان .

6 ـ المراد حملة عسكرية او غزوة داخلية »

7 ـ يعني الجزائر العاصمة .

8 ـ الاقواس مضافة الى النص . وقارن العبارات السالفة بما كتبه ابن ميمون فى (التحفة المرضية) ص 233 من النسخة المطبوعة .

9 ـ ذكر لي الشيخ محمد الطاهر التليلي ان من معاني التأويب السير في النهار ومن معاني الإسئاد السير في الليل مستدلا بقول الحريري في مقدمته الشتوية «وأدلجى وأوبي واسئدي» .

حتى بلغت القصـد فى اللقيا التي مهدت فيها الخلق خير مهاد

جمعت على التقوى القلوب وشيدت مبنى السكون على الرضى ووداد

فالغرب (10) أطلع منك شمسا نورها باد على الأغوار والأنجاد

هي آية للنصر فارقب بطشة فى الحرب تأخذهم كأخذة عاد (11)

تستل (سيفا) من عزيمتك التي تكفي العدا وتفت فى الاعضاد (12)

قولوا (لبوزيد) (13) رئيسهم الذي قد لج (14) فى الأبراق والأرعاد

اخسأ فهذا سيف عبد (15) صاديا ودم الأعادي ري ذاك الصاد

ولئن تخطاه الحمام فانه لا بد أن ينقاد فى الأقياد

فاذا بجثة جيشه مشروعة مطروحة فى جملة الأجساد

وعساكر المولى تحكم حكمها بالمشرفية والقنا الميـاد

واذا بأحزاب العدو قد هووا فى بحر حرب دائم الازباد

ويد الدمار تحكمت فيهم وفي ما جمعوا من طارف وتلاد

فالله ينجز وعده ويمدنا بجنوده المنصورة الأمداد

يا أيها المولى الذي أعماله أحيت سبيل أبيه والأجداد

جود يفيض على البلاد وأهلها يقضي بأنك واحد الأجواد

وبسالة تمحو العدا فتكاتها مثل الظبا سلت من الأغماد

---

10 ــ بهذا يفهم أن الحملة وجهت نحو الغرب الجزائري .

11 ــ يدل البيت على أن الانتصار لم يكن كاملا ، وبقية المعنى من الأبيات التالية .

12 ــ فى الأصل «تسل» وهو صحيح أيضا .

13 ــ اسم رئيس الثوار ، ولا نعرف الآن عنه أكثر من هذا .

14 ــ فى الأصل«لح» ولعل النقطة قد سقطت عند النسخ

15 ــ هكذا فى الاصل ، ولعل الصواب «عبدي» وهو الداي عبدي باشا .

فحمى عرينك مربض الآساد   وندى يمينك مشرع الوراد

ومكارم آثارها مأثورة   برزت فيها سابق الآماد

من هاشم (16) الفخر الأولى أخبارهم   موصولة الاسناد بالاسناد

قاموا بنصر الدين اذ لا ناصر   والخلق فى ظلم من الالحاد

حتى أقاموا دينه رغم العدا   بعزائم مثل السيوف حداد

يا وجهة أبدت لمن لا قاك ما   أوتيت من فضل ونور رشاد

راق المحاسن والمكارم كلها   مجموعة فى واحد الآحاد

واستعظموا الأخبار حتى شاهدوا   فرأوك سابق حلبة الأمجاد

رأوا العدالة والبسالة والنهى   نيطت بنور جبينك الوقاد

وحضرت حضرتك العلية (17) آيبا   بالعز والاسعاف والاسعاد

لتقيم منها للهدوء مواسما   منصورة الاصدار والايراد

أبشر فملكك لا تزال سعوده   تأتيك بالآمال طوع قياد

واهنأ بمقدمك السعيد مبلغا   أقصى المنافي مبدأ ومعاد

ماذا أقول ولا بلاغة لي تفي   بمكارم أربت على التعداد

فصفات مجدك أعجزت من رامها   ولو استعان لسان (قس اياد)

لا زلت تبلغ كل ما أملته   فى النفس والسلطان والأولاد

تمت بحمد الله تعالى وحسن عونه

---

16 ـ نفهم من هذا ان الشاعر ينسب ممدوحه الى بني هاشم ، وهو نسب مشكوك فيه .

17 ـ يعني مدينة الجزائر .

عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري
ورحلته « لسان المقال »

من المخطوطات النادرة عن الجزائر والمغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة (لسان المقال ، فى النبأ عن الحسب والنسب والآل) . وقد رأيت من المناسب أن أقدم عنها وعن مؤلفها خلاصة لهذا المؤتمر الذي خصص لتاريخ المغرب العربي وحضارته (*) . وأقول «خلاصة» لأنني فى الواقع قد أنجزت دراسة مطولة عن حياة ابن حمادوش ورحلته وأعماله الأخرى قد أنشرها قريبا . ولنبدأ بحياة المؤلف .

ا ـ حياة ابن حمادوش :

والظاهر أن أول من اكتشف ابن حمادوش هو الدكتور لوسيان ليكليرك الذي ترجم له كتابه (كشف الرموز) الى الفرنسية (1) . كما أشار فى نهاية الترجمة الى كتاب آخر لابن حمادوش وهو (تعديل

(*) ألقي هذا البحث فى المؤتمر الاول لتاريخ المغرب العربي وحضارته الذي انعقد بتونس بين 24 ــ 29 ديسمبر 1974 ونشر فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج 2 ، م 50 ، ابريل ، 1975 .

1 ــ باريس ، 1874 . والكتاب غير كامل ، وبعد اكتشاف الرحلة يظهر أنه القسم الرابع من كتاب (الجوهر المكنون فى بحر القانون) الذي ألفه ابن حمادوش . والمراد بالقانون هو كتاب القانون لابن سينا . وقد طبع (كشف الرموز) ناقصا بالعربية أيضا عدة طبعات على يد ردوسي قدور ، أولهما بالجزائر سنة 1903 . وقد أشرف على هذه الطبعة السيد عبد الرزاق الاشرف .

المزاج) (2) ولكن الدكتور ليكليرك لم يطلع على رحلة ابن حمادوش التي نحن بصدد التعريف بها . ولذلك كان حديثه عن حياة المؤلف مختصرا مبنيا على الظن لا على اليقين .

وفى سنة 1886 ذكر المؤلف الاسباني قونزاليز فى كتابه (مشاهير مسلمي مدينة الجزائر) (3) حوالي ثلاثة أسطر عن ابن حمادوش ، ضمنها تاريخ ميلاده الصحيح ، وهو تاريخ لم يهتد اليه ليكليرك ولم يرد الا فى (لسان المقال) مما جعلنا نرجح أن قونزاليز قد اطلع على الرحلة (4) . أما الدكتور غبريال كولان (5) فقد اعتمد فى كتابه على ليكليرك ولم يأت بجديد عن حياة المؤلف . وعندما أصدر أبو القاسم الحفناوي كتابه أورد كلام قونزاليز عن حياة ابن حمادوش دون ذكر اسمه مشيرا اليه فقط باسم « مؤلف أوروباوي » (6) . وهكذا يتضح أن حياة ابن حمادوش ظلت مجهولة ، لأن جزءا كبيرا من ترجمته الشخصية يوجد فى رحلته التي لم يطلع عليها — حسبما نعتقد — سوى السيد قونزاليز . أما المتأخرون فقد اعتمدوا على هذا مثل السيد نور الدين عبد القادر (7) ، أو نقلوا عن الرحلة مباشرة دون ترجمة لمؤلفها مثل السيد محمد داود (8) .

---

2 — كتيب فى كراسة أو نحوها وصفه الدكتور ليكليرك وصفا قصيرا فى آخر ترجمته (لكشف الرموز) ص 380 . والظاهر أن ابن حمادوش قد ألفه بمدينة رشيد بمصر ، لأن الكتاب يحمل هذه الاشارة ، وكان ذلك سنة 1161 هـ 1748 م .

3 — الجزائر ، 1886 . والكتاب عبارة عن رسالة صغيرة ضمنها النص العربي مع ترجمته بالفرنسية . وقد قدمه له بالعربية مفتي الحنفية بالجزائر عندئذ الشيخ احمد بوقندورة .

4 — ذكر السيد قونزاليز فى بداية كتابه ان ابن حمادوش من مصادره الأساسية وأشار اليه باسم « عبد الرزاق » فقط ودون ذكر اسم الكتاب ، ويغلب على الظن أنه نقل من (لسان المقال) . وقد نقل عنه أيضا أسماء ولاة الجزائر وبعض علمائها .

5 — كتب رسالة دكتوراه فى الطب عن « الطبيب العربي عبد الرزاق الجزائري » وطبعها بالجزائر سنة 1905 .

6 — (تعريف الخلف برجال السلف) ، الجزء 2 — الجزائر ، 1907 ، ص 471 .

7 — (صفحات من تاريخ مدينة الجزائر) ، الجزائر ، 1964 ، ص 194 ، وقد نقل عبارة قونزاليز حرفيا دون ذكر اسمه .

8 — (تاريخ تطوان) ، القسم الاول ، المجلد 3 ، تطوان ، 1962 ، ص 148 — 152 ، وقد لخص ما كتبه ابن حمادوش عن المغرب وخصوصا مدينة تطوان وعلماءها .

ولد عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش سنة 1107 هـ، 1695 م في مدينة الجزائر على الأرجح ومن ثمة نسبته اليها « الجزائري »، وكانت أسرته من طبقة الحرفيين التي كانت تمارس التجارة ولا تهتم بالسياسة والرياسة الا قليلا. وكانت حرفة أسرته هي الدباغة حسبما فهمنا من رحلته : لأنه ذكر والده وعمه في بعض العقود موصوفين بكلمة «الدباغ». وعند زواجه الأول صاهر ابن حمادوش عمه الذي زوجه ابنته البكر وأسكنه في داره. أما في زواجه الثاني فقد تزوج ثيبا هي ابنة أمين الصفارين (النحاسين). وكان لابن حمادوش ولدان على الأقل من زوجه الثانية مات أحدهما صغيرا. ولا ندري ما اذا كان له أطفال من زواجه الأول. ولم يكن ابن حمادوش سعيدا مع زوجه الثانية ولا مع أسرته الباقية كأمه وأخته لانشغاله بالكتب والعلم من جهة ولفقره من جهة أخرى. ولا ندري الى الآن متى ولا أين توفي ابن حمادوش، لكن بعض المراجع تشير ظنيا الى أنه قد تجاوز التسعين سنة (9).

عاصر ابن حمادوش أحداثا وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية. فقد دون في رحلته أنه عاصر عهد الباشوات الذين استبدوا بالحكم في الجزائر عن السلطان العثماني، وكان ما يزال طفلا عندما استعاد الجزائريون مدينة وهران من يد الأسبان (10)، ولكنه كان واعيا لاحتلال أسبانيا لها من جديد (11). وذكر في رحلته بعض الثورات الداخلية مثل ثورة أهل زواوة على قائد سباو، وتحدث عن توقيع الصلح بين الجزائر والدانمارك، كما سجل فيها حادثة فرار ابن أحمد

9 _ كولان، ص 35، ضبط هو اسمه (حمادوش) دون أن نعرف ما اذا كانت الميم مخففة أو مشددة.

10 _ كان ذلك على يد الباشا محمد بقطاش (بكداش)، سنة 1119 هـ 1708 م، وهو الباشا الذي الف فيه محمد بن ميمون، أستاذ ابن حمادوش، كتابه (التحفة المرضية في الدولة البكداشية) تمجيدا له. وقد نشر هذا الكتاب السيد محمد بن عبد الكريم، الجزائر 1972.

11 _ احتلوها من جديد سنة 1145 هـ _ 1732 م، وظلوا فيها الى سنة 1205 هـ 1791 م حينما افتتحها الباي محمد الكبير وأعادها للدولة الجزائرية.

الريفي المغربي ومحمد باي التونسي الى الجزائر فى وقت واحد واجتماعهما مع داي الجزائر عندئذ ، ابراهيم باشا . أما فى المغرب فقد شاهد عيانا ثورة أحمد الريفي ، حاكم اقليم تطوان ، على السلطان مولاي عبد الله ، وروى أحداثها بشيء من التفصيل والتأثر ، ووصف آثار هذه الثورة على الحياة المغربية سياسيا واقتصاديا (12) . ولا شك أن ابن حمادوش قد عاصر أحداثا أخرى فى تونس ومصر وبلدان الشرق الأخرى التي زارها أو أقام فيها أثناء حجه وأسفاره ، ولكنه على كل حال لم يذكرها فى الجزء الذي بين أيدينا من الرحلة .

كما عاصر ابن حمادوش تطورات اجتماعية وثقافية لا شك أنها أثرت على مجرى حياته . فحديثه عن عقود الزواج فى وقته (وهي عقود كانت تختلف مهورها من طبقة الى أخرى) ومعاناته فى البحث عن موارد للرزق سواء فى الجزائر أو فى المغرب ، واحتماؤه بالشرف والعلم بدل الجاه والسياسة والمال ، وكثرة تعرضه للأسعار فى أسواق الجزائر والمغرب ، كلها تعكس الجو الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يعيشه ، ومما لا ريب فيه أن أسفاره الأخرى قد أمدته بتجارب أخرى فى هذا الميدان ، ولكننا على كل حال لا نملك الآن دليلا عليها .

وتثقف ابن حمادوش على شيوخ بلاده وعلماء المغرب وتونس ، والمشرق ، كما قرأ عددا كبيرا من الكتب فى مختلف العلوم والفنون (13) . ولئن كنا لا نجد أثرا لشيوخه الأولين لفقدان الجزء الأول من رحلته فى الوقت الحاضر ، فاننا نعرف من الجزء الثاني منها

---

12 ـ سنفصل القول فى هذه المسائل ، وكذلك المسائل الاجتماعية والثقافية فىنهاية البحث .

13 ـ ذكر المؤلف فى الجزء الذي ندرسه من الرحلة الكتب التي قرأها واقتناها ، وجميعها تعكس اتجاهه العلمي أكثر من غيره .

أنه قرأ فى الجزائر على الشيخ محمد بن ميمون (14) ، كما عاصر فيها علماء وأدباء ما تزال أسماؤهم وبعض أعمالهم تشهد لهم بالحذق والمكانة فى مجتمع عصرهم ، أمثال أحمد بن عمار صاحب (نحلة اللبيب) ، والمفتي الشاعر ابن علي ، وعبد الرحمن الشارف ، وأحمد الزروق البوني ، وعدد آخر من المفتين وأصحاب الجاه كمحمد ابن حسين ، والحاج محيي الدين الزروق ، وعبد الرحمن المرتضى ، ومحمد المسيسني ، وممن قرأ عليهم ابن حمادوش فى المغرب وأجازوه محمد بن عبد السلام البناني الفاسي ، وأحمد الورززي التيطواني ، وأحمد السرائري ، وأحمد بن المبارك (15) . أما من تونس فلم يذكر فيما بين أيدينا من وثائق سوى الشيخ محمد زيتونة (16) الذى يسميه « شيخنا » ، والشيخ محمد الشافعي الذي التقى به فى الجزائر يوم جاء هاربا من حاشية محمد باي المذكور .

ورغم أن ابن حمادوش قد درس على طريقة عصره فان اهتمامه كان منصبا خاصة على الكتب العلمية . ولذلك نجده قد درس ابن سينا ، واقليدس ، والقلصادي ، والانطاكي ، وابن البيطار ، وغيرهم من علماء المسلمين واليونان ، وكان لا يقرأ نظريا بل يحاول أن يطبق ما قرأه ويؤلف فيه ، ويجري التجارب الشخصية عليه ، وهكذا وجدناه يجري تجارب على النباتات ويركب المعاجين الطبية ، ويختبر موازين المياه ، ويرسم الرخامة الظلية ، ويضع دائرة لبيان اتجاه الرياح ، وغير ذلك من التجارب التي لم تكن محل اهتمام من علماء عصره عامة ،

---

14 _ نحيل الى المقدمة التي كتبناها للقصيدة السياسية _ الادبية التي عثرنا عليها والتي هي من نظم ابن ميمون فى هذا الكتاب .

15 _ سنذكر بعض التفاصيل عن علاقته بعلماء المغرب .

16 _ الظاهر انه قرأ عليه فى تونس أو فى المشرق . ولعل ذلك كان أثناء حجته الاولى سنة 1130 هـ _ 1718 م . وقد توفي الشيخ زيتونة بتونس سنة 1138 هـ _ 1725 م .

وعلماء بلاده خاصة . وقد لخص هو اهتمامه عندما قال فى رحلته انه أصبح عشابا وصيدليا وطبيبا فى بعض الأمراض (17) .

* * *

وهذا الاهتمام هو الذي جعل مؤلفات ابن حمادوش يغلب عليها الطابع العلمي أكثر من الطابع الفقهي أو الأدبي الذي شاع لدى علماء عصره . ولنذكر الآن بعض مؤلفاته فى هذا الميدان (18) :

1 ـ شرح على قصيدة الربع على كردفر .

2 ـ تأليف على الروزنامة .

3 ـ تأليف فى الأعشاب (لعله هو كشف الرموز المطبوع) .

4 ـ تأليف فى علم الفلك (ذكر فيه سبعة تواريخ تعلمها جميعا) .

5 ـ تأليف فى الاسطرلاب والربع المقنطر .

6 ـ تأليف فى القوس لرصد الشمس .

7 ـ تأليف عن الرخامة الظلية بالحساب .

8 ـ تأليف فى صورة الكرة الأرضية .

9 ـ تأليف فى علم البلوط (معرفة الطرق البحرية) .

10 ـ الجوهر المكنون (فى الطب) .

---

17 ـ التجارب المشار اليها مفصلة فى الرحلة . ولعل هذا الاهتمام بالتجارب العلمية ، والطب خاصة ، هو الذي جعل الدكتور ليكيرك ينعته بآخر ممثل للطب العربي . انظر كتابه (تاريخ الطب العربي) ج 2 ، باريس ، 1876 ص 310 وقد اعتبره الدكتور كولان صاحب عقلية بعيدة عن الخرافات فى عصر سادت فيه الشعوذة وضعف استخدام العقل ، انظر كولان ، ص 39 .

18 ـ هذه الكتب مذكورة كلها فى الرحلة ، ما عدا الثالث عشر والرابع عشر . وقد ذكر عناوين بعضها ، ولكنه أهمل عناوين الباقي مشيرا الى موضوعه فقط فيقول مثلا بعد ذكر الفرع العلمي المقصود « ولي تأليف فيه » ص

11 ـ بغية الأديب من علم التكعيب واسمه أيضا فتح المجيب فى علم التكعيب .

12 ـ تأليف فى علم البونبة .

13 ـ تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج .

14 ـ تأليف فى الطاعون .

ولابن حمادوش تآليف أخرى فى المنطق مثل (الدرر على المختصر) الذي تحدث فيه على مختصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، وهو الكتاب الذي وافقه عليه وأطراه كل من الشيخ أحمد الورززي المغربي (19) والشيخ أحمد بن عمار الجزائري ، وفى النحو مثل (السانح) وهو شرح على ألفية ابن مالك ، وفى الأدب (ديوان) شعر ، قال انه بناه على الغزل والنسيب والمراثي ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم . كما ترك ابن حمادوش بعض المقامات الأدبية (20) . وهو فى أشعاره وأدبه لا يرقي الى مصاف أدباء بلاده المعاصرين له كابن ميمون وابن عمار وابن علي. وقد أشرنا الى ان الجزء الذي سنتحدث عنهمن الرحلة هو الجزء الثاني ، ومعنى هذا ان له جزءا أول لهذه الرحلة التي قد يكون لها جزء ثالث أو أكثر . ونحن لا نشك فى أن تآليف ابن حمادوش أغلبها ضائع . وان معظمها صغير الحجم ، بالاضافة الى أنها فى جملتها كتب علمية . وليس معنى هذا انه لم يؤلف فى الفقه ونحوه ، ولكن غلب عليه الاتجاه الاول كما لاحظنا .

---

19 ـ كان الشيخ الورززي يتردد على الجزائر ، وقد صحح عليه ابن حمادوش الكتاب المذكور أثناء زيارته للجزائر سنة 1159 هـ ـ 1746 م ، ويبدو أنه زارها مرة أخرى على الأقل سنة 1162 هـ ـ 1749 م ، وخلالها مدحه المفتي الشاعر ابن علي بقصيدة ، أنظر محمد داود (تاريخ تطوان) القسم الاول ، المجلد 3 ، تطوان 1962 ، ص 90 ، وقد ترجم محمد داود ترجمة وافية للشيخ الورززي فى المصدر نفسه ، ص 85 ـ 92 ، وذكر انه توفي سنة 1179 هـ ـ 1765 م .

20 ـ ذكر منها ثلاثا فى الرحلة ، اثنتان منها عن افكار عرضت له فى المغرب أما الثالثة فالظاهر أنه ألفها فى الجزائر .

وقد تجول ابن حمادوش فى العالم الاسلامي من تطوان الى الحجاز . واذا كنا نعرف من الرحلة بعض التفاصيل عن تجـواله فى المغرب فاننا لا نعرف عن تجواله فى الأقطار الأخرى سوى اشارات طفيفة . جاء فى رحلته أنه كان بتونس حاجا عام 1130 هـ ــ 1718 م . ووجـد بعض الباحثين ان ابن حمادوش كان فى مدينة رشيد بمصر سنـة 1161 هـ 1748 م وأخبر هو فى رحلته أيضا انه زار بلاد العرب والعجم والترك بدون تحديد . ومما وصل الينا من آثاره رحلته التي نحـن بصـدد التعريف بها .

ب ــ الرحــلة :

ويغلب على الظن، كما أشرنا، ان اول من نقل عن رحلة ابن حمادوش دون ذكر اسمها هو السيد قونزاليز . فهو أول من أرخ لميـلاد المؤلف بالتاريخ الذي ورد فى الرحلة ، ونقل عنه قـائمة ولاة الجزائر . وفى سنة 1935 كتب الشيخ عبد الحي الكتاني عن الرحلات المغربية (21) وذكر اسم رحلة ابن حمادوش ، ثم جاء السيد محمد داود ونقل عنهـا بعض الفقرات فى وصف ثورة الريفي التي كان ابن حمادوش شـاهد عيان لها (22) وأكد الشيخ الكتـاني أهمية رحلة ابن حمـادوش فى رسالة بعث فيها الى السيد الحاج صادق أثناء كتابة هذا بحثا عن المولد النبوي فى (نحلة اللبيب) لابن عمار (23) . ومنذئذ بدأ اهتمامي بهذه الرحلة . فقد كنت أعد مادة كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) وأصبحت هذه الرحلة تشكل احدى المخطوطات الاساسية التي كان علي ان أطلع

---

21 ــ انظر تقريظه لكتاب (دليل الحج والسياحة) تأليف أحمد بن محمد الهواري ، الرباط ، 1935 ص 295 .

22 ــ (تاريخ تطوان) القسم الثاني ، المجلد الثاني ، تطوان ، 1963 ، ص 224 ــ 226 .

23 ــ (المولد النبوي عند ابن عمار مفتي مدينة الجزائر وشاعرها) مقتطف من (الابحاث المقدمة الى لويس ماسينيون) نشر المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1957 ، ص 270 ــ 292 ، والدراسة بالفرنسية .

عليها لمعرفة أحوال القرن الثامن عشر فى الجزائر . وسعيت للحصـول على نسخة منها فأسعفني صديق مغربي كريم (24) بمصـورة منهـا . وخلال رحلتي الى المغرب فى صيف 1973 اطلعت بنفسي على الاصل فى الخزانة العامة بالرباط ، وهي ضمن مكتبـة الشيـخ الكتـاني رقم 463 (25) .

وتقع مخطوطة الرحلة فى 387 صفحة من حجم المتـوسط (26) ، ومسطرتها 16×12 وتحتوي كل صفحة على حوالي 22 سطرا . ويبدو لي بعد البحث أن عبارة ابن حمادوش فيها تنتهي عند الصفحة 226 ، أما الباقي فلا نقطع الآن بنسبته اليه . وتدل افتتاحية الصفحة الأولى على أن المخطوطة تمثل بداية الجزء الثاني . فهي تبدأ بعد الحمدلـة والبسملة والتصلية وذكر اسم المؤلف هكذا : « الجزء الثاني مـن رحلته ... » ولم يرد اسم الرحلة فى المتن وانما أضيف فى الحاشيـة وكتب هكذا : « لسان المقال فى النبأ عن النسب والحسب والآل » (27) . وبداية تاريخ هذا الجزء هو غرة عام 1156 هـ الموافق 14 فبراير سنة 1743 م ، ويمثل التاريخ المذكور بداية رحلته الى المغرب ، وآخر تاريخ مذكور فيها (على فرض صحة القسم الذي لم نقطع بنسبته اليه) هو سنة 1160 هـ – 1747 م ، ذلك أننا نجده فى السنة الموالية بمصر .

24 – هو الدكتور عباس الجراري الذي يجب علي أن أسجل هنا اعترافي له بالجميل .

25 – رغم حرصنا فاننا لم نهتد الى وجود نسخة أخرى من رحلة ابن حمادوش . واذا ثبت أن السيد قونزاليز قد استعمل الرحلة كما أشرنا فمن المحتمل أن يكون قد اطلع على نسخة أخرى منها .

26 – أرقام الصفحات مضافة بقلم الرصاص ، وهي المعروفة بالأرقام العربية .

27 – الكلمة الاخيرة غير واضحة فى الرسم ، وقد اثبتناها «الآل» لمناسبة معناها الى ما قبلها ، ومن الممكن قراءة رسمها « المال » وبه أخذ محمد داود (تاريخ تطوان) القسم الاول ، المجلد 3 ، تطوان 1962 ، ص 148 ، وقد رأى محمد داود ، كما رأى الكتاني من قبل ، بان الرحلة مكتوبة بخط مؤلفها الذي وصفه هكذا « الفقيه المدرس المؤلف المشارك التاجر المتجول » . ويمكن قراءة الكلمة أيضا الحال .

وعلى أية حال فان الرحلة مبتورة الآخر ، ومن ثمة لا نعرف بالتدقيق اسم كاتبها أو ناسخها ولا مكان ذلك .

و (لسان المقال) مكتوبة بخط واضح وحبر أسود باستثناء بعض العناوين والأسماء فانها كتبت بالحبر الأحمر ، وهي مكتوبة بأسلوب بسيط غير مسجوع ، ما عدا المقامات المشار اليها . وقد رتبها المؤلف على السنوات والشهور والأيام . ومن الطبيعي أن تظل بعض الأيام والشهور أحيانا غير واردة فى الرحلة ، وهي فى شكل مذكرات أو يوميات كان المؤلف يسجل فيها الأحداث والمشاهدات بصيغة الماضي فى غالب الأحيان . وقد أكثر فيها الحشو والاستطراد والنقول من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين . والغالب على الظن أن الرحلة ما تزال بخط مؤلفها (28) وأنها كذلك ما تزال فى شكل مسودة . ولا ندري الى الآن متى ولا أين كتب ابن حمادوش هذا الجزء . وتوجد تعاليق على المخطوطة يعود بعضها الى منتصف القرن الماضي (29) ، وتدل بعض هذه التعاليق على أن المخطوطة كانت عندئذ فى الجزائر قبل انتقالها الى المغرب . كما يوجد على صفحتها الأولى اسم مالكها الأول ، على ما يظهر لنا ، وهو السيد « الحاج علي بن الحاج سعيد » الذي لا نعرف الآن من أمره شيئا .

ويمكن تقسيم المحتوى العام للرحلة الى ثلاثة أقسام هي :

1 ـ قسم المغرب وهو من صفحة 2 ـ 75 ، وهذا القسم هو الذي يصح أن نسميه « رحلة » .

---

28 ـ بذلك قطع عبد الحي الكتاني ، أنظر (دليل الحج والسياحة) ، ص 295 .

29 ـ آخر تاريخ مذكور فى التعاليق بالنسبة للجزائر هو سنة 1233 هـ 1817 ـ 1818 م عن وفاة الداي علي باشا ، وبالنسبة للدولة العثمانية عند وفاة السلطان محمود الثاني سنة 1255 هـ ـ 1839 م ، وتولية ابنه عبد المجيد فى العام نفسه ، أما بالنسبة لروسيا .فقد ذكر المعلق أن نقولا الاول (سماه نكول راى الموسك) قد توفى سنة 1271 هـ ـ 1855 م .

2 ـ قسم عن المؤلف نفسه فى الجزائر ، وهذا القسم ترد أخباره مفرقة ضمن قصص واستطرادات ، وهو عبارة عن مذكرات وحوادث يومية عن قراءاته وملاحظاته ونشاطه .

3 ـ قسم يتضمن نقولا كثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين : مثل الاكتفاء لابن الكردبوس ، وكتاب تاريخ الدول للملطي وأنس الجليل للعليمي ، بالاضافة الى مجموعة من عقود الزواج على عادة أهل مدينة الجزائر . وكذلك مجموعة من الأسانيد والاجازات والقصص العامة كقصة الفيل وقصة العنقاء .

والمنهج الذي سار عليه ابن حمادوش يجعل عمله غير منسجم وغير متماسك . ذلك أنه لا يكاد يربط بين أجزاء الرحلة سوى الترتيب الزمني . وقد لاحظنا أنه قد اتبع طريقة السنوات . واذا أخذنا بالنص الموجود عندنا فالرحلة لا تكاد تتجاوز خمس أو ست سنوات من عمر المؤلف الطويل الذي تجاوز بحسب بعض الاراء ، تسعين سنة . وعلى كل حال فانه كان يحشو كل سنة بأخبار ووقائع تتعلق بشخصه فى الغالب ، واذا ما أفاض فى الحديث عن قضايا أخرى فانه يفعل ذلك اما عن طريق المصادفة كما فعل بذكره أسماء ولاة الجزائر وأسماء سلاطين آل عثمان ، واما لعلاقتها بشخصه كحديثه عن ثورة أحمد الريفي التي كانت لها عواقب على سير رحلته ، فالمحور اذن هو شخص المؤلف .

وقد اعتاد ابن حمادوش أن يؤرخ بالتاريخين الهجري الذي يسميه العربي ، والميلادي (الشرقي أو الفلاحي) . وكان يؤرخ نادرا بالتاريخ الاسكندري . ولكن سنوات الانتقال التي تشكل فى الواقع أبواب الرحلة أو فصولها ، كانت بالتاريخ العربي . ويجهد المؤلف نفسه فى الأمانة والدقة ، واذا أعوزه ذلك يذكره هكذا « وجدته مقيدا » ، واذا نقل ونسي العبارات المنقولة قال « هذا ما تعلق بذهني وان كان

عبرت بعبارة غير عبارة المؤلف » ، واذا كان غير متأكد من خبر سمعه عن فلان سجل ذلك بأمانة قائلا : « ولم أدر كيف كتب ولا ما صنع انما بلغني » . وحين عجز عن أن يأتي بجواب لاحدى المسائل ترك بياضا في النص مضيفا « فمن وجده (يعني الجواب) فليلحقه هنا في هذا البياض ، وما تركته بياضا الا لأجله » ومع ذلك فان ابن حمادوش كان يفتخر أحيانا بمعارفه وشرفه على معاصريه . فكثيرا ما كان يذكر النوازل التي شارك فيها برأيه ، وينتهي فيها بتسجيل انتصاره على مخالفه بشيء من الزهو ، واصفا مخالفه بادعاء العلم وضعف العارضة وقصر النظر . وكان يذكر مناظرته ومناقشته لشيوخ عصره حتى الذين أجازوه منهم . وقد بالغ في الافتخار بشرفه أمام المفتي الحنفي ابن علي ، مخاطبا له بشعر ركيك لا يرقى أبدا الى مكانة شعر خصمه البليغ .

ومصادر ابن حمادوش نوعان : التجربة الشخصية والنقل ، وقد غلب عليه الأول . ذلك أن أكثر ما روى من أحداث في رحلته قد شاهده عيانا أو عاشه . فالتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية التي تُحدث عنها في المغرب والجزائر كان مصدرها بالدرجة الأولى التجربة الشخصية . أما النقل فان ابن حمادوش كان يأخذ بالمشافهة والسماع أو بالاعتماد على الوثائق المكتوبة . فهو كثيرا ما يقول عن أخباره انها بلغته أو سمعها . وقد أكثر من النقل عن صحيح البخاري ، وتاريخ ابن الكردبوس ، وتاريخ العليمي ، والقانون لابن سينا ، وتاريخ الملطي ، ومقالات اقليدس ، ومنطق السنوسي وغيرها . كما نقل كثيرا من فهرس البناني المغربي ، ومن أسانيد الصباغ الاسكندري (اذا صحت نسبتها الى الرحلة) ، ومن عقود النكاح التي كتبها علماء الجزائر .

* * *

وبالاضافة الى الأضواء التي تلقيها الرحلة على حياة المؤلف فان الجزائر والمغرب تحتلان فيها مكانا بارزا . وقد سبق لنا أن ذكرنا شيئا

منها بخصوص النقطة الأولى (حياة المؤلف) ، وبقي علينا أن نفصل الحديث قليلا عن النقطة الثانية . ولنبدأ بالجزائر .

أورد ابن حمادوش مجموعة من الأخبار الهامة عنها ، تساعد الباحثين فى أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية خلال القرن الثامن عشر . من ذلك ما أورده من أن النصارى (دون تحديد ، ولعله يقصد الاسبان) رفضوا قبول فدية المسلمين الذين كانوا أسرى عندهم ، ولا سيما مشاهير الرياس مثل ابن الحاج موسى ، وأدى هذا الموقف الى غضب الباشا الذي قرر غلق كنيستهم وهدد بهدمها ان لم يقبلوا بالصلح . ولم يخبر ابن حمادوش بما وقع بعد ذلك ، واكتفى بالقول : « وها نحن منتظرون ما يقع » . ومما رواه بشأن علاقة باشوات الجزائر بالسلطان العثماني أن الأخير قد أرسل مندوبا عنه الى الجزائر ، فلم يرحب به المسؤولون ولم يستقبلوه فبات ليلته فى المرسى ثم دخل المدينة وحده . ورغم أن الباشوات قد استبدوا بالحكم ، كما ذكر ابن حمادوش ، فانهم ظلوا يهادون السلطان ويسترضونه . وآخر من فعل ذلك هو ابراهيم باشا المعاصر للمؤلف ، فهو الذي أرسل سنة 1158 هـ (1745) الى السلطان أربعين نصرانيا وثمانية مكاحل وأشياء أخرى ثمينة انتظارا أن يرسل له السلطان بالفرمان .

وابراهيم باشا هو آخر سبعين باشا من الولاة العثمانيين بالجزائر الذين أورد ابن حمادوش قائمة بأسمائهم ، مبتدئا باسحاق باشا سنة 915 هـ 1509 م مرورا بعبد الله بيلك باش الذي قال عنه انه أول من استبد بالملك سنة 1064 هـ (1653) . ومن أخبار هؤلاء الباشوات فى الرحلة : رفع الأعلام الخضر على الصوامع عند تولية أحدهم ، وحمل جثمان الميت منهم الى الجامع الكبير للصلاة عليه وقراءة القرآن ، وشيوع الفساد بينهم حتى ان ابراهيم باشا المذكور كان مع أهله على سفاح قبل التولية ، وبعدها نصحه مستشاروه بافشائه مخافة اشاعة الفسوق بين

الناس ، وأتباعهم قاعدة الحجر الصحي على الحجاج ، وتوقيعهم الصلح مع الدانمارك سنة 1159 (1746) ووقوع ثورة ضدهم في بلاد زواوة سنة 1158 (1745) ، وفرار باي معسكر الى الاسبان بوهران سنة 1159 (1746) بتوريط من أحد أثرياء اليهود بمدينة الجزائر ، ولجوء بن الثائر أحمد الريفي ومحمد باي ومحمود باي التونسيين الى الداي براهيم باشا .

ويمكن للباحث الاجتماعي أن يجد في الرحلة مادة ثرية أيضا . فقد ذكر المؤلف صيغة صلوات وأدعية معهودة عند أهل الجزائر عند ختم صحيح البخاري ، يرش أثناءها الخدم ماء الورد على الحاضرين بالجامع الكبير ، كما ذكر عاداتهم ليلة القدر وليلة المولد النبوي . فقد كان متولي الجامع الكبير يفرغ ليلة القدر قنطارا أو أكثر من الشمع يفرقه على ثلاثين شمعة خضراء ، ثم يطاف بهذه الشموع في اتجاه دار المنفي أو الوكيل . ومنها الى دار الامارة عبر الشوارع المزينة ، وهم يرفعون أصواتهم بالأناشيد الدينية ، ثم يعودون الى الجامع من طريق أخرى . وكان يقام مثل ذلك في ضريح عبد الرحمن الثعالبي أيضا . وعقد المؤلف مقارنة بين عادات المولد النبوي في الجزائر والمغرب . ومن العقود التي أوردها نعرف نوع العملة السائدة عندئذ ، ونوع الصداق ، وامكانيات كل طبقة في ذلك . ويجد دارسو الحياة النسوية والمنزلية ضالتهم في القفاطين الملفية أو الأطلسية وأنواع الجواهر ، واماء السودان ، وقناطر الصوف ، وغيرها مما كان يقدم صداقا للزوج حسب حالها الاجتماعي ، وحسب سنها أيضا بكرا أو ثيبا . وهذه الجوانب من الحياة الاجتماعية هي التي ما يزال يفتقدها الباحثون في تاريخ الجزائر .

وقد تكون أخبار ابن حمادوش الثقافية أكثر أهمية من أخباره لسياسية والاجتماعية . ومن حسن الحظ أن المؤلف قد أورد طائفة منها حول هذا الموضوع تعتبر نادرة في بابها لأنه المصدر الوحيد الذي يكشف عنها . ومن العلماء الذين أطال ابن حمادوش الجلوس اليهم

وأكثر من القراءة عليهم محمد بن ميمون قاضي المواريث في وقته ، وهو الذي كان ، حسب رأي تلميذه ، يتقرب الى السلطة الحاكمة ، ويجعل من داره منتدى يجتمع فيه العلماء والأدباء (30) .

وقد أشرنا الى الخصومة التي وقعت بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي . ولم نذكر أن الأول قد يكون افتخر بشرفه عليه لأن ابن علي كان من أصل كرغلي . وسبب الخصومة على ما يذكر ابن حمادوش غضب ابن علي من عدم قيام ابن حمادوش احتراما له .

وبينما كانت علاقة ابن حمادوش بابن علي غير حسنة كانت علاقته بالأديب الشاعر أحمد بن عمار جيدة . فهذا هو الذي كتب له تقريظا ، نثرا وشعرا ، لكتابه (الدرر على المختصر) ، كما كانت علاقة ابن حمادوش حسنة مع العالم عبد الرحمن الشارف الذي كتب له (لابن حمادوش) شهادة على تصحيحه الكتاب المذكور على الشيخ أحمد الورززي المغربي (31) . ولا نريد هنا أن نطيل في أخبار علماء عصره الذين وردت أسماؤهم في الرحلة ، وحسبنا ذكر بعضهم سريعا ، فمنهم : المفتي محمد ابن حسين (32) ، وقاضي قسنطينة محمد الحنفي (33) ، والمفتي عبد الرحمن المرتضى (34) ، والمفتي الحاج محي الدين الزروق (35) ، (وهو آخر المفتين المالكية الذين يرد اسمهم في الرحلة) .

---

30 ـ ابن ميمون هو الذي أشهر زواج الباشا ابراهيم بعد أن كان سريا ، وكان عندئذ قاضي المواريث ، فكان الأمر لا يعنيه لأنه ليس من اختصاصه بل من اختصاص قاضي القضاة . وقد أعلن ابن حمادوش بعد هذه القصة بأن شيخه ابن ميمون أراد بذلك التقرب من الباشا . وكانت دار ابن ميمون هي التي وقعت فيها الخصومة بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي .

31 ـ صححه عليه أثناء زيارة الورززي الاولى لمدينة الجزائر سنة 1159 .

32 ـ هو الذي كتب لابن حمادوش رسالة تعزية في ولده ، وقد أوردها ابن حمادوش حرفيا في الرحلة ، وهي من جيد الرسائل في بابها .

33 ـ جاء مدينة الجزائر وقرأ على ابن حمادوش شرح الحباك في الاسطرلاب للسنوسي .

34 ـ كان صهرا للمفتي سعيد قدورة ، وقد أورد ابن حمادوش نص عقد زواجه كنموذج لما كتب الشيخ العالم الأديب محمد بن عبد المؤمن سنة 1087 هـ ـ 1676 م .

35 ـ من الذين سمعوا (بتشديد الميم) ابن حمادوش صحيح البخاري بالجامع الكبير .

والقاضي ابن المسيسني ، وهناك بالاضافة الى ذلك عدد آخر من القراء والأدباء الذين لم يكونوا عندئذ أصحاب مناصب . ولكن كانوا من رجال العلم ، نذكر منهم : أحمد العمالي ، ومحمد بن سيدي الهادي ، وأحمد البوني ، وابنه أحمد الزروق ، ومحمد بن المسيسني (أخو القاضي المذكور) وأبو القاسم بن يوسف الحسني ، وعبد الملك بن ابراهيم ، والحاج أحمد بن مسعود . وكان ابن حمادوش يقرأ مع بعض هؤلاء ، ويتراسل مع آخرين منهم ، وكانوا جميعا يكونون في الواقع نوعا من الطبقة المثقفة التي تتعايش وتتصاهر وتتنافس طموحا الى السلطة والجاه .

* * *

واحتل المغرب كذلك مكانا بارزا في رحلة ابن حمادوش . فقد سجل فيها بعض نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية . والظاهر أن المؤلف كان يتردد على المغرب للتجارة وطلب العلم . فقد أشار في رحلته الحالية التي بدأها سنة 1156 هـ 1743 م الى أنه كان في المغرب سنة 1145 هـ (36) ، — 1732 م . ونحن هنا تهمنا الرحلة الثانية لأنها هي التي ترك لنا فيها وصفا حيا لأحوال المغرب . والظاهر أن اقامته هناك لم تكن رغدة هنية ، فقد سجل بعد عودته الى الجزائر ما يلي : « وكنت تعبت .. في المغرب من مرض وخسارة وضيق ، ولم أر قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة ، والعياذ بالله ، حتى أيقنت الهلاك » (37) . ولعل من أسباب ضيقه وخسران تجارته انتظاره أكثر من أربعة أشهر لاحدى السفن التي تقله الى الجزائر (38) .

36 — اشار الى ذلك اثناء حديثه عن سوء معاملة حرس السلطان مولاي عبد الله له (في ولايته الاولى) عندما أراد أن يتقدم بين يديه بقصيدة مدح ، فعدل عن ذلك .

37 — الرحلة 76 .

38 — في كل مرة تصل السفينة التي ستقلهم تتحطم . وقد ذكر أن ميناء تطوان عندئذ مشهور بحوادث تحطم السفن . ومما يذكر أن ابن حمادوش قد ذهب الى المغرب وعاد منه في سفينة فرنسية كان قد اكتراها التجار الجزائريون .

وأهم حادث سياسي طغى على قلم ابن حمادوش في المغرب هو ثورة أحمد الريفي ، باشا تطوان ، على مولاي عبد الله سنة 1156 هـ 1743 م ويعود اهتمامه بهذه الثورة الى سوء معاملة رجال الريفي له عند نزوله بمرسى تطوان . فقد اشتطوا ، في نظره ، في طلب المكوس منه على سلعته التي جاء بها من الجزائر . كما يعود اهتمامه بها الى أنه عانى من آثارها أثناء مروره في الطريق من تطوان الى مكناس ، ثم من هذه الى فاس والعودة . وهناك سبب آخر يعود الى أن الريفي قد ادعى الشرف ،

وثار على شريف أصيل ، في نظر ابن حمادوش ، وهو السلطان الشرعي ، بينما هو (ابن حمادوش) كان يتمسك كثيرا بالشرف . كما مر بنا . ولما كان ابن حمادوش شاهد عيان لأحداث ثورة الريفي (أسبابها ، ومراحلها ، ونتائجها ، وآثارها) فقد وصفها وصفا دقيقا مفصلا ، وكانت عواطفه في أحكامه ضد أحمد الريفي . فقد وصفه « بالنطفة الفاجرة المفسدة في الأرض » ، واعتبر هزيمته ومقتله من الألطاف (التي حلت) بهذه البلاد . وقد تضمن وصفه أيضا الحديث عن جيش مولاي عبد الله وأنصار الفريقين ، والغنائم التي حصل عليها السلطان بعد مقتل الثائر الريفي .

وتحدث ابن حمادوش عن بعض العادات والتقاليد التي شاهدها بالمغرب . من ذلك عادة المكس بميناء تطوان التي اعتبرها عادة قبيحة ، وتحدث عن زيارته لقبر سيدي الريفي وأخذه العهد من خادم الضريح ، ووصف الطريق من تطوان الى فاس عبر مكناس ، وشاهد هناك الطيور التي لا تلد الا فوق الماء ، وحصاد الشعير في شهر أبريل . واستعمال قوارب البردي للنقل النهري ، وسجل اعجابه بنظام توزيع مياه مدينة فاس وجمال بساتينها ودورها ، وقارن بين عادات الفاسيين وعادات الجزائريين في الاحتفال بالمولد النبوي كاستعمال قباب الشمع ، وتحدث عن عادة أهل فاس يوم العنصرة بأكلهم ألية الضأن بالقرفة

المكسكسي ، وعن لباس النساء والرجال هناك أثناء الاحتفال ، كما وصف لباس السلطان الذي قال انه كلباس أهل مكة . ولم يخل حديثه من نقد لاذع لبعض العادات التي كانت في نظره غير مستحسنة .

وتضم الرحلة أسماء وأعمال مجموعة من علماء المغرب : بعضهم التقى بهم وقرأ عليهم وأجازوه ، وبعضهم سمع بهم أو أخذ عنهم بطريق غير مباشر . وفي طليعة هؤلاء محمد بن عبد السلام البناني . فقد حمل اليه ابن حمادوش أمانة (لم يكشف عنها) من الجزائر وحضر دروسه وخاطبه بقصيدة ، وحصل منه على اجازة . ودرس كذلك على الشيخ أحمد الورززي في تطوان والجزائر وأجازه هذا في المدينة الأولى . والظاهر أن الشيخ الورززي كان يتردد على الجزائر . كما كان ابن حمادوش يتردد على المغرب ، وقد أثبت ابن حمادوش أن الورززي كان معتزليا ، تقليدا لرأي البناني في مواطنه . وقد تدخل الشيخ الورززي لصالح ابن حمادوش لدى سلطات الميناء عند مغادرته تطوان (39) .

وممن أجازوه أيضا أحمد السرائري (40) الذي نزل ابن حمادوش بفندقه . وأقرأ ابن حمادوش في تطوان الشيخ عبد الله جنان . أما في مكناس فقد التقى بالشيخ عبد السلام القباب والشيخ عبد القادر الفاسي ، لكن خاب ظنه في علم الاثنين فلم يحصل منهما ، حسب رأيه ، على طائل ، غير أنه قد أعجب ببعض علماء فاس ومن هؤلاء الحكيم عبد الوهاب أدراق (41) ، طبيب مولاي اسماعيل وأولاده . وأثنى على الشيخ أحمد المبارك واستجازه ففعل . وعندما توفي ابن المبارك رثاه ابن حمادوش بقصيدة ضعيفة لكن صادقة ، وقد اعتبر نفسه أول من

---

39 ـ بفضل تدخل الورززي اعفيت سلعة ابن حمادوش من الضرائب .

40 ـ وجده ابن حمادوش قد توفي اثر عودته من فاس الى تطوان .

41 ـ حضر ابن حمادوش مجلسه الذي قال عنه انه يشبه مجالس الملوك ، وقدم له قصيدتين من سخيف الشعر .

رثاه . وشهد له على اجازة ابن المبارك له الشيخ القاضي عبد الهادي
ابن العربي بوخريص . ولا نشك فى أن ابن حمادوش قد التقى بعلماء
آخرين من المغرب واستفاد منهم سواء فى رحلته التي نحن بصدد الحديث
عنها أو رحلاته الأخرى .

***

واذا كانت أخبار الرحلة تكاد تقتصر على الجزائر والمغرب وشخص المؤلف فانها لا تخلو من معلومات أخرى عـامة ومن ذلك نقوله عن المتقدمين فى تاريخ الاسلام وتاريخ القدس وتاريخ الأطباء والقصص الطريفة التي جاء بها عرضا . ومنه أيضا ما جاء فى الرحلة عن فرار محمد باي من ابن عمه صاحب تونس ، وحديثه عن امام أحد مساجد سوسة وهو يشرح لصاحبه أصل اختراع العود والنغمات الموسيقية (42) . واستطرد أثناء الحديث عن ولاة الجزائر فذكر أيضا « ملوك آل عثمان » مبتدئا بعثمان خان سنة 641 هـ — 1243 م ، ومنتهيا بمحمود خان عام 1143 هـ — 1730 م مشيرا الى أنه « باق الى الآن » ، وهو يعني بذلك سنة 1158 هـ — 1745 م .

***

ان أهمية رحلة ابن حمادوش لا تحتاج الى طول نظر . فهي أولا جزء هام من تراث الجزائر العربي الاسلامي الذي طالما نفاه الدارسون الأجانب و شككوا فى قيمته . وهناك علماء جزائريون آخرون عاصروا ابن حمادوش قد تركوا رحلات ، مثل ابن غمـار صـاحب (نحلـة اللبيب) (43) والورثلاني صاحب (نزهة الأنظار) (44) ، ولكن رحلة

42 — بناء عليه ان أصله يعود الى ان ساقا لشخص آدمي قد توفي وظل بالعراء ، فيبست الساق وتلاشى اللحم منها لكن بقيت العروق فهبت نسمة فحركت العروق فأحدثت نغمات موسيقية .

43 — طبع فى الجزائر ، سنة 1904 .

44 — حققها ونشرها محمد بن أبي شنب ، الجزائر 1908 .

ابن حمادوش تمتاز بأنها رحلة مغربية لا مشرقية ، وهي خالية من الصنعة الأدبية التي لجأ اليها ابن عمار والخرافة والكرامات التي امتلأت بها رحلة الورثلاني . كما أن ابن حمادوش كتب بأسلوب سهل بسيط يكاد يقترب من أسلوبنا اليوم ، وقلما التجأ الى التصنع ، ومع ذلك فهو لم يسف أسفاف ابن المفتي فى (تقييداته) (45) ، ولم يبالغ مبالغة ابن سحنون فى الثغر الجماني (46) ولم يتأنق تأنق ابن ميمون فى (تحفته) . وكل هؤلاء كانوا معاصرين له .

ورغم ضعف المنهج الذي اتبعه ابن حمادوش وكثرة الحشو والاستطراد فى الرحلة ، فان عمله سيظل مصدرا لا غنى عنه لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية فى مجتمع الجزائر والمغرب خلال القرن الثامن عشر . وقد تعرضنا الى نماذج من هذه النواحي فى الرحلة . وتزداد قيمة الرحلة عند الباحثين باعتبارها أيضا مصدرا من مصادر حياة المؤلف ، بل لعلها المصدر الوحيد المعروف عنه الى الآن وقد ظلت حياته مجهولة قبل اكتشاف هذه الرحلة . ولو أمكن الاطلاع على الأجزاء المفقودة منها لعرفنا ، لا الجوانب المجهولة من حياة المؤلف فقط ، ولكن تفاصيل اضافية عن تطورات المغرب العربي والمشرق أيضا خلال القرن الثامن عشر . وتضم الرحلة بالاضافة الى ذلك مادة كبيرة من أسماء الأماكن وبعض التراكيب العامية ، كما تحفل بأخبار العلماء الذين لا نجد عنهم فى غيرها سوى النزر اليسير مثل ابن عمار وابن ميمون ، ولعل منهم بعض علماء المغرب أيضا . وستظل النقول والاجازات

---

45 ـ صاحب هذه التقييدات مجهول الاسم ، ويعرف فقط بابن المفتي (وكان والده مفتيا وهو حسين بن رجب شاوش) . وهي مكتوبة بلغة هي الى الدارجة أقرب منها الى الفصحى حسب الذين اطلعوا على نصها . انظر نور الدين عبد القادر (صفحات) ص 274 ـ 286 وقد ترجمها الى الفرنسية السيد ج . ديلفان ونشرها فى (المجلة الآسيوية) المجلد 19 (أبريل ـ جوان 1922) ، ص 116 ـ 233 . انظر ايضا السيد ديفوكس (المجلة الافريقية) (1869) ص 459 ـ 460 .

46 ـ نشره الشيخ المهدي البوعبدلي باشراف وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ، 1973 .

والعقود والأسانيد التي أوردها ابن حمادوش في الرحلة مصدرا كبيرا الأهمية لدراسة الأدب والتاريخ وتراجم الرجال ، كما ستظل مـــادة للمقارنة والدرس .

وهذه الأهمية لرحلة ابن حمادوش هي التي جعلتنا نقدم على دراستها وتحقيقها . كما جعلتنا نسهم بهذا المختصر عنها وعن حياة صاحبها في هذا المؤتمر .

الجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830

مقـــدمة : *

خلال أكثر من ثلاثة قرون ظلت الجزائر قوة بحرية تسيطر على غربي البحر الأبيض المتوسط وعلى أجزاء مختلفة من شواطىء المحيط الأطلسي ، وفى سنة 1830 بعثت فرنسا بحملة عسكرية ضدها تتج عنها استيلاء الجيش الفرنسي على مدينة الجزائر ، ثم واصل حروبه الى أن أعلنت الجزائر جزءا من فرنسا .

وقد ساهم فى أسباب هذه الحملة كل من الظروف العالمية والحالة الداخلية فى فرنسا والجزائر معا . وسواء كانت هذه المساهمة مباشرة أو غير مباشرة فانها قد أدت بالملك الفرنسي الى أن يخطط الحملة ضد دولة مستقلة تقع على الشاطىء الآخر من البحر الأبيض .

ومن الطبيعي أن تكون أسباب الحملة الفرنسية محل نقاش وجدل. والى حد الآن فان تفسير تلك الأسباب يبدو واضحا من وجهة نظر المصالح القومية ووجهة النظر الشخصية للمـؤلف الـذي يتنـاول الموضوع . وليس هناك مؤلف ، حسب علمي ، قد تناول الموضوع بموضوعية وبدون محاباة .

---

* كتب هذا البحث بالانكليزية سنة 1962 اثناء وجودي بامريكا كجزء من واجبات الحصول على الماجستير فى التاريخ والعلوم السياسية . وقد قدمته الى الاستاذ الدكتـور توم ب . جونز الاستاذ بجامعة منيسوتا . ثم ترجمته الى العربية ونشرتـه مجلـة (الجيش) عدد اكتوبر ونوفمبر 1970 — فى حلقتين — .

فالمؤرخون ، والسياسيون ، والاستعماريون كانوا ، طبيعيا ، أكثر الناس اهتماما بالشؤون الجزائرية . ولعل هذا راجع الى أن الدساتير الفرنسية قد أعلنت بطريقة اعتباطية أن « الجزائر جزء لا يتجزأ من الوطن الفرنسي » . وقد نقل الكتاب الآخرون ، ولا سيما البريطانيون، وجهات النظر الفرنسية دون مناقشة . أما الكتاب الجزائريون فهم قسمان : قسم قد اتبع وجهة النظر الفرنسية ، لكي تنشر وتقرأ الكتب التي يؤلفها ، وقسم كان شجاعا فتناول الموضوع من وجهة نظر وطنية وقد كان هذا القسم محابيا أيضا لأنه لم يدرس القضية بموضوعية .

ولكي أدرس الوضع وأفهم الظروف التي أدت الى القيام بعمل هام مثل الحملة الفرنسية ، كتبت هذا البحث ، أما البيبلوغرافية فهي فرنسية في أكثرها ، ولكنها تحتوي على بعض المراجع بالانكليزية والعربية . وقد وضعت التعاليق والملاحق في آخر البحث .

منيسوتا ، أبريل 1962

1 ـ ملامــح الجــزائر

كانت ملامح الجزائر ، من 1516 الى الاحتلال الفرنسي 1830 ، متشابهة على العموم ، فالمجتمع القديم ، أو ما يسمى فى أوروبا بالعهد القديم كان مطبقا فى الجزائر بطريقة كادت تكون كاملة . ولعل الفرق الوحيد هو أن الجزائر تقع فى أفريقيا وليست فى أوروبا ، وقد سمع الجزائريون بالثورة الفرنسية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا لتطبيق مبادئها فى وطنهم . فقد أقرضوا نابليون النقود ومونوه لكي يواصل حروبه فى أوروبا أما نابليون نفسه فقد كان يخطط لاحتلال الجزائر وبسط دولته على شمال أفريقيا (1) .

ان المؤرخين لا يتفقون على نوع الحكومة التي كانت تحكم الجزائر خلال الثلاثة قرون المشار اليها ، فقد قال بعضهم بأنه كان لها حكومة أو جمهورية عسكرية (2) . وقال آخرون بأنه كان لها نظام ملكي ، وتحدثوا فى كتبهم عن مملكة الجزائر ، ومهما كانت العبـارة التي استعملها أولئك وهؤلاء فان الجزائر كانت محكومة بشخص هو الداي الذي كان منتخبا من الديوان (البرلمان) مدى الحياة . وكان الداى يحكم بواسطة وزراء معينين تعيينا ، بما فى ذلك المراكز التالية : وزارة البحرية والشؤون الخارجية ، ووزارة الحرب ، ووزارة المـاليــة

---

1 ـ انظر رسالة نابليون الى أمير أسطوله (1808) فى كتاب « الجزائر وماضيها » ، ص 184.

2 ـ من هؤلاء ويليام شيلر الذي قال : « انها فى الحقيقة جمهورية عسكرية على رأسها حاكم منتخب مدى الحياة وعلى نحو شبيه بالامبراطورية الرومانية بعد موت كومودوس » ، انظر كتابه « مختصر الجزائر » ، ص 16 .

والداخلية ، ووزارة الاوقاف والبريد (3) . وكان الداي يعين أيضا ولاة الأقاليم الثلاثة التي كانت تتكون منها الجزائر فى ذلك الوقت ، وهي : اقليم قسنطينة ، اقليم وهران ، واقليم التيطري .. وبالاضافة الى ذلك فقد كانت هناك مراكز أخرى أقل أهمية ، مثل القضاء ، والافتاء ، ومندوبيات مختلف النواحي .

وقد كانت السلطة عموما فى أيدي تركية من الداي الى الجندي ، وكان الجزائريون يجندون ليخدموا فى الجيش ويعينون فى المراكز الدينية . وكان عليهم أن يدفعوا الضرائب وأن يؤيدوا الدولة . وكانت التزامات اعترافهم بالخلافة باسم الدين تمنعهم من الثورة (4) . وكانوا يعرفون أن الأتراك قد ساعدوهم ضد الأسبان فى القرن السادس عشر . ورغم الالتزامات الدينية والحقائق التاريخية بخصوص الأتراك، فان الجزائريين لم يثوروا ضد السلطة التركية بسبب الاجحاف والظلم والفساد التي كان الأتراك يقومون بها . حقا أن السخط كان شائعا كثيرا ، وسنرى كيف استغل الفرنسيون هذا العمل النفساني ضد الجزائر . وهناك عوامل أخرى منعت الجزائريين من القيام بحركة قوية ناجحة ضد الأتراك ، منها الخوف من المطامح الأوروبية التي كانت غالبا ما تهددهم ، ومنها فقدان الضمير الاجتماعي الذي تحركه طبقة وسطى قوية .

ان الحكم المطلق وتأثير الدين فى كل مظاهر الحياة ، وعدم الوحدة الاجتماعية ـــ هذه كلها كانت ملامح مشتركة « للعهد القديم » الجزائري . وقد كان هناك احترام كبير للتعليم ولكنه كان تعليما

---

3 ـــ قال بعضهم لقد كان هناك ثمانية مراكز . انظر ج . كلوزيل « تاريخ الفتح الفرنسي فى الجزائر » ج 1 ، ص 158 .

4 ـــ من وقت لآخر كانت هناك بعض الثورات . انظر الفصل الاخير من هذا البحث ، والى جانب ذلك ، فان الشعور الوطني ، بل الفكرة القومية عامة لم تكن قد استيقظت بعد ، ذلك أن الشعور الديني كان عندئذ أقوى .

مقتصرا على الدراسات الدينية الخاضعة بدورها الى سلطة الطبقة المتدينة ، وكانت العربية هي لغة الجمهور ، والتركية هي اللغة الحكومية ، أما الفرنسية فقد كانت شائعة بين القناصل الأجنبية ، ولعلها بين النخبة الجزائرية أيضا . وكان الاسلام هو الدين الرسمي والغالب فى البلاد . وكان هناك بالطبع يهود ومسيحيون .

ان المؤرخين الأوروبيين يتحدثون على أن الرق كان مطبقا فى الجزائر على المسيحيين خلال ثلاثة قرون . حتى فرنسا قد استعملت هذه القضية عذرا لحملتها ضد الجزائر ، بل أن كثيرا من المحاولات الأوروبية ضد الجزائر قيل أن هدفها كان تحرير المسيحيين من العبودية ووضع حد لنظام الرق (5) . وسأناقش هذا المشكل فيما بعد حين أتحدث عن علاقات الجزائر مع الدول الأوروبية . وكل ما أريد أن أقول هنا هو أنه يبدو أن المؤرخين الأروبيين لم يفهموا العلاقة بين الدين والسياسة بخصوص نظام الرق ، لأنهم متفقون على أن الجزائر لم تستعمل أبدا الرق ضد أمة صديقة .

فالمجتمع الجزائري كان شبيها جدا بمجتمع جنوب أوروبا ، باستثناء فرنسا ربما . فقد كان هناك الارستقراطيون فى القمة والفلاحون فى الحضيض . وبين القمة والحضيض هناك قلة فى الوسط ، ولكن تأثيرها ضعيف أو لا يكاد يذكر . فتأثير الدين كان أقوى بكثير من أي تأثير آخر . فمجتمع الجزائر كان على غرار مجتمع فرنسا فى العهد القديم ، دون أفكار تنويرية .

5 ـ انظر بخصوص الجزائر وموقف مؤتمر فيينا منها كتاب الكولونيل ر.ل. بليفير ، القنصل البريطاني العام فى مدينة الجزائر « جلادة المسيحية » ، ص 253 . انظر كذلك « بروتوكول مؤتمر ايكس ـ لاشابيل » فى كتاب ويليام شيلر « مختصر الجزائر » ، ملحق حرف هـ ، ص 301 .

اذن فقد كانت الجزائر دولة مستقلة ، وكان لها علم ، وعملة ، وجيش ، وعلاقات دبلوماسية مع الدول الأخرى ولكنها كانت تعترف بالباب العالي أو الخلافة الاسلامية التي كانت تحت السلطة العثمانية ، لأسباب دينية وكانت ترسل هدية الى الخليفة فى اسطنبول فى كل ثلاث سنوات ولكن هذه الهدية لم تكن ضرورية . وبالاضافة الى ذلك فان العلم العثماني لم يكن دائما محل احترام من الجزائر (6) .

2 ـ الجزائر والدول الاوروبية

لقد كان للجزائر أسطول بحري قوي خلال الثلاثة قرون . وكان هذا الأسطول مسيطرا على كامل غرب البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطىء الأطلسي الأفريقية حتى انكلترا . وهذه السلطة البحرية قد فرضت نفسها على الدول الاوروبية بما فى ذلك الولايات المتحدة الامريكية عدة سنين (7) . وكانت الدول الاوروبية الصغيرة (مثل ايطاليا والأراضي المنخفضة ، والبلاد الاسكندنافية) تدفع الجزية للجزائر سنويا وتقدم لها مختلف الهدايا لكي تشيد معها صداقة دائمة وتحافظ على تجارتها نشيطة . أما تلك الدول القوية التي كانت تتحرر من السلطة الاستعمارية ومن حروب المنافسة فى أجزاء كثيرة من العالم ، فقد دفعت هي أيضا الجزية للجزائر فى كثير من الأحيان ولكنها قد دخلت معها أحيانا فى حروب . وقد كانت الجزائر هي المنتصرة دائما خلال هذا الصراع الى الحملة الفرنسية 1830 .

---

6 ـ انظر شيلر ، « مختصر الجزائر » ، ص 18 .

7 ـ كتب شيلر عن هذا العهد (1810 ـ 1812) قائلا ان الجزائريين « كانوا فى أوج القوة والاعتبار . وكانت أعظم الدول البحرية تخطب ودهم وقد كانوا يفخرون بكبرياء بأن قوتهم البحرية لا تفوقها الا قوة بريطانيا العظمى » . انظر كتابه « مختصر الجزائر » ، ص 119 .

ولكي نوضح الصورة حول السياسة الخارجية للجزائر ، نذكر باختصار كيف طبقت هذه السياسة على كل دولة أوروبية على حدة . وسنذكر فى هذا المجال الولايات المتحدة الأمريكية ، ونستثني فرنسا التي سنخصص لها قسما من هذا البحث لأنها تحتاج الى تركيز أكثر فى علاقتها مع الجزائر .

1 ـ الجزائر وامريكا :

ارتبطت العلاقات بين أمريكا والجزائر قبل 1783 . فقد كان لأمريكا مشاكلها الخاصة فى نهاية القرن الثامن عشر . ورغم ذلك فقد بدأت تتاجر مع العالم الخارجي وكانت تريد أن تمد منطقة حركتها الى البحر الأبيض المتوسط . وقد أعلنت الجزائر الحرب ضدها ، وهكذا حجز الأسطول الجزائري سنة 1785 سفينتين أمريكيتين فى عرض المحيط . ونظرا الى أنه لم يكن لأمريكا من الوسائل ما تعالج به هذا الوضع فقد أضافت مادة فى معاهدتها مع فرنسا تقوم بمقتضاها الأخيرة بمساعدتها .

وكل من ج . آدامز ، و ب . فرنكلين و ت . جيفرسن ، الذين كانوا فى أوروبا فى ذلك الوقت ، أعطيت لهم تفويضات من حكومتهم لكي يفاوضوا على معاهدة مع الجزائر . وفى 1793 حجز الجزائريون ، احدى عشرة سفينة أمريكية أخرى فى عرض المحيط وجاءوا بها الى الجزائر العاصمة . وخلال هذه الأثناء كان هناك أكثر من مائة أسير أمريكي فى الجزائر .

وفى سبتمبر 1795 أمضيت معاهدة سلام بين الجزائر والولايات المتحدة اتفقت الأخيرة بمقتضاها على أن تدفع حوالي سبعمائة وخمسة وعشرين دولارا . أما داي الجزائر فقد وافق من جهته على أن يساعد على ابرام معاهدات سلام بين الولايات المتحدة وكل من تونس

وطرابلس . وقد قال بعضهم « ان معاهدة السلام مع الداي قد قبلت بالحفاوة والتهاني فى أمريكا ، لأنها أدت الى اطلاق سراح الأسرى وأمنت التجارة ، ولكنها كانت معاهدة مهينة كثيرا (لأمريكا) لأنها قد كلفت كثيرا من النقود ونصت على جزية سنوية » .

ونظرا الى حربها مع بريطانيا سنة 1812 فان مدخرات أمريكا البحرية قد عانت كثيرا . وعندما عرضت على الداي أن تدفع له النقود بدلا من المعدات العسكرية ، رفض وأعلن الحرب عليها من جديد ، ولكنها بعد أن وقعت السلام مع بريطانيا (1815) ظهرت أمريكا بقوة بحرية جيدة وأرسلت أسطولها أمام مدينة الجزائر لكي يفرض السلام على الداي . وهكذا أبرمت بين الطرفين معاهدة سلام فى مدينة الجزائر سنة 1815 . وقد جددت هذه المعاهدة عدة مرات ، ومنذئذ أصبحت العلاقات الجزائرية ـ الأمريكية عادية وبقيت كذلك الى الاحتلال الفرنسي (8).

2 ـ الجزائر وبريطانيا العظمى :

أما العلاقات بين الجزائر وبريطانيا العظمى فهي أقدم وأكثر تأثيرا من تلك التي كانت بينها وبين أمريكا . ومن جهة أخرى كانت هذه العلاقات أكثر تعقيدا لأن كلا من الدولتين كان قوة بحرية ، وليس هدف هذا البحث متابعة كل التفاصيل المتعلقة بالعلاقات الجزائرية البريطانية ولكن هدفه هو أن يعطي فكرة عن أهمية الجزائر فى هذه الفترة التاريخية ، ولا سيما فى العقلية الأوروبية .

---

8 ـ لزيادة المعلومات عن العلاقات الجزائرية ـ الامريكية ، انظر ويليام شيلر ، (الذي كان ، خلال سنوات طويلة ، القنصل الامريكي العام فى الجزائر) ، « مختصر الجزائر » انظر كذلك « المعاهدات ، والاتفاقات » ، والوثائق الدولية ، والبروتوكولات ، والمواثيق المبرمة بين الولايات المتحدة الامريكية والدول الاخرى من 1776 الى 1909 » ج 1 ، ص 1 ـ 17 . انظر ايضا مجلة « ذي اميريكان ويغ « The Amirican whig » سنة 1851 .

ان الجزائر قد أقامت علاقات ودية مع بريطانيا حتى قبل مجيء الأتراك في أوائل القرن السادس عشر . فأهمية الجزائر الجغرافية والسياسية والتجارية ، قد جعلت بريطانيا وفرنسا تتنافسان بشأنها ولكن الجزائر قد تعاملت مع كليهما واستفادت من هذه المنافسة ، وسأناقش في القسم التالي من البحث ردود الفعل البريطانية من الاستعدادات الفرنسية الهجوم على الجزائر .

لقد تمتعت بريطانيا بامتيازات خاصة لم تتمتع بها الا فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر ، وعلى أية حال ، فانه بينما كانت فرنسا في حرب في أوروبا تحت نابوليون ، أعطت الجزائر تلك الامتيازات الى بريطانيا سنة 1806 بنفس المعاملة التي كانت لفرنسا . وبعد مؤتمر فيينا خرجت بريطانيا منتصرة وهاجم أسطولها في البحر الأبيض المتوسط الجزائر ، دون استشارة الحكومة ، لكي يجبر الجزائريين على اطلاق سراح الأسرى البريطانيين والمالطيين والايطاليين ، ان معركة الجزائر التي جرت سنة 1816 مشهورة في تاريخ البحرية لأن البريطانيين كانوا قد تحالفوا مع هولاندا ومع بعض الأساطيل الايطالية (9) وقد ساومت وناورت في هذه الأثناء دون أن تخسر كثيرا . وفي معاهدة 26 أوت 1817 استرجعت فرنسا امتيازاتها في الجزائر عن طريق المساومة . وسأناقش في القسم التالي من البحث العلاقات الفرنسية ـ الجزائرية بتفصيل أكثر .

وقد استأنف البريطانيون علاقاتهم مع الجزائر وواصلوا تأييدهم القوي لها ضد فرنسا . وبتعاقب الأيام واتتهم فرصة ذهبية حين تصدعت العلاقات الفرنسية الجزائرية في 1827 ، قبل ثلاث سنوات من الحملة . وسنرى كيف وقف البريطانيون من هذا الحادث .

9 ـ لزيادة المعرفة بخصوص معركة الجزائر ، انظر و.ل. بيليفير « جلادة المسيحية » ، ص 258 ـ 277 .

3 ـ الجزائر والدول الاروبية الصغيرة

أما العلاقات بين الجزائر والدول الأوروبية الصغيرة فقد كانت مختلفة نوعا ما . فبعض هذه الدول كانت تدفع الجزية الى الجزائر ، بحيث تدفع لها كمية معينة من النقود أو تتعهد بحماية السفن الجزائرية فى موانيها لكي تقوم بأعمالها التجارية بحرية ، وتؤمن خطوط مواصلاتها لبحرية ، ومن هذه الدول الدانمارك ، والسويد ، وسردينيا ، ونابولي، وغيرها . وقد كان هناك على العموم سلام دائم بين الجزائر وهذه الدول ، أما المجموعة الأخرى من الدول الأوروبية فتشمل أسبانيا والبرتغال وهولاندا ، فهذه الدول كانت تدفع الجزية الى الجزائر فى أغلب الأحيان ولكنها أحيانا كانت تدخل فى حرب معها بطريقة فردية كما فعلت أسبانيا والبرتغال ، أو بطريقة التحالف مع دولة أخرى كما فعلت هولاندا حين دخلت فى الحرب ضد الجزائر بالتحالف مع بريطانيا العظمى سنة 1816 .

1 ـ اسبانيا :

كانت أسبانيا هي أكثر الدول المغضوب عليها من الجزائريين . فكثير منهم كانوا معروفين بالمور : أهالي أفريقيا الشمالية الذين عاشوا فى الأندلس عدة قرون والذين طردهم الصليبيون الاسبانيون أثناء وبعد الحكم الاسلامي فى أسبانيا . وبالاضافة الى ذلك فان الاسبانيين قد طاردوا أولئك المسلمين الفارين فى بداية القرن السادس عشر حين احتلوا وهران ، وبجاية ، وهددوا مدينة الجزائر نفسها .

وعلى أية حال فان العلاقات الجزائرية الاسبانية لم تصل أبدا الى درجة التفاهم . وقد فرضت الجزائر شروطا على أسبانيا مدة حوالي ثلاثة قرون رغم تدخل بريطانيا العظمى ، ونابوليون ، ورغم المحاولات الاسبانية لمحاصرة الجزائر بل حتى مهاجمتها بيأس ، مثلما وقع فى حملة أوريلي سنة 1775 ، والحق أن بريطانيا العظمى قد قدمت مساعدتها لاسبانيا بخصوص وضع الأخيرة مع الجزائر (10) .

2 ـ البرتغال :

لم تكن البرتغال تختلف كثيرا عن اسبانيا باستثناء أن الأولى كانت أضعف ، وأقل ، وأكثر تبعية فى معظم الأحيان لصديقها أو حليفها ، وبهذه الطريقة اضطرت الى دفع جزية سنوية الى الجزائر ، وفى سنة 1810 كان هناك 615 برتغاليا سجينا فى الجزائر .

وقد توسطت بريطانيا العظمى فعمدت الى وضع خطة لتحرير هؤلاء الأسرى ، وذلك بأن تدفع البرتغال الى الجزائر مبلغ 690337 دولارا فدية . وقد نجحت هذه الخطة ، فدفعت البرتغال وأطلق سراح أسراها . لقد كانت البرتغال « تصارع من أجل وجودها السياسي ، وكانت اما تحت رحمة أعدائها الفرنسيين واما تحت السلطة العسكرية لحليفتها » (بريطانيا) .

3 ـ هولندا :

ان العلاقات بين هولندا ودول شمال أوروبا من جهة وبين الجزائر من جهة أخرى لها تاريخ سلمي طويل . فقد دفعت تلك الدول جزياتها الى الجزائر دون خرق للمعاهدات . وقد احترم الجزائريون تلك الدول بعمق نظرا لسياستها السلمية وطابعها الدولي المرموق .

---

10 ـ انظر ج . فاكتون ، ج « الوثائق الاسبانية لحكومة الجزائر العامة » ، ص 1894 .

ونذكر هنا بعض الاحصاءات التي تبين الموارد التي اتصلت بها الخزينة الجزائرية سنويا من بعض الدول الأوروبية ولا سيما فرنسا :

ــ فرنسا (من حق صيد المرجان ، واحتكار الصوف ، والشمع والجلود)	70000	دولارا
ــ ملك نابولي	24000	
ــ ملك السويد	24000	
ــ ملك الدانمارك	24000	
ــ ملك البرتغال	24000	

4 ــ الجزائر وفرنسا :

ان العلاقات الفرنسية ــ الجزائرية كانت قديمة الى حد كبير يسمح باقامة صداقة قوية وتعاون دائم . وقد ظهر هذا التعاون والصداقة فى شكل امتيازات ، وقروض ، ومعاهدات سلام بين البلدين . فمن أوائل القرن السادس عشر أعطيت فرنسا امتيازات فى الجزائر بممارسة التجارة واستغلال بعض المنافع على الساحل . وقد تولت الشركة الافريقية هذه المسؤولية .

وأثناء الثورة الفرنسية كادت هذه الصداقة بين البلدين أن تتوقف . ولكن الجزائر قد واصلت منح فرنسا مساعدات اقتصادية وبالأخص النقود والحبوب . وعندما هاجم نابوليون مصر اضطرت الجزائر (نظرا لالتزاماتها نحو الباب العالي) أن تعلن الحرب ضد فرنسا . وتحت تأثير وترغيب بريطانيا بل لعله نظرا الى تفوق بريطانيا فى البحر جردت الجزائر فرنسا من امتيازاتها على الساحل الجزائري ومنحتها (الامتيازات) الى بريطانيا ، ولكن ذلك لم يدم طويلا . وقد أشرت من قبل الى أن بريطانيا قد هاجمت الجزائر سنة 1816 . ونتيجة لهذا

الحادث ، استرجعت فرنسا فى الحال الامتيازات بمعاهدة 1817 . وبعد ثلاث سنوات أصرت الجزائر على أنه يجب على فرنســا أن تجــدد المعاهدة لاعادة النظر فى طريقة الدفع . وقد توترت العلاقات بين البلدين حتى كادت أن تنقطع . وكان داى الجزائر يواصــل ســؤاله للقنصل الفرنسي بخصوص الدين الذي كانت فرنسا مدينة به للجزائر .

وفى 1827 ، وأثناء حفلة دينية ، وأمام القناصل الأجنبية والهيئات الدبلوماسية المعتمدة جدد الداي سؤاله الى القنصل الفرنسي . ولكن جواب الأخير كان غير مهذب ، فما كان من الداى الا أن فقد توازنه وضرب القنصل على وجهه بمروحة من الريش وأمره بمغادرة المكان (11) وقد اعتبرت فرنسا هــذا التصرف من الداى اهــانة لشرفها وطالبت بالمبررات والتعويضات . وعندما لم تقتنع بالجواب أعلنت حصارا كاملا ضد الجزائر .
ولكن هذا الحصار لم يكن فعالا ، وقد دام ثلاث سنوات بدون نتيجة . وهنا بدأت فرنسا تعد حملتها العسكرية ضد الجزائر . وفى 14 جــوان 1830 نزلت القوات الفرنسية هناك .

هذا هو ملخص العلاقات الفرنسية ــ الجزائرية الذي قد يظهر كيف حولت فرنسا معاملاتها السلمية مع الجزائر الى حرب وحملات عسكرية.

ولكن فرنسا فى الحقيقــة كانت تعد حملتها ضد الجزائر منــذ قبل الثورة الفرنسية . فقد اكتشف فى الوثائق الفرنسية أن هناك مشــروعا غريبا قدم سنة 1729 الى الملك الفرنسي عندئذ بهدف احتلال الجزائر . وفى سنة 1791 كان هناك مشروع غريب آخر يستهدف احتلال الجزائر

11 ــ لقد كذب بعضهم أن يكون الداي قد ضرب القنصل الفرنسي . وهناك آخرون قد اتهموا القنصل نفسه بخلق جو من التوتر بين البلدين .

ويشير بارسال حملة عسكرية الى سيدي فرج على الساحل الجزائري (12) وبعد حوالي 17 سنة (1808) أعطى نابوليون نفسه أمرا الى أميره البحري ، ديكري ، لاعداد مشروع لمهاجمة الجزائر وتونس وفى رسالته الى هذا الامير ذكر نابوليون بأهمية الساحل الجزائري وطلب معلومات كاملة عن الجزائر قبل أن يشرع فعلا فى احتلالها . وقد أشار نابوليون فى رسالته أيضا الى الاخطار التي يمكن ان تكون فى جزيرتي صقلية ومالطة اذا عزم على احتلال الجزائر (13) .

وعلى أية حال فان فرنسا قد استمرت فى علاقتها «العادية» مع الجزائر، وكان هناك تبادل الرسائل والمراسلات بين حكام الجزائر وحكام فرنسا فى مختلف المناسبات . ومن بين حكام فرنسا نابوليون الذي طلب من الجزائر فى أوائل القرن التاسع عشر أن تحترم رعاياه فى ايطاليا . وقد فعلت الجزائر ذلك (14) .

وهنا يمكن أن يتساءل المرء : لماذا غيرت فرنسا سياستها وقررت أن تستعمل القوة ضد الجزائر بدلا من الاحتفاظ بالعلاقات الودية معها ؟ ان الأسباب التي بررت بها فرنسا خطتها ضد الجزائر ستناقش فيمابعد . أما الآن فدعنا ندرس بعض مظاهر الوضع الداخلي فى فرنسا الذي جعل الحكومة الفرنسية ترسل الجيش ضد الجزائر بدلا من ارسال الهدايا والاعترافات بالجميل .

5 ـ الوضع الداخلي فى فرنسا :

لقد أعاد مؤتمر فيينا أسرة البوربون الى عرش فرنسا سنة 1815 ورغم أن الشعب الفرنسي كان قد تعب من الحرب فان أفكار الاصلاح ،

---

12 ـ انظر « الجزائر وماضيها » ، ص 183 .

13 ـ نفس المصدر ، ص 184 .

14 ـ انظر يوجين بلانتي ، « مراسلات دايات الجزائر مع ملوك فرنسا ، 1579 ـ 1833 » ج 2، سنة 1889 .

والحرية ، والدستور قد بقيت حية . وقد انتصرت فكرة التهدئة والاستسلام بفضل حماية القوة الرجعية فى أوروبا التي كان على رأسها مترنيخ ، والاسكندر الأول (فيما بعد) وبعض الزعماء البريطانيين .

ولكن لويس الثامن عشر قد تبنى كثيرا من الاصلاحات النابوليونية التي من بينها الدستور واتجاهات ليبرالية أخرى بخصوص الكنيسة ، والصحافة ، والفلاحين . وقد كان حزب الملكيين المتطرفين يتقدم تدريجيا . لذلك فانه عندما مات لويس الثامن عشر سنة 1824 كانت الحكومة فى فرنسا فى أيدي الملكيين المتطرفين .

وكان الملك الجديد ، شارل العاشر ، أولا فى تعاطف مع الملكيين ثم أيدهم فى النهاية بصفة كاملة . وقد كانت هناك علامات سخط فى شعبه . فنمو الاتجاهات الليبرالية فى فرنسا ثم الافكار الجمهورية ، والاشتراكية ، والبونابيرتية .. الخ، قد جعلت الملك يتحول الى الملكيين والى الجماعات الرجعية . فقد أعاد شارل العاشر « كثيرا من الامتيازات الى طبقة رجال الدين وأعطى طبقة الاشراف مليونا من الفرنكات كتعويض عما فقدوه أثناء الثورة . وقد ألغى حرية الصحافة وجرد معظم الطبقة الوسطى من حق الانتخاب . » (15) .

وعندما شعر شارل العاشر وجماعته الرجعية أن تيار الشعب الفرنسي بسير ضدهم رأوا أن يعدوا حملة ضد الجزائر للنفخ فى الروح الوطنية ولمنع ، أو على الأقل ، لتأجيل الثورة التي كان يتوقعها كل أحد .

فالملك الرجعي ووزراؤه قد قاموا أيضا بمهمات أخرى ، وهي حل مجلس النواب حين فاز الليبراليون بالأغلبية فى الانتخابات العامة . وفى يوم الاثنين 17 ماي 1830 أصدر شارل العاشر أمرا ملكيا . بحل مجلس

15 — انظر ف « أ . ريكاردو البيرهيما ، « التاريخ الوسيط والحديث » ، ص 199 .

النواب وبدعوة المجالس الانتخابية للاجتماع فى شهري جوان وجويلية واجراء انتخاب مجلس الشيوخ والنواب فى الثالث من أوت • (16)

وكان هؤلاء الفرنسيون يأملون أن الحملة ضد الجزائر قد تغير نتيجة الانتخابات السابقة وتجعلهم يفوزون بالأغلبية وبنجاح فائق فى مجلس النواب الجديد • ولكن ما نتيجة مثل هذه الجهود المعتوهة ؟ وقبل شهر واحد من ثورة جويلية التي نجحت فى اسقاط الملك الرجعي ، كتب محررو مجلة غلوب Globe : « ان الازمة التي تتخبط فيها فرنسا الآن تمثل منظرا مرعبا • انه المنظر المرعب للفوضى التي طالما لطخت مكانتها بالدم والتي هزت كيان أوروبا كالزلزال يبدو أنها على وشك العودة من جديد •• » (17) لقد كان حقا أن فرنسا كانت على وشك ثورة جديدة فى جوان 1830 ، ولكن الثورة التي حدثت أثناء أقل من شهر واحد لم تكن زلزالا فى أوروبا ولا فى فرنسا نفسها • فثورة جويلية قد أسقطت شارل العاشر وجاءت بلويس فيليب وقد استمر هذا فى تطبيق نفس السياسة سواء فى الداخل أو فى الجزائر •

6) ـ أسباب الحملة :

بعد أن درسنا الوضع الداخلي فى فرنسا ، الذي نعتقد أنه سيضيء الظروف التي أدت الى الحملة الفرنسية ، دعنا نرجع لنرى ما هي الأسباب التي تذرع بها الرسميون الفرنسيون لتبرير عملهم ضد الجزائر •

ان الرسميين الفرنسيين لم يذكروا أي سبب يتعلق بالمصاعب الداخلية فى بلادهم • ولكنهم كانوا يعلمون أن شعبهم سيطيع ويتحمس اذا تحدثوا اليه عن شرف الأمة الفرنسية الذي أهانه الجزائريون • فرجال الأعمال والتجار كانوا سيهللون لهذه الخطوة لأن الجزائر ، كما ادعى الرسميون

16 ـ انظر جريدة « ذي ليفربول ميركوري » ، 21 ماي 1830 •
17 ـ نفس المصدر •

الفرنسيون ، قد صادرت « الممتلكات » الفرنسية على الساحل الجزائري . وقد ظنوا أن مثل هذه النغمة ستجعل هؤلاء يسرعون الى تأييد الحكومة ويباركون حركتها العادلة والقومية . (18)

ومن جهة أخرى فان الجيش الفرنسي قد بقي مدة طويلة فى سلام . فمنذ نابليون وفترة الاسترجاع التي تلته لم يكن « للجيش الأعظم » أي شيء يعمله ، أما أوروبا عامة فقد كانت فى سلام تحت الحكومات الرجعية مترنيخ ، وليفربول ، والأسكندر الأول ، ثم بالطبع شارل العاشر . وبدلا من أن يترك الجيش يتقدم نحو باريس لاسقاط النظام وتأييد الليبراليين ، دبر شارل العاشر ارسال الجيش الى طولون استعدادا « للمعركة المجيدة » على الساحل الآخر على البحر الأبيض المتوسط .

ولكن ماذا عن بريطانيا العظمى وأوروبا كلها ؟ هل أخذ الرسميون الفرنسيون ذلك فى الاعتبار قبل أن يبادروا فى تنظيم الحملة ؟ نعم لقد فعلوا واختلقوا أسبابا ومبررات . فقد قالوا أن الجزائر لم تطع أمر المبعوثين البريطانيين والفرنسيين بالغاء نظام الرق وقالوا أيضا بأنها قد استرقت ضباطا كانوا قد أسروا على بواخر تحمل علم روما التي كانت عندئذ تحت الحماية الفرنسية .. الخ .

غير أن بريطانيا لم تكن مقتنعة بهذه الادعاءات ، وأصرت على أنه يجب على فرنسا أن تقدم تفسيرات وافية حول مصير الجزائر اذا نجحت الحملة، وقد رد ملك فرنسا شارل العاشر على السفير البريطاني فى باريس ، عن طريق رئيس وزرائه دي بولنياك (De Polignac) ، أنه اذا نجحت الحملة فان فرنسا ستتشاور مع حلفائها . ولكن شارل العاشر قد أضاف على

---

18 ــ كل المؤرخين الفرنسيين يستعملون كلمة « الممتلكات » أو « المنشآت الفرنسية » ، بل حتى كلمة « ملكية » التي لها بالطبع ، أصول الامبريالية وفكرة الاعتداء من أجل المصالح الاقتصادية .

لسان رئيس وزرائه بأن احتلال الجزائر فى حد ذاته يجب أن يباركه كل المسيحيين وكل العالم المتحضر •

وقد جاء فى كلامه : « اذا كان فى الصراع الذي أوشك أن يبدأ نتيجة هامة فان الملك فى تلك الحالة سيأخذ فى الاعتبار أهمية هذه المسألة لاقرار ما يجب أن تكون عليه الأشياء أمام الوضع الجديد ، التي يجب أن تسجل أكبر ربح للمسيحية • » (19) •

أما الجريدة لومنيتور Le Moniteur شبه الرسمية فقد نشرت أهم النقط التي اعتبرتها فرنسا العناصر الأساسية التي أدت الى حملتها ضد الجزائر • وبناء على هذه الجريدة فان أسباب الحملة هي ما يلي :

1 — لقد استرجعت فرنسا ، بمقتضى معاهدة 1817 ، ممتلكاتها لبعض المؤسسات التجارية التي توقف استعمالها أثناء الثورة • ولكن الداي قرر أنه لا يسمح بامتيازات لفرنسا لا تتمتع بها الدول الأخرى • ولذلك هدم كل الحصون والمؤسسات وتوابعها التي كانت لفرنسا •

2 — وبمقتضى نفس المعاهدة كان لفرنسا امتياز صيد المرجان على الساحل الجزائري بشرط أن تدفع هي 60 ألف فرنك سنويا مقابل ذلك • وبعد سنتين من المعاهدة طلب الداي من الفرنسيين 200 ألف فرنك ففعلوا • وفى سنة 1826 أصدر الداي قرارا يمنح بمقتضاه الحرية لكل الدول فى صيد المرجان •

3 — وفى سنة 1814 أجبر القنصل الفرنسي ، ديبوي ثانفيل D. Thainville على مغادرة مدينة الجزائر لأنه رفض أن يعوض بعض الجزائريين عما أقرضوه لبعض الرعايا الفرنسيين قبل أن يستشير حكومته •

---

19 — انظر وزارة الخارجية البريطانية « مراسلات واتصالات مع سفير فرنسا فى لندن سنة 1830 » ، 1833 ، ص 18 •

4 ــ ان الداي قد رفض أن يعطي اجابات مرضية على حجز والاستيلاء على الباخرة الفرنسية لافورتون La Fortune في عنابة .

5 ــ في سنة 1818 أجاب الداي كلا من أمير البحر البريطاني والفرنسي بأنه سيواصل نظام الاسترقاق ضد رعايا الدول التي لم توقع معاهدات معها .

6 ــ وفي سنتي 1826 و 1827 كان هناك خرق للمعاهدات من الداي ، فهناك بواخر ترفع علم روما قد صودمت رغم انها كانت تحت الحماية الفرنسية . كما أن هناك بواخر فرنسية قد نهبت وأرغم ربانوها على أن يصعدوا بواخر القراصنة الجزائريين بهدف الاستظهار بأوراقهم .

7 ــ تصرف الداي نحو يهوديين . فبناء على اتفاقية 1818 كان اليهوديان سيعوضان ، مع الاحتفاظ ببعض النقود لاجابة مطالب بعض الفرنسيين ضدهما . ولكن الداي طلب أن يدفع اليه شخصيا كل القرض الذي يصل الى (000 700 فرنك) وأن على الرعايا الفرنسيين أن يلتجئوا الى الحكومة الجزائرية لاجابة مطالبهم . وقد أضاف الى هذا الموقف الذي يثير السخط (اشارة الى ضرب الداي للقنصل الفرنسي) تهديم المؤسسات الفرنسية . لذلك أصبح حصار مدينة الجزائر أمرا لا مناص منه . وبعد أن كلف هذا الحصار فرنسا حوالي 20 مليون من الفرنكات حاولت فرنسا في جويلية 1829 أن تفتح المفاوضات ولكنها فشلت . وقد وصف البيان الفرنسي هذا الموقف من الداي بأنه قد جعل كل محاولة أخرى للتفاهم من جانب فرنسا غير متناسبة مع شرف الأمة . (20)

20 ــ مجلة « ذي ليفيربول ميركوري » (14 ماي 1830) .

وهنا نرى أن البيان الفرنسي الذي نشرته جريدة « لومنيتور » قد استعمل نفس النغمة التي استعملها هتلر قبل أن يهجم على ضحيته : الاتهام بخرق المعاهدات ، والادعاء بامتلاك بعض المؤسسات والممتلكات في بلد أجنبي ، واهانة شرف الأمة ، وغير ذلك .

وقد قدر المؤرخ الفرنسي أرسن برتاي (Arsene Bertueil) مؤلف كتاب « الجزائر الفرنسية » ان فرنسا قد خسرت حوالي 7 ملايين فرنك نتيجة للحصار ، وأنها تعتبر نفسها صاحبة الحق في الممتلكات التي أسستها منذ القرن الخامس عشر . ولكن أكثر من ذلك أهمية هو أن المؤلف قد ذكر أحد الأسباب التي أشير اليها في البيان الفرنسي ، وهو ، غيرة فرنسا من أنكلترا لأن الداي قد أعطى الحقوق التجارية الى التجار الأنكليز . فهذا التصرف ، بناء على رأيه ، قد أغضب فرنسا بالطبع . (21)

وبعد قتال مرير وخسائر كبيرة دخل الفرنسيون مدينة الجزائر في 5 جويليه من نفس العام ، ولكن القتال في الشوارع وفي الضواحي قد استمر . ومن تلك اللحظة بدأ تاريخ المقاومة الجزائرية .

هذا وقد أبيحت مدينة الجزائر الى الجنود خلال أكثر من أربعة أيام . وقد سجل المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بخجل انتهاك الحرمات والفظائع التي أصبحت هي قانون المدينة .

واستحوذ الفرنسيون على خزينة الجزائر . وتؤكد وثائقهم بأن الخزينة التي تقع في القصبة كانت تحتوي على حوالي 000 400 2 جنيه استرليني ذهبا ، بينما قدرت مصاريف الحملة بـ 000 000 4 فقط . ولكن المؤرخين يذكرون أن الداي علي خوجة قد استعمل سنة 1817 ، 50 بغلا كل ليلة لمدة خمسة عشر ليلة لنقل محتوى الخزانة . (فقد نقل الخزانة

21 ـ انظر كتاب برتاي ، « الجزائر الفرنسية » ، ص 87 .

والحكومة من مقرهسا العادي الى القصبة) . وقد قدر عندئذ (1817) أن الخزانة لم تكن تحتوي على أقل من 50 مليون دولار ذهبا . (22)

وهكذا انتهى وجود الجزائر كدولة مستقلة . ورغم البيان الفرنسي فان الجزائر قد ألحقت بفرنسا مباشرة . أما شارل العاشر فقد أسقطته ثورة جويلية التي جاءت الى الحكم بلويس فيليب ، الذي واصل نفس السياسة فى الجزائر . ولم تستشر فرنسا حلفاءها كما وعدت من قبل . أما منافستها بريطانيا فقد كانت مشتغلة بأزمتها الداخلية وبسوت ملكها . لقد كانت فرصة ذهبية لفرنسا أن تضع قدمها على الشطر الآخر من البحر الأبيض المتوسط وأن تبدأ عهدا جديدا يعرف بعهد الامبراطورية الثانية الذي يمثل احتلال الجزائر فاتحة له .

7) ـ الحملة بين المؤيدين والمعارضين :

ـ ان الحرب ضد الجزائر سنة 1830 كانت أعظم عمل مهين وعنيف ترتكبه أمة ضد أخرى . فقد استغل ملك فرنسا العواطف الدينية للمواطنين الفرنسيين والأوروبيين طلبا لتأييد الكنيسة . ولكن كان هناك معارضون كثيرون لهذه الحرب من الشعب الفرنسي ، ومن بريطانيا . ومن الباب العالي . فالمعارضة فى البرلمان الفرنسي قد عارضت الحرب ونادت بالسلام . وقد قام بهذا الدور الجمهوريون ، والاشتراكيون . والليبراليون عموما . وقد قال مؤلف « الجزائر وماضيها » بأن الرأي العام الفرنسي كان قد تأثر بالأفكار الباريسية ، وبالذات منذ أدب فولتير . (23)

ولكن الذين أيدوا الاستعمار كانوا أهل النخبة الذين كانوا واعين لعظمة فرنسا ، وتقاليدها الاجتماعية . وبالاضافة الى ذلك كان هناك

22 ـ بليفير ، « جلادة المسيحية » ص 281 .
23 ـ برتاى ، « الجزائر الفرنسية » ص 184 .

التجار ورجال الأعمال فى الأقاليم ، ولا سيما بمرسيليا . وبالطبع كان هناك الجيش أيضا الذي أثارته اهانة الجزائر للشرف الفرنسي ، كما كان يشـــاع .

أما بريطانيا فقد كانت ضد الحملة كما سبقت الاشارة . وقد أصرت على أن تقدم فرنسا مبررات وضمانات على القيام بالحملة . وقد نشرت جريدة « ليفربول ميركيري » (the Liverpool Mercury) رسالة من مدينة ميسينا (تاريخها 28 ماي 1830) جاء فيها أن « كامل الأسطول البريطاني باستثناء الباخرة » « بريطانيا » ، قد أبحر نحو الجزائر .... ولكن يشاع بأن هناك سوء تفاهم بين القنصل الانكليزي وأمير البحر الفرنسي فى الجزائر . » وقد أشارت الرسالة أيضا الى أن « قطعة من الأسطـــول الروسي ستتبع » متجهة نحو الجزائر .

وعلى أية حال فان فرنسا قد بدأت الحملة ضد الجزائر منذ 1827 ، ولكن لم تأت بنتيجة عندئذ . وقبل بداية 1830 كانت مدينة طولـــون مشغولة . فقد نودي على الجيش الفرنسي من مختلف أقاليم البلاد ، كما أن البحرية كانت على استعداد أيضا . وقد وفرت الدولة لذلك أسلحة ومناورات جديدة . وكان العملاء والجواسيس الفرنسيون يعملون فى مختلف الاتجاهات ، من مصر الى المغرب الأقصى ثم طولون . وكانت هناك اتصالات سرية مع الحلفاء والأصدقاء ، وبينما كان ملك فرنسا الكاثوليكي المتحمس يتآمر ضد حرية شعبه وضد ديموقراطية الدستور الفرنسي ، كان داي الجزائر يواجه ثورة فى بلاده (ربما مـــن وحـــي المخبرين الفرنسيين) ، وفى نفس الوقت اكتشفت مؤامرة هدفها اغتيال الداي مما أدى الى قتل كثير من المتآمرين ، قبل أربعة عشر يوما فقط من دخول الفرنسيين

وكانت هناك بعض المصاعب للحصول على الأسلحة ، وفى بناء خطوط دفاعية ، قوية وفى اعداد بحرية ضخمة لتدافع عن كامل الساحل الجزائري الطويـــل .

ومن جهة أخرى كان الفرنسيون يحاولون اضعاف معنويات أهالي الجزائر بواسطة عملائهم ومنشوراتهم السرية . فقبل أن يغادروا طولون متجهين الى الجزائر أعلنوا بيانا طبعوه بالعربية وأرسلوا منه 400 نسخة الى قنصلهم فى تونس لتوزيعها فى الجزائر .

وفى هذا البيان ادعى الفرنسيون ما يلي :

1 ــ انهم قادمون الى الجزائر لمحاربة الأتراك وليس الأهالي .

2 ــ انهم سيحمون الأهالي ولا يحكمونهم .

3 ــ أنهم سيحترمون دين الأهالي ، ونساءهم ، وأملاكهم ، الخ.

(لأن ملك فرنسا ، حامي وطننا المحبوب ، يحمي كل دين) .

4 ــ تذكير الأهالي بأن مصر قد قبلت صداقة الفرنسيين (30 سنة مضت على حملة نابليون على مصر) وان هؤلاء سيعاملون الجزائريين بنفس المعاملة التي عاملوا بها المصريين .

5 ــ طلبوا من الأهالي أن يتعاونوا معهم ضد الأتراك أو على الأقل أن يبتعدوا الى الريف (ان الفرنسيين ليسوا فى حاجة الى مساعدة لهزيمة وطرد الأتراك) .

ونظرا لأهمية هذا البيان ، أو هذه الوثيقة التاريخية ، فاني سأذكرها كاملة فى الملحق . (24) وقد قاد دي بورمون De Bourmont الذي كان

24 ــ انظر ملحق « أ » .

قد فر من جيش نابليون أثناء اللحظة الحاسمة فى معركة (واترلو) ، والذي كان وزيرا للحربية فى وزارة بولينياك ، قاد الجيش والأسطول الفرنسيين الى الجزائر ، ونزل الفرنسيون فى سيدي فرج ، وهو مكان لم يتوقع الجزائريون الهجوم منه ، يوم الرابع عشر من جوان 1830 .

ملحق (1)

البيان الفرنسي الى الشعب الجزائري

فيما يلي نسخة من البيان الفرنسي الذي أعد فى طولون بالعربية والموجه الى الجزائريين عشية اقلاع الأسطول الفرنسي نحو الجزائر .

(الى الكولوغلي ، أبناء الأتراك والعرب المقاومين فى اقليم الجزائر)

اننا نحن أصدقاءكم الفرنسيين نتوجه الآن نحو مدينة الجزائر . اننا داهبون لكي نطرد الأتراك من هناك . ان الأتراك هم أعداؤكم وطغاتكم الذين يتجبرون عليكم ويضطهدونكم والذين يسرقون أملاككم وانتاج ارضكم ، والذين يهددون حياتكم باستمرار . اننا لن نأخذ المدينة منهم لكي نكون سادة عليها . اننا نقسم على ذلك بدمائنا واذا انضممتم الينا ، واذا برهنتم على أنكم جديرون بحمايتنا ، فسيكون الحكم فى أيديكم كما كان فى السابق ، وستكونون سادة مستقلين على وطنكم .

ان الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا المصريين،اخوانكم الأعزاء، الذين لم يفتأوا يفكرون فينا ويتأسفون على فراقنا طيلة الثلاثين سنة الماضية ، منذ خروجنا من بلادهم ، والذين ما يزالون يرسلون أبناءهم الى فرنسا ليتعلموا القراءة والكتابة وكل فن وحرفة مفيدة . ونحن نعدكم باحترام

نقودكم وبضائعكم ودينكم المقدس ، لأن ملك فرنسا المعظم حامي وطننا المحبوب ، يحمي كل دين .

فاذا كنتم لا تثقون فى كلمتنا وفى قوة سلاحنا ، فابتعدوا عن طريقنا ولا تنضموا الى الأتراك الذين هم أعداؤنا وأعداؤكم . فابقوا هادئين . ان الفرنسيين ليسوا فى حاجة الى مساعدة لضرب وطرد الأتراك . ان الفرنسيين هم ، وسيظلون ، أصدقاؤكم المخلصون . فتعالوا الينا وسنكون مسرورين بكم وسيكون ذلك فرصة لكم . واذا أحضرتم الينا الأطعمة والأغذية ، والأبقار والأغنام فسندفع ثمن ذلك بسعر السوق . واذا كنتم خائفين من سلاحنا فأشيروا علينا بالمكان الذي يقابلكم فيه جنودنا المخلصون دون سلاح مزودين بالنقود فى مقابل التموين الذي تأتون به .

وهكذا يحل السلام بينكم وبيننا لمصلحتكم ومصلحتنا .

عن « ذي ليفربول ميركوري The Liverpool Mercury » 18 جوان 1830 .

ملحق (2)

رسالة بولنياك ، رئيس الوزراء الفرنسي

الى الدوق دي لافال

السفير الفرنسي فى لندن .

سيدي الدوق ،

فى اللحظة التي يغادر فرنسا فيها الأسطول الذي يحمل جيشنا الى افريقيا ، يشعر الملك بضرورة اعلام حلفائه بشعوره العميق بعلامات

لاهتمام والصداقة التي تلقاها منهم أثناء المنعرج الهام للظروف التي سبقت اقلاع الحملة الموجهة ضد الجزائر . ان جلالته قد طلب موافقتهم بثقة كاملة ، وقد يقال أمام الرأي العام بأنه قد عالج مشكلة كان يعتقد أنه من المناسب أن يجعلها معروفةلكل أوروبا . وقد استجاب حلفاؤه بثقة ومنحوه رضاهم وتشجيعهم وهي حقيقة ستجعله يتذكر موقفهم ما دام حيا .

ولكي يرد على هذه المعاملة المخلصة والصديقة ، رغب جلالته الآن فى طرح الباعث والهدف الى الحملة التي يعدها ضد ولاية الجزائر ، أمام حلفائه مرة ثانية فى اللحظة التي يقلع فيها الأسطول الفرنسي .

ان هناك مصلحتين متمايزتين بطبعهما ، ولكنهما متصلتان اتصالا وثيقا ، قد أدتا الى الاستعدادات التي جرت فى موانينا . احداهما تخص فرنسا بالدرجة الأولى : وهي الثأر لشرف رايتنا ، والحصول على تصحيح الأخطاء التي كانت السبب المباشر فى النزاع ، والمحافظة على ممتلكاتنا من الاعتداءات وأعمال العنف التي تعرضت لها فى كثير من الأحيان . ثم الحصول على تعويض مالي ، بالقدر الذي تسمح به دولة الجزائر ، على مصاريف الحرب التي لم تتسبب فيها . أما المصلحة الثانية ، التي تهم البلاد المسيحية عامة ، فهي الغاء نظام الرق ، والقرصنة ، ودفع الجزية التي ما زالت أوروبا تدفعها الى ولاية الجزائر .

باريس 12 ماي 1830

بيبليوغـرافيـة مختـــــارة

1. — PANANTI (Signor) — *Narrative of a Residence in Algiers*. End édition, London, 1830.
2. — SHALER (William) — *sketches of Algiers*. Boston, 1826.
3. — CLANSEL (G.) — *Histoire des conquêtes des Français en Algérie*. Vol 1, Paris, 1846.
4. — GREAT BRITAIN FOREIGN OFFICE — *Correspondances and communications on the French Ambassador in London in* 1830 Britain, 1833.
5. — FACQUETON (G.) — *Les Archives espagnoles*. Alger, 1894, Paris.
6. — DEVOULX (Albert) — *Les Archives du Consul général de France à Alger*, Alger, 1865.
7. — PLAYFAIR (R.L.) — *The Scourge of christendom*, London, 1884.
8. — BERTHIER (André) — *L'Algérie et son passé*, Paris, 1951.
9. — BERTEREIL (Arsene) — *L'Algérie française*. Vol. 1, Paris, 1856.
10. — BROCKLEMANN (Carl.) — *History of the Islamic peoples*, América, 1960
11. — PLANTET (Eugène) — *Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France* 1579-1833. Vol. 2, Paris, 1889.
12. — DE GRAMONT (H.D.) — *Histoire des Deys d'Alger*, Alger, 1881.
13. — GALIBERT (M. Dion) — *L'Algérie ancienne et moderne*, Paris, 1844.
14. — *The Liverpool Mercury*, London, 1830.
15. — *American Whig Review*, Aemerica, 1851.

اول بيان فرنسي الى الجزائريين
ظروفه ونصه 1830

1 ـ الثورة الفرنسية واحتلال الجزائر : *

المؤرخون المؤمنون بنظرية « الحتمية » يعتقدون أن الثورة الفرنسية البورجوازية كانت ضرورة تاريخيـــة . كما يعتقـــدون أنها والثـــورة الصناعية التي سبقتها بعدة عقود فى بريطانيا قد أدتا الى الثورة الروسية البروليتارية . ولكن الذين يرفضون هذه النظرية يصرون على أنها تقوم أساسا على « التفسير الاقتصادي » للتاريخ ، وهي لذلك تجعل مـــن الانسان حيوانا اقتصاديا مكرسا كل جهده لبطنه ومهملا كل شيء يطهر روحه ويصقل عقله . وبين هاتين الفكرتين المتعارضتين يقف الســؤال التالي : هل كان احتلال الجزائر من طرف فرنسا « ضرورة تاريخية » ؟

ومهما يكن من شيء فان الثورة الفرنسية قد قامت لتحرير الانسان الفرنسي من تحكم الاقطاع وتعسف الرجعية . وكان انتصارها بلا شك يتمثل فى « اعلان حقوق الانسان » الذي جعل من الرعية مواطنا ومن الحاكم خادما للشعب ، والمهم هنا هو أن هذا الاعلان قد أثـــار تخوفات الحكام الأروبيين الذين كانوا ما يزالون يحكمون باسم «الحق الالهي » مؤيدين من طرف الاقطاع والبيروقراطية والكنيسة .

وقد كان رأي أروبا الرجعية والأوتوقراطية هو أن تسبق العاصفة قبل أن تصل اليها ، وأن تقضي على هذه الثورة فى مهدها قبل أن

* بحث نشر فى « المعرفة » الجزائرية ، السنة الثانية ، العدد 17 (مارس ، 1965) .

يتسرب شعارها التحرري الى الرعايا فيثيرهم على النظام الاستبدادي الذي يعانون تحته ، وكان على الثورة ، حينئذ ، أن تحارب أعداءها في الداخل والخارج أو تموت . لذلك حملت الأمة الفرنسية جمعاء السلاح للدفاع عن نفسها . وكانت هذه ظاهرة جديدة في التاريخ يسميها المؤرخون الأروبيون ظاهرة « أمة في السلاح » التي كان من نتائجها الأولى ظهور القومية الفرنسية ، ولكن هذه القومية لم تلبث أن بدأت تهاجم القوميات الأخرى التي استيقظت هي الأخرى للدفاع عن نفسها ، ونحن نعرف أن الثورة الفرنسية قد غيرت خريطة أروبا تغييرا لم تشهده الا في عهد الرومان والاسلام والاصلاح الديني ، وحين وصل نابوليون الى الحكم (1800) كان الجيش الفرنسي قد اجتاز الراين شرقا والالب جنوبا ، بل واجتاز البحر الابيض المتوسط الى مصر والشام ، كما كان يخطط في حملة ضد الهند وأخرى ضد الجزائر (1) .

ولكن الشعوب التي أيقظتها نداءات الحرية وحروب نابوليون قامت لتحارب لا الاستبداد والرجعية فقط ولكن الاستعمار الفرنسي أيضا الذي كان يمثله جيش نابوليون الكبير والعلم المثلث . وهكذا ثارت الشعوب ضد حكامها من ناحية وضد الجيش الفرنسي الاجنبي من ناحية أخرى في كل من ايطاليا وروسيا والمانيا واسبانيا بل حتى في الشرق . ومن هنا تبدأ قصة « القومية » بمعناها الحديث .

وقد أدى تحالف أروبا وظهور القوميات الى هزيمة نابوليون في واترلو، وبالتالي هزيمة فرنسا عسكريا وسياسيا . ثم وضع مؤتمر فينا الخاتمة لمغامرات الجيش الفرنسي في أروبا . وهنا ظن الرجعيون بقيادة ميترنيخ

---

1 ـ فكر الفرنسيون في حملة ضد الجزائر قبل حملتهم على مصر . وحين فشل نابوليون في مصر أمر باعداد خطة الحملة ضد الجزائر ، غير أنه ، لاسباب ما زلنا نجهلها ، لم ينفذ هذه الخطة ، ويذكر الفرنسيون أن مشروعه كان القاعدة لحملتهم على الجزائر عام 1830 ، أنظر فيكتور بيكي V. Picquet « الاستعمار الفرنسي في شمال افريقية » ، ط . كولين ، باريس ، 1914 ، ص 28 .

النمساوي والقيصر الاسكندر الاول الروسي أن حكم الاستبداد والاقطاع قد تأمن . فنفوا نابوليون الى جزيرة هيلينا وأعادوا الى فرنسا لويس الثامن عشر الذي حكم الى موته (1824) ، ثم خلفه أخوه شارل العاشر الذي كان رجعيا الى أقصى حد والذي كان مسؤولا على الحملة الفرنسية ضد الجزائر ، وهو نفسه الذي ثار عليه الشعب الفرنسي في ذات الشهر الذي نزل فيه جيشه أرض الجزائر (جويلية 1830) .

غير أن رد الفعل على هذه السياسة كان عظيما . فالشعوب التي سمعت أصوات الحرية لم تهدأ ولم يخفها حكم الارهاب الذي سنه ميترنيخ والقيصر . فقد ظهر مازيني ليقود القومية الايطالية ، وثارت اسبانيا عام 1822 . وتمرد الجيش الروسي عام 1825 . ونهضت شعوب البلقان على الحكم العثماني . فاستقلت اليونان عام 1830 . واشتعلت الثورة في صربيا (نواة يوغسلافيا الحديثة) . كما استقلت بلجيكا عام 1830 ، وثارت بولندا على روسيا ، والمجر على النمسا .

2 ـ عصر القومية وقصة المروحة :

ان هذه المقدمة القصيرة ضرورية لادراك روح العصر الذي تمت فيه الحملة الفرنسية ضد الجزائر ، أنه عصر القوميات وهزيمة فرنسا في القارة الأروبية بعد أن أيقظت هي نفسها الشعوب لكي تدافع عن حريتها المهددة . ونتيجة لذلك أصبح الجيش الفرنسي سجين ثكناته رغم أسلحته الحديثة ، وتجاربه العسكرية على يد نابوليون ، والمبادىء التي زرعتها فيه الثورة . وكان لا بد لشارل العاشر ، رمز الرجعية المتطرفة ، والخائف من ثورة الجيش عليه ، أن يجد أرضا يطلق فيها سراح جيشه السجين و « ينفيه » فيها لكي يبعده عن خطر الثورة ضده .

وهنا بدأت قصة المروحة المشهورة . فكان الحصار الاقتصادي ضد الجزائر الذي استمر ثلاثة أعوام (1827 — 1830) . وكان تدخل فرنسا فى حرب اليونان التي أدت الى تحطيم الأسطول العثماني — الجزائري— المصري . وكانت مغامرات محمد علي فى المشرق « مؤيدا من فرنسا » التي شغلت الدولة العثمانية عن مساعدة الجزائر حين هاجمتها فرنسا . كل هذه المناورات كانت تهدف الى عزل الجزائر عزلة يائسة . ولذلك فحين هاجم الجيش الفرنسي ، أكبر وأكفأ جيش أروبي فى عصره ، وجد شعبا معزولا بلا أسطول ، وبلا سلاح ، وبلا مساعدة خارجية ، ومع ذلك فقد كان على هذا الجيش أن يحارب فى الجزائر من شارع الى شارع ومن دار الى دار .

ليس هدفي أن أقص قصة الاحتلال والمقاومة الشعبية التي تلته . ذلك أن هذه القصة ما زالت تنتظر القلم الكفء والنزيه الذي سيسجل أروع ملحمة مقاومة وطنية عربية كانت فى القرن التاسع عشر ، قام بها شعب كانوا يسمونه متأخرا وجاهلا وصغيرا ضد جيش كانوا يصفونه بالعظمة والتقدم والخبرة . دع اذن هذه القصة الى وقت آخر . ودعنى الآن ألق فقط الضوء على البيان الأول الذي وجهته فرنسا الى الجزائريين فى الوقت الذي كانت تتآمر على احتلالهم .

3 — ظروف البيان :

على طريقتهم فى أروبا والشرق زعم الفرنسيون للجزائريين أنهم قادمون « لتحريرهم » من الاستعمار التركي (2) . وقد طلبوا من

2 — باسم التضليل التاريخي يستعمل الفرنسيون كلمة « تركي » بدل « عثماني » . والمعروف أن « بيت آل عثمان » كان ، عن حق أو عن باطل ، رمزا للخلافة الاسلامية ووحدة العالم الاسلامي ، ولا يحمل أي معنى « قومي » وهو الذي تشير اليه كلمة « تركي » . ولا شك أن ولاء المسلمين ، قبل عصر القوميات ، كان لآل عثمان رمز الخلافة وليس لتركيا (التي لا وجود لها قبل 1924) رمز القومية ، ومن هنا يتضح أن الجزائر لم تكن تحت حكم « الاتراك » ولكنها كانت تعترف بالخلافة « العثمانية » .

الجزائريين أن يساعدوهم لتحرير أنفسهم•وادعوا بأنهم لن يبقوا فى الجزائر أسيادا عليها بل سيكون الجزائريون أسياد أرضهم • ووعدوا باحترام الدين والتقاليد والممتلكات (3) • وزعموا أن ملك فرنسا يحترم جميع الأديان • ثم أقسموا على ذلك بشرفهم (؟) وجميعنا يدرك الآن كيف بدأت القصة وكيف انتهت ، فاذا كان كاتب فصلها الأول هو شارل العاشر فان كاتب فصلها الأخير هو شارل دي غول ، وبين هذين (الشارلين) وقف الجزائريون عمالقة لم يركعوا لأجنبي مهما طغى وتجبر •

نشر النص العربي لهذا البيان لأول مرة فى المجلة الافريقية (4) بصحبة ترجمة حرفية فرنسية قام بها السيد بريسني ، وتذكر المجلة بأنها قد حصلت على النص العربي الكامل من الدكتور ليكليرك الذي حصل عليه بدوره من مدير مكتبة أميان (فرنسا) السيد غارني • وينص الدكتور ليكليرك بأن مكتبة أميان قد حصلت على النسخة العربية من العقيد المركيز دي كليرمونت ـ تونير الذي كلفته وزارة الحربية الفرنسية باعداد خطة الحملة ضد الجزائر • ويثبت الدكتور ليكليرك بأنه لا وجود لنسخة فرنسية من هذا البيان ، ويشير الى أن مطبعة انجلمان هى التي قامت بطبعه (5) •

---

3 ـ يذكر حمدان خوجة السياسي الجزائري الذي عارض الاحتلال الفرنسي أنه حين احتج لدى القائد الفرنسي العام كلوزيل على خرق اتفاق 1830 مع الجزائر رد عليه هذا بقوله « ان فرنسا غير ملزمة باحترام هذا الاتفاق لانه لم يكن فى نظرها سوى لعبة حرب » . انظر « مذكرات حمدان خوجة » التي نشرها السيد جورج ايفير فى « المجلة الافريقية » ، المجلد 57 ، عام 1913 ، ص 138 •

4 ـ انظر المرجع السابق ، المجلد 6 ، عام 1862 ، ص 153 ـ 156 •

5 ـ يبدو أن هناك بعض التضارب فى نسخة البيان بالفرنسية والانكليزية ، فقد ترجمته من الفرنسية كل من « ذي ليفيربول ميركوري » البريطانية (جوان 18 ، 1830) و « ذي سكرايب » المصرية (ماي ـ جوان 1961) . ويبدو أن كلتيهما قد نقلتا عن جريدة « لومونيتور » الفرنسية (جوان 2 ، 1830) ففي المصدرين الأولين توجد الفقرة التالية المفقودة من النص العربي وهي : « ان الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا اخوانكم المصريين الذين يفكرون فينا دائما ويأسفون على مغادرتنا لهم منذ ثلاثين عاما ، وما زالوا يبعثون أبناءهم الى فرنسا ليتعلموا القراءة والكتابة وغيرهما من المهن المفيدة » . ولا أعلم الآن سبب هذا الحذف والزيادة •

4 ـ اعداد البيان وتجهيز الحملة :

كلفت وزارة الحربية الفرنسية العقيد تونير عضو القيادة العامة باعداد الخطوات الضرورية لتنفيذ الحملة على الجزائر . ويذكر الفرنسيون بأن اتقان العقيد تونير للعربية قد جعل مهمته سهلة . كما يعترفون بأنه كان على اتصال دائم بالسواح والديبلوماسيين الأجانب الذين لهم خبرة بالجزائر والذين زودوه بمعلومات هامة سهلت عليه دراسته للأرض الجزائرية وسكانها .

وفي شهر جانفي (يناير) 1830 كلفت الوزارة المذكورة نفس العقيد تجهيز مكتب خاص لتنفيذ الحملة (اعداد الخرائط ونحوها) . وقد عين الضابط فولتز الذي كان أيضا عضوا في القيادة العامة مديرا لهذا المكتب . وفي نهاية شهر ماي من نفس العام انتدب الكونت دي بورمونت (6) العقيد تونير لكتابة بيان بالعربية موجها الى الجزائريين . وحين انتهى تونير من كتابة البيان أعطاه الى المستشرق دي ساسي لكي يصوغه باللهجة العربية الجزائرية .

ويذكر السيد نيتمونت الذي ألف كتابا عن الاحتلال الفرنسي للجزائر والذي كان معاصرا للحملة ، أن هذا البيان قد وزع في جميع أنحاء الجزائر بعناية دي ليسيبس المبعوث الفرنسي بتونس ، ورينبير .

---

6 ـ كان دي بورمونت القائد العام للجيش الفرنسي في الجزائر ابان الاحتلال ، وقد كان من طراز سيده شارل العاشر محافظا رجعيا ، غير أنه لم يتمتع بانتصاره في الجزائر ، فحين ثار الفرنسيون ضد ملكهم استدعت الحكومة الجديدة دي بورمونت من الجزائر بتاريخ 18 أوت 1830 ، ثم عينت مكانه اللواء كلوزيل المذكور سابقا الذي كان يسمى « صاحب الوجهين » : الوجه الليبرالي في البرلمان الفرنسي والوجه الرجعي الاستعماري في الجزائر ، ومن الجدير بالذكر أن كلا من دي بورمونت وكلوزيل كانا من جنود نابوليون ساعة هزيمته في واترلو المشهورة .

ودوبينيوز (7) وجيراردان الذين بعثتهم المخابرات الفرنسية الى الجزائر ليقوموا بهذا الدور . كما وزعت المخابرات الفرنسية هذا البيان فى تونس والمغرب ولعل ليبيا أيضا . وكان هدف الحكومة الفرنسية من دلك هو عزل الجزائريين عن حكومتهم من ناحية ، وضمان حياد كل من تونس والمغرب حين تبدأ الحملة من ناحية أخرى .

5 ـ نص البيـــان :

« هذه مناداة من سار عسكر أمير الجيوش الفرانساوية الى سكـان الجزائر وأهالي القبائل » (8) .

« باسم الله المبدىء المعيد وبه نستعين ..

« يا أيها ساداتي القضـاة والأشراف والعلمـاء وأكابر المشـائـخ والاختيارية اقبلوا مني أكمل السلام وأشمل أشواق قلبي بمزيد العز والاكرام . أما بعد اعلموا هداكم الله الى الرشد والصواب أن سعادة سلطان فرانسه (الملك شارل العاشر) مخدومي وعزة جنابه الأعلى عز نصره قد أنعم على نتوليته أياى (الكونت دي بورمونت) منصـب سار عسكر (القائد العام) . ويا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي اليكم من شعب المغاربة (أهل المغرب العربي) ان الباشا حاكمكم (الداي حسين) من حيث أنه تجراء على بهدلة بيرق فرانسه (العلم الفرنسي) المستحق كل الاعتبار وأقدم على اهانته فقد سبب بجهله هذا (ضرب القنصل الفرنسي دوفال بالمروحة) كل ما هو عتيد أن يحل بكم من الكوارث والمضرات لكونه دعى عليكم الحرب من

7 ـ من سوء حظ الجزائر أن هذا المغامر (دو بينيوز) قد أصبح رئيسا للشرطة الفرنسه فى الجزائر بعد الاحتلال ، وقد تعاون مع سيده كلوزيل المـــذكور على اضطهاد الجزائريين الذين حاولوا تنظيم المقاومة الشعبية ضد فرنسا فكان جزاؤهم النفي والسجن والتغريم ومصادرة الاملاك ، انظر بهذا الموضوع كتاب « المرآة » و « المذكرات » لحمدان خوجة .

8 ـ كل كلام بين قوسين فهو من عندي ، أما النص نفسه فاني أنقله عن « المجـــلة الافريقية المذكورة من غير حذف أو زيادة أو تعديل .

قبلنا فان عزة اقتدار سلطان فرانسه دام ملكه نزع الله من قلبه مرحمته المعهودة ورأفته المعروفة المشهورة فلا بد أن هذا الباشا حاكمكم من قلة بصيرته وعماوة قلبه قد جذت (جذب ؟) على نفسه الانتقام المهول وقد دنا منه القدر المقدر عليه وعن قريب يحل به ما استحقه من العذاب المهين . »

« أما أنتم يا شعب المغاربة (أهل المغرب العربي) اعلموا وتأكدوا يقينا اني لست آتيا لأجل محاربتكم فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين فى أماكنكم وتعملوا أشغالكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة سر . ثم اني أحقق لكم (أعدكم) أنه ليس فينا من يريد يضركم لا فى مالكم ولا فى أعيالكم . ومما أضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ما هو لكم صغيرا كان أو كبيرا فيبقى على ما هو عليه ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا بل يكون فى أيديكم دائما . فآمنوا بصدق كلامي . ثم اننا نضمن لكم أيضا ونعدكم وعدا حقيقيا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي الآن عايه وأكثر وأنه لا يتعرض لكم أحد فى أمور دينكم وعبادتكم فان حضورنا عندكم نيس هو لأجل محاربتكم وانما قصدنا محاربة باشتكم الذي بدأ وأظهر علينا العداوة والبغضاء » .

« ومما لا يخفى عليكم غاية تحكمه وقبح طبعه المشوم ولا ينبغي لنا أن نطلعكم على أخلاقه الذميمة وأعماله الرذيلة فانه واضح لديكم انه لا يسعى الا على خراب بلادكم ودثارها وتضييع أموالكم وأعماركم . ومن المعلوم أنه انما يريد أن يجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهدلين الخاسرين أكثر من المسخط عليهم ، فمن أعجب الأمور كيف يغبى (يخفى) عنكم أن باشتكم لا يقصد الخير الا لذاته . والدليل كون أحسن العمارات والأراضي والخيل والسلاح واللبس والحلى وما أشبه ذلك كله من شأنه وحده » .

« فيا أيها أحبابنا سكان المغرب أنه عز وجل ما سمح بأن يصدر من باشتكم الظالم ما فعله من أعمال الخبث والردى الا انعاما منه سبحانه وتعالى عليكم حتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطنته على كل خير ويفرج عنكم ما أنتم فيه من الغم والشدة ، واذ والحل هذه أسرعوا واغتنموا الفرصة ولا تعمى أبصاركم عما أشرقه الله عليكم من نور اليسر والخلاص ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم بل استيقظوا لكي تتركوا باشتكم هذا وتتبعوا شورنا (طريقنا) الذي يؤول الى خيركم وصلاحكم . وتحققوا أنه تعالى لا يبغي قط ضرر خليقته بل يريد أن كل واحد من براياه يحوز ما يخصه من وافر نعمه التي أسبغها على سكان أرضه » .

« يا أيها (الجزائريون) أهل الاسلام ان كلامنا هذا صادر عن الحب الكامل وأنه مشتمل على الصلح والمودة ، وأنتم اذا شيعتم (بعثتم) مراسيلكم الى أوردينا (مراكزنا ؟) حينئذ نتكلم واياهم والمرجو من الله تعالى أن محادثتنا مع بعضنا بعض يؤول الى ما فيه منافعكم وصلاحكم . وعشمنا بالله انكم بعد ما تحققتم أن متاصدنا وغايتنا الفريدة ليست هي سوى خيركم ومنفعتكم تشيعوا لنا صحبة مراسيلكم كل ما يحتاج اليه عسكرنا المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبهه . وحين وصلت مرسلاتكم هذه الينا فحالا ندفع الثمن فلوسا نقدية على ما تريدون وأكثر » .

« هذا واما ان كان منكم معاذ الله خلاف ذلك حتى تختاروا محاربتنا ومقاومتنا اعلموا أن كل ما يصيبكم من المكروه والشر انما يكون سببه من جهتكم فلا تلوموا الا أنفسكم فأيقنوا أنه ضد ارادتنا فليكن عندكم محققا ان عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب وأن الله يسلطها عليكم فانه تعالى كما أنه يأمر من يجعل لكم النصر

والظفر بالمرحمة والمسامحة على الضعفاء المظلومين فكذلك يحكم بأشد العذاب على المفسدين فى الأرض العائثين على البلاد والعباد فلا بد أنكم ان تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكتم عن آخركم » .

« هذا أيها السادة ما بدا لي أن أكلمكم به فهو نصيحة مني اليكم فلا تغفلوا عنه واعلموا بأن صلاحكم انما فى قبوله والعمل عليه وان هلاككم لا يرده منكم أحد ان عرضتم عما نصحتكم وأنذرتكم به وأيقنوا يقينا مؤكدا أن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من الله تعالى غير ممكن تغييره لأنه مقدر والمقدر لا بد أن يكون . السلام على من سمع وأطاع (9) » .

---

9 — يستغل الاستعمار أبشع الأساليب لاصطياد ضحاياه ، والتدجيل باسم الدين كان من بين هذه الأساليب التي ساعد عليها جهل الجماهير وعزلتها واستسلامها «للقدر». والقارىء يلاحظ بسهولة التركيز فى هذا البيان على فكرة القدر مثل « القدر المقدر » و « يسلطها الله عليكم » و « المقدر لا بد أن يكون » ، والذي يطلع على « فتاوي » الاستعمار للجزائريين أثناء الثورات والتمردات يدرك الى أي مدى ينحط العقل البشري فى استغلال الانسان للانسان .

العلاقات الجزائرية ـ الامريكية
1830 ـ 1776

فى مطلع القرن التاسع عشر * وصف الدبلوماسي الأمريكي ويليم شيلر قوة الجزائر البحرية بقوله : « لقد كان الجزائريون فى أوج قوتهم وسمعتهم حتى أن أعظم الدول البحرية كانت تطلب صداقتهم .... انهم اليوم يتباهون بأن عظمتهم البحرية لا تماثلها غير بحرية بريطانيا العظمى . (1) »

1 ـ عظمة الجزائر البحرية :

والحقيقة ان عظمة الجزائر البحرية قد بلغت أوجها فى النصف الأخير من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر . ويتفق الكتاب الأروبيون أنفسهم على ان نفوذ الجزائر البحري والسياسي قد امتد الى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط من ناحية، والى شواطىء

---

* بحث نشر فى « المعرفة » الجزائرية ، السنة الثانية ، العدد 15 (سبتمبر ـ أكتوبر ، 1964) والعدد 16 (نوفمبر 1964) .

1 ـ أنظر ويليم شيلر W. Shaler « مختصر الجزائر « Sketches of Algiers » المطبوع سنة 1826 فى بوسطن ، ص 119 ، كان شيلر قنصلا عاما لبلاده فى الجزائر من 1815 الى حوالي 1824 ، وقد اقترح فى كتابه المذكور استعمار الجزائر من طرف أروبا قائلا أن بريطانيا « يجب أن تعزم على احتلال واستعمار هذا القسم من أفريقيا » . وأوضح بأن أية مصاريف ستكلفها الحملة على الجزائر ستعوضها الخزينة الجزائرية التي قال عنها بأنها تحتوي على مبلغ خمسين مليون دولار ، وقد ترجم كتابه فى الحال الى الفرنسية بعنوان Aperçu historique sur l'état d'Alger ثم وضع فى متناول وزارة الحربية الفرنسية ، وبعد عام واحد من صدور هذا الكتاب اعلنت فرنسا الحصارة على الجزائر ، ان هذا التسلسل فى الأحداث يثير شك المؤرخ ، أنظر كذلك الوثائق التي نشرتها وزارة الخارجية البريطانية عام 1833 بعنوان « مراسلات واتصالات مع السفير الفرنسي فى لندن 1830 » حول احتلال فرنسا للجزائر وموقف الدبلوماسية البريطانية منه .

أروبا الغربية من ناحية أخرى . فقد كان الأسطول الجزائري يجوب المحيط الأطلنطي من بريطانيا وايسلندا الى جزر الكناري والآزورس .

ويجب ان نؤكد بأن هدف الأسطول الجزائري لم يكن عدوانيا . فقد كانت غايته هي حماية الاستقلال الوطني والدفاع عن الاسلام ضد الصليبية التي هددت كل شمال افريقية وقتها بالاحتلال . ذلك انه بعد سقوط الأندلس (1492) . الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ الاسلام . اعلنت اسبانيا والبرتغال . تحت تأثير الكنيسة . حرب الأبادة على افريقيا الشمالية استمرارا لما كان يسمى الفتح الجديد (ريكونكويستا) الذي كان يعني لا افتكاك الأندلس فحسب من أيدي المسلمين ولكن احتلال المغرب العربي أيضا . ولما كان الشرق عندئذ غير قادر على المساهمة في صد هذا الزحف الصليبي الجديد ، فقد كان على الجزائر ان تلعب دورا تاريخيا حاسما ضد هذه الصليبية لا يشابهه الا دورها البطولي الحديث ضد الاستعمار (2) .

ومن هنا يتضح أن هدف الجزائر من بناء الأسطول كان دفاعيا محضا . ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا وفرنسا وهولاندا وأسبانيا والبرتغال تقوم بعمليات القرصنة ضد بعضها من جهة . وضد الشعوب الأخرى من جهة ثانية ، كانت الجزائر تستخدم قوتها البحرية لغرضين : الأول هو حماية حدودها من العدوان المحقق . والثاني هو الدفاع عن الاسلام من الصليبية المتعصبة . ومع ذلك فالكتب الاروبية مشحونة بالدعاية المغرضة ضد الجزائر حيث تتهمها بالقرصنة والهمجية وعدم مراعاة

---

2 ـ من ذلك انتصارها التاريخي عام 1541 على القوات الاروبية المتحالفة بقيادة شارل الخامس امبراطور « الامبراطورية الرومانية المقدسة » التي كانت تضم النمسا ، المجر ، ألمانيا ، هولاندا ، بلجيكا ، اسبانيا ، والبرتغال ، ومعظم الدويلات الايطالية القديمة ، ويذكر هاملتون كيري « H. Curry » ان قوة شارل الخامس كانت تتكون من 516 سفينة ومن 35٫730 محاربا أنظر كتابه « ذئاب البحر » ط. الثانية ، لندن ، 1928 ، صص 49–50 .

القوانين الدولية . والقاريء يجد فى الكتب الأروبية مثل هذه التعبيرات فى وصف الجزائر : « عش القرصنة » ، « مركز الرعب » ، « جلادة المسيحية » ونحوها .

حقا ان هدف هذا البحث هو مناقشة العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وأمريكا . ولكن قبل أن أدخل فى تفاصيل الأحداث دعني أوضح نقطة أراها جديرة بهذا المكان . ان الدبلوماسية الجزائرية ، بناء على المحتوى التاريخي الذي ذكرته من قبل ، كانت تقوم على مبدأين أساسين : الاول هو ان كل دولة تعتبر محاربة حتى توقع معاهدة صداقة وسلام مع الجزائر . والثاني هو أن كل معاهدة لا تعترف بتفوق الجزائر البحري فى البحر الأبيض المتوسط لا يمكن قبولها من طرف الجزائر . وقد تبعت الجزائر هذا التقليد طيلة القرون الثلاثة السابقة للاحتلال . ولكن حين اختل هذا التوازن فى مطلع القرن الماضي سقطت الجزائر ضحية للاستعمار الفرنسي .

هناك أربع مراحل مرت بها العلاقات بين الجزائر وأمريكا :

1 ـ من الثورة الامريكية سنة 1775 الى اعلان الجزائر الحرب على أمريكا سنة 1785 .

2 ـ من سنة 1785 الى معاهدة الصلح الأولى بين البلدين سنة 1795 .

3 ـ من سنه 1795 الى مفاوضات الصلح الثانية سنة 1815 .

4 ـ من سنة 1815 الى الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 .

2 ـ المحاولات الاولى للعلاقات الجزائرية ـ الامريكية :

حين كانت أمريكا ما تزال مجموعة من المستعمرات تخضع للنفوذ البريطاني والفرنسي أو الأسباني كانت الجزائر تعامل السفن الامريكية طبقا لعلم الدولة المعنية وبناء على العلاقات التي تربط بين الجزائر وبين

تلك الدولة . ولما كانت العلاقات بين الجزائر وبريطانيا فى آخر القرن الثامن عشر ودية فقد تمتعت السفن الامريكية فى هذا الوقت بحماية الجزائر لها ومنحها جميع الاعتبارات . ويشهد الأمريكان أنفسهم بأن تجارتهم قد تقدمت خلال هذه الفترة ، وأن بلادهم قد بدأت تتعرف على أحوال الشرق أو « العالم القديم » بفضل معاملة الجزائر لها .

غير أن اعلان الثورة الأمريكية قد جعل بريطانيا تسحب حمايتها من مستعمراتها القديمة . وهكذا أصبحت الجزائر حرة فى معاملة السفن أمريكا الجديدة ، لكي تحمي سفنها وتجارتها ومواطنيها . أما أن توقع معاهدة صداقة مع الجزائر أو تواجه الحرب . ونظرا لمشاكلها الداخلية ونقوة الجزائر العسكرية فان أمريكا قررت أن تنشد السلام مع الجزائر . غير انها لم تسلك طريقا مباشرا لذلك . لقد التجأت الى أصدقائها الأوروبيين ليساعدوها على تحقيق ذلك الهدف . ويعلل الأمريكان لذلك بأن تجربتهم مع الجزائر كانت محدودة وأن خبرتهم فى شؤون البحر الأبيض المتوسط كانت ضعيفة .

فالمعاهدة التي وقعتها أمريكا مع فرنسا عام 1778 احتوت على مادة يتعهد بموجبها ملك فرنسا باستعمال وساطته لدى الجزائر لحماية وراحة أمريكا . وفى معاهدة أخرى مع كل من هولاندا عام 1782 وبريطانيا عام 1783 حاولت أمريكا أن تضيف نفس المادة . ولكن الدول الأوروبية بما فى ذلك فرنسا صديقة أمريكا فى ذلك الوقت ، رفضت أن تطبق تعهداتها . أما بريطانيا فقد رفضت اضافة المادة أصلا . وكان هذا الموقف الأوروبي يقوم على مبررين الأول أن معاهدات هذه الدول مع الجزائر لا تحتوي على تعهد بحماية أو تدخل بشأن أمريكا . والثاني عدم الرغبة فى اضافة منافس جديد لدى الجزائر والشرق (3) .

---

3 ــ انظر بشأن هذا الموضوع اروين « Irwin » فى كتابه « العلاقات الدبلوماسية » صص 21ــ23 ، انظر ايضا ديبوي Dupuy « أمريكان وبرابرة » . ص 16 .

3 ـ الجزائر تعلن الحرب على أمريكا :

ولما فشلت المساعي لدى الدول الأوروبية بدأت أمريكا حملة دبلوماسية ضد الجزائر . كان هدف هذه الحملة هو تكوين تحالف أوروبي ـ أمريكي لمحاربة الجزائر . ففي سنة 1783 عبر بنجامين فرانكلين عن عجبه من تخلف الأوروبيين على مواجهة الخطر الجزائري متحدين . غير أن رأيه هذا قد برهن على ضعفين الأول جهل الأمريكان فى ذلك الوقت بدبلوماسية البحر الأبيض المتوسط . والثاني هو عدم قدرة أمريكا على مواجهة الجزائر وحدها عسكريا .

ومهما كان الأمر فانه بينما كان الأمريكان فى حيرتهم جاءتهم الأنباء بأن الجزائر قد وقعت معاهدة سلام مع أسبانيا سنة 1785 ، وانها (الجزائر) قد اعلنت الحرب على أمريكا ، وان أسطولها قد قبض على سفينتين أمريكيتين هما « ماريا » و « دوفين » فى عرض المحيط الأطلنطي . وهنا لم يجد الأمريكان بدا من فتح المفاوضات المباشرة مع الجزائر . فقد ارسلوا السيد جون لامب (J. Lamb) الى الجزائر لهذا الغرض . ولكنهم استمروا فى نفس الوقت على تأليب الدول الأوروبية لتتحالف معهم ضد الجزائر .

لقد كان جيفرسون الذي أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ورئيسا للجمهورية هو زعيم فكرة الحلف ضد الجزائر . ففي عام 1785 اقترح على فيرجين (Vergennes) سفير فرنسا فى أمريكا تعاون بلديهما على حرب الجزائر ، غير أن هذا الاقتراح فيما يبدو لم يعجب فيرجين . كما أن فرنسا قد رفضت هذا التعاون رسميا . ولكن جيفرسون لم يفشل واستمر فى محاولاته بمساعدة المغامر الفرنسي ـ الأمريكي لافاييت . ففي عام

1786 تقدم جيفرسون بمشروع يتكون من احدى عشر نقطة لتكوين ذلك الحلف وبعث به الى الدول الأروبية ، وقد وافقت عليه كل من البرتغال ، نابل ، البندقية ، صقلية ، مالطا ، الدانمارك . السويد . ويلاحظ على هذه القائمة ان الدول الكبرى كبريطانيا وفرنسا رفضت هذا المشروع . ولكن المشروع قد فشل لسببين الأول ان هذه الدول الصغيرة لم تكن متأكدة عندئذ من قوة أمريكا على حمايتها فى حالة حرب ضد الجزائر . والثاني . وهو نتيجة للأول . أن الكونغرس الأمريكي رفض تمويل المشروع . (4)

وفى نفس الوقت فشل السيد لامب فى مفاوضاته مع الجزائر . فقد جاء ليفاوض على اطلاق سراح الأسرى الأمريكان الذين اعتقلوا مع السفينتين المذكورتين . ولكن الجزائر اشترطت أن تدفع أمريكا 59ر496 دولارا مقابل واحد وعشرين معتقلا .

غير أن لامب لم يستطع توفير هذا المبلغ . وبعد أن كتب الى رؤسائه بالقضية طلبوا منه العودة الى أمريكا (سبتمبر 1786) . والحق أن المؤرخين الأمريكان أنفسهم يلومون لامب على فشل المفاوضات . فقد كان فى رأيهم قليل الخبرة . وهم يستشهدون لذلك بأنه كان لا يحسن غير الانكليزية ، وأنه قد هدد مرة القنصل الأسباني فى الجزائر بأنه اذا لم تتدخل أسبانيا لدى الجزائر لمصلحة أمريكا فان هذه الأخيرة ستأخذ مستعمرات اسبانيا فى أمريكا .

4 ـ انظر تفاصيل مشروع جيفرسون فى أروين « العلاقات الدبلوماسية » ص. 48 — 50 .

ورغم فشل بعثة لامب الى الجزائر فانها تعتبر أول اتصال مباشر بين الجزائر وأمريكا . وقد بعث لامب عدة تقارير الى حكومته يصف فيها الجزائر وأسطولها وعاداتها وعلاقاتها الدبلوماسية . كما بعث الأسرى الأمريكان بتقاريرهم ورسائلهم الى بلادهم . وقد اقترح بعضهم فى هذه المراسلات أن تتبع بلادهم نفس طريقة الدول الأروبية مع الجزائر وذلك بالاعتراف بالسيطرة على البحر الأبيض المتوسط . فقد جاء فى رسالة بعث بها أحد المعتقلين الى جيفرسون سنة 1786 أن « كل الدول تدفع لهم الجزية » (5) (أي الى الجزائريين) . وجاء فى تقرير بعث به لامب نفسه الى حكومته «انه لا طاقة للولايات المتحدة الأمريكية على فرض السلام على الجزائر » (6) . أما جون آدمز الذي كان حينئذ يقود سياسة بلاده بعد جيفرسون فقد فضل السلام مع الجزائر قائلا بأن الحرب ستؤدي الى تخريب الاقتصاد وانها ليست خطوة حكيمة . وقد وافقه على رأيه هذا جورج واشنطن الذي كان عندئذ رئيسا للجمهورية .

ولكن كيف سيتحقق السلام بين الدولتين ؟ عن طريق التفاوض غير المباشر من جديد . فقد وصلت الأخبار الى البعثة الدبلوماسية الأمريكية فى أروبا بأن القنصل الأسباني فى الجزائر قد اقترح على أمريكا أن تدخل فى مفاوضات مع تركيا أولا ، فاذا نجحت هذه المحاولة فان السلام سيتحقق تلقائيا مع الجزائر . وللتحقق من الأمر سأل جيفرسون السفير الفرنسي فيرجين عن رأيه فى الموضوع ولكن هذا أكد له بأنه لا علاقة بين الجزائر وتركيا وأن أية معاهدة مع تركيا فى هذا الوقت ستكلف الخزينة الامريكية أموالا طائلة . ومرة أخرى فشلت محاولات المفاوضة والسلام .

---

5 ــ المرجع السابق ص 12 ، ومما يذكر أن أحد المتقلين الامريكان وهو المسمى جيمس كاثكارت « J. Cathcart » قد أصبح أحد كتاب الداي الجزائري مدة عشر سنوات ، ثم أصبح بعد اطلاق سراحه قنصلا عاما لبلاده فى تونس وطرابلس .

6 ــ المصدر السابق ص 47 .

ويبدو أن جيفرسون لم يجد بدأ من الاستسلام فى النهاية . غير انه أمام ضغط الرأي العام الأمريكي الذي أثارته الصحافة بنشر رسائل المعتقلين الأمريكان فى الجزائر ، وبنشر الدعاية المغرضة التي كانت تروجها الكنيسة ضد الجزائر — حاولت هذه المحاولة عن طريق نظام ديني فى فرنسا يسمى الماثورين (Mathurins) الذي كان له مركز فى مرسيليا اشتهر بافتداء المسيحيين الذين يقعون أسرى لدى الجزائر . وقد قبل الماثورين هذه المهمة سريا مع بعض الشروط . ولكن بينما كان الطرفان يعدان الخطة انفجرت الثورة الفرنسية التي وضعت حدا نهائيا للنظام الماثورني نفسه . وبذلك فشلت خطة الفدية أيضا .

4 — امريكا تطلب المفاوضات مع الجزائر :

تغيرت الحكومة الجزائرية عام 1791 بعد وفاة الداي محمد باشا وتولى الداي حسن باشا مكانه . كما أن الأخبار التي وصلت البعثة الأمريكيه فى أروبا كانت تشير الى مواتاة الظروف لافتتاح مفاوضات جديدة مع الجزائر لأنهاء الحرب واطلاق سراح الأسرى . ويبدو أن من أهم العوامل على مواتاة هذه الظروف هو اشتغال أروبا عندئذ بالثورة الفرنسية وعزم الجزائر على بداية عهد جديد لكسب صداقة أمريكا ، ولا سيما بعد توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا .

والواقع أن هذا الاتجاه الجزائري الجديد قد بدأ بتوقيع هدنة مع البرتغال . ومعنى هذه الهدنة حرية حركة الأسطول الجزائري فى المحيط الأطلنطي . غير أن الهدنة نفسها لم تكن فى صالح أمريكا . فبعد أسابيع قليلة من توقيعها قبض الأسطول الجزائري على احدى عشر سفينة أمريكية ومعها مائة وتسعة عشر أسيرا . وحين وصلت هذه الأنباء الى أمريكا أسرع الرئيس جورج واشنطن باعتماد مبلغ أربعين ألف دولار لفدية الأسرى . كما اعتمد مبلغ خمسة وعشرين ألف دولار كجزية سنوية

للجزائر . وبعد ذلك عينت الحكومة الأمريكية وزيرها فى لشبونة السيد داود همفريز (D. Humphreys) ليقوم بالمفاوضات مع الجزائر . ولما لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين البلدين فقد قدم همفريز أوراق اعتماده الى الداي عن طريق قنصل السويد فى الجزائر . ولكن همفريز قد فشل فى مهمته أيضا . (7)

ورغم المناداة بالحرب ضد الجزائر ، وضد بريطانيا أيضا التي اتهمها بعض الأمريكان وقتها بالتآمر مع الجزائر عليهم ، فان الحزب الأمريكي الذي كان ينادي بالسلام مع الجزائر قد انتصر فى النهاية . وقد كان شعار هذا الحزب هو « السلام بأي ثمن » . وكان ماديسون الذي تولى رئاسة الجمهورية فيما بعد هو زعيم هذا الحزب . وهكذا اضطرت أمريكا الى ارسال بعثة أخرى الى الجزائر للمفاوضة (1795) تحت مسؤولية همفريز أيضا . وبعد مفاوضات شاقة انتهى الطرفان الى توقيع أول معاهدة سلام وصداقة بين البلدين بتاريخ 5 سبتمبر 1795 (21 صفر 1210 هـ) . (8)

5 ـ المعاهدة الجزائرية ـ الأمريكية الأولى :

نصت المعاهدة الجزائرية ـ الأمريكية الأولى على أن تدفع أمريكا ما يعادل حوالي مليون دولار ، منها واحد وعشرون ألفا وستمائة دولار جزية سنوية تدفع كمعدات بحرية الى الجزائر . وفى مقابل ذلك تعهدت

7 ـ تذكر المصادر الامريكية أن فشل السيد همفريز يرجع الى أن الجزائر كانت ما زالت لم تعترف باستقلال أمريكا ، ولذلك فانه حين قدم أوراق اعتماده رفض الداي أن يستقبله الا بعد موافقة بريطانيا على ذلك ، انظر بهذا الصدد أروين « العلاقات الدبلوماسية » ص 61 ، انظر كذلك رود « F. Rodd » فى كتابه « جنرال ويليم ايتن » ص 31 .

8 ـ كانت البعثة هذه المرة تحت اشراف همفريز باعتباره وزيرا مفوضا لبلاده فى البرتغال ، ولكن الذي جاء الى الجزائر للتفاوض هو السيد دونالدسون (J. Donaldson) وقد وافق الكونغرس الامريكي على المعاهدة المذكورة بتاريخ 2 مارس 1796 ، وبذلك أصبحت ملزمة للطرفين .

الجزائر بحماية التجارة الأمريكية فى البحر الأبيض المتوسط والقيام بمساعيها الحميدة لدى باشا طرابلس لتحقيق السلام بين بلاده وأمريكا . وبناء على ذلك أصبحت الجزائر طرفا ثالثا ضمينا للسلام حين وقعت معاهدة طرابلس ـ أمريكا . كما تعهدت الجزائر أيضا بالقيام بنفس المساعي لدى باشا تونس لصالح أمريكا . وقد جاء فى ديباجة هذه المعاهدة ما ترجمته :

« من تاريخ ابرام هذه المعاهدة سيحل السلام الدائم والصداقة المخلصه بين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ومواطنيها وبين حسن باشا داي الجزائر وديوانه ورعاياه . وان سفن ورعايا الأمتين سيتعاملون بكل شرف واحترام . » (9)

وقد احتوت هذه المعاهدة على اثنين وعشرين مادة . وكلها تتعلق بشروط وتنظيم التعامل بين البلدين فى التجارة ، وجوازات السفر ، والعلاقات الدولية فى حالة الحرب والسلام ، وشؤون الملكية ، ونحو ذلك . وتطبيقا للمعاهدة أطلقت الجزائر سراح الأسرى الأمريكان فى شهر جوان 1796 . أما أمريكا ، التي تعهدت ببناء السفن للجزائر ، فقد بنت فعلا وقدمت لها السفن التالية : « الهلال » ، « حسن باشا » ، « لا للا عائشة » ، « حمدا لله » وأخيرا « سكجولدبراند » . (10) تم ذلك خلال سنتي 1798 — 1799 .

ويبدو أن هذه المعاهدة كانت انتصارا دبلوماسيا وماديا كبيرا للجزائر . فرغم أن أمريكا قد حاولت أن تتهرب بشتى الوسائل ، مدة عشر سنوات ،

9 ـ أنظر « الوثائق البحرية » المجلد الاول ص 107 ، اعداد وزارة البحرية الامريكية ، طبع واشنطن عام 1939 ، أما النسخة الجزائرية من المعاهدة فهي باللغة التركية وتوجد فى « معاهدات واتفاقات دولية أخرى للولايات المتحدة الامريكية » اشراف السيد ميلر (H. Miller) المجلد الثاني .

10 ـ الابسم Skjöldebrand كان اسم قنصل السويد فى الجزائر ، وقد قام بدور الوساطة فى المفاوضات الجزائرية ـ الامريكية ، واعترافا بذلك أطلق اسمه على هذه السفينة .

من توقيع معاهدة كهذه فانها فى النهاية لم تجد بدا من ذلك . وقد كان انتصار الجزائر يتمثل فى عزل أمريكا عن أصدقائها الذين كان يمكنهم أن يقوموا بدور الحليف ضد الجزائر . أما الانتصار المادي فيتمثل فى دفع أمريكا لجزية سنوية ومبلغ كبير من المال نقدا ، وتعهدها ببناء السفن للجزائر . ومعنى هذا أن الجزائر قد حصلت على المال والسمعة معا .

والواقع أن هذا هو ما جعل الامريكان أنفسهم يعترفون بأن الرعب قد انتشر فى الدول الأروبية ، وخصوصا الدول الصغرى ، بعد توقيع هذه المعاهدة . أما من وجهة النظر الأمريكية فان المؤرخين المحدثين يصرون على أن هذه المعاهدة كانت اهانة بالغة لشرف بلادهم . ولكن معظم المؤرخين المعاصرين للمعاهدة قد اعتبروها انتصارا لبلادهم لأنها قد وقعتها مع أعظم دول شمال افريقية ، ولأن المعاهدة نفسها قد انهت الحرب وفتحت الطريق التجاري لأمريكا فى البحر الأبيض المتوسط وأدت الى اطلاق سراح الأسرى الذين قد مضى على بعضهم أكثر من عشر سنوات . (11) .

ومهما كان الأمر ، فان هذه المرحلة من العلاقات الجزائرية — الأمريكية قد تميزت بخاصتين هامتين : الأولى تأخر أمريكا وتماطلها فى تطبيق شروط المعاهدة . والثاني حروب نابليون فى الشرق وتدخل الجزائر فى الموضوع . فقد مر على توقيع المعاهدة ثمانية أشهر دون أن تصل المعدات البحرية المتفق عليها من أمريكا . ويبدو أنه كان فى استطاعة الجزائر عندئذ أن تتنكر للمعاهدة وتعلن الحرب من جديد على أمريكا ولكنها فضلت أن تحاول طريق السلام أولا .

ففي الخامس من ماي 1796 بعث داي الجزائر حسن باشا رسالة الى الرئيس جورج واشنطن ينبهه فيها الى هذا التأخير ويطلب منه الاسراع

11 — انظر السيد بيكسلر (R. Bixler) «الباب المفتوح على الشاطىء البربري القديم» ص 21 ، طبع نيويورك .

فى تطبيق المعاهدة محافظة على السلام بين البلدين . ولكي يبرهن الداي علي حسن نيته بعث تلك الرسالة مع كاتبه الأمريكي كاثكارت السابق الذكر . وقد زوده بجواز سفر جزائري صالح لمدة سنة . (12) وبعد انتظار طويل وصلت الى الجزائر رسالة من الرئيس الأمريكي الجديد جون آدمز بتاريخ 25 ديسمبر 1797 . وقد جاء فى هذه الرسالة أن أمريكا قد عينت السيد أوبريان ، (R. Obrien) قنصلا عاما لها فى الجزائر . كما طلب آدمز من الداي تسهيل مهمة هذا القنصل . واعتذر له فيها على تأخر وصول المواد التي نصت عليها المعاهدة لظروف لا ترجع الى نقضان العهد ولكن الى عقبات أخرى تقف فى طريق التنفيذ . (13)

ورغم هذا التأخير من طرف أمريكا فان الجزائر قد قامت بكل ما تعهدت به . فقد بذل الداي مساعيه لدى باشا طرابلس ليدخل فى مفاوضات للسلام مع أمريكا . وحين نجحت هذه المساعي كان الداي من الموقعين على المعاهدة كضمين للسلام بين الطرفين . ومن ناحية أخرى ، فانه عندما توفى الداي حسن باشا سنة 1798 وخلفه الداي مصطفى باشا كان أول ما قام به هذا هو تجديد التزامات الجزائر نحو ما جاء فى معاهدة الصلح مع أمريكا . غير أنه يبدو أن صبر الجزائر قد بدأ ينفد . وهكذا أوشكت العلاقات بين البلدين على التصدع فى أواخر القرن الثامن عشر .

6 ــ نابليون يطلب صداقة الجزائر :

وبينما كانت العلاقات الجزائرية ــ الأمريكية تتعثر كانت الأحداث الدولية تجري بسرعة فى أوروبا والمشرق ، وقد كان من الطبيعي أن تصل أصداء هذه الأحداث الى الجزائر . ففي هذه الأثناء كان نابليون يقوم بحملته على مصر والشرق ، وكان خصمه هناك هو بريطانيا والدولة

12 ــ أنظر رسالة الداي الى واشنطن فى « الوثائق البحرية » المجلد الاول ، ص 155 .
13 ــ أنظر رسالة آدمز الى الداى فى المرجع السابق . صص 230 ــ 231 .

العثمانية . وهنا حاولت الدبلوماسية الفرنسية أن تكسب صداقة الجزائر ، أو على الأقل أن تجعل الجزائر تقف على الحياد فى هذا النزاع الدولي تأمينا لظهر الجيش الفرنسي .

ومن أجل ذلك قام نابليون بحركتين لكسب صداقة أو حياد الجزائر . الحركة الأولى اطلاق سراح الأسرى الجزائريين فى جزيرة مالطا ، وكان عددهم يبلغ ألفي شخص (14) . وفى مقابل ذلك قامت الجزائر باعادة العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا بعد أن كانت قد توترت نتيجة للثورة الفرنسية . أما الحركة الثانية التي قام بها نابليون فهي طلبه من وزير خارجيته آنذاك السيد تاليراند أن يؤمن حياد الجزائر . وتحقيقا لهذا الغرض أرسل تاليراند الى الجزائر مندوبا باسم ديبوا – تانفيل (Dubois Thainville) . ورغم أن هذا المندوب قد وقع فى قبضة الأنكليز فانه قد فر من سجنه وسلم رسالة نابليون الى الداي بتاريخ 13 ماي ، 1800 . (15)

رغم أن الجزائر كانت تقدر علاقتها بالدولة العثمانية فى ذلك الوقت العصيب فانها كانت تريد أن تبقى على الحياد . ذلك أن الجزائر قد شعرت بأن النزاع كان فى الحقيقة بين فرنسا وبريطانيا وليس بين فرنسا والدولة العثمانية . ولكن السلطان لم يقتنع بهذه الوجهة . فقد أصر على جر الجزائر الى النزاع فبعث الى الداي رسالة (فرمان) يطلب منه التحالف مع الخلافة وبريطانيا واعلان الحرب على فرنسا . كما أصر على أن تسهل الجزائر عمليات التموين لبريطانيا . ورغم أن الجزائر لم ترفض طلب السلطان فانها قد أصرت على موقفها الحيادي . على أن بعض المؤرخين يذكر أن الجزائر قد اعلنت الحرب على فرنسا نزولا عند رغبة

---

14 – انظر السيد باربور (N. Barbour) « مدخل الى شمال – غرب أفريقية » الطبعة الثانية ، لندن ، 1962 ، ص 39 .

15 – انظر السيد ديبوي « امريكان وبرابرة » ص 123 .

السلطان العثماني . ومهما يكن الأمر فان السلطان قد غضب من موقف الجزائر . وقد كان من الطبيعي أن تحاول الجزائر أن تحافظ على الصداقة التقليدية بينها وبين الدولة العثمانية . (16)

وهنا تدخلت العلاقات الجزائرية — الأمريكية فى الموضوع من جديد . فحين أرست الباخرة الأمريكية « جورج واشنطن » فى ميناء الجزائر طلب الداي من القنصل الأمريكي ومن ربان السفينة أن تحمل « جورج واشنطن » بعثة جزائرية الى اسطانبول (1801) ، ويذكر المؤرخون الأمريكان أن القنصل والربان قد رفضا أولا طلب الداي ، ولكن تحت الضغط والتهديد باعلان الحرب رضخا . والواقع أنه كان للجزائر مبرراتها فى اتخاذ هذا الموقف . فهي الى الآن (1801) لم تتلق من أمريكا كل الالتزامات التي ارتبطت بها فى المعاهدة السابقة . وهكذا يمكن القول بأن فى اصرار الجزائر على ذلك الموقف يكمن هدفان : الأول تعويضها عن بعض ما التزمت به أمريكا فى المعاهدة . والثاني اشعار أمريكا بأن الجزائر تستطيع أن تنال حقها بطرقها الخاصة .

وعلى أية حال فان « جورج واشنطن » قد حملت البعثة الجزائرية الى اسطانبول تحت العلم الجزائري . ويذكر بعض الكتاب الأمريكان أن ذلك كان اهانة بالغة لشرف بلادهم خصوصا حين وقف الجميع يحيون العلم الجزائري على باخرة كانت تحمل اسم مؤسس الدولة الأمريكية . ولكن بعضهم يعترف بأن ذلك كان ، بالرغم من الاهانة ، فرصة فى صالح أمريكا . فقد كانت هذه الباخرة هي أول سفينة أمريكية تدخل القرن الذهبي وتعبر الدردنيل الى بحر مرمرة ثم الى اسطانبول عاصمة الشرق فى ذلك الحين . ومن جهة أخرى فان هذه الحادثة قد

16 — فى الحقيقة توترت العلاقات بين الجزائر والخلافة قبل حروب نابوليون ، كان ذلك عندما قبضت الجزائر على سفن وأسرى عثمانيين ويونان وبنادقة (تابعين للعلم العثماني) وقد قبل السلطان حينئذ من الجزائر أن تدفع مقابل ذلك تعويضا قدره أكثر من ثلاثة ملايين دولار ، أنظر « الوثائق البحرية » صص 413-414 .

فتحت أول اتصال بين أمريكا والدولة العثمانية . على أن بعض الأمريكان يعترف بالخطأ ويلوم حكومته على تماطلها فى دفع التزاماتها مما جعل الداي يتخذ هذا الموقف المتحدى (17) .

7 — توتر العلاقات بين الجزائر وامريكا :

أثناء سنة 1805 وقع تغيير جديد فى الحكومة الجزائرية . فقد تولى الداي أحمد باشا مكان الداي مصطفى باشا . وكان من أول ما قام به الداي الجديد مطالبة أمريكا بدفع التزاماتها . (وكانت بعض المعدات المنفق عليها قد تأخرت سنتين على الموعد المحدد) وكان ذلك يعني أن أمريكا تتحمل وحدها تتائج أي تسويف جديد . وحين أعلن القنصل العام الأمريكي الجديد فى الجزائر السيد لير (Lear) بأنه لايستطيع أن ينفذ طلب الداي أعلنت الجزائر الحرب على أمريكا مرة أخرى سنة 1807 .

وكانت أولى تتائج هذه الحرب هو القاء القبض على ثلاث سفن أمريكية مع حمولاتها وربانيها ، وهنا لم يسع القنصل الأمريكي الا أن يعجل باقتراض النقود من اليهودي الجزائري بكري ودفعها الى الحكومة الجزائرية على أن يحصل بكري على أرباح كبيرة كتعويض من الحكومة الأمريكية ، وما دامت الجزائر قد حصلت على ما تريد فان العلاقات بين البلدين قد عادت الى مجراها رغم بعض البرود الذي استمر مدة أربع سنوات (1808 — 1812) ومن الواضح أن هدف الجزائر كان المحافظة على السلام وعلى العلاقات الودية بين الطرفين التي قامت المعاهدة المشتركة بتحديدها .

---

17 — أنظر « جنرال ويليم ايتن » ، صص 44-45 .

وعلى كل فان سنة 1812 قد شهدت ثلاثة أحداث هامـة أثرت فى النهاية على مجرى العلاقات بين الجزائر وأمريكا . الأول كان اعلان الحرب بين بريطانيا وأمريكا . والثاني هجوم نابوليون على روسيا واشتداد حروبه على القارة الأروبية . الثالث تقارب الجزائر وبريطانيا .

والذي يهمنا بالدرجة الأولى هنا هو الأخير . فقد كانت الدبلوماسية البريطانيه فى هذا العهد تقوم بنشاط كبير لعزل نابوليون عن أصدقائه . وكانت بريطانيا حينئذ تعتمد فى ذلك على سياسة حفظ التـوازن فى البحر الأبيض المتوسط بابقاء ما يسمى بالحالة الراهنة . وقد كـان البريطانيون يعتقدون أنهم بكسب صداقة الدولة العثمانية فى الشرق والجزائر فى الغرب يستطيعون تأمين خطوط مواصـلاتهم فى البحـر الأحمر والدردنيل وجبل طارق . وهكذا يضعون حدا لخطر نابوليون فى المنطقه . وتمشيا مع هذا المبدأ اعتقدت بريطانيا أنها بكسب صداقة الجزائر تستطيع أن تعزل لا نابوليون فقط ولكن أمريكا أيضا .

كان القنصل البريطاني فى الجزائر عندئذ يعرف مدى برودة العلاقات بين الجزائر وأمريكا . وقد استغل ذلك ولعب دورا هاما لكي يغري الجزائر باعلان الحرب على أمريكا . والظاهر أن الجزائر كانت مستعدة لتقوم بهذه الخطوة ولكن بعد التأكد من اخلاص بريطانيا . ولكي تتأكد الجزائر من ذلك بعث الداي سفيره الحاج حسن الى لندن برسالة الى ملك بريطانيا تخص موضوع العلاقات بين البلدين . وقد كان رد ملك بريطانيا مشجعا . فقد قال فى رسالته الى الداي بأن الصداقة بين البلدين وطيدة وأن التعاون بينهما ضرروري . وألح الملك البريطاني على الداى الجزائري بأن لا يستمع الى دعايات الأعداء وأن يحافظ على العلاقات الودية بينهما . كما أخبره بأن السفير الحاج حسن سيطلعه على الحفاوة التي وجدها فى بريطانيا . وأخيرا ذكر بأنه قد بعث مع السفير بعض

الهدايا من مصنوعات بريطانيا الى الداى (18) . ومن ناحية أخرى فان المخابرات الجزائرية قد اكتشفت بأن نابوليون كان يضع خطة حملة على الجزائر (19) . ويضاف الى ذلك برودة العلاقات الجزائرية ـ الأمريكية عندئذ . وبعد هذه المناورات والضغوط الدبلوماسية قامت الجزائر بتشديد علاقاتها مع أمريكا سنة 1812 .

8 ـ بين حميدو وديكاتور :

غير أن عام 1814 قد شهد حادثين هامين كان لهما صدى بعيد فى العلاقات الجزائرية ـ الامريكية . الاول هزيمة نابوليون على يد بريطانيا وحلفائها . الثاني توقيع الصلح بين أمريكا وبريطانيا . ومعنى ذلك أن بريطانيا قد خرجت منتصرة من المعركة التي جندت لها كل قواها العسكرية والدبلوماسية . وتتيجة لذلك لم تعد فى حاجة الى صداقة الجزائر كما كانت فى بداية القرن . ومن ناحية أخرى فان أمريكا التي وقعت السلام مع بريطانيا قد أصبحت حرة لكي تجند كل قواتها ضد الجزائر ، والنتيجة النهائية لكل هذه التطورات هي أن الجزائر قد وجدت نفسها فى عزلة دبلوماسية رهيبة عشية مؤتمر فيينا . ورغم أنها قد بذلت جهدها فى حفظ التوازن وابقاء الحالة الراهنة فان الأحداث التاريخية كانت تسير فى اتجاه الريح المعاكسة .

ومهما كان الأمر فان أمريكا قد استغلت هذه الفرصة لكي تتهرب من التزاماتها فى معاهدة سنة 1795 . ويبدو أن موقف أمريكا من الجزائر كان عندئذ ضعيفا لأسباب ثلاثة :

---

18 ـ معظم نص هذه الرسالة فى شيار « مختصر الجزائر » صص 118 ـ 119 ، تاريخ الرسالة هو 4-1-1812 ، ولما كان الملك جورج الثالث مريضا فقد كتب الرسالة الى الداي ولي العهد باسم والده .

19 ـ انظر بيرثيي (A. Berthier) « الجزائر وماضيها » ص 183 ، أنظر أيضا برنارد « الجزائر » فى « تاريخ المستعمرات الفرنسية » اشراف هانوتو ومارتينو ، الجزء الثاني ، طبع باريس 1930 ، صص 86 ـ 89 .

1 ـ انها (أمريكا) قد اختارت غياب الأسطول الجزائري من الميناء لتفرض شروطها .

2 ـ انها هي التي تماطلت فى تطبيق شروط المعاهدة المشتركة . وقبل أن تطلب مراجعة هذه المعاهدة بعثت أسطولها ليملي حلا جديدا بالقوة .

3 ـ انها لم تعلن الحرب رسميا على الجزائر وانما فاجأتها مفاجأة . وكان ذلك يتنافى مع القوانين الدولية كما يتنافى مع بنود المعاهدة المذكورة التي وقعها الطرفان (20) . ومن جهة أخرى فاننا نعلم أن الجزائر لم تعلن الحرب رسميا على أمريكا عام 1812 وانما قامت بحركة ضغط ضد سفنها وتجارتها لتحملها على القيام بالتزاماتها . ومما زاد الأمر سوءا بالنسبة للجزائر أن بريطانيا لم تكتف بتغيير سياستها نحوها بل قامت باعتداء عليها بالتحالف مع هولاندا سنة 1816 .

وهكذا ، فبينما كانت الجزائر فى حالة حرب عنيفة مع دويلات ايطاليا ، وأسبانيا ، وهولاندا ، وبروسيا . والدانمارك ، وروسيا . . هاجمتها أمريكا (21) . فقد بعثت فصيلتين من أسطولها الى البحر الأبيض المتوسط: الأولى تحت قيادة الضابط بينبريدج (W. Bainbridge) والثانية تحت قيادة الضابط ديكاتور (S. Decatur) الذي أصبح فيما بعد بطلا أسطوريا فى بلاده لنشاطاته فى شمال أفريقيا . وبعد أن اجتاز ديكاتور جبل طارق التقى بالسفينة الجزائرية « مجحودة » التي كانت تحت قيادة الضابط الشهير الرئيس حميدو . ويذكر المؤرخون أن الفصيلة الأمريكية التي طاردت « مجحودة » كانت تتكون من عشر سفن . وكانت النتيجة معروفة مقدما . فقد حاربت السفينة الجزائرية بشجاعة فائقة الى أن استشهد . بناء على المصادر

---

20 ـ نصت معاهدة 1795 على أن كلا من الدولتين يلتزم بعدم الالتجاء الى الحرب فى صورة وقوع خلاف . وبناء على ذلك قامت الجزائر بكل حركات الضغط على أمريكا قبل أن تتخذ منها موقفا معاديا .

21 ـ أنظر اروين « العلاقات الدبلوماسية » ص 176 .

الأمريكية نفسها،أكثر من ثلاثين جزائريا من بينهم الرئيس حميدو (22). وأخيرا طاردت الفصيلة الأمريكية سفينة جزائرية أخرى تدعى « استيديو » . ولكن السلطات الاسبانية حجزت هذه السفينة بدعوى أنها كانت فى المياه الاسبانية .

9 ـ الجزائر ترفض الشروط الأمريكية :

وبعد ذلك تقدم الأمريكان الى ميناء الجزائر وطلبوا من الداي توقيع معاهدة جديدة على شروطهم . وقد كان ويليم شيلر مؤلف كتاب«مختصر الجزائر » هو القنصل الأمريكي العام عندئذ . وخلال ذلك كان مع الفصيلة البحرية ينتظر رد الداى على مسودة المعاهدة الجديدة . غير أن الجزائر قد أصرت على ضرورة استعادة السفينتين الجزائريتين : « مجحودة » و « استيديو » قبل الدخول فى أية مفاوضات . وحين وافق الأمريكان على هذا الشرط بدأت المفاوضات بين الطرفين . وكان من شروط الجزائر آنذاك أن على أمريكا أن تدفع جزية سنوية ولكن هذه رفضت . وهكذا كادت المفاوضات تنقطع لولا تدخل حادث غريب فى الموضوع .

فبينما كانت المفاوضات الجزائرية ـ الأمريكية تتعثر ظهر فجأة فى ميناء الجزائر الأسطولان البريطاني والهولاندي . وقد شكل ظهور هذين الأسطولين . بالاضافة الى الفصيلتين الأمريكيتين ، مظاهرة عدوانية شاذة جعلت كل جزائري وقتها يعتقد أن هناك مؤامرة لاحتلال الجزائر وأن ذلك المظهر كان بداية الحصار . وهنا لم يجد الداي بدا من المناورة . غير أنه رفض باصرار شروط الوفد الأمريكي التي رآها لا تتلاءم مع سيادة البلاد .

---

22 ـ أنظر المرجع السابق . ص 177 . ويقول شيلر فى « مختصر الجزائر » ص 26 أن الرئيس حميدو كان من الوطنيين الجزائريين القلائل الذين تقلدوا هذا المنصب لذكائه الخارق وشجاعته النادرة .

وعلى أية حال فان الوثائق الامريكية تذكر أن الداي قد وقع المعاهدة المملاة عليه تحت التهديد بالحرب . ولكن الحوادث التالية تثير الشك فى صحة هذا الادعاء خصوصا ونحن لا نملك الآن الوثائق الجزائرية حول هذا الموضوع ، من ذلك أن الوثائق الأمريكية تنص على أن السفينة التي كانت تحمل « المعاهدة » المزعومة الى أمريكا للموافقة عليها قد ضاعت فى المحيط بسبب عاصفة هوجاء ولم يسمع بها أحد بعد ذلك . ومن ذلك أن المصادر نفسها تذكر أن الكونغرس الأمريكي لم يصدق على هذه « المعاهدة » الا فى عام 1822 ، أي بعد أكثر من سبع سنوات من توقيعها من طرف داى الجزائر . ولكننا نعرف أن كل معاهدة لا تصبح ملزمة الا بعد التصديق عليها واعلانها رسميا من الطرفين .

ومع ذلك لنفرض أن هذه « المعاهدة » كانت صحيحة (23).فما الذي مع أمريكا اذن من التصديق عليها وتنفيذها ؟ ومما يساعدنا على الادعاء بأن الجزائر لم تلتزم بهذه المعاهدة رسالة الداي الى الرئيس الأمريكي ماديسون المؤرخة فى 24 ابريل ، 1816.فقد كتب فيها الداي ماخلاصته: انكم ترغبون فى السلام معنا على النحو الذي تتمتع به فرنسا وبريطانيا (اللتان كانتا تدفعان الجزية الى الجزائر) ، ولذلك أجبت طلبكم على شرط استعادة السفينتين الجزائريتين . ولكن ما دام مبعوثكم قد أخل بهذا الشرط فانه لا يسعني الا أن أعرض عليكم فرصة أخيرة للسلام وهي العودة الى العمل بمعاهدة سنة 1795 ، فاذا لم تقبلوا بذلك فانكم تكونون قد وقفتم ضد الواجب المقدس للانسان وضد القانون الدولى. وقد رد الرئيس الأمريكي بقوله اننا قد أعدنا اليكم احدى السفينتين ،

---

23 ـ نصت هذه المعاهدة المشكوك فيها على محو الجزية بالنسبة الى أمريكا ، تسريح الاسرى ومعاملتهم كأسرى حرب ، دفع تعويض الى امريكا مقداره عشرة آلاف دولار مقابل السفينة « ادوين » ، نص هذه المعاهدة فى ديبوي « أمريكان وبرابرة » ص 346 .

أما الأخرى فقد حجزتها أسبانيا . وسترد اليكم . واننا ننشد السلام على قاعدة المساواة بين البلدين . واننا نرجو أن لا تلجأ الجزائر الى الحرب ، الخ (24) .

10 ـ التحالف الأروبي ـ الأمريكي ضد الجزائر :

ومما زاد فى تعقيد العلاقات بين الجزائر وأمريكا محاولة الأروبيين التدخل فى شؤون الجزائر الداخلية وتحالفهم عسكريا ضدها . ففي هذه الأثناء كان مؤتمر فيينا (1814 ـ 1815) منعقدا . وهذا المؤتمر فى معناه الواسع كان انتصارا للرجعية والملكية والمحافظية فى أوروبا . والذي يهمنا منه هنا هو أن المؤتمرين قد ناقشوا . فيما ناقشوا . وضع حد لتجارة الرقيق فى شمال أفريقية . ومطالبة الجزائر بالذات بالكف عن محاربة جيرانها . ورغم أن مؤتمر فيينا لم يتخذ قرارا حاسما فى هذا الصدد فانه قد مهد الطريق لمؤتمر ايكس لاشابيل الذي ناقش الموضوع بدوره ثم بعث وفدا عام 1818 يتألف من ممثلين عن بريطانيا وفرنسا الى الجزائر حاملا عدة مطالب تعد فى جملتها تدخلا مكشوفا فى شؤون الجزائر الداخلية (25) . ومما يلاحظ بهذا الصدد أن هذه الجوقة الأروبية كانت تتجاوب مع بعضها فى انسجام غريب بخصوص الجزائر .

وهنا تبرز الى المسرح عملية العدوان التاريخي الذي قامت به بريطانيا وهولاندا ضد الجزائر فى صيف 1816 . فبينما كانت المفاوضات الجزائرية ـ الأمريكية تتعثر ظهر الأسطول البريطاني بقيادة اللورد

---

24 ـ أنظر رسالتي الداي وماديسون فى شيلر « مختصر الجزائر » الاولى صص 276 ـ 278 والثانية صص 295-297 ، غير أنه من العجب أن الرئيس ماديسون يحتج بمعاهدة ـ على فرض صحتها ـ لم يوافق عليها الكونجرس الا بعد سبع سنوات .

25 ـ أنظر هذه المطالب فى نصها الفرنسي والانكليزي فى المرجع السابق . صص 303 ـ 306 .

اكسموث Exmouth والأسطول الهولاندي بقيادة الضابط فان كابلن (Van Capellan) وقد أضيف الى ذلك سفينة فرنسية كانت راسية فى الميناء ! والذي يهمنا الآن ليس المعركة التي جرت فى حد ذاتها ولكن أبعادها وآثارها الدبلوماسية . ذلك أن الأمريكان قد اغتنموا هذه الفرصة واستعرضوا هم أيضا عضلات أسطولهم أمام الجزائر بقيادة الضابط شونسي (Chauncey).

وقد قاومت الجزائر هذا التحالف الغريب مقاومة تاريخية اعترف بها أعداؤها أنفسهم . فقد اتفقوا على أن المدينة كانت على وشك الخراب بسبب القنابل من البحر . ويذكر شيلر الذي كان شاهد عيان لهذه المعركة أن حوالي ستمائة جزائري قد استشهدوا ، وأن العدو قد تكبد حوالي تسعمائة شخص بين قتيل وجريح . ومع ذلك رفضت الجزائر التوقيع على وثيقة « السلام » المفروض . ولم تقبل فى النهاية غير اطلاق سراح بعض الأسرى على أساس انساني فقط .

من الواجب أن أعترف بأنه ليس لدي من الوثائق ما يقنع بوجود اتفاق بين أمريكا وبين القوات الأروبية المتحالفة ازاء الجزائر خلال صيف 1815 . وكل ما يمكن الجزم به هنا هو أن أمريكا قد وجدت فى التدخل الأروبي فرصة ذهبية فزادت من ضغطها على الجزائر لتقبل شروطها . ومهما كان الأمر فقد استؤنفت المفاوضات بين الجزائر وأمريكا فى شهر ديسمبر من نفس العام ولكن يبدو أن هذه المفاوضات قد انتهت بالفشل . وتذكر الوثائق الأمريكية بأنه من تاريخ هذه المفاوضات الى سنة 1830 لم يطرأ على العلاقات بين البلدين ما يستحق الذكر . كما تذكر المصادر نفسها بأن أمريكا قد استمرت فى دفع الجزية السنوية الى الجزائر بعد 1816 .

11 ـ خاتمـــة :

وفى الختام أحب أن أسجل بعض الملاحظات حول هذا الموضوع :

1 ـ أول ما يسترعي الانتباه هنا هو تطور العلاقات بين الجزائر وأمريكا تطورا غير متوازن ، ففي الفترة التي تبدأ من 1785 وتستمر الى عام 1815 كانت الظروف فى صالح الجـزائريين . غـير أن كفة السياسة الدولية قد رجحت فى صالح أمريكا بعد ذلك ، خصوصا بعد انتصار الرجعية الأوروبية فى مؤتمر فيينا ، والتحـالف الأوروبي ـ الأمريكي الغريب ضد الجزائر .

2 ـ ان كلا من الدولتين كان يجهل شؤون الآخـر فى البداية . فأمريكا كانت مجموعة من المستعمرات تحت النفوذ البريطاني . وكانت علاقة الجزائر بها تتم عن طريق بريطانيا . كما أن أمريكا كانت تجهل كل شيء تقريبا عن الجزائر ولا تعرف عنها الا من الدعاية التى يصفها بها المساجين والقسس مما جعل العلاقات بينهما تبدأ بالشـك وسوء التفاهم .

3 ـ لعبت الجغرافية دورا هاما فى العلاقات بين البلدين . فالجزائر جزء من العالم القديم بينما كانت أمريكا جزءا من العالم الجديد . يضاف الى ذلك أن الجزائر عريقة الاستقلال خبيرة بالتعقيدات الدولية وتوازن القوى فى المنطقة التي ترجع اليها ، بينما كانت أمريكا حديثة الاستقلال قليلة التجربة بعيدة عن مسرح المناورات الذي كـان الشرق وأوروبا يمثلان خشبته الكلاسيكية .

4 ـ كان هدف أمريكا من ربط علاقات ودية مع الجزائر هو تسويق تجارتها وتأمين مواطنيها ، بينما كان هدف الجزائر من ربط علاقات ودية مع أمريكا استراتيجيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا . ولم يكن

اصرار الجزائر على أن تدفع أمريكا الجزية والمدخرات البحرية بدل النقد وأن تبنى لها السفن ، الا جزءا من هذه السياسة .

5 ـ كانت الجزائر منطقية فى علاقتها مع أمريكا . فقد عاملتها على قدم المساواة مع الدول الأخرى ، وتمشيا مع هذا المنطق تمسكت الجزائر بشروطها مهما كانت الصعوبات . أما أمريكا فقد حاولت أولا أن تتزعم تحالفا ضد الجزائر ، وحين اضطرت الى توقيع الصلح استمرت فى تماطلها فى تحقيق التزاماتها .

6 ـ لعبت السياسة الدولية دورا هاما فى تبعيد الشقة بين الطرفين . وكانت الثورة الفرنسية وحروب نابوليون من جهة ، وحرب أمريكا مع بريطانيا من جهة أخرى هما حجر الزاوية فى هذا الموضوع ، ويبدو أن بريطانيا كانت مسؤولة على برودة العلاقات بين الجزائر وأمريكا فترة غير قصيرة .

7 ـ بينما كانت أمريكا تبني بحريتها وتوسع تجارتها وتكسب أصدقاء جددا ، كانت الجزائر هدفا لهجمات خارجية وجمود داخلي مما سبب أضطرابا فى الميزانية ، وشل من نشاط وقوة الأسطول ، وأدى فى النهاية الى سقوط الجزائر ضحية للاستعمار الفرنسي عام 1830 .

العلاقات الدبلوماسية بين امريكا ودول المغرب العربي
(1816 — 1776)

(هذه مراجعة لكتاب الدكتور ري و . ارفينغ (W. Irving) « العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة ودول افريقية الشمالية ، 1776 — 1816 . » وقد كتبتها كجزء من برنامج اطروحة الدكتوراه فى مادة العلوم السياسية أثناء خريف 1963 ، وقدمتها الى البروفيسور شارل ه . ماكلافلن ، أستاذ المادة ورئيس دائرة العلوم السياسية فى جامعة مينيسوتا . وقد رأيت ترجمة هذه المراجعة عن الأصل الانكليزي اعتقادا مني بأن ذلك قد يؤدي الى زيادة فهم التطورات التاريخية لهذه المنطقة .)

* * *

خلال أكثر من ثلاثة قرون اتبعت دول المغرب العربي التي كان يطلق عليها اسم (The Barbary States) نوعا من السياسة الدولية التي أصبحت تعرف عند الكتاب الأروبيين بأنها سياسة قرصنة وغير متحضرة . ويبدو أنه من الصعب أن يحكم المرء من وجهة نظر واحدة فقط . أن التفسير الحقيقي لسياسة « القرصنة » يجب البحث عنه فى المحتوى التاريخي والظروف العالمية التي قادت الى ذلك العمل الدبلوماسي والممارسة التجارية التي تستنكرها مقاييس العلاقات الدولية الحديثة .

وقبل أن نتحدث عن قدوم أمريكا الى حوض البحر الأبيض المتوسط دعنا نذكر بعض النقاط التي توضح تفسيراتنا للحوادث فيما بعد . أن الوضع الجغرافي لافريقية الشمالية وجنوب أوربا فى غرب البحر الأبيض قد جعل من المحتم أن تدخل هذه المنطقة فى صراع عنيف من أجل السيطرة

والنفوذ فى مضايق جبل طارق وصقلية ولم يحن منتصف القرن الخامس عشر حتى أصبح واضحا ان ميزان القوى كان قد أصبح يرجح نحو جهة جديدة : ففي غرب البحر الأبيض رجح لصالح أسبانيا والبرتغال ضد الاندلسيين (المور) ، وفى شرقه رجح لصالح العثمانيين ضد النمساويين .

ذلك انه بنهاية القرن 15 نجح الأسبانيون (أو البرتغاليون) فى طرد الأندلسيين من شبه جزيرة ايبيريا واضطروهم الى النزوح الى افريقية الشمالية . ولكن الأسبانيين لم يتوقفوا عند ذلك ، بل استهدفوا احتلال افريقية الشمالية أيضا . فمواني ومدن سبتة ، ووهـران ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، كانت كلها مهددة من التوسع الأسباني . ثم ان الأسبان لم يكونوا وحدهم فى هذا الصراع . فقد كانوا مؤيدين مـن البرتغاليين ، وأهالي جنوا ، ونابولي ، وسردينيا ، و « فرق » أخرى من الامبراطورية المقدسة لذلك كان الوضع يبدو ميؤوسا منه فى نظر أهالي افريقية الشمالية . وفى النهاية طلبوا من الدولة العثمانية أن تتحالف معهم لطرد الأجانب من بلادهم . وهكذا تحالفت الجزائر مع الدولة العثمانية سنة 1516 ، ثم لحقت تونس وطرابلس . أما المغرب فلم تدخل فى تحالف رسمي ، ولكنها تعاونت ، بدلا من ذلك ، مع جيرانها .

ان قصة السياسة المعروفة بسياسة القرصنة لدول افريقية الشماليـة (المغرب ، الجزائر ، تونس ، ليبيا) تبتديء من سنة 1516 . وهـي السياسة التي اتبعها أهالي المنطقة للدفاع عـن حقوقهم حفظا لتوازن القوى ، والتي أسماها الكتاب الأوروبيون (والأمريكيون) بالقرصنة واستنكروها ، كما سبقت الاشارة ، على أنها عمل غير متحضر . ولكن هؤلاء الكتاب بما فيهم السيد ارفنغ، ينسون أن معظم الدول الاوروبية فى ذلك الوقت كانت تتبع نفس السياسة فى العالم الجديد ، وفى جنوب شرق آسيا ، وفى البحر الأبيض ، ولم تتغير سياسة هذه الدول فى الحقيقة

سوى بعد مؤتمر فيينا سنة 1815 ، وهو التاريخ الذي ينتهي عنده الكتاب الذي نراجعه .

وهناك عوامل كثيرة ساهمت فى خلق الصراع فى غرب البحر الأبيض خلال أكثر من ثلاثة قرون . ولعل العامل الديني كان أقواها جميعا . فالأندلسيون كانوا قد طردوا من الأندلس باسم قضية دينية . ولاشك أن الكنيسة فى بلد لاتيني قد لعبت دورا هاما فى استمرار الصراع من الطرفين . وقد كانت النمسا أيضا تعلن شبه حرب مقدسة ضد تقدم العثمانيين فى وسط أوروبا ، حيث أظهرت الكنيسة هناك أيضا تأثيرها فى توجيه ميزان القوى .

وبالاضافة الى العامل الديني كانت هناك المنافسات التجارية بين الدول المعنية ، وقد كانت مضايق جبل طارق وصقلية مركزا للنزاع . فكل من يبسط نفوذه على هذه المضايق يضمن لنفسه السلطة فى المنطقة . وبالاضافة الى ذلك فان موانيء الجزائر ، وطنجة ، وتونس ، ومارسيليا ، وجنوا كانت هامة بدرجة كبيرة . أما فى شرق البحر الأبيض فان مضايق الدردنيل، وجزر البحر الادرياتيكي ، والخليج الفارسي كانت كلها أسبابا أخرى للنزاع . وتظهر المنافسات التجارية فى عدة أشكال ، ولكن أكثرها وضوحا هو (التنازلات) أو الاتفاق بين فرنسا وتركيا ، والشركات الشرقية ، ثم هناك عدد آخر من المشاريع التجارية التي كونتها الدول الأروبية فى منطقة افريقية الشمالية .

أما الولايات المتحدة فانها لم تشارك فى هذا الصراع الا مؤخرا . فعندما كانت بريطانيا هي السيدة فى أمريكا الشمالية كانت هي التي تحمي المصالح التجارية فى منطقة البحر الأبيض . وقد كانت بريطانيا ، عموما ، فى تفاهم مع دول افريقية الشمالية وكانت تتمتع بامتيازات عظيمة . ولكن بعد سنة 1776 كان على الولايات المتحدة أن تتولى مسؤوليتها بنفسها

فى حماية مصالحها فى منطقة البحر الأبيض . وقد عانت من جراء عدم وجود أسطول بحري قوي ، ومن جراء فقدان المعلومات عن هذه المنطقة وعن شعوبها . أما الدول الأروبية فقد قدمت ، باستثناء بريطانيا وهولاندا، بعض المساعدات للولايات المتحدة ولكنها (الدول الأروبية) كانت تحت ضغط مصالحها الاقتصادية والديبلوماسية الخاصة .

وان المرء ليجد فى كتاب السيد ارفينغ عدة أمثلة عن التقاليد الديبلوماسية الايطالية القديمة ، رغم ان الكتاب هو عن علاقات الولايات المتحدة ودول افريقية الشمالية . فالرشوة ، وتقديم الهدايا ، والجوسسة ، والفساد ، كثيرا ما ذكرت فى الكتاب .

ثم ان شخصية وملامح القناصل قد لعبت دورا هاما فى العلاقات بين الأمم . ومن أمثلة ذلك أن الجزائر قد رفضت أن تستقبل القنصل الأمريكي بحجة أن ملامحه لا تناسب مسؤوليته . ولكن المرء لا يستطيع أن يلوم دول افريقية الشمالية لأنها لم تغير تقاليد الديبلوماسية لأن هذه قضية تتحملها كل الدول .

ومن السهل أن يحكم المرء ، اذا أخذ فى اعتباره تلك العوامل التي أشرت اليها ، على رأي السيد ارفينغ الخالي من الدليل حين يقول : ان مسؤولي دول افريقية الشمالية لم يتصلوا بمعظم مواردهم الهامة من ممارسة التجارة سلميا .. ان القرصنة كانت هي أساس نظامهم الاقتصادي، بل نظامهم السياسي أيضا . » (ص 8) . ولكنه لم يزد على ذلك . فهو لم يقل كيف كانت « القرصنة » نظاما لهم سياسيا واقتصاديا مدة أكثر من ثلاثة قرون . ويبدو لي أن السيد ارفينغ قد اكتفى بنقل ما كتبه الآخرون عن الموضوع دون وضع كل المشكلة تحت النقد .

ان الحقيقة هي ان دول افريقية الشمالية قد اتبعت مبدأ سياسة الحرب ضد كل الدول التي لم تعترف بتفوقها فى غرب البحر الأبيض . ويظهر هذا من

ان معظم الدول الأروبية قد تمتعت بعلاقات ودية مع دول افريقيه الشمالية ، ولا سيما بريطانيا ، وفرنسا ، وهولاندا ، والدول الاسكندينافية . ويكتب السيد ارفينغ نفسه عن علاقة بريطانيا بكل من مستعمراتها فى أمريكا الشمالية ودول افريقية الشمالية فيقول :

« ان سياسة بريطانيا فى غرب البحر الأبيض ... كانت بشكل واضح فى صالح مستعمراتها (يقصد الولايات المتحدة) . فقد أعطتها (الى المستعمرات) قاعدة سياسية لتجارة مربحة . كما انها قد سمحت لها بالحرية من الجزية ، ثم انها قد أمنتها وحمتها وجعلتها تتمتع بوضع لا تتمتع به الا الأمم الأروبية ذات الامتيازات الخاصة . » (ص 19) .

واذا كانت هذه هي حالة بريطانيا فى علاقتها مع دول افريقية الشمالية ، فكيف يفهم المرء قول السيد ارفينغ ان « القرصنة كانت هي أساس النظام الاقتصادي ، بل النظام السياسي » لدول افريقية الشمالية . حقا أن هذه الدول كانت فى نزاع طويل مع بعض الدول الأروبية ، ولكن هذه كانت هي الدول التي حاولت أن تؤسس لا علاقات اقتصادية وتجارية فقط ، ولكن علاقات سياسية وثقافية (ولا سيما الدين) أيضا . وهذه الدول هي اسبانيا ، والبرتغال ، والدويلات الايطالية .

أما بصدد المفاوضات المباشرة بين أمريكا ودول افريقية الشمالية ، فان الأخيرة قد بذلت جهدها لكي تحافظ على علاقات ودية مع العضو الجديد فى مسرح النزاع . ولكن نتيجة لعوامل أخرى ، اعترف بها السيد ارفينغ نفسه ، ظهرت الصعوبات على السطح وأصبح النزاع ضروريا . وهذه العوامل هي :

1 — بطء اتخاذ القرارات الأمريكية (مثلا أن المعاهدة التي جرت المفاوضة بشأنها فى الجزائر سنة 1815 لم تصادق عليها الولايات المتحدة سوى سنة 1822 (ص 186) .

2 ـ النقص فى تنسيق الاتصالات . فالرسالة قد تأخذ شهرين قبل أن تصل الطرف الآخر ، بل ان بعض الرسائل قد ضاعت نتيجة لضياع احدى السفن أو القاء القبض على حامل الرسائل .

3 ـ نقص المعلومات عن الشعوب والبلاد المعنية . فهناك رجل مغربي متدين قد اقنع رئيس دولته ، لكي يوقع معاهدة مع وفد أمريكي ، بأن الدين فى الولايات المتحدة كان هو نفس الدين فى المغرب . (ص 34) . وقد اعتاد حكام الجزائر أن يشيروا الى الرئيس الأمريكي على أنه أمبراطور أمريكا (أنظر شيلر Shaler فى كتابه (مختصر تاريخ الجزائر) (ص 276) . وبالاضافة الى ذلك فان الممثلين (الأمريكيين ولا سيما خلال العقدين التاليين لاستقلال الولايات المتحدة ، لم يكونوا مطلعين على الوجهة الثقافية والتجارية والسياسية لدول افريقية الشمالية .

ولكن الدول الأروبية لم تكن مستعدة لمساعدة الولايات المتحدة فى علاقاتها مع دول افريقية الشمالية . فقد رفضت بريطانيا أن تحمي مصالح أمريكا أثناء حرب 1812 التي جعلت بريطانيا تقف ضد الولايات المتحدة فى منطقة البحر الأبيض . ورغم أن فرنسا قد قدمت لأمريكا بعض المساعدات أثناء حرب الاستقلال فانها قد أصبحت فيما بعد غير مبالية ، بل أصبحت أحيانا تشك ، وحتى تعمل ضد الولايات المتحدة . (ص 195)

كذلك كانت اسبانيا على علاقة غير ودية مع دول افريقية الشمالية ولا تستطيع أن تساعد الولايات المتحدة بل ان أسبانيا كانت قد اتهمت ، خلال حرب طرابلس ـ أمريكا ، بمساعدة الاولى . (ص 196 ـ 7) . وقد كانت البرتغال هي البلاد الأروبية الوحيدة التي قدمت مساعدة لأمريكا . حتى لقد فكر الكونغرس الأمريكي فى مساعدة البرتغال بدل ارسال أسطول بحري ضد الجزائر . (ص 197) . ومن جهة أخرى

ساعدت كل من السويد ، والدانمارك ، وسردينيا الولايات المتحدة ، ولكنها لم تفعل ذلك الا اذا كانت هذه الدول هي نفسها فى حرب مع واحدة أو أكثر من دول افريقية الشمالية . أما الهولنديون فقد تفاوضوا مع الأمريكان على المساعدة ، ولكنهم رفضوا فى النهاية أن يطبقوا ذلك . (ص 197 — 8) .

وقد أشار السيد ارفينغ الى الصعوبات التي واجهت الأمريكان فى مفاوضتهم مع دول افريقية الشمالية . وأهم الصعوبات هي :

1 — قلة معلومات المفاوضين الأمريكان عن افريقية الشمالية .

2 — عدم الثبات على قرار بالنسبة لحكام افريقية الشمالية .

3 — ضآلة الرصيد المالي الذي كان تحت تصرف المفاوضين .

4 — ضعف فهم الأوضاع عند المفاوضين الأمريكان . (مثلا كانوا يتهمون بعضهم البعض بالجهل والتزوير ، وفتح الرسائل ..) (ص 198 — 202) .

ولكن أمريكا قد استفادت كثيرا من تجربتها مع دول افريقية الشمالية . فقد تعلمت أن تعتمد على نفسها . وكان مساجينها قد عوضوا بمبالغ طائلة « فى طول البلاد وعرضها » . وقد نجحت فى خلق أسطول بحري وانجاب أبطال مثل ايتون وديكاتور . ويقول السيد ارفينغ انه « من ظاهرة كهذه تتطور وحدة شعب ما » . (ص 204) . (1)

الجزائر 13 جوان 1968

1 — نشرت فى (المجاهد الثقافي) عدد 9 ، سنة 1969 ثم ترجمها السيد كاوش الى الفرنسية ونشرتها جريدة (الجمهورية) ، وهران ، 17 يناير 1970 .

الجزائر فى مؤلف انكليزي قديم ، 1731

من الكتب القديمة عن الجزائر كتاب ضخم بالانكليزية طبع فى لندن سنة 1731 ، وعنوانه (الكامل فى تاريخ الجزائر) تأليف السيد جوزيف مورقان ، ويقع فى أكثر من 700 صفحة من الحجم الكبير . وهو فى مجلدين : مجلد فى تاريخ شمال افريقية عامة (بربارية (Barbary من أقدم العصور حتى بداية القرن السادس عشر ، والمجلد الثاني وهو فى تاريخ الجزائر خاصة ، من بداية العهد العثماني حتى زمن طبع الكتاب ، 1731) ، ويحتوي على جزئين : الأول من قدوم العثمانيين حتى تولى نحاج باشا (1545) والثاني منه الى بداية القرن الثامن عشر . وليس هذا أول كتاب بالانكليزية عن الجزائر ، ولكني لا أعرف انه ترجم كاملا أو ملخصا ، الى العربية .

ومؤلف هذا الكتاب عاش سنوات طويلة فى الجزائر ، وتولى فيها بعض المهام فى قنصلية بلاده عندنا فى عهد القنصل البريطاني العام ، السيد روبير كول (R. Cole) الذي أقام فى مدينة الجزائر أكثر من أربعين سنة . وكان على اطلاع واسع بأحوال البلاذ عامة فى ذلك الحين ، فقد كان يحسن ، كما يظهر من الكتاب ، اللغة العربية ويعرف التقاليد الاسلامية . وكان كثير التجوال فى مختلف أجزاء الجزائر يريد التعرف على أهلها وتقاليدهم . وقد ذكر انه زار الجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر عدة مرات ، وزار قسنطينة وغيرها . وكان يتصل بالمرابطين ويستمع الى أقوالهم ويتعرف على علاقاتهم بالشعب . وله كتاب عن الاسلام : أشار الى الجز-

الثاني منه فى الكتاب الذي نتناوله (ص 487) وسماه « التعريف بالاسلام » Mohamatisme Explained وانتقد دي تاسي ، الذي كتب أيضا عن الجزائر ، بأنه لا يعرف عادات المسلمين . (239) . ونشر عملا آخر عن الجزائر فى لندن سنة 1680 .

وكثير ما كان يصحح نطق وأخطاء المؤرخين الآخرين عندما يتعرض الى أسماء القبائل والأشخاص المحليين . ورغم اننا عدنا الى بعض المظان التي تحتوي على تراجم الانكليز فاننا لم نستطع أن نعرف عن حياته أكثر من هذا القدر ، فلم نعرف مثلا متى ولد أو توفي . وكل ما نستطيع الجزم به الآن هو انه قد عاش فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي .

وهناك عدة أسباب دفعته الى الكتابة عن الجزائر . أولها وجود لذة شخصية فى كتابه تاريخ بلاد وشعب قضى بينه كثيرا من سنوات حياته . ويتضح من هذا انه كان يكتب عن تجربة ذاتية ، وانه كان يكتب نوعا من الذكريات والانطباعات . وسنرى ان هذا غير صحيح . وثانيها اقتناعه بأنه فى استطاعته أن يكتب تاريخا عن الجزائر أكثر وضوحا وأوسع دائرة من أي تاريخ آخر كتب عن نفس الموضوع . فهو يعرف البلاد عن كثب ويعرف حياة المسلمين عامة ، ويريد أن تكون بلاده على علاقات طيبة مع هذه الجزائر القوية ذات الأسطول العظيم والسمعة الواسعة والامكانيات الكبيرة . وهو رأي نجده فى ثنايا الكتاب وسنتعرض اليه . وثالثها ، كثرة الأخطاء الفاحشة السائدة فى بلاده عمن يسمونهم « بالبرابرة » ، وعن أهمية الجالية التركية فى « بربارية » (شمال افريقية) ، وبالأخص عن قراصنة الجزائر وأسطولها . وهو لذلك يريد أن يصحح الأخطاء وأن يساهم فى ازالة العراقيل وسوء التفاهم القائم بين مواطنيه وسكان شمال افريقية .

ومصادر مورقان كثيرة متنوعة . حقا انه اعتمد كثيرا على بعض المؤلفين الأسبانيين مثل ف . ديقو هايدو ، ولويس مرمول ، ولكنه كان دائما يحتفظ لنفسه بالرأي النهائي . كذلك اعتمد على لوجي دي تاسي الذي كان ممثل ملك انكلترا للشؤون البحرية فى هولاندا . وأخذ عن الكاتب الديني الاسباني الدكتور بيرناردو الدريتي صاحب « اسبانيا وافريقية فى القديم » ولم يأخذ كثيرا عن ليون الافريقي (الحسن الوزان) لأن مرمول استعار منه كثيرا ولأن وجه بربارية قد تغير منذ عصره . وأخذ مورقان أيضا عن مؤلفين آخرين أمثال ب . دان ، قرامبي (Gramaye) ودافيتي (Davity) ودابر (Dapper) وهكليت Haklyyt ، وكان ينقل أيضا عن ابن الرقيق القيرواني وغيره من كتاب المغرب فى العصر الوسيط ، ولكنه يبدو كان يأخذ بطريقة غير مباشرة . وقد رجع أيضا الى بعض الموسوعات التاريخية واللغوية . ولم يخل الكتاب من الاستفادة من كتب القدماء أمثال مؤلفات العهد الروماني (سالوست وسترابو ، الخ) .

ولكن مورقان كان كثير النقد لمصادره . وكان يشعر أن الأروبيين الذين سبقوه بالتأليف كانوا مدفوعين بروح الجهل والحقد الديني والأحكام المسبقة . لذلك انتقد هايدو ، رغم انه يعترف له بالفضل وقد أسماه مرشده فى عمله ، فقال ان كتابه (هايدو) يقوم على فكرة ثلاثية هي الأسر والشهداء والمرابطون (أسر المسيحيين من طرف الجزائريين وموتهم شهداء فى أيدي المسلمين ودور رجال الدين المسلمين فى الجهاد) ، وهي فكرة حسب رأيه ، تافهة ، واتهمه بضيق الأفق والمحاباة الدينية والكتابة وبكثرة موجه .كذلك انتقد مرمول وأتهمه بعدم التجرد من الهوى الديني وبكثرة الأخطاء ولا سيما عندما يتحدث عن السكان والبلاد . وانتقد ليون الافريقي بأنه ، رغم ان كتابه قد طبع سنة 1525 وترجم الى عدة لغات (منها الانكليزية سنة 1600) ، فانه قد تجاوزه الزمن ، ومن جهة أخرى قال عنه ان شهرته قد جعلت الناس يعتقدون خطأ انه المصدر الأساسي

الوحيد عن تاريخ بربارية ، واتهم لوجي دي تاسي بأنه كان يجهل أحوال وعادات المسلمين . وقال عن الجميع بأن لهم أفكارا مسبقة خاطئة عن عن الأتراك والمسلمين ، وانهم يستعملون ضد الجزائريين خاصة والمسلمين عامة عبارات جارحة قاسية متأثرين فى ذلك بأقوال ودعايات الكهنة الأسبان المغرضين الذين كانوا يشيعون آلاف الحكايات الخرافية لكي يحصلوا على المساعدات المالية والسياسية لتخليص الأسرى المسيحيين من أيدي المسلمين .

وحاول مورقان أن يصحح هذه الصورة الخاطئة عن الجزائر . فقال انه كان فى امكانه أن يأخذ عن تلك المصادر ويكتب تأليفا كالآخرين ، ولكنه شعر أن له أشياء كثيرة خاصة يريد أن يقولها ، ولذلك عزم على تأليف يحمل شخصيته وآراءه ويقدم تاريخ الجزائر ، شاملا كاملا ، الى مواطنيه والى الاوروبيين عامة لكي يعرفوا الحقيقة . وقد استجاب نرغبة بعض أصدقائه فكتب قسما مدخليا للكتاب تناول فيه التاريخ العام لبربارية منذ القديم حتى بداية القرن السادس عشر .

وافتتح كتابه بمحاولة تصحيح الصورة التي رسمها رجال الدين فى أروبا عن الجزائر . فقال فى المقدمة ان الجزائر مشهورة بحكومتها القوية ، وانها قد وقفت أكثر من قرنين ضد هجومات كثيرة وانه ليس هناك اليوم ما يجعلها فى خطر من تلك الهجومات ، وقال ان من حق الجزائريين أن يكونوا شعبا بحريا قويا ، أليس كل قادة اروبا ينشدون صداقتهم ويتوددون اليهم ؟ « فهم شعب يعقد السلام ويعلن الحرب مثل الامم الاخرى ، وهم دائما فى وضع يفرض على غيرهم احترامهم وتقديرهم » . (ص 4) .

وعاب مورقان على من يقول ان الجزائريين عبارة عن عصابة من القراصنة الجبناء تكفى ست سفن لتخريب مدينتهم عليهم ، وقال ان أمثال هؤلاء لا يعرفون ان أرمادة (أسطول) فيليب الثاني الاسباني ضد بريطانيا

(سنة 1588) لم تكن شيئا يذكر بالمقارنة الى أرمادة شارل الخامس الذي تحطم أمام مدينة الجزائر سنة 1541 ، أو الى الاساطيل الاخرى الاسبانية والانكليزية التي تحطمت أمام هذه المدينة التي لا تقهر . وقد ضرب مثالا على ذلك بتغلب الجزائريين على الاسبان فى مستغانم حينما أسروا منهم 12.000 من أصل 16.000 ، من بينهم ابن حاكم وهران الاسباني ، وحملوهم الى مدينة الجزائر . وضرب مثلا آخر على قـوة الجزائريين باخراجهم الاسبان من وهران سنة 1708 بعد أن ظلوا بها قرنا وبعد أن كانت محروسة بحوالي عشر قلاع ، وبحماية قوية .

وقد قسم المدخل (أو المجلد الاول) الى ستة أقسام ، نوجز عناوينها فيما يلي :

القسم الاول : عن أصل سكان البلاد (شمال افريقية) .

القسم الثاني : عن قرطاجنة وامبراطوريتها .

القسم الثالث : عن الاقاليم الرومانية فى شمال افريقية الى الهجوم الوندالي .

القسم الرابع : تاريخ بربارية من الوندال الى الفتح الاسلامي .

القسم الخامس : شهادات عن استبداد وظلم الرومان وشرور المسيحيين الافريقيين التي أدت الى سقوط تلك الاقاليم .

القسم السادس : تاريخ بربارية الى بداية القرن السادس عشر ، عندما أصبحت الجزائر تحت النفوذ التركي . ويحتوى هذا المدخل على 207 صفحات وتظهر فيه أيضا شخصية المؤلف بنقده للمصادر ودراسته لتاريخ الاسلام ومعرفته لتقاليد السكان .

ويأتي بعد ذلك المجلد الثاني ، وهو خاص بالجزائر ، وعنـوانه (الكامل فى تاريخ الجزائر والاقاليم التابعة لها منذ استيلاء الاتراك عليها).

ويقع في جزئين كما سبق أن أشرنا . الجزء الاول يضم ستة فصول نوجزها فيما يلي :

الفصل الاول : الجزائر في القديم ، أسماؤها ، الثورات التي وقعت فيها ، أوضاعها العامة .

الفصل الثاني : معلومات عن القرصان الشهير عروج باربروسة قبل استيلائه على الجزائر .

الفصل الثالث : تاريخ عروج باربروسة الى وفاته ، وكيف وقعت الجزائر في يد الاتراك .

الفصل الرابع : خير الدين باشا ، والي الجزائر الاول باسم السلطان العثماني .

الفصل الخامس : حسن آغـا ، خليفة خير الدين باشا .

الفصل السادس : عهد الحاج باشا (يدعى كذلك واسمه الحاج بشير ــ أو بشير بن عطيلة ــ أو عطاء الله) .

وهو جزء صغير الحجم اذا قيس بالجزء اللاحق أو حتى بالمدخل . اذ تبلغ صفحاته حوالي 59) ص 211 ــ 252 (. أما الجزء الثاني فضخم وفيه تفاصيل أكثر وهو يبتدىء بالفصل السابع :

الفصل السابع : حسن باشا ابن خير الدين (العهد الاول) .

الفصل الثامن : صالح رايس ، أول عربي يحكم الجزائر .

الفصل التاسع : الباشوات : حسن قورصو وتاكارلي ، ويوسف ، والقائد يحيى .

الفصل العاشر : الباشوات حسن ابن خير الدين (العهد الثاني) ، وحسن آغا ، ومحمد خوجة ، وأحمد ، والقائد يحيى (العهد الثاني) .

الفصل الحادي عشر : حسن باشا (العهد الثالث) الجزائريون وحصار مالطة .

الفصل الثاني عشر : محمد باشا ابن صالح رايس ، علي باشا الفرطاس.

الفصل الثالث عشر : عرب أحمد ، رمضان باشا .

الفصل الرابع عشر : حسن باشا (العهد الاول) جعفر آغا .

الفصل الخامس عشر : حسن باشا (العهد الثاني) ، مامي باشا الارناووطي .

الفصل السادس عشر : أحمد باشا ، خضر باشا (العهد الاول) .

الفصل السابع عشر : شعبان باشا ، مصطفى باشا (العهد الاول) ، خضر باشا (العهد الثاني) .

الفصل الثامن عشر : عن القراصنة الجزائريين وقوتهم البحرية .

الفصل التاسع عشر : شؤونهم البحرية الى فشل حملة السير روبيرت مانسيل (الانكليزية) .

الفصل العشرون : مقتطفات من يوميات الحملة الانكليزية الفاشلة ضد الجزائر بقيادة السير روبيرت مانسيل .

وينتهي الكتاب بملحق طويل (12 صفحة) يضم معاهدة الصلح والتجارة التي أبرمت بين الجزائر وأنكلترا سنة 1682 وجددت سنوات 1686 ، 1700 ، 1703 ، 1716 ، وبملحق آخر فى نفس الموضوع بين انكلترا وتونس من جهة وانكلترا وطرابلس من جهة أخرى . ويحتوي هذا الجزء على حوالي 340 صفحة . ولا يكتفي مورقان بذكر أسماء الباشوات ولكنه يتحدث عن أعمالهم خلال ولايتهم ومنشآتهم وعلاقاتهم الخارجية وصلاتهم بالسكان والوجق العثماني ، كما يتتبعهم فى مختلف

مراحل حياتهم حتى بعد أن يتركوا الحكم ، ولا يهمل جانب السكان أثناء حديثه عن الولاة ، غير أن كتابه يظل كتابا سياسيا بالدرجة الأولى .

وهناك حادثتان هامتان ذكرهما مورقان تتعلقان بالتاريخ البحري للجزائريين ، أولاهما حادثة غريبة تستحق الوقوف والدرس والبرهان وهي ان بعض الجزائريين كانوا مزارعين في أمريكا ، لهم أملاك زراعية ضخمة ولهم خدم من الزنوج يعملون في مزارعهم (ص 517) وهو يستغرب من ذلك ، رغم انه كثيرا ما سمع عنه لأن الجزائريين لم يكونوا يملكون عندئذ السفن القادرة على قطع المحيط . والحادثة الثانية أقل غرابة لأنها ليست جديدة في حد ذاتها ولكن المؤلف قد أعطاها كثيرا من الاهتمام وتتبع صاحبها بتفصيل خاص . وهي دخول مراد رايس المحيط لأول مرة ووصوله الى جزر الكناري ، سنة 1585 ، ويتحدث مورقان عن ذلك فيقول انه أول جزائري دخل المحيط وأغار على هذه الجزر وان رحلته قد استغرقت أكثر من أربعة أشهر ، وانه غنم غنائم ضخمة وأسر فيها أكثر من 300 أسباني بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر ، وان الجزائريين قد احتفلوا احتفالا عظيما بعودة مراد رايس سالما غانما وانهم كانوا يلقبونه « بالكبير » لأنه أول من دخل منهم المحيط . هذا في القرن السادس عشر ، أما اليوم ، (زمن المؤلف) فان دخول الجزائريين المحيط أصبح أمرا عاديا . (ص 289) ولا نظن أن مورقان أول من أشار الى هذه القصة ،فقديكون ناقلا عن هايدو ، ولكنه يرويها بشيء من العطف والاعجاب ببطلها خلافا للمؤلفين الآخرين الذين أعماهم التعصب الديني ، كما يقول ، عن رؤية الحقيقة .

* * *

وتحتل مدينة الجزائر ، كما يلاحظ المرء من الفصول ، جزءا ضئيلا من هذا الكتاب الضخم ، ولكن المؤلف يتحدث عنها حديثا جديرا بالوقوف . ويبدأ بذكر الاقوال الشائعة عنها عندئذ لدى مواطنيه الانكليز خاصة

والاروبيين عامة . فهي عندهم مدينة الرعب ، وملاذ قطاع الطريق وطلاب الغنائم الذين لا يكتفون بارهاب جيرانهم ، بل هم الاعـداء الالداء للمسيحيين وتجارتهم . انها حسب رأي البعض « عش العفاريت » ولكن المؤلف ، الذي أخذ على عاتقه تصحيح الاخطاء الشائعة عن الجزائريين بحكم تجربته الطويلة معهم ، يجيب هؤلاء بانه من حق الجزائر أن تدعي لقدم والشرف معا ، ومن حقها أن تحتل مكانة بارزة بين أنبل مدن العالم . أليست هي قائمة على أنقاض (قيصرية) الرومانية .

ان هناك عدة آراء حول أصل مدينة الجزائر ، فبعضهم يدعي أنها مبنية على انقاض قيصرية الرومانية وبعضهم يدعي أن قيصرية هذه تقع في مكان آخر من الساحل غير مكان الجزائر الحالي . بل ان آخرين يذهبون ، جهلا منهم حسب رأي المؤلف ، الى أن قيصرية مدينة داخلية . ناسين انها كانت ساحلية ، غير أن الناظر المدقق في موقع وشكل مدينة الجزائر الحالية يذهب الى ما ذهب اليه مرمول وهو أن قيصرية القديمة تقع غرب مدينة الجزائر الآن وان اسمها الافريقي هو (تاكدامت) ، وانها هي كل ما بقي من تلك المدينة الشهيرة التي اختارها الملك يوبا الثاني عاصمته رغم اتساع مملكته وان الملك يوبا الثاني هو الذي أعاد بناءها ونبلها وأطلق عليها اسم ولي نعمته يوليس قيصر . أما ابن الرقيق فيؤكد أن اسمها القديم هو قيصر (أو قيسرة ؟) ولكن المؤلف الانكليزي يقول انه لم يسمع بأن أحدا غير ابن الرقيق قد أخذ بهذا الرأي . وعلى أية حال فان آثار تلك المدينة (تاكدامت) تشهد على عظمتها ، ويبلغ محيطها حوالي اثنى عشر ميلا .

ولكن ليس هناك ما يشير بالتأكيد الى أن مدينة الجزائر الحديثة قائمة على أنقاض قيصرية العتيقة التي كانت ذات يوم مقرا لملـك عظيـم ، وعاصمة لأقاليمه الواسعة ، والتي كانت خلال قرون مستعمرة رومانية تمثل رأس اقليم شاسع مزدهر . والواقع ان في مدينة الجزائر الحالية

(زمن المؤلف) بعض الآثار القديمة ، ولكنها ليست بشيء هام اذا .! قورنت بآثار المدن القديمة الاخرى فى العالم . واذا كانت مدينة قيصرية قائمة فيما هو الآن مدينة الجزائر ، فكيف نفعل مع كاتب آخر ، يعتبر عمدة فى آرائه ، وهو سترابو Strabo الذي يؤكد ان الملك يوبا الثاني قد أعاد بناء مدينة يول Jol وأطلق عليها اسم قيصرية ؟ ويؤكد سترابو كذلك انه كان أمام قيصرية جزيرة صغيرة . وقد لاحظ المؤلف أن مدينة الجزائر الحالية تقع أمامها هذه الجزيرة الصغيرة ، بينما لا يوجد مثلها أمام تاكدامت أو أمام أي مكان آخر على الساحل تحدث عنه الجغرافيون .

ورغم شهرة مدينة الجزائر وعظمتها اليوم (القرن 18) عند الاروبيين، فانه من الغريب حقا أن لا يعثر فيها الباحث على أي رسوم خطية أو تمثال ، أو حتى آثار باقية من قوس نصر ، أو شيء يشبهه . ذلك أن المؤلف كان كثير الاهتمام بهذا الموضوع والبحث عنه ولكنه لم يستطع خلال اقامته الطويلة بمدينة الجزائر أن يرى أو يسمع عن وجود آثار قديمة عثر عليها أثناء وضع أسس البنايات أو حفر الآبار ، أو نحو ذلك من أعمال التنقيب . وقد استنتج من ذلك أن ما وقع لقيصرية القديمة لم يكن مجرد تخريب جزئي ، ولكنه كان تخريبا كاملا ، مع حقد شديد ! ويبدو أن مدينة الجزائر القديمة قد عانت من ظلم الحكام الطغاة مما أدى الى تخريبها وافراغها من سكانها وسلبها من ماضيها العظيم . ولكن مظهرها اليوم وهو مظهر حديث ، لا يدل على أنها قد ظلت فارغة من السكان فترة طويلة . وعلى كل حال فان اعترافنا بشرف وقيمة الآثار القديمة التي كانت قيصرية تحتويها يجعل من الظلم والاجحاف أن ننازع مدينة الجزائر اليوم (القرن 18) هذه العظمة الموروثة . « ذلك انني (المؤلف) أرى أن نحارب العدو بكرم ، وأن نعمل على هدى المثل القائل : اعط الشيطان حقه ! » . وما دامت المصادر تثبت أن قيصرية

قد بنيت على أنقاض يـــول القديمة ، فان ذلك يكفي دليلا على شرف وقيمة وعظمة مدينة الجزائر الحالية .

أما اسم مدينة الجزائر فى التواريخ الافريقية (الاسلامية) ، فهو مزغنة ، وهو الاسم الشائع اليوم لدى السكان . ولكنهم يستعملونه بشيء من المضض لأنهم يعرفون انهم ينطقون اسما أقل أهمية من اسمها القديم (قيصرية) . وكل من ليون الافريقي ومرمول استعمل اسم مزغنة لمدينة الجزائر ، ولكنهما لم يتفقا على شكل كتابته . وقد قلدهما الكتاب الآخرون . ويؤكد الافريقيون (المسلمون) . أن المدينة كانت أصلا لبني مزغنة (يكتبها مورقان هكذا : Muzgunna مزقنة ــ بضم الميم والقاف المعقوفة) ، وهم شعب ليبي قديم ، ولا يعرف من أي قبيلة هم . وقد أنشأوا المدينة (لا يذكر تاريخ الانشاء) وسكنوها قبل أن يأتي الرومان هناك بعهد طويل ، وأطلق عليها العرب اسم جزيرة (هكذا بالمفرد) بني مزغنة . أما اسمها الحالي فهو الجزيرة (بالمفرد أيضا) . وهو اسم محرف حتى عند الذين يعطونها هذا الاسم . فالعرب (البدو) وأهل الحضر يسمونها (تزير) ، والترك غيروا المفرد العربي الى جمع ، فهم يسمونها (الجزائر) . ولكن الافريقيين (أهل المغرب الاقصى ؟) قلبوا الجيم الخفيفة (ج J) الى جيم ثقيلة (ج G على عاداتهم فى ذلك ، فهم ينطقونها جزائر Gezeïr . وللاوروبيين أسماء مختلفة يطلقونها على مدينة الجزائر فهى عندهم ألجـــي Alger وألجيري Algieri وأرجيير Argier. والاسبان خصيصا يطلقون عليها اسم أرخيل Argel وأرجير Arjel ولكن الانكليز والهولانديين فقط هم الذين يطلقون عليها اسم الجيرز (Algiers).

ومن جهة أخرى يطلق الترك عبارة مغربلي (مغربي) على كل السكان الواقعين غرب الحدود المصرية ، وعبارة جزايرلي (جزائري) على سكان الجزائر . بينما ينسب المغاربة الى الجزائر هكذا : جزيري Gezeiri

أما بقية الحضر والعرب الافريقيين فيقولون تزيري Tzeiri أو زيري Zeiri وهو نفس الاسم الذي أطلق على أسرة بني زيري (الدولة الزيرية) . وقد أغامر (المؤلف) فأقول أنه يبدو أن اسم المدينة المحرف اليوم قد استعير من اسم هذه الاسرة ، بدل أن يكون مأخوذا من اسم الصخرة (الجزيرة) المواجهة لها ، بل من الممكن أن يكون الاسم الشائع اليوم (القرن 18) محرفا عن (قيصرية) . أما الذين يزعمون انها سميت (الجزائر) لأنها تقع تقريبا في مواجهة (جزر الباليار) ، فانني (المؤلف) أرى أن رأيهم سخيف ولا أساس له على الاطلاق .

وبعد هذا الحديث الطويل عن أصل اسم مدينة الجزائر ومشتقاته يتحدث المؤلف عن بعض الثورات والاضطرابات التي شهدتها المدينة منذ القديم حتى القرن السادس عشر . فقد ذكر أن الثائر فيرموس ، وهو من السكان الاصليين ، قد خرب قيصرية (ص 215) . واستعرض الامراء والحكام الذين يسميهم « طغاة » والذين تداولوا على حكم الجزائر كالوندال والفاطميين والمرابطين والموحدين الخ .. وتعجب كيف يخربون المدن بعد أن أوقعها السيف تحت سيطرتهم . ولكن المؤلف ، الذي أكد أنه لم يعثر على مصدر ، يقول بأن مدينة الجزائر ، منذ قيصرية ، قد خلت من سكانها فترة طويلة . غير انه يرى انها منذ العهد الروماني ، لم تزدهر كعاصمة لأية مملكة أو حتى لاقليم كبير . وما غامر به أن اسمها قد يكون مشتقا من اسم الزيريين مؤسسي بجاية ، ومن أنها ربما كانت عاصمة لهم ، هو مجرد تخمين قائم على التشابه في الاسم وليس له مصادر على ذلك (ص 172) .

وقد استنتج من ذلك أن مدينة الجزائر كانت مسرحا لعدة ثورات واضطرابات منذ العهد الروماني حتى ثورة (هكذا يسميها) القرصان عروج باربروسة سنة 1516 (ص 216) . ثم صور مورقان الصراع الثلاثي على مدينة الجزائر في بداية القرن السادس عشر . فهؤلاء

الجزائريون الذين يريدون الحفاظ على سيادتهم واستقلالهم فى مدينتهم بعد أن استولى الاسبان على بجاية وطردوا ملكها الذي كانت له السيادة على مدينة الجزائر . ولم يتوانوا (الجزائريون) ، من أجل ذلك الهدف ، فى دعوة الشيخ سليم ابن التومي (هكذا يذكره) زعيم قبيلة التاتيجي Tatije (هكذا أيضا) فى متيجة ليكون سيدا عليهم ، وعندما قبل استقبلوه بفرح وغبطة وقرروا قطع الجزية التي فرضها عليهم الاسبان منذ 1509 . ومن جهة أخرى هناك الاسبان الذين ذهب بهم الطموح كل مذهب وقادهم الحقد الديني الى طرد المسلمين من بلادهم ، ثم احتلوا المدن والمراكز الساحلية فى بربارية ، بما فى ذلك بجاية ووهران والصخور (الجزر) التي كانت أمام مدينة الجزائر ، وفرضوا على أهل هذه المدينة جزية ثقيلة ، وأقاموا أمامها حصنا قويا يحميه مائتا جندي ، فكانت فى الحقيقة محاصرة لا يدخلها الداخل أو يخرج منها الخارج الا برضى الأسبان . وأخيرا هناك القراصنة الأتراك بقيادة الأخوين بربروسة يجوبون غرب البحر الابيض . وقد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى جزيرة جربة وفى مدينة جيجل وغيرهما ، وأن يكسبوا عدة جولات ضد الاسبان . وبذلك جعلوا أنفسهم قوة ثالثة يلتجىء اليها : المغلوبون والضعفاء . ولم يتردد سليم ابن التومي ان يستنجد باسم سكان مدينة الجزائر ، بهؤلاء المسلمين الاتراك الذين جعلوا همهم ملاحقة الكفار الاسبان . فانجدوه وتعاون الطرفان ضد العدو المشترك ، ولكن الاتراك جعلوا من مدينة الجزائر مركزا لنشاطهم وعاصمة لأقاليمهم وتخلصوا من كل من وقف ضد هذا التيار . واستمر الأمر كذلك الى زمن المؤلف .

وشكل مدينة الجزائر اليوم (زمن المؤلف) هو بالتقريب شكلها فى بداية القرن السادس عشر . فاسوارها ظلت كما كانت ، ولكن أضيف اليها تحصينات جديدة . غير ان ضواحيها القديمة الكثيرة قد اختفت الآن . وكان ملوك تلمسان هم الذين بنوا قصبة مدينة الجزائر لكي يقيم

فبها ولاتهم ، وعندما أصبح سليم ابن التومي زعيم المدينة جعل قصره فى هذه القصبة ولكنه لم يتمتع طويلا بزعامته . وتقع المدينة فى خليج واسع

وقد بنى جزء منها على أرض منبسطة تنتهي بالبحر عند سفح الجبل . أما الجزء الآخر فمبني على منحدر يبتدىء حيث ينتهي الأول ويمتد على 21 درجة و 20 دقيقة طولا ، و 36 درجة ، و 30 دقيقة عرضا . وهذا طبقا لآخر المعلومات لأن بعض المؤرخين والجغرافيين يختلفون فى درجة أو أكثر أو أقل . (ص 220) .

ويسير مورقان على منهجه الذي رسمه لنفسه فيذكر لنا أهم الاعمال التي قام بها كل باشا فى مدينة الجزائر . فهذا حسن باشا ابن خير الدين بنى سنة 1550 قلعة عظيمة فى المكان الذي نصب فيه شارل الخامس (1541) خيمته ، وبنى ما يشبه المستشفى لمداواة الجرحى والمرضى من الجيش ، كما بنى بها حماما عاما فخما على غرار ما فعل والده فى مدينة اسطانبول . (ص 368) . كما ترك فى المدينة زوجته الجزائرية وابنها ، وترك لهما عدداكبيرا من العبيد والثروات . (ص 475) . وهذا مثلا عرب أحمد باشا الذي بنى برجا وأصلح من شأن سور باب عزون ، وأقام عينا جارية تجتمع فيها العيون القريبة ، كما بنى برج المنار على الجزيرة التي كانت خارج المدينة ، وأنشأ عينا أخرى كبيرة أمام باب الواد . وكان يقف على هذه الاعمال بنفسه . وهكذا ، الى أن يأتي المؤلف على ذكر الباشوات الذين اشرنا اليهم فى الفصول. وبذلك اصبحت مدينة الجزائر لا تطاول ثروة وشهرة وعظمة . ويؤكد مورقان (نقلا عن هايدو) انها قد اصبحت مطمح انظار المشارقة الذين كانوا يقصدونها لثروتها وجمالها الطبيعي ، كما كانت امريكا بثروتها وجمالها تحمل الاسبان على قطع المحيطات (ص 354) .

ولعله من الواضح ان هذا الكتاب ، بما فيه من معلـومات سياسية واقتصادية ، وبما يحتويه من آراء غير متعصبة نحو البلاد وسكانها ، خلافا لما جرت به العادة عندئذ ، جدير بالترجمة كاملا رغم ضخامة حجمه وصعوبة لغته . وعسى ان يوفقنا الله الى ذلك اما الآن فحسبنا منه هذه المعلـومات عن محتـواه العام وعن رأي المـؤلف فى مدينة الجزائر بالذات (1).

1 ـ اكتفينا بعرض آراء المؤلف دون التعليق عليها ، لأن التعليق عليها يجعلنا فى الواقع نعيد كتابة تاريخ الفترة كلها . وقد نشر هذا العرض فى مجلة الأصالة عدد 8 ، مايو ـ يونيو 1972 ، ثم نشره الشيخ عبد الرحمن الجيلالي فى المجموعة التي اصدرها بعنوان (تاريخ المدن الثلاث ـ الجزائر ، مليانة ، المدية) ، الجزائر ، 1973 .

كتاب « علاج السفينة فى بحر قسنطينة » *

رغم عناية الكتاب الفرنسيين بترجمة آثار ابن المبارك وابن العنتري والعدواني عن تاريخ قسنطينة فانهم لم يترجموا كتاب « علاج السفينة فى بحر قسنطينة » الذي نقدمه اليوم . ولعل ذلك راجع الى ضخامة الكتاب ، أو الى أن مؤلفه غير جزائري ، أو الى أسباب أخرى نجهلها . ولكن هذا لا يعني انهم لم يلتفتوا اليه أبدا . فقد أشار اليه بعضهم (1) فى معرض الكتابة عن الآثار السابقة ، ولعل بعضهم قد ترجمه ولم ينشره أو نشره ولم نطلع عليه .

يقع المخطوط « علاج السفينة » فى حوالي 700 صفحة من الحجم الكبير (357 ورقة) وهو مكتوب بخط أسود جميل ، ولكن العناوين وأسماء الولاة مكتوبة باللون الأحمر أو الأزرق وأحيانا الأخضر . وقد ذكر المؤلف فى المقدمة أنه بدأ فى كتابته سنة 1276 هـ ولكنه ذكر فى مكان آخر من الكتاب (ورقة 23) أن « عامنا هذا وهو 1277 » أثناء حديثه عن احدى قناطر قسنطينة . وقد يكون التاريخ الأول يشير به الى وقت الشروع فى الكتاب ، بينما الثاني يشير به الى مرحلة أخرى من تقدم

---

* دراسة منشورة فى مجلة كلية الآداب (الجزائر) عدد 2 ، 1970 .

1 – أشار اليه شارل سان كالبر C. Saint Calbre فى مقاله عن « قسنطينة وبعض المؤلفين القسنطينيين » واطلق عليه اسم « تاريخ قسنطينة » . انظر (المجلة الافريقية) 288 (1913) ص 74 ، هامش 2 . وقال ان مؤلفه هو السيد الانبيري . ترجم هذا المقال الى العربية الاستاذ محمد المهدي سنة 1966 ، وهو محفوظ فى مكتبتي .
وأشار اليه أيضا دورنون A. Dournon فى مقدمة ترجمته لكتاب ابن العنتري « الفريدة المؤنسة » عن تاريخ بايات قسنطينة . أنظر « مجموعة ملاحظات ومذكرات الجمعية الأثرية لولاية قسنطينة (Recueil de notes et mémoires; 59 ، 1928 – 1929) .

العمل فيه . وأغلب أسلوب الكتاب عامي ركيك . وفيه كثير من الاغلاط الاملائية . وتشيع فيه الألفاظ التركية وأحيانا الافرنجية . وهناك ألفاظ وتعبيرات غير كاملة فى الكتابة أو النقط . لذلك نتصور ان من سيحاول تحقيقه سيجد صعوبة كبيرة . وأحيانا يترك الكاتب فراغات لأسماء لا يعرفها أو احصاءات غير متأكد منها ، (مثلا ورقة 24 ، 25) . وهناك أحيانا توقف مفاجيء لبعض الأحداث كما وقع فى الحديث عن غارة شارل الخامس على الجزائر (1541 م) . وقد أكمل بعضهم الحديث عن الغارة على ورقة منفصلة بخط جميل وعبارة فصيحة تدل على أنها ليست للكاتب الأصلي . أما ترقيم الأوراق فهو بالأرقام العربية التي يبدو أن بعضهم ، ولعله أجنبي ، قد أضافها اليه ، بينما الأرقام التي استعملها المؤلف فى تواريخه هندية ، وكانت بالتاريخ الهجري الا ما كان منها الحديث عما قبل الاسلام أو بعد دخول الفرنسيين الى الجزائر . وتفتقر النسخة التي عندنا الى الورقة أو الأوراق الأولى . ويقع العنوان على الورقة الثالثة من النسخة . ورغم ان الكتاب ينتهي ضمن الأوراق الموجودة ، فانه يبدو أن أكثر من ورقة مفقودة من نهايته أيضا .

ولكن من هو مؤلف « علاج السفينة » ؟ ليس لدينا الآن الدليل القاطع لأننا لا نعرف من حياته الا القليل . فالمؤلفان الفرنسيان السابقان ذكراه باسم الانبيري . وحدثني الأستاذ سليمان الصيد بأن اسم المؤلف الكامل هو أحمد الانبيري . وأضاف بأنه كان يوناني الأصل ونصرانيا ، دخل تونس وأقام فيها مترجما ، وهناك اعتنق الاسلام . ثم جاء الى قسنطينة بعد استيلاء الفرنسيين عليها حيث واصل عمله كمترجم لدى السلطات الفرنسية . (2) وهناك معلومات فى الكتاب نفسه تؤكد هذا

2 ــ ويضيف الاستاذ الصيد بأنه قد اطلع على « علاج السفينة » واستفاد منه . ويرى الاستاذ المهدي ان أسمه هو علي اللنبيري ، انظر المصدر السابق . أما ارنست ميرسي E. Mercier فيقول فى كتابه « تاريخ قسنطينة » (قسنطينة 1906) ص 518 ان الانبيري كان قد عين مترجما محلفا فى قسنطينة بتاريخ 30 يناير ، 1847 وانه كان من أصل « شرقي » ، وأنه كان قد عاش طويلا فى تونس « حيث ارتدى الملابس المحلية بل قيل عنه انه اعتنق الاسلام أيضا » .

الرأي وتوضحه . فقد ذكر مؤلفه مرتين على الأقل انه أقام فى قسنطينة خمس عشرة سنة قبل أنيبدأ تأليفه ، الاولى فىالمقدمة حين يقول (ورقة 3) « وما لاح فى فكري هذا المضمون التاريخي الا بعد ما مضى خمسة عشر عاما وأنا قائم بها » (يعني قسنطينة) . والمرة الثانية أثناء اثبات تاريخ دخول قسنطينة تحت الأتراك حين يقول (ورقة 242 ــ 243) « فقد اكتشفت وعلمت دخول الأتراك بقسنطينة من شيء ثابت لا ريب فيه كون منذ خمس عشرة سنة وأنا فيها ترجمان محلف ومكلف بترجيم الرسوم الشرعية والوثائق فى اللغتين » ومن هذا النص ندرك على الأقل مهنة المؤلف فى قسنطينة والمدة التي قضاها بها قبل تأليف كتابه ، ولعل مراجعة وثائق بلدية قسنطينة القديمة تكشف لنا عن تفاصيل أكثر دقة عن حياة المؤلف .

وفى وثيقة بعث بها الي الأستاذ محمد المهدي من قسنطينة أن « علاج السفينة » يضم فى آخره كتاب ابن العنتري . ويرجح هذا شيئان : أولهما ان وصف دورنون وسان كالبر لمحتوى كتاب ابن العنتري يؤكد ما وجدته فى آخر كتاب « علاج السفينة . » (3) وثانيهما حديث ابن العنتري عن نفسه (بضمير المتكلم) أثناء وصفه لما جرى لأبيه على يد الحاج أحمد وأعوانه . فقد جاء فى كتاب « علاج السفينة » ما نصه (ورقة 318 ــ 319) «ولما مات ... ترك أولادا منهم العبد الفقير الى رب الارباب محمد الصالح الناسخ لهذا الكتاب . (4) وانــي الآن كــاتب بالبــيرو (5) بالدرب (6) وكان الذي ولاني القبطان بوسنة (7) المتولي أمور العرب .

3 ــ مثلا الموقف ازاء الحاج أحمد باي قسنطينة ، ومرور الدوق دومال بالمدينة وايراد قصيدتي ابن القاضي ومحمد الشاذلي فى مدحه ، الخ .

4 ــ هل عبارة « هذا الكتاب » تعني نسخه « لعلاج السفينة » كاملا أو كتابه هو المضاف اليــــه ؟

5 ــ يعني مكتب الشؤون العربية الذي انشأه الفرنسيون اثر استيلائهم على قسنطينة .

6 ــ مقر ولاية الحاج أحمد سابقا الذي اتخذه الفرنسيون مركزا اداريا لهم بعد الاحتلال .

7 ــ يعني Boissonnet الذي كان أول من تولى مكتب الشؤون العربية عند انشائه فى قسنطينة . وقد أشاع المؤلفون الفرنسيون ان العرب كانوا يقولون فى عهده « هذا زمان القبطان بوسنى ، كل كسيرتك وتهنى »

واني أقول أن أبي (8) تكلم الحق ونصح حاج أحمد .. واني لا أنساه أبدا ، وأخدم الدولة (9) بنية صالحة لما علمت من حب أبي لها لأنه نو عاش لكان أول من سارع الىخدمتها بنصح وجد .. » (10) ويظهر من النص ان هذا الجزء من « علاج السفينة » هو من تأليف « أو نسخ » ابن العنتري . (11)

وصاحب « علاج السفينة » يذكر ابن العنتري من بين مصادره . فقد ذكره فى الورقة الرابعة أثناء ذكر المصادر . وذكره فى الورقة 244 أثناء ابدء فى تاريخ بايات قسنطينة وقال عندئذ « ونستفاد من كلام ابن العنتري فى بعضهم . » وذكره فى الورقة 242 عند تحديد تاريخ دخول قسنطينة تحت طاعة الأتراك فى الجزائر ، وناقشه قائلا ما نصه : « واما ما ادعه ابن العنتري فى كتابه ان دخول الترك فى قسنطينة فى سنة 1052 فهو غلط .. » ثم أثبت بالوثائق الكثيرة التي عثر عليها ، منسوبة الى قضاة قسنطينة ، (12) أثناء عمله كمترجم ، ان التاريخ الصحيح هو 935 هـ (1526 م) خلافا لابن العنتري .

---

8 – ملخص قصة محمد بن العنتري ، والد المؤرخ ، ان الحاج أحمد بعثه رسولا الى المعسكر الفرنسي فى مجاز عمار ليفاوضهم ويعرف قوتهم . ولما رجع الى الباي هول عليه قوة الفرنسيين ونصحه بقبول الصلح معهم وعدم محاربتهم . فشك فيه ابن عيسى ، مساعد الحاج أحمد ، واتهمه بقبول النقود من الفرنسيين لكي يقوم بدور المثبط للروح المعنوية . ونصح ابن عيسى الباي بالتخلص منه . وبعد أيام مات محمد بن العنتري مسموما . وقيل ان الحاج أحمد هو الذي أمر له بذلك . وقد وقع الحادث أثناء الحملة الثانية علىقسنطينة (1837) .

9 – يعني الدولة الفرنسية .

10 – ألفت النظر الى أن النقط والفواصل داخل النصوص الواردة فى هذا البحث هي من وضعي الخاص .أما الأخطاء اللغوية والاملائية فقد تركتها كما هي .

11 – لابن العنتري ، عدا كتاب التاريخ المذكور الذي طبعه سنة 1262 – 1846 م ، رسالة عن سنوات القحط فى أواخر الحكم العثماني واوائل الحكم الفرنسي فى اقليم قسنطينة وهي رسالة هامة من الوجهة الاقتصادية . (ولعل الكتاب الفرنسيين لم يعتنوا بها لانها تمس سياسة حكامهم الاقتصادية) وهي تقع فى 28 ورقة بخط جميل جدا . وقد انتهى صاحبهامنتأليفها بتاريخ 1286 هـ = 1870 م . وقد اطلعت عليها . ولعلني أوفق الى نشرها قريبا .

12 – ذكر منهم حوالي سبعة بأسمائهم مع ذكر التواريخ التي جاءت فى وثائقهم . ويمكننا ان نستدل بذلك على أن صاحب « علاج السفينة » كان حقا على صلة واطلاع واسع بالوثائق العربية الجزائرية قبل ان يضع الفرنسيون أيديهم عليها او تضيع .

تبدأ النسخة الوحيدة التي عندنا بما نصه « وأنعم النعام بالاحسان والصلاة والسلام على نبيه المصطفى الكريم . الخالص فى مستقل ارادته بلا حدود . والمنفرد بلا انقسام فى رفع دعويه . أما بعد .. » ويعرف المؤلف التاريخ بأنه « مرى الأمم » لأنه بالتاريخ « لا تموت الأمم ولا يفنوا الملوك ولا يندثروا العلماء واجتهادهم فى صنع الجميل » أما عن المؤرخ فيقول بأن عليه أن يأخذ المبادرة ويتحرى « جميع الوقائع والعبارات ولو كانوا ناقصات والمتفرقات فى تواليف المؤلفين الأقدمين والمحدثين . وبعد أن يوفقهم لبعضهم يعطي لهم ثباته مصنف سنوي ومنظوم بقياس تاريخي عقلي .. » (13)

ولم يقدم المؤلف على التأليف الا بعد أن قضى فى قسنطينة خمسة عشر سنة جامعا دارسا متثبتا ، ثم « حملت ملاطي ومهيآتي وآلات البناء بلا عون وبلا فعالة وحدي فريد منفرد عرجت على سريري وأبديت بناء هذا الفصر العجيب ، وسميته « بعلاج السفينة فى بحر قسنطينة . » (14) ومصادر الكتاب غنية . فالمؤلف يذكر حوالي أربعة عشر مصدرا أجنبيا (يونانيا ورومانيا وافرنجيا وفرنسيا ونمساويا) . كما يذكر أكثر من سبعة وعشرين مصدرا اسلاميا فمن مصادره الأجنبية سترابون وابيانوس وسالوست ومانيرت ومرتوس وافزاق . ومن مصادره الاسلامية أبو الفداء والعبدري وابن فرحون وابن مسكين وابن الرقيق وابن أبي دينار وابن العنتري وابن قنفذ والبكري . (15)

أما خطة الكتاب فيمكن تلخيصها كما يلي : فى المدخل الذي يبلغ 50 ورقة يتعرض المؤلف الى تاريخ لفظة « قسنطينة » عند اليونان واللاتين

---

13 ـ انظر ورقة 2 .

14 ـ انظر ورقة 3 . ونلاحظ أن عنوان الكتاب مكتوب فى الاصل باللون الازرق .

15 ـ نلاحظ ان هناك سوء تهجية لكتابة الاسماء فى المصادر سواء كانت اجنبية او عربية . مثلا ابن قنفذ يكتبه ابن قنفود ، والواقدي يكتبه الوقادي .

والعبرانيين والعرب ، ويذكر جغرافية الاقليم الطبيعية والبشرية ، وصناعة السكان ونحو ذلك الى دخول الفرنسيين ، وابتداء من ورقة 51 يدخل فى مراحل تاريخية يسكننا ترتيبها على النحو التالي :

1 ــ نبذة من تاريخ قسنطينة قبل الفتح الاسلامي 51 — 88

2 ــ دخول الاسلام الى افريقية والمغرب 88 — 126

3 ــ قسنطينة فى العهود الاسلامية 126 — 198

4 ــ الجزائر تحت العثمانيين 198 — 239

5 ــ قسنطينة تحت العثمانيين 239 — 243

6 ــ سيرة بايات قسنطينة 243 — 322

7 ــ قسنطينة تحت الفرنسيين 322 — 355 (16)

وينتهي الكتاب بورقة 355 بالعبارة التالية « ومن لم يعلم ذلك يسئل العارفين . وقد تم وكمل وانتهى . » وفى الورقتين الاخيرتين ، 356 — 357 ، يذكر المؤلف ملحقا عن اتفاق الحاج أحمد مع علماء وأعيان قسنطينة على محاربة الفرنسيين عنوانه « ذكر المكتوب المسطر فيه توافق الحاج أحمد باي مع أرباب دولته العلماء وغيرهم وكبار البلد على ما تراضوا عليه ووضعوا فيه خواتمهم المذكورة وهو هذا .. » ولكن الورقة (أو الأوراق) الأخيرة من النسخة التي لدي مفقودة . لذلك لم نعثر على « خواتمهم المذكورة » كما جاء فى النص . غير أن أسماء المعنيين موجودة فى النص . (17) وآخر عبارة فى نص الملحق هي « والقصد من ذلك ادخال السرور على المسلمين ، والجريان على سنن سبيل المهتدين ، وعمارة الناس ، واذهاب الالباس ... »

16 ــ تجدر الاشارة الى أن هذه الخطة على النحو المذكور هي من وضعي الخاص . أما المؤلف فقد استعمل عناوين مكتوبة بالحبر الازرق أو الاحمر للفترة التي يؤرخ لها ، دون تبويب بالمعنى الحديث .

17 ــ منهم أحمد العباسي القاضي المالكي ، والسيد مصطفى القاضي الحنفي ، والسيد عمار المفتي المالكي ، والسيد مصطفى المفتي الحنفي ، ومحمد العربي ناظر الاوقاف ، ومحمد بن الحاج شيخ العرب ، الخ .

وكتاب « علاج السفينة » ليس مجرد سرد للأحداث والبايات . فهو ، بالرغم من رداءة أسلوبه ، يحتوي على ملاحظات ومعلومات تاريخية هامة . وكثيرا ما يذكر المؤلف الوقائع ويعلق عليها . ويبدو أن له اطلاعا واسعا بأحوال العصر ، وله معرفة باللغات الحديثة والقديمة . (18) وبخصوص قسنطينة بالذات يجد المؤرخ فى هذا الكتاب عرضا للحالة الاقتصادية ، وتفاصيل عن الحرف المحلية ، ووصفا لأعمال البايات الهامة ، وأدوار بعض العلماء والقضاة فى المجتمع والسياسة . كما أن الكتاب ليس اقليميا بالمعنى التقليدي ، بل يؤرخ فى الواقع لجميع الأحداث البارزة التي مرت بالجزائر .

وما دمنا لا نملك الآن سوى نسخة واحدة من هذا الكتاب الضخم فاننا نكتفي بلفت أنظار الباحثين اليه . وعسى أن يعثر المهتمون على نسخة أخرى فى مكتبة المدرسة القديمة (19) أو لدى بعض العائلات أو الشخصيات القسنطينية فيتيحون لنا فرصة المقارنة واصدار أحكام أكثر موضوعية . كما أن مقارنة « علاج السفينة » بكتاب ابن العنتري عن تاريخ بايات قسنطينة يساعد على اصدار حكم نهائي حول العلاقة بين الكتابين وبين المؤلفين أيضا . (20)

الجزائر 1970/7/27

18 ــ قال عنه مرسي انه كان « أصيل الشخصية .. متفتح الروح ، لكنه كان قليل الخبرة .. وكان يعتقد انه أستاذ فى كل شيء . » وقال عن أعماله ، دون أن يذكر كتابه «علاج السفينة » ، انها « جميعا ليست بذات قيمة كبيرة . »

19 ــ نرجح أن يكون لهذا الكتاب أكثر من نسخة لان النسخة التي لدينا قد لا تكون هي الأصلية .

20 ــ لاشك أن المهنة كانت تجمع بين الرجلين المتعاصرين فكلاهما كان موظفا رسميا وكلاهما اهتم وكتب عن تاريخ قسنطينة .

ملاحظة : بعد تسليم هذا المقال الى المطبعة ، استطعت أن أقارن بين « علاج السفينة » وتاريخ ابن العنتري ، وقد وجدت أن الاول فعلا يحتوي على الثاني ، وأن وجه ورقة 240 من « علاج السفينة » هو بداية تاريخ ابن العنتري ، وان هذه البداية توافق الصفحة رقم 8 من كتاب ابن العنتري المطبوع . ولما كانت نهاية « علاج السفينة » مفقودة الآن فاننا لا نستطيع أن نحكم هنا على اتفاق الكتابين أو اختلافهما . ولكن الملاحظ هو أن آخر عبارة فى « علاج السفينة » مدرجة أيضا فى كتاب ابن العنتري . ويجب التنبيه الى أن هناك اختلافات بسيطة بين نص ابن العنتري المطبوع ونصه المدرج فى كتاب « علاج السفينة » .

السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1)

خلال رحلتي الى اسطانبول فى الصيف الماضي كنت أسائل أصحاب المكتبات عن الكتب التي لديهم عن الجزائر ، وكان ما أدهشني حقا هو خلو هذه المكتبات تقريبا مما أطلب ، سواء كان قديما أو حديثا ، تركيا أو أجنبيا . غير أن ما كان يخفف أسفي أن بعضهم كان يضع أمامي رسالة صغيرة بالتركية (2) فأخذها بقوة وأتصفحها بدقة فيبدو لي عملا طيبا جديرا بالمطالعة ، ولكن عدم معرفتي بالتركية كان يحول بيني وبين الوصول الى الاستفادة الكاملة منها . وقد اكتفيت عندئذ بكتابة عنوانها ضمن أوراقي فى انتظار أن تحين الفرصة للوصول الى محتواها . وكم كانت فرحتي كبيرة عندما حمل الي بريد تونس هذه الأيام نفس الكتاب مترجما الى العربية بقلم صديقي الأستاذ عبد الجليل التميمي .

وقد بين المترجم هدفه من نقل الرسالة الى العربية فقال « يحدوني الى ترجمة هاته الأطروحة ... شعوري العميق بأنها عمل علمي نزيه ، اذ اتخذ مؤلفها الارشيف التركي مصدرا أساسيا للبحث .. ان من كتب عنا من قبل المؤرخين الغربيين ، قد اتخذ من أرشيف بلاده مصدرا للبحث ، وأهمل بقية دور الوثائق خاصة التركي والتونسي والجزائري والليبي ، عن قصد أو غير قصد ، فوقع بعضهم بذلك فى أخطاء كثيرة وخطيرة . » (ص 13) . والأستاذ التميمي خير مؤهل لأن يقوم بهذه المهمة فقد عرف

1 — تأليف ارجمنت كوران ، ترجمة عبد الجليل التميمي . منشورات الجامعة التونسية 1970 — 125 ص .

2 — منشورات كلية الآداب . جامعة اسطانبول 1957 .

بأبحاثه عن أصول التاريخ العثماني فى المغرب العربي ، وهو الآن يعد بحثا عن الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة ، وكان قد أجرى أبحاثا فى أرشيفات اسطانبول وباريس ولندن ، وزار الجزائر فى العام الماضي واشتغل فى أرشيفاتها ، وعثر خلال ذلك ، كما يقول ، على وثائق هامة . وأن التعليقات التي أضافها الى الترجمة تبرهن على تمكنه وسيطرته على مواد الكتاب . بل أن القاريء للترجمة يشعر أن شخصية المترجم تكاد تطغى على شخصية المؤلف الأصلي .

ورغم أن المترجم لم يقدم لنا حياة المؤلف فانه يبدو أن الأخير موجود الآن فى جامعة تورانتو (كندا) ، وانه متخرج من كلية آداب جامعة اسطانبول ، وانه كان قد نشر عدة أبحاث عن المسألة الجزائرية وعلاقة كل من فرنسا والدولة العثمانية بها . ونعلم من الرسالة انه قد حصل بها على الدكتوراه فى التاريخ من جامعة اسطانبول سنة 1953 . وكان يحدوه الى تأليفها عدة عوامل منها موقف الباب العالي من قضية الجزائر خلال سنوات 1827 — 1847 ومن ثمة أهمية هذه القضية بالنسبة الى التاريخ التركي ، واغتصاب فرنسا بالذات للجزائر (رغم علاقة فرنسا الودية تاريخيا مع الدولة العثمانية) ، وكون اغتصاب الجزائر يشكل مرحلة هامة فى تاريخ الاستعمار الحديث ، وأخيرا انحياز المؤلفين الذين درسوا هذه المشكلة وعدم استعمالهم للارشيف التركي .

والرسالة عبارة عن تتبع دقيق لموقف الدولة العثمانية من قضية الجزائر منذ ابتداء الأزمة سنة 1827 الى 1847 التي تمثل نهاية مقاومة الأمير عبد القادر واستسلام الحاج أحمد باي (1848) واعتراف الدولة العثمانية بالأمر الواقع ، أي بسيادة فرنسا على الجزائر . وهكذا يبدأ العمل بمدخل عن العلاقة التاريخية بين الجزائر والدولة العثمانية منذ خير الدين بربروس الى حسين باشا ، ثم ينتقل الى « السياسة العثمانية تجاه احتلال الجزائر » دارسا بالتفصيل موقف الدولة العثمانية من ابتداء

الأزمة ، ومحاولتها وقف الحملة الفرنسية . واسترداد الجزائر بعد استيلاء فرنسا عليها ، واستعانتها بأنكلترا لذلك . وتأكيد سيادتها على الجزائر رغم احتلال فرنسا لها . وجهودها لدى الدول الأروبية لاسترداد الجزائر ، وتصرفها فى طرابلس وتونس لنفس الغرض . وعلاقتها بالحاج أحمد سواء قبل احتلال قسنطينة أو بعده . وموقفها من الأمير عبد القادر . ثم انتهت الرسالة باعتراف الباب العالي بسيادة فرنسا على الجزائر وتقييم لسياسة الدولة العثمانية نحو قضية الجزائر . وللرسالة ، كما هو متوقع . هوامش ومصادر وفهارس طيبة . وكانت فى الأصل تحتوي أيضا على خريطة ولكن المترجم رأى عدم ايرادها .

وتكشف الرسالة عن مواقف تاريخية ما تزال غامضة حتى عندالمختصين من ذلك معارضة الباب العالي لظهور شخصية عربية فى الجزائر كالامير عبد القادر (ص 103) ، وعرقلة التفاهم بين الامير وبين فرنسا لأنه مناف لمصلحة الدولة العثمانية . (ص 100) . ومن المفهوم أن الدولة العثمانية كانت تميل الى الحاج أحمد الذي كان يعلن فى صراحة انه يحكم ويقاوم باسم السلطان ، وهناك شخصيات لعبت أدوارا أثناء الفترة الاولى للاحتلال تلقي الرسالة عليها أضواء : أمثال حمدان بن عثمان خوجة ، وطاهر باشا ، وحسونة دغيس الطرابلسي ، وابراهيم بن مصطفى باشا . ورغم أن الدراسة تحاول أن تثبت جهود الباب العالي للاحتفاظ بالجزائر منذ بداية الازمة بين هذه وفرنسا ، فانه من الواضح أن ضعف الدولة العثمانية جعلها لا تستطيع أن تحقق أهدافها ، فحروب محمد علي ، وخضوعها للدول الاروبية الكبرى ، وضعف ساستها ، وتفككها الداخلي كل ذلك جعل موقفها من قضية الجزائر موقف المتردد الخائف . ولعل ما اصطلح عليه كتاب التاريخ الحديث من وصف الدولة العثمانية « بالرجل المريض » يصدق أحسن ما يصدق على موقفها من قضية الجزائر .

ومع ذلك فان وضع هذه الرسالة بالعربية بين أيدي الباحثين سيساعد بلا شك على توضيح موقف الطرف الثالث (الدولة العثمانية) أثنــا احتلال الجزائر . وهو موقف لابد من الرجوع اليه للوصول الى حكم موضوعي لحادثة 1830 . (1)

1 ـ نشر فى مجلة كلية الاداب (الجزائر) ، عدد 2 ، سنة 1970 .

كتاب جغرافية الجزائر

خلال صيف 1966 اجتمعت بالاستاذ حليمي عبد القادر (*) فأراني مخطوطة كتابه « جغرافية الجزائر » ثم سألني رأيي فى نشر الكتاب وامكانيات النشر . وبعد استعراض الكتب الخاصة بجغرافية الجزائر بالعربية قلت له رأيي أن تسارع بتقديم الكتاب الى المطبعة . ولكن بقي السؤال الآخر (امكانيات النشر) بدون جواب حاسم . فقد تذاكرنا فى وسائل الطباعة فى الجزائر وفى المشرق وانتهينا الى صعوبة المشروع ماديا على الاقل . ولكن بعد أقل من سنتين صدر كتاب « جغرافية الجزائر» (1) بطريقة عصامية . فقد بذل كل من مؤلفه الاستاذ حليمي عبد القادر وناشره جهودا كبيرةفى اخراجه ماديا وفنيا. « وكتاب جغرافية الجزائر » عمل ضخم وجاد اعتمد فيه المؤلف على مذكراته كأستاذ كما اعتمد فيه على دراساته الاكاديمية واطلاعاته الشخصية والمؤلف ليس من هواة الجغرافية فقط بل من الذين اتخذوها مهنة . وهو يصر على أن القرن التاسع عشر كان نقطة تحول فى تطور هذا العلم . فقد أصبح منذئذ « يقتصر على دراسة سطح الارض وما عليه من مظاهر بشرية مع العناية بتفاعل الكائن الحي مع البيئة ومدى تأثير كل واحد منهما فى الآخر» كما «أصبح ... يقوم على السببية والعمومية ثم التوزيع» (ص3).

---

* نشرت فى (المجاهد الثقافي) عدد 7 ، سنة 1968 .

1 ـ نشر مكتبة الشركة الجزائرية ـ مرازقة بوداود وشركاؤهما ، 1967 ، 366 صفحة .

وقد شكا المؤلف من قلة المراجع بالعربية عن جغرافية الجزائر ، كما تشكا من معرفة الجزائريين « عن البلاد الفرنسية أكثر مما يعرفون عن بلادهم » ويرجع ذلك فى نظره الى السياسة الاستعمارية التي استهدفت القضاء على الشخصية الوطنية . كما يرجع الى اهمال الجغرافيين العرب الذين « لا يتعرضون الا نادرا الى اقليم الجزائر » (ص 4) وكان هذا دافعا كافيا للأستاذ عبد القادر على أن يقوم بعمله تعريفا بجغرافية الجزائر وخدمة لأولائك الذين يرغبون فى دراسة جغرافية بلادهم ولكنهم لم يجدوها بلغتهم الوطنية .

قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أبواب : فتناول فى أولها المظاهر الطبيعية من جيولوجيا ومناخ ونباتات ونحوها ، ودرس الباب الثاني المظاهر البشرية كأنماط السكان وتوزيعهم ومشاكلهم الديموغرافية ، وقضية الهجرة الاروبية ، وغيرها . أما الباب الثالث (والاطول) فقد بحث الاقتصاد كالثروات النباتية ، والحيوانية ، والمعدنية ، والمواصلات ، والطاقات ، والتصنيع ، والتجارة .

ويحتوي الكتاب أيضا على 19 خريطة، وعلى ورق جيد وحرف واضح ولكنه لم يسلم من بعض الاخطاء المطبعية (كعادة المطبوعات الجزائرية اليوم) رغم وضع قائمة تصويب الخطأ فى نهاية الكتاب .

ومهما كان رأي الباحثين المختصين فى قيمة كتاب « جغرافية الجزائر » فالذي لا شك فيه هو ان الاستاذ حليمي عبد القادر قد ضرب بعمله مثلا لا فى الانتاج الفكري فقط بل فى التضحية المادية من أجله أيضا . وهو لذلك يستحق تقدير الباحثين والمواطنين (2) .

(2) منذئذ ظهر للاستاذ حليمي عبد القادر عدة تآليف اخرى أهمها (مدينة الجزائر ، نشأتها وتطورها قبل 1830) ، الجزائر ، 1972 .

عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي وافريقيا السوداء *

ظهرت الطبعة الاولى من « عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي وافريقيا السوداء » منذ عقد ، حين كانت الدراسات الافريقية ما تزال فى بدايتها . وكانت هذه الطبعة الاولى هي نفسها نسخة منقحة لكتاب المؤلف المسمى ، « قوافل الصحراء القديمة »الذي ظهر سنة 1933والذي جاء نتيجة لأبحاث قام بها المؤلف فى غرب افريقيا عندما كان ما يزال جنديا بريطانيا ملحقا بما هو الآن نيجيريا . وقد شعر بوفيل ان « القوافل » قد فاتته مادة غزيرة وانه احتوى على أشياء ما كان يحسن به أن يحتوي عليها لذلك قرر طبعه سنة 1958 تحت عنوان « عصر التجـارة الذهبي بين المغرب العربي وافريقيا السوداء » فى الوقت الذي ظهرت فيه موجـة التحرير الافريقي وبدأت اهتمامات كثير من العلماء والمعاهد بالدراسات الافريقية .

والواقع أن موضوع « القوافل » الذي أكده المؤلف فى الطبعـة الأولى من « العصر الذهبي » هو بيان أن الطرق العابرة للصحراء قد نسجت ووطدت علاقة الدم والثقافة بين شعـوب شمـال وجنـوب الصحراء » . وقد ركز فيه على تأثير شعب المغرب العربي على بقية القارة الأفريقية ، وخاصة المنطقة الواقعة تحت الحزام السوداني الممتد من المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر . وكان هدف بوفيل أن يكشف

* تاليف ا. و بوفيل. وقد نشرتهذه الكلمة فى (المجاهد الثقافي) عدد 8، يونيو، 1969.

كيف لعبت الصحراء دورا تاريخيا هاما ، فأغنت القرطاجنيين ، وحيرت الرومانيين ، ثم أصبحت معبرا رئيسيا للقوافل رابطة مدن الشمال المتمدنة بأسواق ومراكز الجنوب الكثيرة .

أما الطبعة الجديدة من « العصر الذهبي » فقد نقحت وزيد عليها بفضل جهود الأستاذ روبين هالليت الذي أضاف فصولا هامة للكتاب كما كتب له مدخلا . ومن المعلومات التي زادها هالليت مواد جديدة عما قبل التاريخ في الصحراء ، ورحلة هانو ، وعن الطوارق والتاريخ القديم لشعوب منطقة السودان . وعن ظهور الحكم الروماني في افريقية الشمالية ، وغير ذلك من المواد الحيوية التي ما زال البحث العلمي يلقي عليها أضواء جديدة بين الحين والآخر .

ورغم أن بوفيل لم يكن مؤرخا بالمهنة فقد قام بعمل هام جعله ، كما يقول هالليت ، من أكبر الباحثين الهواة على الطريقة التقليدية الشريفة . فقد زار المغرب العربي عدة مرات ، وكان جنديا باحثا في غرب أفريقية ، ثم شغل منصب مدير شركة أعمال في لندن ، ولكنه لم ينفك عن البحث التاريخي الذي كان يخصص له كل أوقات فراغه . ومما يلفت النظر اهتمام بوفيل بالتطور التاريخي للمغرب العربي من ناحية وعلاقة هذه المنطقة بأفريقية من ناحية أخرى ، مما جعله غير مقتنع ببعض النتائج التي توصل اليها بعض من سبقه من الباحثين في هذا الميدان .

ويتابع بوفيل تاريخ المغرب العربي من وجهة نظر اقتصادية ــ ثقافية من عصر الرومان الى عصر الاستعمار الحديث ، وهو يجد لذة في تتبع آثار الأمازيغ عبر الصحراء وحول السواحل الافريقية مستكشفين وتجارا ومبشرين ومحاربين . فيتحدث عن شعوب الصحراء من طوارق وسودانيين وعربان ، وعن ممالك العصور الوسطى التي قامت شمال وجنوب الصحراء ، وعن العلاقات التجارية التي قامت وازدهرت بين

الشمال والجنوب ، وعن رجال لعبوا أدوارا هامة فى تاريخ المنطقة سواء فى تكييف الأحداث أو فى تسجيل هذه لأحداث — أمثال مانزا موسى ومولاى أحمد المنصور ، وعسقية محمد وابن بطوطة ، والذهبي ، وليو الأفريقي . كما يعيد الى الأذهان حياة وأدوار المدن التي تميزت بطابع خاص أمثال غانا ، وغينيا ، وونغارا ، وتغازا ، وسقوطو ، وتمبكتو ، ومن الجانب الثقافى يركز بوفيل على دور الاسلام واللغة العربية فى نشر الحضارة بين ربوع السودان القديم .

ويشعر كل باحث فى تاريخ شمال أفريقية أن بوفيل قد قام بعمل تاريخي قيم وانه قد قدم للدراسات الافريقية المعاصرة مساعدة كبيرة ، وأن الأستاذ هالليت يستحق تقديرا خاصا على الاضافات التي أغنى بها الكتاب فى طبعته الجديدة . وأن عملا من هذا النوع جدير بالترجمة الى العربية (1) حتى يستفيد منه من كتب عنهم الى جانب من كتب لهم .

(1) ترجم هذا الكتاب الى العربية ، وقد علمنا بذلك بعد نشرنا هذه الكلمة عنه .

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا *
1492 – 1792

مؤلف هذا الكتاب غير دخيل على التاريخ ، فقد عرف بأبحاثه التي تناولت حياة المغرب العربي والجزائر بالذات ، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، غير أن المرء يحس بأن احمد توفيق المدني قد التزم بمبادىء (كليو) فى هذا الكتاب أكثر منه فى كتبه السابقة . ولعل ذلك يعود الى السن والى طبيعة الموضوع ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن المدني يجد نفسه هنا متمرسا ، مطلعا ناضجا فى (ملحمة) تاريخية دامت ثلاثة قرون بين منطقتين يفصلهما أكثر من حاجز ومع ذلك يربطهما أكثر من تاريخ . وهنا يجد المدني ضالته فيكتب التاريخ لا على أنه شيء بارد بعيد ماض ولكن على أنه قطعة من وجوده تنتفض بالحرارة والآنية .

وقبل أن يكون « حرب الثلاثمائة سنة » كتابا فى التاريخ فهو عمل تقدمت به صناعة التاريخ الجزائرى أشواطا ، فالمؤلف يعرف التاريخ بأنه « عرض وتحليل ، وتعليل وحكم » ويعرف المؤرخ الحق بأنه «حاكم نزيه حر الضمير ، يدرس الوثائق والمستندات ، ويستخرج الحقائق من بين النصوص ، ويستمع بامعان الى ما يقوله هؤلاء وما يقوله هؤلاء .. فاذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعا ، أصدر حكمه عادلا ، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة » بتعبير آخر ان المؤلف يلح ، نظريا على الأقل ، على الموضوعية التي هي طريقة المؤرخ الكفء فى رحلته عبر

* بقلم احمد توفيق المدني ، ط . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1968 ، بيبلوغرافية خرائط ، 533 ص + ج .

النصوص والوثائق والبيئة والملابسات الشخصية والسياسية والاجتماعية لموضوعه • بل يتوسع المدني فيرى « العالم وحدة » ويرى ضرورة دراسة العصر كله لفهم الحادث الصغير الذي يتناوله المؤرخ •

من عنوان الكتاب ندرك أن موضوعه عسكرى ــ دبلوماسي ــ سياسي ، ومع ذلك فان المدني يلخص الأسباب التي دفعته لكتابة مؤلفه فى ثلاثة : ان الفترة التي يغطيها شهدت « ميلاد الدولة الجزائرية الحقيقية ، لأول مرة فى تاريخنا » ، ولأن هذه الدولة جاءت « نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء » ، ثم لتصحيح الفكرة الخاصة «بتدخل الأتراك فى هذه المعركة الحاسمة » •

وفى هذا الصدد يؤكد « انني لست متعصبا للأتراك ، ولا أنا متعصب ضدهم حسبما جرت به تقاليد الكتاب العرب فى العصر الحديث » كما يؤكد « انني لست متحاملا على الأسبان » ولكن هناك فرق بين التخطيط والتطبيق ، ورغم أن المؤلف يبدي شجاعة فائقة فى العمل بهذا الرأى فانه يبدو أنه لم يستطع أن يتخلص من شيء كان قد نما معه ، وهو روحه الثائرة ، وأسلوبه السياسي ــ الصحفي وأحكامه الواثقة من نفسها • « فالتاريخ لهذه المعمعة (الصراع بين الجزائر وأسبانيا) القاسية الطويلة بأكثر ما يمكن من الصراحة ومن التفصيل ، انما هو واجب مفروض » (صص 7ــ8) •

وان نظرة الى محتوى « حرب الثلاثمائة » ستعطي فكرة كافية عن اهتمامات المؤلف ، فبعد تمهيد طويل عن الثلاثة قرون التي سبقت صلة الجزائر بالعثمانيين يقسم بقية الكتاب الى 19 فصلا تتناول أسباب وصبغة العدوان الأسباني ، وحالة هذا العدوان قبل ظهور العثمانيين ثم بعد ظهورهم ، ورد الفعل للعدوان ، وشخصية خير الدين ، وعلاقة لأسبان بدولة بني زيان ، وحملة شارل الخامس (شارلكان) ضد

الجزائر ، ودور حسن بن خير الدين وشخصية صالح رايس ، وجهاد قلش علي ، وموقف الشعر الجزائري والنظام الأسباني في وهران ، وانقاذ وهران من الأسبان ، ثم عودة الأسبان ثانية وانتصار الجزائر الكبير ، وتحت كل فصل عناوين فرعية نظمت بطريقة مدرسية تساعد القارىء المتسرع على العثور على ما يريد .

ولكن ضخامة العمل والاخلاص في البحث لا يكفيان لكتابة التاريخ، إذ لا بد للمؤرخ من وسائل تساعده وتضيء له الطريق ، وهناك مراجع تخص الفترة التي تناولها الكتاب غير مذكورة ضمن مراجعه مثل « غزوات عروج وخير الدين » و « الزهرة النيرة » و « رحلة محمد الكبير » و « التحفة المرضية » . ونلاحظ كذلك أن ذكر المراجع لم يكن منظما بطريقة مفيدة . فقد جرت العادة أن تذكر المخطوطات مصحوبة باسم المكتبة أو المكان الذي توجد فيه وتاريخها ونحو ذلك مما يساعد الباحثين الآخرين ، ولكن المؤلف لم يتبع ذلك . ففي ذكر « تاريخ باشوات وعلماء الجزائر » لحسين بن المفتي يكتفي بالقول بأن مسيو دلفان قد ترجمه للفرنسية ونشره بالمجلة الآسيوية ، دون ذكر رقم ولا تاريخ ولا مكان المخطوطة ، ودون الاشارة الى تاريخ وعدد وصفحة المجلة الآسيوية ، ورغم أن المراجع الفرنسية أكثر عددا من المراجع العربية فانها أيضا تفتقر الى التنظيم . ولعل أهمية الكتاب تجعل استعمال الهوامش شيئا ضروريا . فهناك نقول وآراء للغير ، ومناقشات ، وكلها تحتم الاشارة الى المصادر التي أخذت عنها ، ولكن المؤلف قد استغنى تقريبا عن استعمال الهوامش .

ولكن « حرب الثلاثمائة » سيظل عمدة في ميدانه الى وقت غير قصير ، فقد استعمل فيه المؤلف وثائق هامة ، وبوبه تبويبا سهلا ، ووحد فيه بين روح مؤرخ يبحث عن الحقيقة وروح سياسي وطني واثق من أنه وجد الحقيقة . فجاء الكتاب قطعة عمل هامة يجد فيها الباحث

المتخصص آراء مضيئة ويجد فيها الطالب والمثقف العادي مادة تستثير الذهن وتلهب العاطفة وترسم الاتجاه (1) .

1 ـ هذه الكلمة منشورة في (المجاهد الثقافي) عدد 8 ، جوان 1969 .

حول مذكرات الحاج احمد ، باي قسنطينة

خلال سنة 1968 عثرت فى الارشيف الوطني الفرنسي على النسخة الفرنسية الخطية « لمذكرات » الحاج أحمد ، باي قسنطينة . ففرحت أشد الفرح وتفاءلت أحر التفاؤل . ومما زاد فى فرحي وتفاؤلي اني وجدت فيها عبارة « مترجمة عن العربية » وقلت فى نفسي لو أواصل البحث لعلني أجد النص العربي الاصلي لهذه المذكرات ، فتابعت بحثي فى المظان المختلفة ولكن بلا طائل . وكنت أعرف أن الأستاذ مارسيل ايسريت كان قد نشر هذه المذكرات بالفرنسية منذ 1949 ، فعدت الى ما نشره وقرأت مقدمته فوجدته يرجح أن المذكرات لم تكتب بالعربية أصلا ، وانما أملاها صاحبها املاء بالعربية على المترجم الفرنسي الذي كان يرافقه ويراقبه . ولكني لم أيأس . فتجولت فى قسنطينة وسألت عنها فى مدينة الجزائر ، ورغم اني لم أعثر لها على أثر حتى الآن ، فما زلت أظن أن أصلها العربي موجود فى مكان ما ، قد يكون صعب المنال ، غريب الدار ، ولكنه يغلب على الظن انه موجود على أية حال . وقلت فى نفسي أيضا هل من الحكمة انتظار العثور على المذكرات الأصلية بينما القراء العرب محرومون من الاستفادة منها بلغة عربية . ثم وسعت السؤال حتى تجاوز هذه المذكرات الى جميع الآثار المماثلة ، وهي تلك التي كتبها أو أملاها أصحابها بالعربية، وضاعت أو فقدت أوزج بها فى غياهب الكتمان .

وقد اهتممنا منذ الاستقلال بشخصيات تاريخية كالأمير عبد القادر وابن باديس والمقراني والحداد ، وظلت شخصية الحاج أحمد تكاد تكون

مجهولة ، رغم ما قام به من نضال ، وما شاده من نظام ، ورغم مواقفه فى سبيل الاسلام والخلافة . لماذا هذا الاهمال ؟ هل لأن الحاج أحمد كان كرغليا ؟ أو هل لأنه حارب الفرنسيين باسم الخلافة الاسلامية لا باسم الشعب الجزائري أي باسم الدين لا الوطنية ؟ أو هل لأنه رفض التحالف مع الأمير عبد القادر ؟ الجواب على هذه الاسئلة يحتاج الى مجلد .

ومهما يكن الأمر فان الحاج أحمد قد اعترف له أعداؤه ومعاصروه بالحنكة السياسية ، والمواقف البطولية ، وغيرته الدينية ، وكرهه الشديد للأجانب، وبنجاحه فى كسب قلوب رعاياه، ومهارته فى تنظيم الجند ووضع الخطط العسكرية . وهذه جميعا خصال تميز الحاكم القدير . فمنذ أن تولى اقليم قسنطينة فى عهد الداي حسين عمل على تنظيمه واستتباب الأمن فيه . وقد تحالف لتحقيق ذلك مع العائلات الكبيرة فى المدينة نفسها وربط علاقات مع أصهاره فى الزيبان وأوراس ، وجعل مجلس الشورى من أعيان الاقليم وحكم البلاد بالشدة تارة واللين تارة أخرى ، ولذلك لم تؤثر فيه الهزات التي أعقبت احتلال الجزائر .

وبعد أن تغلب عليه الفرنسيون سنة 1837 ، ظل يقاوم الى سنة 1848 . ورغم نهاية أنصاره كابن عيسى وابن الحملاوي ، ووقوع الخلل فى صفوف أصهاره وأتباعه . فانه قد دوخ الفرنسيين فى عدة مناسبات ، محاربا فى عدة جبهات : باي تونس الذي كان يطمع فى خلافته ، وفرحات بن سعيد ثم ابن قانة ، والفرنسيين ، والأمير عبد القادر ، وكان يعتمد فى مقاومته الطويلة على صلاته العربية وعلى مهارته الشخصية وشجاعته النادرة . ولم يسعه ، وقد اصبح شيخا وحيدا ، ووضع الأمير عبد القادر السلاح ، واستحوذت فرنسا على مناطق الزاب وأبواب الصحراء ومداخل الأوراس ، الا أن وضع هو الآخر سلاحه ، مستسلما للأمر الواقع مشترطا الأمان والاذن له بالتوجه الى المشرق حيث يقضي بقية أيامه ، لكن الفرنسيين الذين وعدوه بذلك خانوا عهدهم كما فعلوا مع الأمير من

قبله ، فحملوه بدلا من ذلك الى عاصمته القديمة قسنطينة ومنها الى مدينة الجزائر حيث ظل سجينا تحت رقابة شديدة الى أن مات هناك قتيلا أو طبيعيا ، لا أحد يدري بالضبط ، سنة 1850 .

وخلال هذه الاقامة القصيرة فى السجن بالجزائر كتب أو أملى على ما يظهر ، هذه المذكرات . والمذكرات عبارة عن سرد للأحداث التي جرت بين الجزائريين والفرنسيين من 1830 الى 1848 . وهي تحتوي ، الى جانب ذلك ، على آراء الحاج أحمد فى سياسة الحكم ، وفى مفاوضاته مع الفرنسيين ، وفى علاقاته الداخلية مع زعماء المعارضة ، ومع اليهود ، وفى موقفه من باي تونس والسلطان العثماني . حقا انه يظهر فيها معتذرا لنفسه أمام الفرنسيين الذين كان أسيرا لديهم ، ولكنه اعتذار له مبرراته أمام تهجماتهم عليه ورميهم له بالمعاندة وبالجبروت .

وقيمة هذه المذكرات تظهر فى تعبيرها عن وجهة النظر المحلية أمام طغيان الوثائق الأجنبية على التاريخ الجزائري . ان لدينا آثارا هامة كان أصحابها قد كتبوها فى ظروف استثنائية (عدم الاستقرار ، المطاردة ، عدم توفر وسائل الطبع ، عدم اتقان لغة الأجنبي) هادفين من ورائها الى شرح موقف ، أو التنديد بأعمال ظالمة ، أو التعبير عن مطامح ومصالح وطنية ، فاكتفوا تحت ضغط الظروف بكتابتها بسرعة أو تهريبها أو املائها على أشخاص قد يكونون يمثلون السلطة المستعمرة نفسها وعندما حصل هؤلاء على هذه الآثار استأثروا بها فضاعت معهم ، أو عملت فيها أقلامهم وأهواؤهم فحرفوها عن أصلها وعن هدفها ، أو أبقوها فى طي الكتمان حتى أتى عليها النسيان . من هذه الآثار ، « المرآة » و « مذكرة » حمدان بن عثمان خوجة ، « ومذكرة » أحمد بوضربة ، و « رسائل » ابراهيم بن مصطفى باشا ، و « مذكرات » سي عزيز بن الشيخ الحداد ، والعديد من عرائض ومذكرات ورسائل الوطنيين .

وقد سبق لي أن وجهت أنظار زملائي وطلابي الى العناية بهذه الآثار الوطنية التي هي جزء من تراثنا الفكري وصورة لحياة أجدادنا وتفكيرهم ومواقفهم . ويكون ذلك باحدى طريقتين : اما البحث عن أصول هذه الآثار في لغتها العربية الأصلية ونشرها ، واما ، وهذا أضعف الايمان ، بترجمتها من اللغة الأجنبية واعادتها الى لغتها الأصلية مع التعليق على ما فيها من تحريف وتشويه مقصودين أو غير مقصودين . ولو تم هذا لتكونت لنا مكتبة تاريخية عربية يفيد منها الباحثون فائدة جليلة ، ولسقط هذا الستار بيننا وبين تراثنا الذي حجبته عنا ألسنة غريبة وظروف قاسية .

ومن حسن الحظ أنه استجاب لهذه الدعوة المخلصة الاستاذ العربي الزبيري وهو من التراجمة المجيدين الذين يملكون ناصية العربية والفرنسية معا ، والذين نعلق عليهم أملا كبيرا في نقل جزء كبير من تراثنا الى اللغة الوطنية . ولم يكتف بترجمة مذكرات الحاج أحمد بل ترجم « مذكرة » حمدان خوجة و « مذكرة » أحمد بوضربة الى اللجنة الافريقية (1833)، وشرع في ترجمة « المرآة » لخوجة أيضا . ولغة الاستاذ الزبيري ، وان لم تبلغ الحد الأدبي الرفيع ، فهي لغة صافية سهلة أمينة المعنى واضحة التعبير . وقد أضاف اليها بعض التآليف المفيدة التي تساعد القراء على فهم النص . وزاد من فهم وتعمق المترجم لموضوعه انه قد درس الفترة التي تتحدث عنها المذكرات وعاشها بقراءاته وتنقلاته . فهو يقف فوق أرض صلبة لموضوعه .

ولكن اعادة الآثار الوطنية الى لغتها الأصلية لا تكفي ، بل لابد من خطوة أخرى لا تقل فائدة ولا أهمية من الأولى ، وهي ترجمة الآثار الأجنبية العلمية الى اللغة الوطنية أيضا . ونذكر من هذه الآثار ، على سبيل المثال ، « تاريخ ملوك الجزائر » لهايدو الأسباني ، « ورحلة شو» الانكليزي ، «والجزائر في القرن 18» «لفانتوردي بارادي الفرنسي» و « وصف المدن والحصون الجزائرية » لبوتان الفرنسي ، و « خلاصة

تاريخ الجزائر » لشيلر الامريكي ، و « حياة الأمير عبد القادر » لتشرشل الانكليزي ، (1) « وحياة الأمير عبد القادر السياسية والعسكرية » لبليمار الفرنسي . وبهذا الصدد لا يسعنا الا أن نشكر الجهود التي يقوم بها زميلنا الدكتور أبو العيد دودو فى نقل بعض الآثار الالمانية عن الجزائر مثل بفايفر ومالتزان . ولنا أمل وطيد فى أن الأستاذ العربي الزبيري سيواصل هذه التجربة فيعمل على نقل أهم الآثار الفرنسية عن الجزائر الى اللغة الوطنية ، وبذلك يؤدي خدمة لا تقدر لوطنه ولغته وللتاريخ . وما ترجمته لمذكرات الحاج أحمد الا بداية فى هذا الطريق . (2)

1 ـ وقد وفقنا الى ترجمة هذا الكتاب ونشره عن الدار التونسية للنشر ، تونس 1974 .

2 ـ كتبت هذه الكلمة مقدمة للمذكرات المذكورة ، ولكن لم تنشر معها . وقد أضاف الاستاذ الزبيري الى مذكرات الحاج أحمد مذكرة حمدان خوجة الى اللجنة الافريقية واخرى لبوضربة ونشر الجميع فى كتاب صدر عن الشركة الوطنية الجزائرية ، الجزائر 1973 .

عن رحلة محمد الكبير ، باي وهران

تحقيق مخطوط قديم عمل فني وهادف في نفس الوقت . فهو عمل فني لأنه يقوم على قواعد أساسية ويتطلب مهارة واخلاصا وتجردا . وقليل من الناس فقط في كل أمة وكل جيل يستطيعون القيام بهذه المهمة الشاقة الدقيقة . أما كونه عملا هادفا فلأن بعث المخطوط يخدم فكرة ، وبالتالي مصلحة وطنية وانسانية . ولعل هذه من الحالات النادرة التي يجمع فيها المرء بين اخلاصه لفنه واخلاصه لهدفه الانساني . وان ظاهرة العصر الذي نعيشه ، ظاهرة التحرر من الاستعمار ، تبرر الجمع بين هذين الاخلاصين .

والذين عرفوا الاستاذ محمد بن عبد الكريم ، محقق مخطوطة « رحلة الباي محمد الكبير » يدركون ما أعني . فهو يبدي كثيرا من الاهتمام بالمخطوطات ، ولا سيما تلك التي تتناول حياة الجزائر عبر القرون الاربعة الماضية ، وقد اطلعني على عدد من الاعمال التي قام بتحقيقها كما اطلعني على عدد من المشاريع التي يعتزم بعث الحياة فيها . وقد وجدت من خلال ذلك كله انسانا دؤوبا مخلصا لمهنته الثقافية . واذا كان العلماء قد لا يتفقون مع أسلوب تحقيقه فانهم لاشك سيجدون ما يقوم به من نشر الآثار عملا انسانيا هاما يخدم الفكرة الثقافية المشار اليها.

وان نظرة سريعة الى المؤلف وموضوعه تؤكد ذلك . فابن هطال شخصية هامة في تاريخ الجزائر ولكنها مغمورة . فهو كمستشار وكاتب

وديبلوماسي ومحارب قد عاش فترة خصبة من تطور هذه البلاد جديرة بالتسجيل والبعث . أليس ابن هطال نفسه هو الذي يعرف التاريخ بأنه « من أجل العلوم قدرا وأكملها محاسن وفخرا ... اذ به عرفت قدماء الامم ... » ؟ وقد سجل فى كتابه رحلة محمد الكبير باي وهران الى الجنوب « مقدرا » ، كما يقول : « بانسوائع مراحله ومبينا منازله ومناهله » واذا كانت شخصية ابن هطال هامة ثقافيا فان موضوعه هام من عدة جوانب . فان الرحلة تتضمن أخبارا جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية لا يستغنى عنها أي دارس للجزائر خلال القرنين الماضيين وبالاضافة الى ذلك فان محمد الكبير ، الذي كان سببا فى تأليف الكتاب ، كان شخصية جديرة بتسليط الاضواء لأنه تقلب فى مناصب مختلفة وشهد تطورات كثيرة وساهم هو بقسط وفير فى خلق تلك المناصب وتوجيه تلك التطورات . فقد شغل منصب باي ، واشترك فى الحرب ضد الاسبان وقاد بنفسه حملة ضد الصحراء لاخضاع أهلها الى سلطة الداي ، كما عرف عنه انه قد شجع العلماء والادباء والطلبة وأقام المدارس والعمارة .

ولعلنا ندرك ، من ذلك كله ، أهمية هذا الكتاب وقيمة العمل الذي قام به الاستاذ محمد بن عبد الكريم . واننا نأمل أن يوفق فى أداء رسالته بنفض الغبار عن الآثار التي ظن البعض انها قد دفنت بينما هي فى الواقع ما تزال حية غنية لا تحتاج الا الى يد مخلصة وقلم شريف وقلب ملىء بحب الانسان .

1 ـ كتبت هذه الكلمة تصديرا لكتاب (رحلة محمد الكبير ، باي الغرب الجزائري) الذي ألفه أحمد بن هطال وحققه محمد بن عبد الكريم ، القاهرة ، 1969 .

عن كتاب (المغرب العربي : تاريخه وثقافته)

العناية بالتراث القومي هي احدى الخصائص البارزة لعهد ما بعد الاستقلال لدى شعوب العالم الثالث . فكل أمة استقلت حديثا جعلت همها محاولة اكتشاف نفسها من خلال تراثها الذي ساهمت فيه أجيالها الغابرة فى الحضارة الانسانية . وقد ساعد على هذا التيار من ناحية ان المستعمرين قد حاولوا جهدهم طمس ما أنتجته تلك الشعوب من آثار ومعالم ، ومن ناحية أخرى ان فى احياء التراث القومي تعميقا لأسس الوحدة بين عناصر الشعب المتساكنة ودفعا لقواه الانتاجية الحية .

ويقف أهل المغرب العربي من بين شعوب العالم الثالث التي ساهمت بغزارة فى التاريخ الانساني ، ولكن تطور الأحداث خلال القرنين الماضيين قد حال دون تعرف أبنائهم على حقيقة وقيمة تلك المساهمة . ورغم أن الجزائر ما زالت متأخرة فى العناية بالتراث القومي ، فان هناك بوادر طيبة تحملنا على الاعتقاد بأنها ، على الاقل ، تسير فى الاتجاه الصحيح . والبوادر ، ككل الافعال الرائدة ، قد تكون فجة ، أو حتى غير صحيحة ، ولكنها على أية حال علامة خصب وحيوية من الشعب الذي تصدر عنه ودليل جد وايمان من الفرد الذي يقوم بها .

والاستاذ رابح بونار قد أخذ البادرة وأقدم على عمل ضخم لا تقوم به عادة فى الشعوب المتقدمة سوى اللجان والمؤسسات . وكتابه « المغرب العربي : تاريخه وثقافته » سيصدر ، بناء على قوله ، فى عدة أجزاء

تتناول حياة هذه المنطقة من دخول الاسلام الى الوقت الحاضر . وهو يخص الجزائر فى كتابه بالقسط الوفير ، كما يدرس التيارات السياسية والاقتصادية والثقافية التي جعلت من المغرب العربي ما هو عبر العصور ، بالاضافة الى تراجم للاشخاص الذين تفاعلوا أو قادوا تلك التيارات مع نصوص مختلفة من انتاجهم . وقد حمله على هذا التأليف رغبة الوفاء بحق التراث الثقافي الجزائري الذي أغفله مؤرخو الحضارة ، وبالتالي بقاؤه مجهولا .

والتأريخ للثقافة لا يخلو من المزالق . فمهما اجتهد المؤلف فى توخي منهج معين ، فانه قد يجد نفسه ضحية عصر أو ظاهرة أو شخصية ، ولا سيما حين يتعلق ذلك بتاريخ ما زال غير مكتوب بطريقة علمية كتاريخ المغرب العربي . وقد غامر الاستاذ بونار فقسم الاربعة عشر قرنا الماضية الى فترات : النشوء الثقافي ، والنهضة الثقافية ، والازدهار الثقافي ، والنضج الثقافي ، ثم الانحطاط الثقافي . كما غـامر باعتبـار المثقف الجزائري هو كل من ولد أو عاش فى الجزائر وأثر فيها سواء أقام بها أو خرج منها . ولا نشك فى أن هذا التصميم . بالاضافة الى أسلوب التأليف واختيار النصوص ووضع المراجع ، سيكون محل مناقشة بين المهتمين بموضوع التطور الثقافي للمغرب العربي .

ولكنهم مهما تناقشوا فانهم سيجدون فى كتاب « المغرب العربي : تاريخه وثقافته » متعة قد لا تعادلها متعة أخرى . كما أن الجيل الطالع فى الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة سيجد فى هذا الكتاب قصة ماضيه الذي كان حلقة وصل بين الاندلس غربا وبغداد شرقا . وانه لا يسعنا

الا أن نتمنى للاستـــاذ رابـــح بونـــار كل التوفيق فى انهاء مشروعه الطموح • (1)

1 – كان المرحوم الاستاذ رابح بونار قد طلب مني أن أكتب له تصديرا لكتابه (المغرب العربي : تاريخه وثقافته) ، الجزائر ، 1968 . فكتبت اليه هذه الكلمة ، ودفعتها اليه ، ولكن الكتاب قد صدر بدونها . ولعل المرحوم بونار قد وجدها متحفظة من طريقة تأليفه فأهملها .

الدولة والمجتمع فى افريقية الشمالية *

بالرغم من الاساطير الشائعة فى أوروبا عن قراصنه افريقية الشمالية فان المغرب العربي قد دخل « عصور الظلام » منذ سقوط غرناطة عام 1492 . ويشهد تاريخ هذه المنطقة بأن شعبها كان يمكن أن يعيش فى سلام مثالي لو أنه ترك وحده ، وقد شارك المغــرب العــربي فى القرن العشرين بثلاثة أحداث عالمية : أولها أزمات المغرب (1905 — 1911) ، وثانيها نزول الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، وثالثها حرب استقلال الجزائر .

ونتيجة لذلك بقيت الدراسات المتعلقة بهذه المنطقة ضئيلة وسطحية مكونة فقط من بعض الفصول بل الحواشي لكتب مخصصة أساسا للاستعمار ، الاسلام ، افريقية ، انتاج النفط ، ونحو ذلك .

ولكن المغرب العربي قد قلب أخيرا صفحة ذلك الغموض الغريب ، فالبحث الحديث قد بدأ يلقي الضوء على الدور الذي قام به سكان هذه المنطقة فى كل من افريقية الغربية والوسطى خلال الخمسة قرون الماضية .

كما أن سياسة الجزائر العربية والافريقية قد أصبحت عاملا آخر فى الاهتمام المتزايد بشؤون المغرب العربي . ونتيجة لذلك أنشأت عدة مؤسسات أكاديمية برامج خاصة بالمغرب العربي ، كما ظهرت عنه بعض المجلات المتخصصة والمطبوعات العامة . وآخر هذه التطورات فى الاهتمام

* تحرير الدكتور ليون س . براون .

بالمغرب العربي ظهور كتاب « الدولة والمجتمع فى افريقية الشمـــالية المستقلة » الذي كان موضوع المؤتمر الثامن عشر لمعهد الشرق الاوسط ، الذي انعقد تحت اسم « افريقية الشمالية دولة ومجتمعا ، 1964 » . ذلك آن معظم الابحاث التي قدمت فى هذه الندوة قد حررت ونقحت وزيد عليها ثم ظهرت فى هذا الكتاب الذي هو أول جزء من سلسلة ينشرها المعهد المذكور على شرف رئيسه السابق جيمس ت . دوس .

وهدف هذا الكتاب هو سد الفراغ الذي تعانيه المكتبة ذات اللسان الانكليزي عن المغرب العربي ومحاولة فهم أوضاع ما بعد الاستقلال فى هذه المنطقة . ومحرر الكتاب نفسه يقول أن الغرض منه هو محاولة « طرح الاسئلة الصحيحة » و « وصف الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي وبحثه » من خلال تجربة جيل ما بعد الاستقلال فى المغرب العربي . ويبلغ عدد المؤلفين المساهمين فى هذا الكتاب ثلاثة عشر ، منهم المؤرخون وعلماء السياسة والاقتصاديون وعلماء الاجتمـــاع . ولكن أكثرهم من الامريكيين الذين اهتموا بشؤون المغـــرب العربـــي منـــذ الحرب العالمية الثانية ، يضاف اليهم فرنسيان ، وبريطاني ، وباكستاني . ومن بينهم خمسة على الاقل لهم صلة بجامعة هارفارد ، كما أن بعضهم قد نال سمعة واسعة من قبل فى الموضوع الذي تناوله .

ويغطي الكتاب موضوعات مختلفة يمكن تبويبها تحت أربعة عناوين : فمن الناحية السياسية يناقش العلاقات الخارجية ، والمنظمات الحزبية ، وموضوع الوحدة بين دول المغرب العربي . ومن الوجهة الثقافية يتناول مشكلة اللغة العربية أمام مزاحمة الفرنسية لها ، ورد فعل الاسلام لتحدي التجديد . ومن الزاوية الاجتماعية يتحدث عن مشاكل حياة المدينة ، وتطوير الريف ، وتأثيرات الاستعمـــار ، ووقع التطور الحديث . أما بخصوص الاقتصاد فيعالج التخطيط ، وانتاج النفط ، واتحادات العمال .

ولكي يعطى للكتاب طابع الوحدة الموضوعية طلب من المؤلفين أن يتناولوا دول المغرب العربي الاربع ، وأن يستعملوا طريقة الدراسة الداخلية من غير أن يضحوا « بمؤهلاتهم ومواهبهم ووجهات نظرهم الخاصة » .

ولكن من الممكن توجيه النقد الى « المجتمع والدولة » . أولا للقارىء أن يتساءل عن سبب حذف موريطانيا من اطار المغرب العربي . ثانيا أن القول بأن المغرب العربي « ما هو الا جزء منفصل من العالم العربي له مصالح منفصلة ، وآراء منفصلة » لا يخلو من مبالغة وتركيز على الخصوصية . ثالثا أن القارىء يتوقع أن يجد على الاقل فصلا عن الادب والفن فى هذا الكتاب . رابعا لعله من سوء الحظ أن لا يوجد مساهم واحد ضمن المؤلفين من المغرب العربي . خامسا ان نغمة الكتاب العامة تذكر الانسان بكتابات الفرنسيين العاطفين على قضايا المغرب العربي أمثال جوليان ، وبيرك .

ومع ذلك فان « الدوله والمجتمع » كتاب ضروري . فرغم أن معظم مصادره فرنسية فانها غنية ، منظمة ، وتعطي صورة واضحة عن جهود البحث العلمي . ومن جهة أخرى فان الكتاب يوضح ويحلل قدرات المغرب العربي على الصعيد الداخلي والخارجي . كما يناقش بتصور فائق دور النخبة التي تتولى الآن شؤون هذه المنطقة رغم كثرة المشاكل الداخلية وضغط الايديولوجيات العالمية . وهكذا يتضح بأن « الدولة والمجتمع » يسلط الضوء على المغرب العربي ؛ ويضطر قراء الانكليزية المهتمين بأحوال العالم الثالث أن يستعملوه كدليل هام . (1)

1 ــ كنت نشرت هذه الكلمة بالانكليزية فى (مجلة الدراسات الافريقية الحديثة) التي تصدر ببريطانيا (عدد 4 ، م 4 ، 1967) ثم ترجمتها الى العربية ونشرتها فى (المجاهد الثقافي) عدد 4 يناير 1968 .

فرنسا وبريطانيا واحتلال الجزائر : 1830 — 1848

كتبت هذه المراجعة للكتاب المذكور أدناه في شهر فبراير سنه 1963 كجزء من واجبات الاعداد للدكتوراه في مادة التاريخ الاروبي ، وقدمتها الى الدكتور ثيوفاني ج ستافرو ، أستاذ المادة بجامعة مينيسوتا . وقد رايت ترجمة النص من الانكليزية أملا في أن يؤدي ذلك الى اعادة القراء في التعرف على فترة دقيقة مرت بها الجزائر خاصة ومنطقة البحر الابيض المتوسط عامة .

* * *

كان السيد جيمس سوين يشغل منصب استاذ التاريخ الاروبي في معهد موليربيرغ عندما صدر كتابه (*) . والواقع ان كتابه هذا قائم على دراسة أخرى بعنوان « معارضة الاحتلال الفرنسي للجزائر ، 1830 — 1834 » التي كانت عنوان اطروحته للدكتوراه ، وموضوع الكتاب هو الصراع بين فرنسا وبريطانيا بخصوص النفوذ على البحر الابيض المتوسط اثناء الفترة المذكورة . وهكذا فان المؤلف لم يهتم بسياسة روسيا او تركيا او غيرهما من الدول الا اذا كان ذلك ضروريا .

* اسم الكتاب الكامل هو « الصراع من أجل السيطرة على البحر الابيض المتوسط قبل 1848 — دراسة في العلاقات الانغلو — فرنسية » بقلم جيمس ابدغار سوين J. Swain نشر شركة سترانفرد (أمريكا) 1933 .

وقد تنازعت فرنسا وبريطانيا حول المنطقة المذكورة ، ولاسيما مراكزها الهامة ، مثل جبل طارق ، وايطاليا ، وافريقية الشمالية ، وتركيا . وكانت هذه الاخيرة أكثر أهمية نظرا لسلطتها على مضايق الدردنيل . فبريطانيا كانت تريد بسط نفوذها على هذه المضايق لتأمين مستعمراتها في الشرق الاقصى . ولكن فرنسا كانت لاترى البحر الابيض المتوسط بنفس النظرة التي تراه بها بريطانيا ، فهي (فرنسا) تراه ميدانا لمغامراتها فقط . وقد اعتادت بريطانيا ان تضرب فرنسا بروسيا والعكس . ذلك ان روسيا كانت تعتبر مضايق الدردنيل مناطق حيوية لها وكانت مستعدة للتضحية للحصول عليها . وبناء على رأي المؤلف فان الحملة الفرنسية ضد الجزائر التي ابتدأت بحصار 1827 قد سجلت بداية سياسة فرنسا الاندفاعية في البحر الابيض التي لم تعرف منذ عهد نابوليون .

ان ثورة 1830 في فرنسا قد جاءت بالملك لويس فليب الى الحكم . وكان هذا الملك لا يريد تغيير سياسة فرنسا الخارجية . كما كان يريد ان يحافظ على السلام مع بريطانيا . وكاشارة لذلك عين الملك فيليب تاليراند سفيرا له الى بريطانيا لكي يحاول تحقيق تحالف معها . ولكن سفارة تاليراند قد واجهت بعض الصعوبات ، ولاسيما حين انفجرت الثورات في البلجيك وبولاندا . وكان ذلك في نفس الوقت الذي كان فيه حكام روسيا ، وبروسيا ، والنمسا مشتغلين بقمع الاتجاه الليبرالي .

وبين سنوات 1830 و 1834 حاولت فرنسا وبريطانيا ان تحل مشاكلهما سلميا في البحر الابيض المتوسط . ونظرا الى ان السلطان العثماني كان في حرب مع محمد علي والي مصر ، فانه قد طلب من بريطانيا ان تساعده . ولكن هذه فضلت عدم التدخل مباشرة لكي تتقي الصدام مع فرنسا التي كانت تساند محمد علي . اما قيصر (تزار) روسيا، نيقولا الاول ، فقد أرسل مبعوثه أورلوف الى السلطان

العثماني مع تعليمات مفادها ان خلاصه يتوقف على روسيا . وقد نجح اورلوف فى بعثته ، وبذلك ظهر الاسطول الروسي فى مضايق الدردنيل كما دخلت فرقة عسكرية روسية مدينة اسطنبول . ونتيجة لمعاهدة انكيار سكيلاسي (1834) بين روسيا والدولة العثمانية حصلت الاولى على حرية استعمال مضايق الدردنيل وعلى مكانة هامة فى العاصمة اسطنبول .

وهناك صعوبات اخرى بين فرنسا وبريطانيا جاءت نتيجة لثورتي اسبانيا والبرتغال . ولكن التحالف الرباعي (بريطانيا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا) تدخل (22 أبريل . 1834) وانهى الخلاف مؤقتا على الاقل . وقد كان تاليراند مقتنعا بأن معاهدة تفاهم مع بريطانيا كانت غير ممكنة. وعوضا عن ذلك التفت الى النمسا .

ويستطيع المرء ان يقول ان بريطانيا ،قبل 1834 كانت تضع مسألة الدولة العثمانية فى مكان ثانوي بالنسبة لمشكلة بلجيكا . ولكن فى هذه الاثناء كانت فرنسا وروسيا تسلكان سياسة نشيطة لبسط نفوذهما فى البحر الابيض المتوسط . لذلك كان بالميرستون الانكليزي مقتنعا بأنه يجب على بريطانيا ان تبقى على الدولة العثمانية حية وبدون تجزئة . كما أقنع بالميرستون محمد علي بأن الاستقلال الكامل غير ممكن .

وبعد ظهور تيير سنة 1836 على رأس السياسة الفرنسية ، حاولت بريطانيا ايضا ان تربح روسيا الى جانبها لان تيير كان فى صالح سياسة فرنسية حركية بأي ثمن . وكان قوميا مندفعا فى تأييد نفس السياسة التي اتبعها نابوليون فى افريقية الشمالية (ولاسيما فى الجزائر) وكان تيير يرى ان « روسيا وبريطانيا كانتا قوتين بارزتين فى شرق البحر الابيض ، ولكن غربه يجب ان يكون ميدانا للاستعمار الفرنسي » .

(ص 105) . وفي نفس الوقت اتهمت فرنسا بريطانيا بمد الامير عبد القادر الجزائري بالمساعدة . أما بريطانيا فقد كانت تخشى حكما فرنسيا دائما في افريقية الشمالية . لذلك اقلقها سقوط قسنطينة في ايدي الفرنسيين (1837) وجعلها تدعو السلطان العثماني الى التدخل ضد فرنسا في الجزائر .

والحق ان بريطانيا قد فشلت في برنامجها الذي كان يهدف الى انعاش الدولة العثمانية لان كلا من السلطان ومحمد علي كان مقتنعا ان احدى الدول الاروبية كانت الى جانبه ، ولكن هناك عاملين جعلا بريطانيا تغير سياستها في البحر الابيض المتوسط حوالي 1837 . الاول هو ان المصالح التجارية للشعب الانكليزي في البحر الابيض قد ادت الى انتقاد سياسة الحكومة في المنطقة . أما الثاني فهو انفصال محمد على عن السلطان العثماني . وهنا ظهر الخلاف في العلاقات الانغلو ـ فرنسية بوضوح . فبريطانيا كانت تريد حماية محمد على ضد السلطان ، بينما غيرت سياستها نحو الباب العالي . فقد كانت (روسيا) مقتنعة بأن فرنسا لم تكن جديرة بالثقة وكانت تعرف أنها تستطيع أن تتعامل وحدها مع الباب العالي .

أما فرنسا فقد حاولت أن تتوسط بين الباب العالي ومحمد علي . وكانت تريد أن يحصل الأخير على سورية ، وكريت ، ومصر ، ولكن جهودها كانت بلا جدوى لأن بريطانيا ، والنمسا ، وبروسيا قد أمضت في غياب رئيس الوزارة الفرنسية غيزو « اتفاقا لتهدئة الشرق الأدنى » في 15 جويلية ، 1840 ، وقد احتجت فرنسا الى الحكومة البريطانية على ذلك وعرضت اقتراحات أخرى لحل أزمة الشرق الأدنى ، ونظرا لأن محمد علي لم يوافق على الاتفاق المذكور . فانه قد وجد نفسه يواجه أسطول الحلفاء كما أمر السلطان العثماني بخلعه .

ولكن تغيير الوزارة الفرنسية تحت غيزو قد أدى الى درجة من التفاهم بين بريطانيا وفرنسا . فقد دعيت فرنسا لحضور الحل الأخير للأزمــة بين السلطان ومحمد على . غير أن أمل روسيا قد خاب . فقد حاول قيصرها أن يقنع السفير البريطاني فى اسطانبول بأهمية خطته ، التي تضمنت الاقتراح بالتعاون الوثيق بين بلاده وبريطانيا ضد فرنسا لمنع هذه الأخيرة من تنشيط الحركات الثورية . وحين سمــع بالميرستون بهذه الخطة لم يغير رأيه فقد كان يريد أن تدخل فرنسا فى الاتفــاق الرباعي . « وكان غير متحمس أن يرى روسيا تبسط نفوذها فى الدولة العثمانية بنفس الدرجة التي كان يرى بها فرنسا » .

وقد بعث غيزو خطة من خمس نقط الى سفيره فى لندن :

1 ــ فتح مضايق الدردنيل والبوسفور .

2 ــ تأمين وتأكيد الحالة الراهنة فى الدولة العثمانية .

3 ــ حماية الأقليات المسيحية فى الدولة المذكورة .

4 ــ تحديد وضع خاص لمدينة القدس .

5 ــ ابقاء الطرق التجارية مفتوحة .

وهكذا أمضى « اتفاق المضايق » 16 جويلية ، 1841 ،وكان يتناول حل المشكلة العثمانية ــ المصرية واعادة التفاهم بين فرنســا والجوقة الأروبية . وكان هذا الاتفاق يعتبر انتصارا لبريطانيا ، لذلك شعرت فرنسا أنها طعنت فى سمعتها به . ولكي تعوض فرنسا خسارتها فى شرق البحر الأبيض المتوسط نتيجة لذلك الاتفاق استمرت وزادت من قوتها ونفوذها فى الجزائر ، كما وسعت نفوذها ليشمل تونس والمغرب حتى تقلق النفوذ البريطاني هناك .

ان بريطانيا كانت حريصة على الحالة الراهنة فى الدولة العثمانية . فعندما أرسل السلطان أسطوله ضد تونس سألت بريطانيا فرنسا أن تشترك معها فى الاحتجاج ضد موقف السلطان . كما أنذرت السلطان بخصوص التدخل لدى الامير عبد القادر فى الجزائر ضد فرنسا . وكان هدف السياسة البريطانية هو منع اعطاء فرنسا أي عذر لتوسيع تدخلاتها . أما روسيا فقد اغتنمت فرصة التوتر بين فرنسا وبريطانيا وعرضت على الأخيرة أن تدخل معها فى تحالف ضد فرنسا . ولكن بريطانيا فضلت مرة أخرى أن تستمر فى السير وسط الطريق .

وقد استمر التنافس بين بريطانيا وفرنسا حول اليونان ، وايطاليا ، وأسبانيا ، ومصر . مثلا ، لقد كانت بريطانيا غاضبة من فرنسا لانشائها مدرسة فرنسية فى أثينا . كما أرسلت عملاءها الى ايطاليا لبث الدعاية ضد فرنسا هناك . ومن جهة أخرى وجهت اهتماما جديدا الى خطوط مواصلاتها بين الهند والبحر الأبيض . وقد ظهرت من جديد خلال هذه الاثناء فكرة حفر قناة فى المنطقة . غير أن ثورة 1848 قد أدت الى وقف تقدم بريطانيا فى الشرق الأدنى . وقد كان بالميرستون هو سيد الديبلوماسية خلال هذه الأثناء . فقد أبقى كلا من فرنسا ، وروسيا ، والسلطان ، ومحمد علي تحت أصبعه . وقد نجح فى جميع ذلك ، ما عدا قضية الجزائر التي كان الفرنسيون قد احتلوها قبل أن يأتي هو الى الحكم . ومما ساعده على نجاح سياسته فى البحر الأبيض النظام السياسي فى كل من فرنسا وبريطانيا خلال ذلك العهد .

ان الكتاب ، كما أشرت ، كان قد وسع حتى يشمل كل مظاهر العلاقات الفرنسية البريطانية فى منطقة البحر الأبيض خلال النصف الأول من القرن 19 . ورغم أنه لا يتضمن النشاطات الدبلوماسية لروسيا ، وأنه لا يعطي بالتفصيل النزاعات البريطانية ـ الفرنسية

بخصوص الأزمة المصرية ، فانه ما يزال مصدرا معتمدا فى ميدانه ، وهو ، بالاضافة الى ذلك يحتوى على بيبلوغرافية جيدة كما كتب بلغة جذابة ، لذلك فهو كتاب جدير بالقراءة (1) .

1 ـ منشورة فى مجلة (الجيش) عدد 52 ، يوليو (جويلية) 1968 .

الفهـــارس

ـ قسمنا الفهارس الى :

1 ـ فهرس الاشخاص .

2 ـ فهرس الأماكن .

ـ نظرا لكثرة ورود الأسماء الآتية فقد حذفناها من الفهرس وهي :
الجزائر ـ المغرب العربي ـ شمال افريقية ـ المشرق ـ الدولة العثمانية ـ افريقية ـ فرنسا ـ أروبا .

ـ لم نراع في الفهرس (ابن) و (أبو) .

ـ الأرقام داخل القوسين (   ) تعني استمرار الحديث عن نفس الاسم .

ا ـ فهرس الأشخاص

ـ ا ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

- ح -

– خ –

– د –

— ذ —

— ر —

– ز –

– س –

ـ ش ـ

– ص –

– ط –

– ع –

– غ –

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

– م –

— و —

— ي —

ب ــ فهرس الأماكــن

ــ ا ــ

– ب –

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

- ح -

- خ -

— ل —

— م —

– ي –

محتـــوى الـــكتـــاب